

جنكيز خان

الحياة والموت والانبعاث

تأليف: جون مان

ترجمـه : حسن عبد العزيز عويضة

جنكيز خان

الحياة والموت والانبعاث

تأليف

جون مان

ترجمة

حسن عبد العزيز عويضة



© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS22 .M2512 2013

Man, John, 1941-

جنكيز خان: الحياة والموت والانبعاث / تأليف جون مان ؛ ترجمة حسن عبد العزيز عويضة.- ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.

ص. ؛ سم.

ترجمة كتاب: Genghis Khan: life, death, and resurrection.

تدمك: 0 - 239 - 17 - 9948 - 978

1. Genghis Khan, 1162-1227 2. المغول -- تاريخ. 3. المغول -- الملوك والحكام -- تراجم. أ. عويضة، حسن عبد العزيز. ب.العنوان.





الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabi.ae

www.tcaabudhabi.ae

جنكيز خان

شكر وتقدير

أود أن أشكر التالية أسماؤهم لمساعدتهم وتوجيههم.

شكراً للجميع، بمن فيهم الأستاذ الفخري، تشارلز باودين الأستاذ السابق للغة المنغولية في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن، الذي زرع الفكرة بداخلي، وكذلك للأستاذ بايارمانداخ جوانت، أستاذ اللغة المنغولية في وحدة دراسات منغوليا وآسيا الداخلية في جامعة كامبردج، الذي احتضن الفكرة، والأستاذ إيغور دي راتشيويلز، من كلية الدراسات الآسيوية والمحيط الهادئ، في الجامعة الوطنية الأسترالية، وخاصة لمشاركته إياي تجربته في جبل بورخان كالدون في لحظة حاسمة. كما أن الشكر موصول للأستاذ كريس تايلور سميث، من قسم الكيمياء الحيوية، في جامعة أكسفورد، لمساعدته في فهم إرث جنكيز الوراثي.

أما فيما يخص الصين وما يجاورها، فالشكر موصول للسيد، سينجيرجال، رئيس دائرة البحوث السابق في ضريح جنكيز خان، ولعالم اللاهوت في ضريح جنكيز خان السيد، شارالدي، وكذلك للسائقين شياو وتشوج. كما أشكر الدكتور لارس لامان، من قسم التاريخ في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن، لمساعدته إياي هو وشارالدي (انظر قائمة المراجع) وكذلك لمترجمه جوك هون وليامز. كما أشكر الدكتورة مويرا ليدلو، من كلية المعلمين، قويوان، نينغشيا. كما أشكر، جورجيت وناسانبيار، اللذين لا يمكن مقارنتهما بأي شخص آخر، واللذين قدمونا لكل من معهد اللغة المنغولية وكلية الدراسات المنغولية وجامعة منغوليا الداخلية في مدينة هوهيهوت. كما أشكر شقيق زوجة جورجيت «باتور» في مدينة زامين يد، والشكر موصول لروث دنيل، الأستاذ المشارك في التاريخ الآسيوي ومديرة الدراسات الدولية في كلية كينيون، غامبير، أوهايو، لمشاركتها إياي خبرتها في شي شيا، وأشكر ناتشوج، مدير معهد دراسات جنكيز خان، إديسن خورو (ضريح جنكيز خان) وكذلك دو جيان لو، من معهد شي شيا، جامعة نينغيشيا، إضافة إلى مدير متحف قيوان، تشين كون، ونائبه يان شي، وكذلك مدير معهد نينغشيا للآثار، لو فينج، وكذلك غريس (شاو شو) هوهيهوت.

وفي منغوليا وما يجاورها، أود أن أشكر المؤرخ دالاي من أولان باتور، وغراهام تايلو، بعثات كاراكوروم، أولان باتور، وإردن باتور من معهد تربية الحيوانات بأولان باتور، وكذلك الأستاذ تسوجيت أوتشير يشدورج، رئيس قسم تدوين التاريخ، معهد التاريخ، الأكاديمية المغولية للعلوم. كما أشكر رئيس جامعة المعارف المغولية، لوفساندامبا دانشنيام، كما أشكر المؤرخ والعالم اللغوي، باتامداش، وجون وودز، أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة شيكاغو، والشكر موصل لمرشدي المغول، غويوتستسيج رادنابازار (غويو) وتومين، وكذلك للسائقين كيشغ وإردن باتور، كما أشكر أيضاً باتورتسوجت، المدير السابق لمتحف خنتي، أوندورخان؛ كما أشكر غانسوخ من شركة زافيا للسياحة لنصيحته بشأن بورخان كالدون، وكذلك أوين سانجاجرن، عضو مجلس الشعب الأعلى ورئيس الحزب الجمهوري لإرادة المدنيين، ورئيس مؤسسة زوريج.

وفيما يتعلق بآسيا الوسطى وأوروبا وما يجاورهما، أشكر ديفيد مورغان، أستاذ التاريخ بجامعة ويسكونسن ماديسون، كما أشكر مديرة مشروع مرو الدولي، جورجينا هيرمان، من معهد علم الآثار بجامعة كلية لندن، وأخيراً أشكر أندي زيجيدي لمرافقتي إلى مدينة محي.

الجزء الأكبر من الاقتباسات من كتاب التاريخ السرّي تم اقتباسها بشكل مباشر أو تعديلها من كتاب أونون مع الرجوع أحياناً إلى كتاب كليفز، وما كان لهذا الكتاب أن يظهر لحيز الوجود دون الدعم غير المحدود الذي قدمه دوغ يونغ وفريقه العامل في شركة ترانسورلد: سايمون ثروجوود وغليان سوميرسكاليس وشيلا لي وفيونا أندرينيلي وكذلك هاردلاينز، وأخيراً أوجه شكري العميق إلى فيليستي بريان لمساعدتها على إنجاز هذا الكتاب؛ ولا يسعني إلا أن أشكر زوجتي تيمبرلاك، وذلك لدعمها وتشجيعها لي.

توطئة

نجح جون مان في رسم صورة مفصلة جداً لحياة رجل - بالرغم من أهميته - إلا إنه بقي شخصية غامضة ومحل جدل على مر العصور والأزمان، فبالرغم من قلة المصادر المتعلقة بزعيم من القرن الثالث عشر، إلا إن الكاتب يورد رواية آسرة وشائقة لحياة جنكيز منذ ميلاده وحتى وفاته وإلى ما بعد ذلك، إذ يصحبنا في رحلة للبحث عن جنكيزخان عبر سهوب وصحارى آسيا الوسطى والصين وجبالهما. كما غاص الكاتب في أعماق شخصية هذا القائد، الذي اقترن اسمهُ دوماً بالموت والدمار، ليسلط الضوء على شخصية جنكيزخان الإنسان المحب لأمّته والذي استطاع النهوض بها من القبلية إلى الإمبراطورية، كما يعرج الكاتب على العبقرية العسكرية والذكاء السياسي والولاء والشجاعة في حياة هذا القائد «فاتح العالم» ويتجلى ذلك من خلال الأثر والإرث الكبير الذي تركه هذا القائد لأبناء أمته بعد وفاته، لدرجة أنه لم يزل حياً في الذاكرة الشعبية بعد مرور ثلاثة عشر قرناً من الزمن.

ولا يعد هذا الكتاب سيرة ذاتية محضة، إذ يخلط الكاتب تاريخ جنكيزخان برحلاته واكتشافاته في منغوليا، ويسعى الكاتب للكشف عن حقيقة مسقط رأس جنكيزخان وموقع دفنه وتراثه الروحي الذي لا يزال قائماً حتى الآن بالرغم من الغموض والسرية التي اكتنفت هذا الموضوع. كما يحاول الكاتب الجمع والموازنة بين الحقيقة والخيال وبين الواقع والأسطورة بطريقة رائعة، ويعكس هذا الكتاب مدى المشقة والجهد الذي بذله الكاتب لإخراج هذا الكتاب بصورة شائقة تلمس كبد الحقيقة إلى حد كبير، إذ كانت مهمة الكاتب هي البحث عن المصادر الأصلية وليس مجرد البحث في المصادر المتوافرة وذلك لندرة المصادر المتعلقة بهذا الموضوع، فكتاب «التاريخ السرّي للمغول» الذي يعد من المصادر الأولية في هذا الموضوع يحتاج إلى فهم وتحليل كبيرين.

كما أضفى الكاتب بُعداً آخر من المتعة والتشويق من خلال الصور التي التقطها بنفسه للأماكن التي زارها خلال رحلته في منغوليا والصين.

إن هذا الكتاب فيه من عناصر التحدي والتشويق ما يكفي لدفع القارئ للغوص في أعماقه واستكشافه بمتعة بالغة.

المترجم

مقدمة

حول الموت وكيفية البقاء حيّاً بعده

في مارس 2003 ظهرت مقالة غير عادية في المجلة الأمريكية لعلم الوراثة البشرية، إذ درست مجموعة مكونة من ثلاثة وعشرين عالماً من علماء الوراثة الحمض النووي لزهاء ألفي رجل عبر «أوراسيا»، ولشدة دهشتهم، وجدوا نمطاً مشتركاً لعدة عشرات من رجال، بغض النظر عن المكان الذي جاؤوا منه. كما جرى فحص سريع للنمط الجيني نفسه، مع بعض الاختلافات المحلية الطفيفة، على ست عشرة مجموعة سكانية انتشرت في أرجاء المنطقة، من بحر قزوين وحتى المحيط الهادي، فإذا كانت نسبة الرجال مع هذا النمط (8 ٪ من المجموعات الست عشرة) هي استقراء لكامل سكان تلك المنطقة، فإن النتيجة المذهلة هي أن ستة عشر مليون رجل في الواقع هم جزء من عائلة واحدة واسعة.

كيف لنا أن نفسر ذلك؟ لقد جاءت البيانات من خلال دراسة الكروموزمات y التي يمتلكها الرجال من دون النساء، إذ إن لكل رجل نمطاً من الكروموزمات y التي تمثل بصمته الخاصة به، لكن هناك أوجه شبه بين تلك البصمات التي تسمح لعلماء الوراثة بتحديد العلاقات الأسرية وتمثيلها في أشجار عائلية تسمى «عناقيد النجوم **star - clusters**» (لأنها ترسم على شكل نجمي لا على شكل أشجار) وكانت الخطوة الأولى تتمثل في تحليل عناقيد النجوم، وتتبعها من مكانها الأصلي من خلال الزمان والمكان، محددين بدقة «سلفهم المشترك الأكثر حداثة»، وبالعمل مع ثلاثة وأربعين جيلاً، وبتخصيص ثلاثين عاماً لكل جيل، يكون الفريق قد ميز السلف المشترك بزهاء ألف سنة خلت، وهذا رقم متوسط مع هامش خطأ يصل إلى ثلاثمئة عام من الجانبين (بالنسبة إلي فإن تخصيص ثلاثين عاماً لكل جيل يبدو عالياً بعض الشيء، فلنخفضه، على سبيل المثال، إلى خمسة وعشرين عاماً، ونخفض تاريخ السلف المشترك ليصل إلى ثمانمئة وخمسين عاماً خلت)، وفضلاً عن ذلك، فإن معظم الاختلافات المحلية المختلفة قليلاً قد مُثلت فقط في إحدى المناطق المختارة وهي منغوليا.

وأوحى هذا بفرضية مذهلة: إن رجلاً واحداً عاش في منغوليا في القرن الثاني عشر قد

بعثر مادته الوراثية عبر نصف «أوراسيا» وبتلك النتيجة أصبحت مادته الوراثية الآن مشتركة مع رجل واحد من كل مئتي رجل يعيشون اليوم.

لنستمع إلى «كريس تايلور سميث» من قسم الكيمياء الحيوية من جامعة أكسفورد لما حدث بعد ذلك: «عرفنا أنّ هناك شيئاً غير عادي في البيانات بمجرد أن حصل طالب الدكتوراه تاتيانا زيرجال الذي أجرى التحاليل على أول شبكة بيانات. لقد برز العنقود النجمي بشكل واضح بسبب التكرار المرتفع، وللأعداد الكبيرة من الجيران، والتوزيع في الكثير من قطاعات السكان، فنحن لم نرَ هذا الشيء من قبل، ويمكنك القول للوهلة الأولى إنها تمثل عائلة واحدة ممتدة.

وعلى الفور قال تاتيانا: هذه عائلة جنكيز خان!

في البداية بدا الأمر مزحة، لكن عندما جمّعنا بيانات أكثر وأجرينا الحسابات لتحديد أصل الزمان والمكان الأكثر احتمالاً، تحول هذا الأمر ليصبح أفضل تفسير».

لقد جاء البرهان عندما وضع الباحثون المجموعات الست عشرة المختارة على خريطة الإمبراطورية التي أنشأها جنكيز في أوائل القرن الثالث عشر، فتطابق الاثنان بشكل تام، وفي الحقيقة، جاءت مجموعة واحدة فقط وهي مجموعة «الهزارة Hazaras» من أفغانستان، خارج الحدود لكن ذلك بدا ملائماً أيضاً، لأن جنكيز كان في أفغانستان لمدة عام أو نحو ذلك، من عام 1223 – 1224، قبل أن يتراجع ويعود أدراجه إلى آسيا الوسطى.

ومن المقبول أن يكون السلف المشترك لهؤلاء الستة عشر مليون ذكر أحد أجداد جنكيز المباشرين، وربما أن أشقاءه اشتركوا معه في النمط نفسه. على أية حال، لقد بدا ذلك وكأن جنكيز هو من كان مسؤولاً عن نشر هذه البصمة الوراثية عبر شمال الصين وآسيا الوسطى ما بين الأعوام 1209 وحتى موته في عام 1227. لقد كانت النساء الجميلات جزءاً لا يتجزأ من غنيمة الحرب، وكانت المطالبة بأفضل مجموعة من هؤلاء النساء، وتقديمهن من الضباط الثانويين تعدُّ بمنزلة تعبير عن القيادة، وكان جنكيز شديد التمسك بتطبيق ذلك الأمر بشكل صحيح، وذلك ليس فقط من أجل تأكيد سلطته، لكن أيضاً لعرض كرمه، وذلك لأن الفتيات، يمكن أن يُقدمن كهدايا لقادته المخلصين، فلم يكن جنكيز خليعاً، لكنّه بكل تأكيد

لم يكن زاهداً أيضاً، إذ سمح بوصول الكثير من مئات الفتيات في فترة بناء الإمبراطورية التي استغرقت أربعين عاماً. دعنا نقول بتحفظ أن له عشرين طفلاً - على الرغم أنه يمكن أن يكون له المئات - عشرة منهم من الصبيان، وجميعهم ورث النمط نفسه من الكروموزمات Y، ولو قلنا إن كل ابن أنجب لنفسه طفلين، فإن نتائج مضاعفة أحفاد جنكيز الذكور في كل جيل على مدار أكثر من ثلاثين جيلاً يُعد أمراً مثيراً جداً لدرجة أن العمليات الحسابية تهرب من العالم الحقيقي قبل أن تصل إلى نتيجة. بعد خمسة أجيال - وذلك بحلول عام 1350 تقريباً - كان لديه ثلاثمئة وعشرون من الأحفاد الذكور العاديين؛ لكن بعد خمسة أجيال لاحقة، ما بين أعوام 1450 - 1500، أصبح لدية عشرة آلاف حفيد؛ وبعد عشرين جيلاً أصبح لديه عشرةُ ملايين حفيد، وبعد ثلاثين جيلاً، من المستحيل أن يصل العدد إلى بلايين.

إن ولادة ستة عشر مليون حفيد اليوم، يُعدُّ أمراً جيّداً ضمن حدود الحقيقة، ويبدو ذلك الأمر كأن قدرة أجدادنا الإنتاجية كانت رائعة في تحقيق ذلك، ويميل ذلك إلى الإسهام في الصفات المذهلة «للطفرة» التي أنتجت رجلاً وصل إلى مثل هذه القوة، وربما نفترض وجود جين وراثي شديد القسوة أو أداء فوق الممتاز، وفي الحقيقة أن الجينات الوراثية الخاصة التي درستها هذه المجموعة من الباحثين تعدّ محايدة، فكل ما يفعلونه هو تحديد الجنس، لذا لا بدّ أن هناك عاملًا آخر في العمل ليؤكد بقاء سلسلة نسب جنكيز، وكما وضح «كريس تايلور سميث» والمؤلفون المساعدون، أن هذا العامل يمكن أن يكون مجرد قوة سياسية مع امتداد جغرافي واسع. لقد فعلت السلطة لجنكيز وأقربائه المقربين ما فعله الذيل المروحي بالطاووس، ويختم البحث: «تُبين نتائجنا شكلاً مبتكراً من الاختيار في قطاعات السكان البشرية على أساس المكانة الاجتماعية» إذ عرف علماء الاجتماع ومحررو الأعمدة ناقلو الأقاويل عن النجاح الجنسي «للذكور الأكثر قوةً alpha males» لكن هذه هي المرة الأولى التي يُرى فيها هذا النجاح الجنسي على أرض الواقع بمفاهيم تطورية. لقد كان جنكيز الذكر الأكثر قوةً من بين جميع الذكور الأقوياء.

فمن السائد هذه الأيام البحث عن تفسير وراثي للسلوك، ومع ذلك، فإن السلوك المقصود هنا هو السلوك الذي يكمن خلف علم الوراثة، ويعود هذا برمته إلى شخصية مؤلفة من عبقرية الاستراتيجيّة وقيادة ومهارات قيادية وصلابة والعديد من المميزات الأخرى ظهرت

على المروج المنغولية قبل ثمانية قرون ونصف خلت.

يعد هذا الكتاب محاولة لإدراك طموح تصورته على مدار ثلاثة عقود خلت، عندما أردت السفر إلى مكان حقاً بعيد جداً جداً، وبدت منغوليا مكاناً بعيداً تماماً مثلما تمنيت، وللإعداد للرحلة، شرعت في تعلم اللغة المنغولية، وقرأت شيئاً عما كتب عن جنكيز خان منذ مرحلة الشباب ومروراً بمنتصف العمر، وعندئذ فقط بدأت الرحلات، في محاولة لفهم تأثير جنكيز في عالمه، وعالمنا.

اتضحت بعض من هذه التأثيرات في وقتٍ لاحق، إذ دُفع جنكيز بسبب الفقر والإذلال (كما نحن نقول)، أو بأوامر إلهية (كما يدعي هو) - إلى حياة الغزو، ليصبح مؤسساً لإمبراطورية هي الأكثر اتساعاً من حيث المساحة في العالم، وليصبح أيضاً رجلاً خالداً، مخلداً ليس فقط في جينات أحفاده لكن أيضاً في عالم كان قد تغير كليةً بهجوم مقاتليه البدو، لذا تضمَّن المسعى رحلات من نوعين: العودة بالزمن إلى الوراء، بمساعدة ما أمكن العثور عليه من الكتب؛ وعبر آسيا الوسطى، بدءاً من الجبال التي أمضى فيها جنكيز شبابه، إلى مسارح الأحداث التي وقعت فيها كثير من غزواته، إلى الوادي الخفي الذي ربما يكون قد مات فيه، وأخيراً إلى الجبل المقدس الذي اعتبره مصدر إلهامه المقدس حيث، من المرجح، أنه يرقد في قبر سري، لكنّه لا يرقد بسلام، إذ جمعت إمبراطوريته منغوليا والصين معاً، بنتائج اجتماعية وسياسية مروعة أدت إلى اندلاع النزاع طوال القرون الماضية، ولازال النزاع حتى اليوم، ففي كل مكان يسافر إليه المغول، يلازمهم فيه طيف جنكيز.

في شهر ديسمبر من عام 1995 أعلنت صحيفة واشنطن بوست بأن جنكيز «هو الرجل الأكثر أهمية في السنوات الألف الأخيرة». لكن لماذا؟ لأن «القصة الكبرى للألفية الماضية هي أن جنساً واحداً مارس إرادته بالكامل على الأرض»، وبالعودة إلى عام ألف ميلادية، كان هناك أقل من ثلاثمئة مليون شخص في العالم أجمع (بعض التقديرات تدعي أنهم أقل بقليل من خمسين مليوناً) ومعظمهم لم يكن يعرف أين هم بالنسبة للأمم والقارات الأخرى، فلم يكن يعرف أي شعب «أوراسيوي» باستثناء بعض العشرات من «الفايكنكز»، شيئاً عن أمريكيا، ولم يسافر أحد من نصف الكرة الشمالية، ماعدا ربما بعض «الفينيقيين Phoenicians» شديدي التحمل إلى جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا. أمّا «البولينيزيون Polynesians»،

الذين سكنوا المحيط الهادئ، فلم يعرفوا شيئاً عن أستراليا، وبالرغم من أن الآسيويين تاجروا مع بقايا الإمبراطورية الرومانية الشرقية، إلا إنهم لم يعرفوا شيئاً عن أوروبا بشكل عملي، وعموماً، لقد عاشت كل ثقافة مقيّدة بالطقس والحدود الجغرافية والجهل.

أمّا الآن فقد أصبح العالم قرية صغيرة. كيف حدث ذلك؟ لقد لعبت التكنولوجيا والاقتصاد والمرض والكثير من العوامل غير الشخصية الواسعة الأخرى أدوارهم، وكذلك فعلت أعداد لا تعد ولا تحصى من الأفراد، إذ دفع بعض القادة والمخترعين والمستكشفين والمفكرين والفنانين الشعوب والتقنيات معاً بقوة أكثر من غيرهم، وهذا ما فعله بالتأكيد «السيد خان» كما أشار إليه باحث صحيفة واشنطن بوست.

لقد صاغت غزوات جنكيز روابط جديدة بين الشرق والغرب، إذ بنى هو و ورثته أو أعادوا بناء أسس الصين الحديثة، وروسيا وإيران وأفغانستان وتركيا وسوريا والتبت والبلدان الجديدة في آسيا الوسطى وأوكرانيا والمجر «هنغاريا سابقاً» وبولندا، وأعادت الغزوات ترتيب أديان العالم الرئيسة، وأثّرت في الفن، وأسّست أنماطاً جديدة من التجارة، وبقيت التأثيرات كحجارة أساس في التاريخ الأوراسيوي.

لكن ما التأثيرات التي صنعها في التاريخ العالمي؟ بالتأكيد أن كل هذا لا يُقارن بالثورة التي بدأت بالقفزة العظمى نحو تشكيل قريتنا العالمية - الاكتشاف الأوروبي لأمريكا (أو بالأحرى إعادة اكتشافها، الصلة التي أوجدها «الفايكنكز Vikings» في العام ألف ميلادية بعد أن اختفت من الذاكرة)، فإذا قُدر للإنسان أن يختار رجلاً للألفية، ألا يستحق «كولومبس» أن ينال الأسبقية على جنكيز؟

باختصار: لا؛ لقد كان كولومبس أكثر تعبيراً عن عصره من جنكيز. لكن لو لم يكن قد فتح العالم الجديد، لقام شخص آخر بذلك، وذلك لأن الكثيرين بالإضافة إلى كولومبس سِبقوا نحو الاستكشاف، وحُملوا هم ومساعدوهم على الوصول إلى الصين. لكن لماذا الصين بالذات؟ لأن ثروتها، التي حُملت على طول ما يسمى بطريق الحرير، تتردد في الأساطير منذ العصور الرومانية وحتى بزوغ الإسلام في القرن السابع المحدود تجارياً، ولأن «ماركو بولو» أكد في رحلاته إلى هناك قبل رحلة كولومبس بقرنين من الزمان، بأنها أعظم مصدر للثروة

في العالم، تحت قيادة الخان الأعظم، قوبلاي (أو قوبلا Kubla كما هو معروف في العالم الناطق باللغة الإنجليزية). لقد نجح السيد «بولو» في الوصول إلى الصين لأنه بحلول القرن الثالث عشر كانت الطريق عبر أوراسيا مفتوحة مرة أخرى، لقد كانت مفتوحة لأن المغول كانوا يحكمون من أوروبا الشرقية وحتى الصين في ذلك الوقت، وعلى رأسهم قوبلاي، الذي حكم لأنه ورث دوره الإمبراطوري عن جده جنكيز.

وعندما تمزّقت الإمبراطورية المغولية، مُنع الأوروبيون ثانية من القيام برحلاتهم إلى الصين برّاً، لأن الطريق أُغلقت من قبل الثقافات الإسلامية المنتعشة حديثاً، وبالطبع، تدفقت التجارة على طول الطرق البحرية؛ لكن تلك الرحلة كانت مستحيلة عملياً للأوروبيين، لأن الطرق كانت تحت سيطرة العرب والهنود والأسيويين الجنوبيين الشرقيين والصينيين أنفسهم، ومن هنا جاءت فكرة كولومبس العظيمة بأن ينطلق حول العالم في الاتجاه الآخر، غرباً، عبر المحيط غير المعروف، واختصار الطريق نحو الصين، وصادف أن وجدَ أمريكا في الطريق، وبالتالي، وبسبب وقوع سلسلة تأثيرات متزامنة دامت تقريباً لمدة ثلاثة قرون، خلقت رؤية جنكيز للإمبراطورية إسهامًا حاسمًا في إعادة اكتشاف واستعمار العالم الجديد.

لكن جميعها لم يحقق أية نتيجة تقريباً، ففي أغسطس من عام 1227 كان جنكيز قد سيطر فعلاً على معظم آسيا الوسطى، وكان على وشك أن يحصل على جائزته الكبرى، شمال الصين، التي ستكون المفتاح لأوسع غزو في التاريخ، لولا أنه مات، وربما منحت الأخبار تشجيعاً لأعداء المغول، وجلبت نهاية سريعة لحلم جنكيز الإمبراطوري، وللحظة، أصبحت أوراسيا، غير المدركة تماماً لما حدث، متوازنة بين عَالمين محتملين، وعندما حدث ذلك، بقي الموت في طي الكتمان، كما تمنى جنكيز، وبرزت واحدة من تلك الاحتمالات إلى حيز الوجود. حيث ميز شهر أغسطس من عام 1227 واحدة من أعظم نقاط التحول التي بالكاد كانت معروفة في التاريخ.

وتعد السرية أحد الموضوعات الهامة في هذا الكتاب، ولازال هناك سران عظيمان يشكلان جزءاً أساسياً من مكانة جنكيز الحالية: كيف وأين مات؛ وكيف وأين دُفن. لقد منح السر الأول لورثته الوقت ليكيفوا أنفسهم مع موته، والوقت لإنجاز أحلامه في الغزو، ويفسّر السر الثاني إلى حدٍّ بعيد بقاءه حيّاً في قلوب الناس العاديين وعقولهم اليوم.

لقد هاجمت الإمبراطورية، التي وصلت إلى مكانتها العالية من خلال ورثة جنكيز، كيانات منفصلة - الصينيين وسكان آسيا الوسطى والفُرس والروس - وانطلقوا بعيداً في عملية متدرجة من التحول والتشتت، ولكي تبحث تأثيرات الإمبراطورية المغولية اليوم عليك أن تصبح المكافئ التاريخي لعالم الفلك الإشعاعي، المستمع لهمسات الانفجار الكبير، وقد سُمعت واحدة فقط من تلك الهمسات وعُظم من شأنها بواسطة كرس تايلر سميث وشركائه الاثنين والعشرين، وهناك آخرون كثيرون في المناطق البعيدة لما كان يُعرف في يوم ما بالامبراطورية المغولية.

لكن في قلب وطنه، يتردد اسم جنكيز عالياً وواضحاً؛ حيث نُسيت وحشيته أو تم تجاهلها في ذروة التملق، ففي منغوليا، وبعد سبعين عاماً من الاضطهاد السوفيتي الحادث، أصبح الناس أحراراً في استعراض صورته، وتكريم ميلاده وتسمية جميع الأشياء باسمه - فرق موسيقى البوب ومشروبات البيرة والفرق الرياضية والمؤسسات، وفي الصين، أصبح هو المؤسس المحترم «لسلالة اليوان».

وفي كلتا الأمتين؛ أصبح المغول يعبدونه بأعداد متزايدة، وذلك لأن جنكيز أصبح مقدساً، أصبح الشخصية الرئيسة في طائفة قديمة تعرض الآن إشارات غير عادية لتطوير دين جديد، ويكمن قلب هذا الدين الجديد في الإقليم الصيني لوسط منغوليا، في بناية رائعة عُرفت للصينيين باسم «ضريح جنكيز خان»، وسُميت بدقة أكثر «بحظيرة الرب Lord's Enclosure» وهو الاسم الذي منحه إياه المغول، لأنه لم يكن ضريحاً حقيقياً، ولم يحتوِ أبداً على جثة، وهنا، شُرفت روح جنكيز باعتباره سلفاً أعلى ومؤسساً للسلالة الحاكمة واللاهوت بمجموعة من الطقوس البوذية والشامانية، وأصبح تمثال جنكيز البالغ ارتفاعه أربعة أمتار المصنوع من الرخام، جالساً ويداه فوق ركبتيه، نقطة مركزية للطقوس الكبيرة، حيث يحرق المصلون أعواد البخور ويتلون الصلوات على «الآثار المقدسة» وصورت الجداريات جنكيز كالعبقري الذي بنى جسراً بين الشرق والغرب، الذي تدفق عبره العلماء والتجار والفنانون الغارقون في العجب والحب والمديح.

وهناك عدة أشياء فضولية حول المعبد، وذلك لكونه حديثاً، مدعوماً من الصين، وفي الواقع مدعياً روح جنكيز كمؤسس لسلالة اليوان؛ والأغرب من كل هذا بالنسبة لي، أن طائفته

لها تطلعات دينية أصيلة، التي يظهر فيها جنكيز كقوة ربما يصنع من خلالها البارع الحقيقي اتصالاً مع لاهوت المغول الأكثر أهمية، السماء الأبدية Eternal Heaven.

ويُعد جنكيز، الذي انبعثت روحه من جديد عبر إخلاص أتباعه، أكثر من مجرد مصدر عون في العصور الماضية؛ فهو الأمل الروحي للسنوات المقبلة، وهذا يُعد تحولاً غريباً جداً لرجل ولد في الغموض والعجز والفقر.

الجزء الأول

الجذور

الفصل الأول

أسرار التاريخ السرّي

إنه يوم من أيام الصيف الحارة لمنتصف شهر يوليو من العام 1228 في المراعي الخضراء في وسط منغوليا، وفي معظم هذه الأيام، يمكن لفارس منفرد بنفسه أن يسمع تغريد طائر القُبرة يصدح في السماء الزرقاء الصافية وصوت أزيز الجنادب بين الأقدام، وفي معظم هذه الأيام، يكون هذا الكساء من الكلأ المنحدر نحو جدول مياه وسلسلة من التلال المنخفضة خلفها، فارغاً تقريباً، إلا من خيمة مستديرة أو اثنتين وقطيع من الخراف وبضعة خيول مربوطة بالأوتاد، وفي هذا اليوم، حجبت أصوات أخرى أغاني القُبرات والجنادب، لكن هذا المكان حُول بفضل جمع حميم ذي أهمية ملحمية، إذ بدأت تُسمع قرقعة عربات ضخمة ذات أربع عجلات، تجرها أزواج من اثني عشر ثوراً أو أكثر، وكانت تجر منصات يبلغ طولها سبعة أمتار تحمل خيام الشعر والحرير، بعضها مستدير الشكل على الطراز المنغولي، وبعضها مربع الشكل، وتمثل كل واحدة منها قصراً متنقلاً لأمير وحاشيته. كما كان القادة المرتدون للمزردة أو الدرع ذي الصفائح المتشابكة يصيحون بالتحيات، وكانت ترافق المجموعات العائلية – معظم الأفراد امتطوا ظهور الخيول والجمال، وركبت النساء كبيرات السن العربات ذوات العجلتين – قطعان الخراف والأغنام والجمال والخيول، إذ انتشروا جميعاً بروية على مدى السهل حتى خرجوا نحو التلال بالآلاف، ونحو المصب جنوباً على بُعد عدة كيلومترات، باتجاه ضفاف نهر فسيح ضحل، ومن وسط أنين الجمال والخيول التي تجر العربات، كان العبيد المسلمون والصينيون يفرغون الحوائط الشعرية ولفات الحرير اللازمة لتجميع خيام صغيرة. كما حافظ الحراس المرتدون للعباءات المبطنة والخوذات الجلدية على النظام من فوق ظهور الخيل، تتدلى من خواصرهم أقواس السهام القصيرة وعشرات السهام مختلفة الأنواع، وذَبَح رعاة القطيع الذين ارتدوا أثواباً طويلة تصل إلى كاحل القدم الخراف بأعداد لا حصر لها استعداداً للوليمة القادمة. كما جمع الأطفال روث الحيوانات الجاف وكدّسوه في أكوام للوقود، بينما كانت النساء في الخيام التي يملؤها الدخان وعلى نحو مُنعم بعيداً عن الذباب الذي يشكل مصدر إزعاج على السهل في الخارج يمخِّضن الحليب المختمر في حقائب جلدية لصنع بيرة الحليب وخمرة الحليب.

لقد كان هناك تجمعات من هذا القبيل من قبل، ولكنها لم تكن أبداً بهذا القدر من الأهمية،

إذ كان المغول عندئذ، وبعد عقدين من القتال، هم المنتصرون في الحملات العسكرية في آسيا الوسطى وجنوب روسيا وغرب الصين، وجاء بعض من هؤلاء المحتشدين في ذلك الصيف من «أوزباكستان» (Uzbekista) وبعضهم من «منشوريا» ومن «شينجيانغ» ومن المزارع التي تم احتلالها حديثاً في شمال الصين، وكان قائدهم جنكيز، الذي توفي في العام المنصرم والذي نهض بشعبه من الضآلة، قد أسس أمة ووضعها على الطريق إلى الإمبراطورية، إذ أثبت حكمه الذي دام أربعين عاماً والانتصارات التي حققها قوة ادعائه بأنه الشخص المختار، تحت حماية آلهة السماء الخالدة، وحان الآن لوصيته أن تُنفذ، فكانت الحاجة للاجتماع لتأكيد خلافة ولي عهد جنكيز المختار، ابنه الثالث «أوقطاي».

وسيمثل هذا الاجتماع أيضاً بداية جديدة لإتمام الاستراتيجيّة الرئيسة التي رسم جنكيز خطوطها العريضة حينما كان على وشك الغزو الأعظم الذي لم يسبق له مثيل: الاستيلاء على جميع أرجاء الصين، وهو الشيء الذي لم يحققه أي حاكم «بربري» آخر إلى ما أبعد من سور الصين العظيم على الإطلاق. لكن هذا لم يكن سوى جزء من الرؤية التي ورَّثها جنكيز، إذ سمع الكثير من أولئك المجتمعين في عام 1228 أنه ما زال هناك في الغرب، وراء أراضي المسلمين وسهول روسيا وغاباتها، عوالم أخرى لا بدّ من غزوها: مراعي «المجر» وربما بعد ذلك مدن غرب أوروبا المتقدمة، ولتحقيق نصر كامل، ولإنجاز مصيرهم الظاهر من السيادة العالمية، فإن ذلك يتطلب مهارة وشراسة تضاهي تلك التي كانت عند حاكمهم الراحل، وخضوعًا مُطْلقًا لوصيته، فكانت هناك أمة وإمبراطورية جديدة على وشك الظهور كأقوى كيان في «أوراسيا».

لكن ما السبب وراء الاجتماع هنا بالذات؟ يوجد هناك عنصر آخر في هذا المشهد، وهو عنصر بعيد الاحتمال في ثقافة رعاة القطيع الرُحل والفرسان الذين كانوا ينتشرون في كل مكان، لكنّه مركزي بالنسبة لهذا الجمع الخاص، ذلك العنصر عبارة عن مجموعة من المباني الحجرية المقامة في خط وعر، مثل جانب من شارع، تمتد لحوالي نصف كيلومتر، وتطل هذه المباني على رابية مستوية ومُحاطة بأعمدة تدعم سقفاً مفتوح الجوانب، فالرعاة الذين يقطنون السهل ليس بحاجة إلى مبانٍ، ومع ذلك فإن هذه الإنشاءات الشامخة كانت تقف بوضوح منذ سنوات عديدة، وهي في واقع الأمر الجزء المركزي الدائم لمركز القيادة العسكرية،

وتُحاط بين الفينة والأخرى بأعداد كبيرة من الخيام والعربات والجنود والخيول بالآلاف. أما السُرادق المنصوب على الرابية فله مهمة ثلاثية، فهو موقف للاستعراض العسكري، ومركز للمؤتمرات، ومعبد «شاماني».

في وقتٍ ما من القرن الثاني عشر، كان هذا المكان الذي أُطلق عليه في الأصل اسم «أوراج» أول عاصمة ثابتة للمغول، وقد أُسس عندما بدؤوا يحلمون بالوحدة والغزو، وتم اختياره لتميزه بمكانة استراتيجيّة، إذ كان يحرس طريقاً في منطقة الجبال الشمالية كانت تمثل رحم القبيلة، لكنّه أيضاً يُطل جنوباً نحو الوجهة الميمونة التي أدار المغول خيامهم تجاهها، كما إنه قدم لهم الفرصة للاستفادة من فوائد المياه الشافية من نبع قديم في الجوار - «أوراج» هي كلمة مغولية قديمة تعني «الينبوع» وإلى الجنوب، لمسافة ستمئة كيلومتر خلف النهر، يمتد سهل واسع يؤدي تدريجياً إلى المساحات المفروشة بالحصى من صحراء «غوبي» - بها طريق سريعة واسعة لمن لديهم استعداد للعبور - ثم يليه «النهر الأصفر»، التُخم الأخير أمام الوصول إلى مصدر الثروة والخطر: وهي الصين، ومن «أوراج» استطاع المغول شن الهجمات وجمع التعزيزات والغزو، وإذا لزم الأمر الهروب للاحتماء في قلب معقلهم الجبلي.

وبالرغم من أن «أوراج» كانت دوماً معروفة للمغول أنفسهم، إلا إن القليل من الغرباء سمعوا بها، فهي بالكاد ذُكرت في التاريخ لأنها هُجرت بعد فترة وجيزة من حدوث هذا التجمع، إذ أمر جنكيز بإقامة عاصمة جديدة أكثر بُعداً نحو الغرب، في مكان أكثر ملاءمة للسيطرة على إمبراطوريته المتنامية، وعما قريب، ستصبح هذه العاصمة الجديدة معروفة باسم «كاراكوروم»، كما إن قيامها في منتصف القرن الثالث عشر سيترك «أوراج» للانهيار والاختفاء من التاريخ، إن لم يكن من الذاكرة الشعبية، وحتى إنها فقدت اسمها الأصلي مع مرور القرون، وعندما تلاشى استخدام الكلمة المغولية القديمة «أوراج» وضعت اللغة الشعبية يدها على شيءٍ بدا مماثلاً وله دلالات مناسبة بنفس القدر - أفراجا Avraga، التي تعني كلاً من «ضخم» و«بطل» (مصطلح أُطلق على صفوة المصارعين) وكان لدى نظام التهجئة المغولي غموضه الخاص، لذا فإن الحرفين المركزيين «را ra» يمكن عكسهما، فعلى الخرائط، إن وجدت أصلاً، فإنك تجدها بكلتا الطريقتين: أفارجا Avarga أو أفراجا

Avraga، ولا تمثل «أفراج Avrag» النطق السليم لأن الحرف الأخير «a» هو زائدة تاريخية، لذا دعنا نعتمد كلمة «أفراجا Avraga».

وعلى مدى القرون، غرقت حجارة «أفراجا» في الأرض وأصبحت «كاميلوت مغولي» مكانًا أسطوريًّا بدون وجود أي دليل مادي عليها. لكن في عام 1992 وصل فريق من علماء الآثار اليابانيين المدعومين بمجسات أرضية شديدة الحساسية، وهدف «مشروع الأنهار الثلاثة The Three Rivers Project» الذي سمّي باسم الأنهار الثلاثة التي جفت من جبال «ختني»، إلى العثور على قبر جنكيز. وبالرغم من أن المشروع فشل، إلا أن أعضاءه حققوا اكتشافات كثيرة هامة (والكثير من الادعاءات، بعضها شديد الغرابة ومتناقض، التي سنعود إليها لاحقاً في روايتنا)، إذ سجل فريق الأنهار الثلاثة، مستخدمين رادارهم في مسح العشرات من ركام «أفراجا» المبهم، صدى أصوات أوحت بوجود خنادق وبقايا جدران، لكن تقريرهم كان سطحياً، فالتنقيب الفعلي لم يَنجم عن أكثر من حفرة وحيدة كشفت بعض المباني الحجرية غير المؤرخة، ومع ذلك، كان هذا أول دليل واقعي بأن «أفراجا» كانت في يوم من الأيام حقيقة.

كما تميز الاجتماع الذي حدث في مدينة «أفراجا» في عام 1228 بكونه أكثر من نقطة تحول استراتيجيّة وسياسية؛ بل كان مصدر إلهام، إذ علم المغول بأنهم كانوا في خضم أحداث عظيمة. لقد كانوا بالفعل شعب أكثر عظمة من أي وقت مضى، وأعظم من أي شعب واجهوه حتى الآن باستثناء الشعب الصيني، وكان لديهم كامل الإرادة لرسم حدودهم بشكل أكثر اتساعاً مما هي عليه الآن. لكن كيف تحقق هذا التغير الخارق؟ لقد رافق الكثير ممن يجتمعون الآن في «أفراجا» جنكيز منذ بداية فتوحاته، والقليل من كبار السن منهم كانوا قد عرفوه في طفولته، من قبل ما يقارب ستين سنة مضت، ومعاً وجميعاً، وكذاكرة جماعية، استطاعوا بالتأكيد توضيح هذا التحول لأنفسهم وللأجيال المستقبلية.

وكانت هذه هي الفرصة المثالية، فمن بين الأمراء والضباط والحراس وأعضاء العائلات كان أولئك الذين كانت مهمتهم تسلية المجتمعين بقصص مستوحاة من الأسطورة والتاريخ، ومثلهم مثل جميع المجتمعات التي تعتمد على الاتصال الشفهي، كان لديهم شعراء ملحميون وفنانون موهوبون ورواة القصص الذين تنقلوا بين المعسكرات المقامة على المراعي

الخضراء وخيام القصور، حتى إنهم أصبحوا موضوعاً لقصصهم الخاصة.

كيف نشأت الحكايات بين الشعب المغولي

في يوم من الأيام، أصاب الطاعون المغول، ففر الأصحاء تاركين المرضى، قائلين «لندع القدر يقرر إذا ما قُدر لهم أن يعيشوا أو يموتوا»، ومن بين المرضى كان شاب يدعى «ترافا»، فارقت روحه جسده ووصلت إلى مكان الموت، فقال حاكم ذلك المكان «لترافا»: «لماذا فارقت سجدك بينما لازال حياً؟» فأجاب قائلاً: «لم أنتظرك حتى تستدعيني، لقد جئت منذ لحظات»، فقال خان الأرض متأثراً باستعداد هذا الشاب للانصياع: «لم يحن وقتك بعد، وعليك أن تعود. لكن يمكنك أن تأخذ من هنا أي شيء يحلو لك»، فنظر «ترافا» حوله، ورأى كل المباهج الدنيوية والمواهب الغزيرة والسعادة والضحك والحظ والموسيقى والرقص، فقال الشاب: «أعطني فن رواية القصص،» وذلك لأنه عرف أن القصص يمكنها استجماع جميع المباهج الأخرى، فعاد الشاب إلى جسده، و وجد أن الغربان قد نقرت عينيه تماماً، ولأنه لم يكن قادراً على عصيان خان الأرض، عاد إلى جسده، وعاش فيه أعمى، لكن كان لديه معرفة بجميع الحكايات، فقضى معظم حياته مسافراً عبر منغوليا، راوياً الحكايات والأساطير، وجالباً البهجة والحكمة للناس.

وإن تكن التقاليد القديمة شيئاً يهتدي به، فقد جلب أداء الشعراء الملحميين والفنانين الموهوبين ورواة القصص أكثر من البهجة والحكمة، لقد كان أداؤهم حاسماً في تشكيل الإحساس بالهوية، بيد أنهم فسّروا التقاليد وأعادوا جمع الأصول وصوروا أفعال الأبطال مازجين الأسطورة بالتاريخ، لقد كانت الذخيرة الأدبية ضخمة، تماماً مثلما كان عدد الأدوات والأساليب التي لا تزال قائمة في بعض المناطق، فقد كان للمغول ملاحمهم الأسطورية و«الأغاني الطويلة» و«الأغاني القصيرة» والكثير ما بين ذلك، لقد كانت هناك أغانٍ لكل مناسبة، أغانٍ تمجد المناظر الطبيعية والمعارك والأبطال والخيول - والخيول بالذات، كما امتلكوا مزامير وطبول وقيثارة الفك وكمانات رأس الحصان بأحجام متعددة تماثل الأوركسترا الغربية اليوم، ويمكن أن تغني النساء بأصوات صاخبة مفعمة برعشات وتغيرات، على غرار الأساليب البلغارية واليونانية المألوفة لدى محبي «الموسيقي العالمية»، وكثيراً ما يتبنى الرجال الأسلوب نفسه، لكن إذا جاؤوا من غرب منغوليا أو من مناطق رعي الرنة إلى

الشمال فإنهم أيضاً يتخصصون في غناء النغمة التوافقية، وهو أسلوب النغمة الثنائية أو حتى الثلاثية المدهش الذي يصدر نغمات موسيقية أنفية تشبه نغمات آلة الفلوت التي تصدح مثل العصافير فوق اليعسوب المغتر بنفسه بشدة. أما فيما يتعلق بالملاحم، فإن الرجال يتبنون طبقة صوت حنجرية منخفضة النغمة، ويتنوع الأسلوب والمحتوى على حدٍ سواء من منطقة إلى أخرى، ويدعي البعض أن الأغنية تعكس المنظر الطبيعي، مشيرين إلى نغمات غرب منغوليا المختلفة المناسيب مثل جبالهم، وألحان السهل التي تنساب مثل المراعي المتموجة، ولا يجب الشروع في أي أداء باستخفاف، فالأداء - بالتأكيد كان دوماً كذلك - يصاحبه مجموعة طقوس والتزام بالشكليات، وذلك لأن الموسيقى والأغاني لها تأثيرات قوية، فبعض الأغاني يمكنها طرد الأرواح الشريرة، والبعض الأخر يستحضر أرواح الغابة والجبل والطقس (فمن العرف السيئ أن تُصفر في خيمة، وذلك لأن الصفير يستدعى روح الريح، كما يوجد هناك أيضاً الكثير من الأرواح في الخيام) والقليل مما هو متداول الآن يرقى إلى القرن الثالث عشر، لكن لا يوجد داعٍ للشك في عمق وتنوع المادة التي تطورت منها التقاليد والأعراف في وقت لاحق.

كما لم يكن هناك أدنى شك في أن الشعراء الملحميين الذين اجتمعوا في «أفراجا Avraga» في صيف عام 1228 كان لديهم مخزونٌ وافرٌ من المادة التقليدية في شكل أساطير حول أصول شعبهم، كما أن هناك أيضاً موضوعًا جديدًا لا بدّ من استكشافه - وهو ظهور جنكيز وميلاد الأمة وتأسيس الإمبراطورية، لكن تلك الأيام كانت ممعنة في القِدم، فالأحداث والقصص التي كُتبت بشكل فولكلوري مازالت جزءاً من الذاكرة الحية، فالحقيقة كانت في طور إعادة الصياغة مثل الشعر والأسطورة، وربما كانت محرفة، وكان بعض كبار السن من الرجال والنساء في «أفراجا» يتذمرون من جهل الشباب، أجل، أنها تصنع قصة جيدة، ولكنها لم تكن كذلك على الإطلاق، نحن نعرف ذلك، لقد كنا هناك.

لكن أجمل وأروع ما في هذا الكاميلوت المغولي أيضاً أنه قاد إلى شيء آخر جديد، فقبل وفاته بعشرين عاماً، ظهر جنكيز الحاكم البدوي كجنكيز الحاكم الإمبراطوري، إذ أدرك أن مملكة احتوت على مدن وسكان مستقرين لا يمكن إدارتها بالأوامر الشفهية فقط، بل كان لا بدّ من وجود قوانين ونظام وسجلات لإدارتهم، ولتحقيق ذلك، احتاج المغول للكتابة، فكانت

بالنسبة لزعيم أمي عبارة عن بصيرة رائعة، لأنها تعني الاعتراف بجهله، وقد أثار ذلك تساؤلاً: ما هو نظام الكتابة الذي يجب إقراره؟ فقد كتب الصينيون، لكن نظامهم استغرق سنوات حتى تم إتقانه وعلى أية حال، لم يكن لأي مغولي أن يختار طواعية اتباع طرق شعب مُحتقر من الفلاحين وسكان المدن، الذين كُتب عليهم الغزو، كما كتبت أيضاً بعض القبائل التركية المجاورة، مثلما كتب أسلافهم بالفعل، ربما رأى جنكيز نفسه بشكل جيد واحدة من آثارهم الحجرية المنقوشة، ولحسن الحظ، أن واحدة من الجماعات الخانعة الناطقة باللغة التركية التي غزاها جنكيز حديثاً، «النايمان»، كان لديهم نصوص مكتوبة، ورثوها عن «الأويغور» التي تعرف الآن باسم غرب الصين، والنصوص التي كانت مكتوبة بشكل رأسي، كان لها سلسلة نسب مهيبة، لكونها اقتُبست من قبل ثلاثمئة عام من «اللغة الإيرانية» وهي الكتابة واللغة التي عملت كاللغة مشتركة في آسيا الوسطى في حوالي القرن الخامس عشر، وهذه اللغة بدورها عُدلت من اللغة «الآرامية» وهي نفسها فرع من اللغة العبرانية القديمة، وبالتالي حظيت بمميزات كونها لها أسس هجائية وسهلة التعلم، لذا أمر جنكيز أبناءه بإقرارها من المغوليين، واستخدامها لتشكل الدواوينية، ومازالت تستخدم حتى اليوم في وسط منغوليا.

وفي «أفراجا Avraga» في عام 1228، كان الكتَّاب وكذلك المصادر حاضرة معاً، إذ رأى أحدهم أن هذه كانت فرصة مثالية لينتزع الأسطورة والأحداث الجديدة كتابياً، مع الإشارة بوجهٍ خاص لأكثر الأحداث أهمية في تاريخ المغول: وهو ظهور جنكيز، وهكذا كان ذلك أول عمل كتابي مغولي يتم تفويضه، ويُعرف هذا الكِتاب الآن باسم «التاريخ السرّي للمغول»، ولقد أنجز فعلاً، كما تسجل فقرته الأخيرة في زمن «الاجتماع الكبير، في عام الفأر وشهر الآيل، وذلك عندما كانت تُشيد القصور عند «التلال السبعةِ Seven Hills» جزيرة ريفية Countryside Island مطلة على ضفاف «نهر خرلين»».

كلمتا «خرلين Kherlen» و«خنتي»: أسماء غير مألوفة خارج حدود منغوليا، ويمكن أن ترى كلاً من النهر والجبال من على متن رحلة جوية بداية من «بكين» وعبر صحراء «غوبي» وحتى منغوليا، وإذا اختلست النظر من النافذة الواقعة على يمينك لعدة دقائق قبل الهبوط في «اولان باتور»، فسيقع بصرك شمالاً وشرقاً على مراعٍ لا متناهية يمكن تميزها فقط من خلال الخربشة الباهتة لمسارات السيارات، وخيام الشعر المنتشرة على شكل الفطر، وعلى مرمى

البصر سترى جبال «خنتي» ذات الجوانب المعتمة بسبب غابات أشجار التَّنُوب وكذلك القمم التي لا تزال مبيضة اللون بفعل الجليد، وهي النقطة الحدودية الأخيرة لسلاسل جبال «سيبيريا Siberian» التي تمتد جنوباً عبر الحدود الروسية، وهي منطقة حدودية جغرافية، حيث يفسح الجبل الطريق للمرعى، وتفقد الأنهار المتسارعة من الأراضي المرتفعة قوتها في تعرج هادئ.

ويجري نهر واحد على وجه الخصوص في خط مستقيم جنوباً من الجبال، مندفعاً بقوة ورشاقة في حركة دائرية نحو الشمال الشرقي، وهذا النهر، الذي يُكتب على الخرائط الغربية عادة باسم «كيرلين Kerulen» والذي يُطلق عليه المغول «خيرلين Kherlen»، هوَ واحد من الأنهار الثلاثة العظيمة التي جفت منابعها التقليدية، وينعطف الجزء العريض من النهر البالغ مئة كيلومتر في مهود نهر «خيرلين» التي تشكل الرأس الجنوبي من الجزيرة الريفية (خودو آرال) وتطوقه أربعة آلاف كيلومتر من التلال المتشابكة الموجودة بالقرب من نهري «خيرلين» و«سينغر Tsenkher» التي تتدفق متوازية لمسافة مئة كيلومتر أو نحو ذلك، ومن ثم تتضاءل هذه التلال عند التقائها مع الأراضي الخضراء، وينحني نهر «خيرلين» شرقاً وشمالاً في انحناء شديد وهو ما أطلب منك أن تتخيله، ويتقابل النهران عند «أفراجا»، ومن هنا يقود الوادي الفسيح الواقع في الشمال الشرقي إلى قلب دولة جنكيز، وتشكل الجبال والأنهار والوادي وهذه القطعة الرائعة من المراعي بشكل خاص قلب دولة المغول، وهي المنطقة التي كانت لأكثر بقليل من ثمانمئة عام خلت، منبع القبيلة وأصلها ومنبع قائدهم العظيم وأصله، ودولتهم التي – لهذا السبب – انطلقت في صيف 2002 لرؤيتها.

وكانت السيارة المفضلة للسائقين المغول هي السيارة الروسية أو بالأحرى الأوكرانية الصنع «UAZ» (تلفظ وَز wuzz لتتناغم مع بَز buzz)، فحافلة «وز wuzz» الصغيرة أو سيارة الجيب – الأساسيات هي نفسها – هي حصان الشغل لأولئك الذين لا يمتلكون حصاناً، وهو عنوان لسيارات الجيب رباعية الدفع، ولم يكن لتلك العربة عجلة قيادة، فقيادتها تشبه مصارعة الثيران، لكن كان قائدها السائق، «كيشيج» شخصية مرحة مع علامات حروق بالغة على عنقه وذراعيه، يتماوج في الوحل ويصارع الأنهار ويتسلق الضفاف وينطلق بسرعة فوق السهول المفتوحة.

انطلقنا جنوباً على طول نهر «خيرلين» في رحلة لمدة نصف يوم خارج عاصمة منغوليا «اولان باتور» حول سفوح التلال التي تمثل الواجهة الخارجية لجبال «خينتي» الضخمة، وكان ذلك في أواخر شهر يونيو، أفضل أوقات السنة، إذ تكون الخيول يافعة وحيوانات «المرموط» سمينة، وكان من الأفضل أن نواصل التحرك، فلو توقفنا وخرجنا للخارج، لطقطقت الجنادب تحت أقدامنا مثل التشويش الذي تحدثه الأجهزة الكهربائية، ولبدأ الذباب بمضايقتنا، وأثناء المسير، كنا في قمة سعادتنا، وتحدثت «جيو»، خريجة لغة انجليزية ذات صوت ناعم، قصيرة وممتلئة الجسم وصلبة العود مثل الفرس المغولي قصير القامة، عن طموحها للدراسة بالخارج، كما دندن «باتور» مدير متحف في منتصف العمر ذو وجه أنيق بنظارات دراسية، إيقاعات شعبية بصوت صادح جميل، ومرح أحد أفراد الـ «بوريات» - فرع من المغول الذين ينتشرون على الحدود الشمالية - مرحاً صاخباً في أغاني شعبه.

لقد تحولت «أفراجا» لتصبح مكانين: الأول، المدينة الحديثة، وهي عبارة عن مجموعة من المنازل الخشبية – وبالنسبة لهذا التحول الشمالي في هذه البقعة من الأرض فإنها تشترك مع هندسة المعمار المحلى السيبيري - المنتشرة بشكل واضح على نحو مهلهل في عالم من العشب بجاذبيتها الخاصة، وفي الحقيقة، يرجع وجود هذه المدينة إلى وجود بحيرة معدنية بالقرب منها حيث يأتي المغول للاستحمام في الصيف وتلطيخ أجسادهم بالطين الكبريتي، وبالرغم من كونها مدينة لا يعرفها سوى القليل من الغرباء المغامرين، إلا أنها بقعة جميلة، ذات شاطئ رملي فسيح، بضفاف تشبه المرج للاستمتاع بحمام الشمس وسور للإبقاء على الماشية والخيول نظيفة، وفي الجوار في سهل فسيح كانت توجد قاعدتنا، معسكر سياحي به عشرات من «الخيام المغولية» مثل الخيام الجلدية المستديرة الكبيرة «اليورت» المشهورة في منغوليا.

وكانت وجهتنا هي «أفراجا» الثانية، التي تقع على سهل يمتد عشرة كيلومترات جنوباً، ولا يوجد شيء ذو قيمة لتراه من هذه العاصمة القديمة، لكن الموقع واضح بما فيه الكفاية، إذ يقف فوق الروابي المنخفضة مباشرة، التي مسحها فريق مشروع الأنهار الثلاثة، وهو عبارة عن سياج سوري أبيض مربع الشكل، مثل ساحة استعراض ضخمة، بعرض مائتي متر، ويحرس الخيام التسع وكذلك ستة من المعالم الأثرية المتفرقة، تماثيل لجنديين يحملان

الحراب مزينين بخوذ مخروطية، وتروس دائرية صغيرة، وسيوف مقوسة وأحذية مقلوبة، لكن الحارس الحقيقي كان عند المدخل، إذ تظهر لوحة إعلانات كُتبت باللغة الإنجليزية والمنغولية «أهلاً وسهلاً بكم في قصر جنكيز» «هذا هو موقعها الجليل، هنا يمكنك التواصل مع التاريخ والثقافة المغولية القديمة. يرجي الدفع عند صالة الاستقبال»، لقد كانت عملية خاصة، ومماثلة للأسف في الروح للكثير من «المواقع الأثرية» في الغرب، فلم يكن هناك أي شيء حقيقي بشأن هذه المعالم الأثرية، ولم يكن هناك أي دليل بأن قصراً ما كان موجوداً هنا في أي وقتٍ مضى، وحملت الخيام التسع - الرقم تسعة يمثل تقليدياً الرقم الأكثر أهمية - لوحات غير متقنة لجنكيز وملكاته، بنماذج مقلدة من الأسلحة ورايات ذيول «الياك»، وفي كل خيمة من الخيام التسع، يمكن للزوار الصلاة عند الأضرحة المقدسة، المضاءة بشموع بها القليل من الزبد ومزينة بقطع قماش من الحرير الأزرق الذي يعدّ القربان التقليدي للديانة البوذية.

لقد كان كل شيء على شرف الذكرى السنوية السبعمئة والخمسين لكتاب التاريخ السرّي، الذي جرى رسمياً في عام 1990. «ووفقاً للجملة الأخيرة من كتاب التاريخي السرّي، قال دليل الموقع، بصراحة شديدة، تم الانتهاء من الكتاب في عام 1240». لكن مهلاً: فالسيناريو الافتتاحي يتضمن التاريخ 1228، فالاختلاف، الذي يُعد موضع الكثير من المناقشات الأكاديمية، مُوضح في إشارة كتاب التاريخ السرّي إلى «عام الفأر Year of the Rat» العام الأول من الاثني عشر عاماً لدورة الحيوانات التي تبناها المغول عن الصينيين، وهنا يكمن الفرق في الاثني عشر عاماً موضع الخلاف. لكن أية واحدة قد تكون هي - واحد من هذين العامين، أم عام فأر آخر لاحق؟ تركز النقاش على حقيقة أن كتاب التاريخ السرّي يغطي عهد «أوقطاي» لكنّه لم يُشر إلى موته في عام 1241، لذا، إذا أُخذ النص بمعناه الظاهري، فيمكن أن يكون قد كُتب في عام 1240، وجرت نقاشات أخرى أكثر فنية بشأن أعوام الفأر اللاحقة (1252، 1264)، لكن لم تُشر السجلات الأخيرة إلى «الاجتماع الكبير» قط، وكما سنرى، فإن فورية الكتابة تنم عن مؤلف معاصر، وإذا ما قبلنا بذلك، فإن هذا سيترك مشكلة الفقرات الاثنتي عشرة من عهد «أوقطاى»، وفي الحقيقة، يتفق العلماء الآن بشكل كبير بأن هذا لا يمثل مشكلة حقيقية، لقد كانت هذه الفقرات استكمالا لاحقًا، أُضيفت مباشرة قبل موت

«أوقطاى»، وبالتالي فإن التاريخ الذي يجب أن نرجع إليه هو عام 1228.

وعلى أية حال، فإن العام 1240 يمثل خياراً سهلاً ومغرياً للمؤسسة الرسمية، ففي أثناء الحقبة الشيوعية، كان جنكيز - الرجل الذي اضطهد ورثته روسيا على مدار قرنين من الزمان - شخصاً غير مرغوب فيه، لكن منذ عام 1989 فصاعداً، كانت الحكومات المغولية حريصة على تعزيز أي شيء يرجع إلى مؤسس أمتهم، ففي عام 1990، وبالرغم من أن العلماء لازالوا يفضلون العام 1240 كعام التأسيس، إلا إن فرصة الاحتفال بالذكرى السنوية السبعمئة والخمسين كانت ببساطة فرصة جيدة لا نستطيع تفويتها - وبالنتيجة فإن الزوار لازالوا يُطالبون بدفع القليل من «التوغريك» لدخول المضمار المبهرج الذي يحتفل بتاريخ مشكوك فيه مع معالم أثرية زائفة.

وبعيداً عن النصب التذكارية، سنجد أن ذلك موقعٌ رائع، وقدمت تلك الأمسية الصيفية أبهى ما لديها، فأعلى ذلك الموقع تعلقت السحب الداكنة على نحو مشؤوم، لكن الشمس العابسة اخترقت الأفق الصافي وأنارت المنحدرات الغربية، وكان الرعاة المتوهجون على بعد قدم من الظلال الممتدة بشكل غريب يطاردون الماشية المتوهجة لجمعها، وصرخ المدرب «تراجع! تراجع!» في وجه صبي في العاشرة من عمره كان يعدو بالخيل بسرعة استعداداً لسباقات «اليوم الوطني» بعد أسبوعين من الآن، ومن القمة المرتفعة في الخلف، تستطيع أن ترى في الأفق سهلاً تحول لونه إلى البرتقالي بفعل الضوء المائل للتلال السبعة التي ذُكرت في كتاب التاريخ السرّي.

وإلى الأمام، أسفل المنحدر، كانت الرابية التي نَقَبَ فيها أعضاء مشروع الأنهار الثلاثة، التي هي الآن ليست سوى حفرة ضحلة على امتداد أمتار قليلة. قال «باتور»: «لقد وجدوا القليل من القرميد، وقطعة من حجارة الأرضيات»، ثم حدق النظر في منتصف المسافة، وعاد إلى الوراء لأكثر من ثمانية قرون. «لقد كان هنا مبانٍ على طول هذا المكان... ثكنات... هذا هو المكان الذي أقامت فيه العائلات طالما كان الرجال لا يخوضون غمار القتال. لقد كان هناك قصرٌ». لقد خمد صوته، وتلاشى بصره، كما تلاشت «أفراجا» نفسها في زمن الأحلام.

كان من الواضح أنه مكان جيد للبناء، ففي العصور السابقة، كان نهر «خيرلين Kherlen»

أكبر بكثير مما هو عليه الآن، وربما أنه فاض وغير مساره من حين إلى آخر، لكن «أفراجا» كانت بعيدة بما فيه الكفاية عن النهر - مسافة عشرة كيلومترات اليوم - مع وجود مصدرها الخاص من المياه في شكل جدول صغير.

ويرقد أسفل منا أحد الأسباب التي دعت إلى البناء على هذه البقعة الخاصة وسبب تسميتها بهذا الاسم، فعبر مرج من الأعشاب النامية التي تسقى بمياه الري، وخلف الجدول بجسره المعدني المتهالك، كان هناك الينبوع: مصدره، ينبوع «أوراج» الأصلي، الذي لا يزال يُخرج المياه الشافية التي جذبت عشيرة جنكيز في أواخر القرن الثاني عشر، فلا بد أنها كانت قديمة حتى آنذاك، لكونها خدمت عشائر وثقافات السلف لقرون لا تُعد ولا تُحصى، وسرنا للأسفل خلال قطيع من الخيول، وتأرجحنا من كتلة عشبية إلى أخرى حتى وصلنا إلى جسر المشاة، ثم صعدنا إلى أعلى نحو النبع نفسه، ومع أنه لا يوجد شيء محظور هذه الأيام، إلا أن المكان خُصّص، حيث أحاط سور مؤقت بسقيفة خشبية صغيرة مغطاة بسقف على الطريقة الصينية، وأظهرت لافتة فضائل النبع وأهميته، فقد شرب جنكيز من هنا، وكانت المياه غنية بأشياء متعددة، وجاءت من عمق مئة متر من تحت سطح الأرض، لقد كانت مفيدة لكلٍ من الجسد والروح، وعالجت اثني عشر نوعاً من أمراض المَعدة، بما فيها السرطان، كما كانت مفيدة لشكاوى الكبد وأثاره البغيضة الناجمة عن الإسراف في شرب الكحول، ولهذا كانت مفضلة لدى «أوقطاي» السكير سيئ السمعة، (ليست مفضلة بما فيه الكفاية على ما يبدو: فقد شرب حتى الموت).

لم أكن متيقناً على الإطلاق بشأن هذا السائل المعجزة، إذ كان هناك برك مظلمة من هذا السائل، مغطاة بمادة لزجة وتُحدث فُقاعات ببطء، باعثةً رائحة تذكرني بشيء مر عليه زمن بعيد لا أستطيع استدعاءه للذاكرة، ومن داخل السقيفة، خرج أنبوب بلاستيكي مربوط بمحبس، الذي سحبه «باتور»، فتدفق الماء خارجاً كتدفق الماء عند ذروة التهيج الجنسي، استجابةً لبعض التغير المنتظم من عمق الضغط تحتنا، لقد شربت، فشعرت بالاشمئزاز. الآن جاءت الذاكرة: بيض فاسد، كبريت، رائحة طين مستنقع «نورفلك Norfolk» في المد المنخفض، فإن كنت تعاني من آثار جسيمة ناتجة عن الإسراف في شرب الكحول مثل «أوقطاي» فإنك لن تلاحظ ذلك، لكن كان لدي انطباع بأنني ابتلعت جرعة حياة من كبريت الهيدروجين. ربما

كان ذلك ما جاء جنكيز لأجله، لكن يبدو لي أنه سبب وجيه لإنشاء عاصمة جديدة.

اقترح «باتور» أن نزور صديقًا، مدير المدرسة المحلية، الذي ربما يعرف الكثير عن «أفراجا». لقد كان «صنسلتيار» رجلاً في الأربعينيات من عمره، كان يتمتع بسلطة هادئة متجذرة بفخر لكون مدرسته تقع بجانب أول عاصمة مغولية مباشرة، إذ قال: «أنا أُخبر الأطفال بأنه باستطاعتهم الذهاب والحفر والقيام باكتشافات هامة عندما يكبرون». كنا نجلس في غسق منتصف صيف طويل خارج منزله الخشبي المكون من طابق واحد، نقضم خثارة اللبن الصلبة التي أحضرتها ابنته التي كانت في سن المراهقة. لقد كان يعرف أكثر من غيره عن السبب الذي جعل هذا المكان جذاباً كقاعدة، إذ قال: «ليس فقط المياه المعدنية هي التي جذبت الناس. هذه المنطقة غنية بالحديد، ويمكنك ملاحظة ذلك في الصخور الحمراء، إنه مكان جيد لصنع الأسلحة، ومكان جيد لتدريب الخيول، لأن فصول الشتاء معتدلة والمراعي جيدة، فنحن مشهورون بخيولنا. لقد جُلبت الخيول إلى هنا من جميع أرجاء منغوليا للتهجين، لقد كان دوماً على هذا النحو». «لذا لم تكن عشيرة جنكيز أول من جاءت إلى هنا». «لقد جاء الناس إلى هنا منذ عصور «الهونيين»». ثم سألني قائلاً: «هل لديك علم بالمقبرة؟».

اتضح أنه كان يشير إلى مقبرة قديمة، تبعد عن هنا مسافة ساعة أو نحو ذلك، في سفوح الجبال، وسوف يأخذنا إلى هناك في اليوم التالي.

لقد حدث صباح اليوم التالي أن شخصية جديدة دخلت هذه القصة، إنه حيوان المرموط. إن بعثة مثل هذه تُعد أيضاً مبرراً لبعض الأشياء الأخرى - للكلام، أو لركوب الخيل، أو للأكل، أو للشراب، أو لأكبر عدد ممكن من هذه الأشياء المحتملة، وكنا بكل تأكيد سنحتاج إلى الغذاء، وكان حيوان المرموط يكبُر على بذور الأعشاب، وكل ما احتجنا إليه صياد يُلبي احتياجاتنا أثناء طريقنا نحو المقبرة، وكان مدير المدرسة يعرف صياداً، يسمى «انخبات Enkhbat» الذي أُخرج من بيته بالقوة، وبدا رجلاً نحيلاً ذا خدود غائرة، وحلاقة شعر مثل فرشاة المرحاض وابتسامة عريضة تبدو الأسنان منها بوضوح، واعتقد «جيو» أنه بدا مثل المرموط، الأمر الذي كان فألاً حسناً. لكن الصياد «انخبات» كان ينقصه اثنان من الأمور الأساسية، وبالتحديد بندقية وذخيرة، وكان لدى أحد أصدقائه بندقية، فانطلقنا عبر السهل لمسافة كيلومتر أو اثنين، وتوجهنا إلى خيمة حيث اندفع «انخبات» خارجها مسرعاً حاملاً

بندقية عيار 22 ملم، وبذلك تبقت الذخيرة، وفي انطلاقة أخرى عدنا إلى المدينة إلى صديق آخر، وبعد ذلك انطلقنا في طريقنا.

تمتعت حيوانات المرموط بمكانة مميزة في الثقافة المغولية، وذلك لكونها مصدراً لكلٍ من الطعام والخطر، فهي وبراغيثها تؤوي بكتريا الباسيل التي تسبب الطاعون الدَّبلي، ويشير إليها بعض المؤرخين كمصدر أساسي «للموت الأسود - الطاعون» الذي نُقل إلى أوروبا عن طريق المغول المنتصرين على طول طرقهم التجارية في أوائل القرن الرابع عشر، والخطر لازال قائماً، لكنّه معروف جيداً، فمن السهل التعرف إليه وعلاجه، وذلك بحُقن تُعطى مجاناً في المستشفيات المحلية، ودعنا نضع المصابين بالطاعون جانباً، سنجد أن المرموط كان دوماً جزءاً من طعام الصيف المغولي، بكتف المرموط - المعروف باسم «لحوم البشر» - أُعتبر طعاماً شهياً.

روى «جيو» قصة:

كيف أصبح للمرموط لحوم البشر

ذات مرة كان هناك سبع شموس في السماء، وكان الجو شديد الحرارة، فوجد الناس رامي سهام جيّدًا وطلبوا منه أن يطلق سهامه على بعض من هذه الشموس، وكان ذلك الرامي رجلاً جريئاً، فقال: «غداً صباحاً عندما تُشرق الشموس السبع سأصيب ستاً منهن بستة سهام، وإذا لم أفلح في ذلك، سوف أتحول إلى مرموط، وأقطع إصبع إبهامي، واشرب الدماء بدلاً من الماء، وأتناول الحشائش الجافة وأعيش تحت الأرض»، وفعلاً أصاب خمسة شموس، وعندما أطلق سهمه الأخير، طار عصفور من أمامه، فقطع السهم ذيل العصفور، ولهذا السبب أصبح للعصفور ذيل مُشعب، فأوفى الرامي بوعده، وأصبح مرموطاً، ولهذا السبب أصبح للمرموط لحوم بشر على أكتافه.

ويشار إلى حيوانات المرموط بأنها حيوانات فضولية، وهي سمة سمحت دوماً لصائدي المرموط بالنجاح في صيدها، فهي تُنوّم مغناطيسياً بأي شيء أبيض اللون، فالتلويح بقطعة قماش أو ريشة بيضاء يجعلها تغرق في غفوة وتحولها إلى فريسة سهلة، بل إن هناك كلاباً بيضاء خاصة لصيد المرموط مُدربة على هز ذيلها، مما يحول المرموط إلى حيوان عاجز بينما

تزحف الكلاب بشكل قريب بما يكفي للانقضاض عليها، ولابد أن كل ذلك كان صحيحاً، لأن ذلك تم تصويره وعرضه في فيلم وثائقي تلفزيوني، والذي عندما عُرض في اليابان، أثار موجة من الاحتجاجات الغاضبة من أعضاء من جمعية الحفاظ على الحياة البرية اليابانية الرئيسة. لقد كان صائدو المرموط المغول مخادعين! لقد احتالوا بشكل ظالم على المرموط المنغولي المسكين والساذج! إن صيد المرموط يجب أن يُحظر!

إن حيوانات المرموط بالفعل حيوانات ساذجة بشكل ساحر، فعندما تجزع من مرور حصان أو عربة فإنها تعدو مسرعةً صوب جحورها، متطايرة فوق الأرض كما تتطاير مماسح الأرض في الريح العاتية – ومن ثم، وبعد بضعة دقائق، وعندما يستحوذ عليها فضولها، تُبرز رؤوسها لترى إذا ما كان كل شيء على ما يرام، وفي مثل هذا الوقت من السنة، كثيراً ما تكون الطريق غير خالية نوعاً ما، إذ يتربص الصياد المغولي على بُعد عدة أمتار، ببندقية عيار 22 ملم تستند على دعامة، ويكون على أهبة الاستعداد والجاهزية، إنها فقط مسألة صبر، وقدرة على تجاهل الذباب الذي يتجمع على قلنسوة الرأس أو القبعة، وتركنا «انخبات» منبطحاً على السهل، مُحاطاً بطقطقة الجنادب الكهربائية، وانطلقنا عائدين إلى التلال.

وتركنا العربة في ظل بستان بجانب جدول جفت مياهه، وتبعنا مدير المدرسة حول جانب أحد التلال.

وقال مدير المدرسة: «إنها تُعرف باسم جبل الكثير من الناس Mountain of Many People».

فنظرت حولي، فوجدت أننا بجوار سقيفة ماشية شتوية صُنعت من زند الأشجار، وكان السهل أسفل منا، يبدو ممتداً مثل الصحراء في وهج الظهيرة، ففرت الماشية محدثةً ضباباً رقيقاً، ولم تتوقف إلا عند بحيرة حيث وقف قطيع من الخيول غائصاً حتى الفخذ، هرباً من الذباب والحرارة، كما رأيت زوجين من الخيام، وخربشة مسار السيارات، وفي الأفق البعيد، على بعد عشرين كيلومتراً، استطعت فقط أن أُميز المادة اللزجة البنية اللون لمنازل «أفراجا» الخشبية، لكن لم يوجد أي شخص في الأفق.

هز مدير المدرسة رأسه قائلاً: «أعتقد أنها تعني الكثير من الموتى».

لقد كان هناك بكل تأكيد دليل على وجود البشر، بالرغم من أنه لم يأتِ إلى هنا أي عالم آثار، وصادفنا عدداً قليلاً من الصخور المستوية المتناثرة هنا وهناك، التي شكلت خطاً غير مستوٍ إذا نظرت إليها من الجانب الأيمن مباشرة، ربما إنها كانت طريقًا قديمًا إلى شيء ما. ثم صعدنا إلى الأعلى، متنقلين بسرعة لنترك الذباب خلفنا، وأومأ مدير المدرسة إليَّ للنظر عالياً إلى نبتة صغيرة، اقتلعها بأصابعه وأراني الجذر، درنة مثل الثوم أسماها، «البطاطا البيضاء»، فالتقطها ونظفها ثم قدمها لي، لقد كانت تُمضغ بصوت طاحن مثل البصل، ولكنها غير حريفة، في الحقيقة مثل البطاطا تقريباً. لقد فهمت قصده، حتى هذه البريّة الصخريّة كان لها مصادرها من الغذاء.

واستدعتنا صرخة من أعلى إلى وجهتنا، وهي المقبرة، لقد كانت مجموعة وعرة من الصخور المدورة، مقسمة إلى ثماني مجموعات، وكلها مختلطة مع الأعشاب والشجيرات، مصفوفة على نحو غير مستوٍ على شكل حرف «إتش»، فافترضت أنها ربما كانت قبورًا، وهذا على ما يبدو ما اعتقده السكان المحليون، وذلك لأن الصخور لم تكن مكسوة بالعشب، ويبدو أن شخصاً ما حافظ عليها لتبقى واضحة، ولم يكن هناك أي شيء متطور حول الركام، لكن كلاً منها مَثل استثمارًا للوقت والطاقة، ويوحي موقع جبل الكثير من الناس بما فيه الكفاية، بأن هذا الاسم ربما له أساس في طقوس دفن الموتى القديمة، فنظرت أسفل جانب التل الذي تكسوه الصخور حتى السهل وتخيلت موكباً جنائزياً يشق طريقه ملتوياً إلى أعلى، ربما أسلاف جنكيز، وهم يُحضرون موتاهم عندما جاؤوا أول مرة إلى «أفراجا».

وصل «انخبات» إلى الغابة حيث كانت تقف العربة ومعه الغذاء: خمسة كيلوجرامات من الفراء واللحم الخالي من الدهن، التي بدأ في طبخها بالطريقة التقليدية، مع واحدة أو اثنتين من الإضافات الأكثر حداثة، وسيكون الجزء الأكبر من طريقته مألوفاً لمخيلتي بشأن عائلات القرن الثاني عشر.

كسرولة «طبق» المرموط

(وجبة تكفي لستة أشخاص. الوقت: ساعة تقريباً)

المطلوب: مرموط، كمية جيدة من الروث المجفف، حجارة منوعة بحجم قبضة اليد،

سكين، خيط، سلك، كماشة، موقد لحام.

أولاً: صِدِ المرموط، ثم استخدم الخيط لتعليق المرموط المذبوح من أحد أطرافه، ثم اسلخه، مُجرداً الجلد بعناية نحو الأسفل للحفاظ عليه كقطعة واحدة، ثم تخلص من الأحشاء، وتجاهل الذباب، ثم انزع اللحم وقطّعه مكعبات صغيرة، وفي الوقت نفسه، رتّب للمؤلف الزائر لجمع روث البقر، وأكد له أن يكون الروث جافاً لتصبح مثل نسيج البلوستيرين، ثم أعدّ كومة من الروث، واستخدم موقد اللحام للبدء في إشعاله، سامحاً للدخان بالمرور فوق لحم المرموط المقطّع وذلك لطرد الذباب، ثم ضع الحجارة في النار، واربط فتحات الطرف في جلد المرموط باستخدام السلك والكماشة، رابطاً الفتحات بإحكام، لا تُغلق فتحة الرأس، ثم ضَع اللحم والحجارة المتوهجة في كيس جلد المرموط، مستخدماً الأغصان لحمل الحجارة، تجاهل الروث العالق في الحجارة والرماد... الخ. ثم اربط فتحة الرأس بالسلك، مستخدماً الكماشة لتأمين الإغلاق، ثم ضع موقد اللحام على الجلد للتخلص من الفراء المحروق، وفي هذه الأثناء، تكون الحجارة المتوهجة قد أنضجت اللحم من الداخل إلى الخارج، ومن ثم يتمدد الهواء المحجوز ليشكل حاوية مستديرة مشدودة بإحكام مثل السجق، وبما أن الفراء قد أُزيل، فإن موقد اللحام يُنضج اللحم من الخارج إلى الداخل، وبعد ساعة، اقطع السلك وافتح الكيس وقدم اللحم باستخدام الأصابع، وعندما تبرد الحجارة قليلاً، قلبها حتى تستطيع حملها بدون الكثير من الألم، فهي مفيدة للصحة وجالبة للحظ.

وأثناء الطهي، ومع تدفق الذباب وهدير موقد اللحام، وضح السائق «كيشنج» سبب الحروق التي أصابته، إذ كان يفعل الآتي بالضبط: كان يكشط الفراء عن المرموط، عندما انطلقت شرارة من موقد اللحام وانفجر، ناثراً البنزين المشتعل فوقه، وكجزء من علاجه جاء إلى هنا، إلى بحيرة «أفراجا» للاستفادة من طينها المانح للصحة، ولم يكن الطين بالضبط هو الذي يمكن أن يستفيد منه، لكن الحيوانات التي بها مخلوقات مجهريه يُشار إليها محلياً باسم «الأطباء الطبيعيون»، وعلى ما يبدو أن لها مذاقاً للحم الخشن، ولكونه غطس في المياه الكبريتية، فقد سمح لأنسجة جرحه بأن تتآكل، وبالرغم من أنها كانت مؤلمة، إلا أنها ساعدت في الشفاء. تراجعت بينما كان يكشط الأجزاء الأخيرة من الفراء وكان «باتور» يمسح الدهون الراشحة.

وعندما شق «باتور» فتحة في ما يبدو الآن مثل كرة القدم المتعرقة بزوائد غريبة، كانت النتيجة طبقًا من التناقضات، لقد كانت العصارة الناتجة عن المرموط المطبوخ باستخدام وقود الروث وموقد اللحام عبارة عن رحيقٍ دسم وداكن ويسبب الإدمان عليه، فقد كان مذاق اللحم جيداً، لكن قوامه بالنسبة لشخص غربي سريع التأثر يحتاج إلى وقت طويل للشعور بالرغبة به، فحيوانات المرموط تعيش عبر حَفر الجحور والركض بسرعة للحفاظ على حياتها، فهي عبارة عن عضلة، وتعدّ أكثر ملاءمة لفكّي أولئك الذين يتناولون الطعام في المطاعم ويأكلون الطعام المصنع، أما بالنسبة للآخرين، أي أولئك الذين لهم أسنان بيضاء قوية التي تبدو سمة من سمات السلالة المنغولية، كانت تجربة مبهجة خالصة، وخاصة أنه كان معنا بعض من فودكا جنكيز خان، والتقط مدير المدرسة شيئاً أشبه بالعنب، ألا وهي المرارة، وابتلعها بابتسامة سعيدة، وبينما كنت أسحب ما علق من طعام من بين أسناني، كان ما تبقى من المرموط قد أُكل، الجلد واللحم، في ظل ضباب الفودكا ودخان الروث.

وعندما عدنا مرة أخرى إلى الفرن الساخن، الشاحنة التي غزاها الذباب بأعداد كبيرة، نظف «باتور» حنجرته بالتنحنح وبدأ يغني أغنية شعبية «بورياتية» بصوته الصادح النقي والعالي. لقد غنّى لنا أثناء عودتنا إلى «أفراجا» بينما كانت نوافذ الشاحنة مفتوحة، وكانت الريح تطرد الذباب بعيداً «الوقواق يناديني، وأنا قادم إليك، ياحبيبي، من بين جنبات بلادي، أنهاري، وجبالي».

إن كيفية ضياع كتاب التاريخ السرّي والعثور عليه مرة أخرى يخلق قصة غريبة، وربما أنّ الكتاب الأصلي أصبح «سريّاً» أي أنه عُرف وحُفظ من عدد قليل من المسؤولين أصحاب الامتياز، إذ أمروا بعد انتهاء المغول من غزو الصين في عام 1279 مباشرةً بكتابة تاريخ أكثر رسمية، وبعد أن انهزمت سلالة المغول أمام أسرة «مينغ» في عام 1368، طور مسؤولو «مينغ» الحريصون على المحافظة على الوصول إلى لغة يتحدث بها الكثير من رعاياهم، نظاماً غريباً لتسجيل المغول لكي يستطيعوا تدريب المترجمين، إذ استخدموا علماء يجيدون اللغتين المنغولية والصينية لكي ينقلوا حروف لغة إلى حروف لغة أخرى، أو بالأحرى ترجمة مقاطع منغولية إلى صينية، ومع نقل كل مقطع منغولي مع ما يقابله من الرموز الصينية الأكثر تشابهاً، وكان هذا ولا يزال طريقة قياسية في كتابة الأسماء الأجنبية والعبارات باللغة الصينية.

لكن اللغة الصينية كان لديها قيودها، فكل إشارة ومقطع يجب أن يبدأ بحرف ساكن وينتهي إمّا بحرف علة أو حرف «أن n»، وفي التراجم الحرفية تكون النتيجة عبارة عن مزيج فظيع من اللغة الأصلية، إذ إن عاصمة منغوليا الوسطى، «هوهيهوت»، التي تكونت من كلمتين منغوليتين (خوخ خوت khokh khot) التي تعني المدينة الزرقاء، تصبح سلسة من المقاطع، «هو هي هوو تي Hu – He – Hao – Te» ولكل مقطع معناه الخاص به، ولكنها مجتمعة لا تعني شيئاً، الأمر الذي يعني للقراء الصينيين بأن هذا الاسم هو اسم أجنبي، فعلى سبيل المثال، تظهر كلمة أميركيا كمقطعين «مي – جو Mei – Guo» وكلمة لوس انجلوس من ثلاثة مقاطع «لو – سان – جي Lo San Ge» وكلمة باريس تظهر في مقطعين با – لي Pa Li، ويصبح اسم «جنكيز خان Genghis Khan» «تشجنج تشاي سو هان Ch'eng Chi Ssu Han».

ويمكنك أن تحصل على فكرة حول ما يحصل للنسخة المنغولية المحوّلة إلى الصينية من كتاب التاريخ السرّي وذلك من خلال إعادة صياغة لفظة مناجاة الذات المعروفة إلى مقطع من اللغة الفرنسية التي لا معنى لها: «Tu bille orne hote tu bille. Sa tisseur qu oust y un. Ou est serre tisse noble air insere m'Indes tu sous phare...».

وسيبدو أن القارئ الصيني الذي يقرأ الترجمة الحرفية لكتاب التاريخ السرّي كما لو كان يتحدث اللغة المنغولية بلهجة صينية مريعة، ونظراً لأنه لم يكن لها معنى في اللغة الصينية، فقد أُضيف دليل تقريبي للمعنى بجانب كل سطر عمودي.

وفي نهاية المطاف، وعندما زال التأثير المغولي، فقد الصينيون الاهتمام بحفظ النسخة المغولية الأصلية للنص واحتفظوا فقط بالنسخة الصوتية الصينية، إضافةً إلى التعليقات والحواشي، وبقي العديد من النُسخ غير معروف حتى أعيد اكتشافها واحدة تلو الأخرى في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، عمل العلماء على استعادة النسخة المغولية الأصلية، فمن السهل إن كنت تعرف اللغة الأصلية، وإذا ما كانت كلتا اللغتين مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً وحيّتين، كما في المثال السابق، ولكنها سوف تكون خادعة إذا ما كنت تستخدم لغة القرن الرابع عشر الصينية لكي تستعيد لغة القرن الثالث عشر المغولية، التي لا يعرف أحد كيف ينطقها، التي ينتمي كلٌ منها إلى مجموعتين لغويتين

منفصلتين، وقد تم إعادة هذا العمل المضني مرات عدة، ونُشرت النسخة الأكثر حداثة في الثمانينيات من العام 1900، وبالرغم من أن المشاكل اللغوية والجغرافية لازال يتعين حلها - لم تظهر أية نسخة منغولية أصلية - إلا أن كتاب التاريخ السرّي متوافر الآن بعدة لغات.

كما يناقش العلماء الموازنة بين الحقيقة والخيال، ولكنهم يتفقون على أن الكثير مما جاء في كتاب التاريخ السرّي له جذور في الأحداث الحقيقية، وذلك لأن تغطية الكتاب يبدو أنها تتوافق مع تغطية معاصرة أخرى، وبالقدر نفسه من السرية - عُرف العمل باسم «عمل ألتان Altan Debter» («المفكرة الذهبية Golden notebook»)، وقد اختفى هذا العمل تماماً، لكن البعض منه لُخص في التواريخ الفارسية والصينية، وفيما يتعلق بالمصادر الأولية لعهد جنكيز، فإن الكتاب يدور حول ذلك العصر، ومن المعروف أن الكثير من الأعمال الأخرى كانت موجودة، ولكنها اختفت جميعها أو دُمّرت (بعضها دُمّر منذ زمن قريب جداً: حُرق كتاب تاريخ القرون الوسطى على يد أحد أسياد الحرب الصينيين في العام 1927)، ويدنو أحد أعمال القرن السابع عشر، «ألتان توبشي» («الملخص الذهبي Golden Summary») من كتاب التاريخ السرّي والأساطير اللاحقة، لكنّه يغلفها بعلم اللاهوت البوذي، ومصدر رابع هو التاريخ الرسمي لسلالة اليوان (المغول)، الذي جمعه ورثة المغول، تبعاً للممارسات المتبعة عندما تحل مجموعة حاكمة محل مجموعة أخرى، لكن بالمقارنة مع كتاب التاريخ السرّي فإن هذه المذكرات تعدّ مختصرة وغير مثيرة كما تعدّ كتابات تجارية.

لكن يبقى كتاب التاريخ السرّي أساسياً، فهو إبداع خادع ومخبط، لأنه يتطلب تفسير الأصول المغولية، ويدعو إلى مقارنته بأمهات الكتب الأخرى - «الكتاب المقدس» و«الإلياذة» والملحمة النرويجية والملحمة الشعرية الألمانية والملحمة الهندية «الماهابهارتا»، لكنّه يفتقر إلى القوة الكامنة التي تتمتع بها هذه الأعمال - فهو يحتوي 282 فقرة فقط ويبلغ عدد كلماتها ستين ألف كلمة، أي حوالي ثلث طول الإلياذة، وبالرغم من أنه يشترك مع بعض عناصر من «الملحمة الأساسية» الأساطير والخرافات التي تندرج تحت قصة نادرة وما يبدو كأنه تاريخ، إلا أنه يفتقر إلى كلٍّ من العظمة الملحمية والدقة التاريخية.

وكملحمة طموحة، فإن لكتاب التاريخ السرّي جذورًا قوية في التقليد المغولي للشعر

القصصي، فهو يشترك مع «الألياذة» و«الأوديسة» في الميزة النادرة في كونه عملًا شفهيًا وضع بأسلوب كتابي، وبشكل واضح، وبحكم تعريفه، لا يمكن أن يكون هناك أي دليل كتابي لتقليد شفهي، لكن في حالة «هوميروس» اقترح العلماء نظرية استطاعت أن تقدم نموذجًا للإبداع في كتاب التاريخ السرّي، فبعد حرب «طروادة» في حوالي العام 1250 ق.م، نَظَم شعراء الملاحم الإغريقيون، الذين كانوا يتنقلون من قصر إلى قصر ومن سوق إلى سوق، قصصاً عن الأبطال والأحداث التي صورت أصول المجتمع الإغريقي، مخبرة إياهم من كانوا وما الذي جعلهم علامة مميزة، وبعد أن استمرت رواية هذه القصص لمدة خمسمئة عام، لَحمَ «هوميروس» بعضاً من هذه القصص في عمل فني كامل، في الوقت الذي تبنّى فيه الإغريق «الكتابة الفينيقية Phoenician writing»، وما إن كُتبت، حتى تجمّدت القصص، كما لو كانت في رحلة جوية، وأصبح اللحن المختلط الشفوي عملين موحّدين من الأعمال الأدبية.

ولم تكن الطريقة التي وضِعت من خلالها الأغنية في نص مكتوب عملًا حدسيًا بالكامل، إذ بقي التقليد المتعلق بالشعر في منطقة البلقان لألفيتين أخريين، حتى الثلاثينيات من العام ألف وتسعمئة، وذلك عندما دوّنها عالم الانثروبولوجيا وعالم الموسيقى العريق «ميلمان باري» في مقاهي صربيا والبوسنة والهرسك، وكما يروي تلميذه «ألبرت لورد» في كتاب «مغني الحكايات» أن «باري» اكتشف أن الشعراء، الذين ينقلون الأغاني من جيل إلى جيل، كان لديهم قدرات مدهشة، فلم تكن مجرد مسألة حفظ مقطوعات كبيرة من النصوص لتلاوتها، لكنها مسألة تحويل كلّ عمل موسيقي إلى عمل ارتجالي، فأثناء عملية الإلقاء، كان الشاعر يبني كل أغنية على أساس موضوعات وصيغ تقليدية، شكّلت من 25 إلى 50 ٪ من النص، وظهر الباقي من خلال إعادة التنظيم والزركشة والإطالة الخاصة بالشاعر استجابة للتفاعل مع الجمهور، وكان دوماً يوائم الأغنية في شكل بيت الشعر نفسه.

وربما حدث شيء من هذا القبيل في منغوليا والصين في السنوات التي سبقت كتابة التاريخ السرّي، ويبدو أنه من المرجح أن الشعراء المغول في أوائل العصور الوسطى، مثل المغنيين الذين سبقوا المغنيين الهوميريين، كانوا بمثابة بنوك للذاكرة الوطنية، محولين الحوادث والشخصيات إلى قوالب شعرية تقليدية، مؤدين أغانيهم مستخدمين بعض الآلات الوترية البسيطة، الشكل السابق لما يعرف اليوم بكمان رأس الحصان، وفي العشرينات من

العام 1200، عندما كانت الإمبراطورية المغولية في العلو، بدء هؤلاء المؤرخون الشعراء بالفعل المهمة غير المخطط لها في وصف ما حدث بدقة - والأحداث التي لازالت تحدث - في قصائد شعرية، ولو مُنحوا الوقت الكافي، لربما نظموا نسيجاً شعرياً غزيراً كغزارة التقاليد التي صورها هوميروس، ولربما أنجز بعض الهوميروس المنغوليين سحرًا مضاهياً.

لكن عملية الإبداع، التي يُفترض أنها بدأت بالفعل، أُحبطت منذ بداية الكتابة، ففي حالة هوميروس، انتزعت الكتابة الشعر الشفوي الناضج، أمّا في حالة الكتاب السرّي، فنبقى مع مادة غير ناضجة من الشعر. حيث توجد علامات المشافهة بكثرة، وذلك لأن الكثير من أجزاء النص كُتبت بطريقة شعرية، تُكرر الكلمات الأولى في السطور بعضها البعض في ما يعادل القافية المنغولية. كما كان هناك العديد من العبارات الشائعة، التي تعدّ أسلوباً شائعاً في التقاليد الشفهية لتثبيت الرواية، فالأطفال الذين تُقدر لهم الشهرة لديهم «بريق في عيونهم» والأشخاص الذين يقتلون «يتطايرون في الريح، مثل الرماد»، وما زالت القصص حيّة مثلها مثل أي شيء في «الأوديسة».

لم يحقق كتاب التاريخ السرّي قط قفزة كبيرة ليرتقي إلى الشعر الملحمي الرائع، لأنه - إلى حد ما - عبارة عن نثر تاريخي أيضاً، لكن لا يمكن اعتباره تاريخ كذلك، وذلك لسببين: أولاً، أنه كُتب مباشرة بعد وقوع الأحداث، وثانياً، أن منغوليا، التي افتقرت إلى التقليد الأدبي، كانت تفتقر إلى المؤرخين أيضاً. كما أن الفورية لا تمنح بالضرورة كتابة تاريخية جيدة، فقد كتب «ثيوسيديدز» تاريخه عن «الحرب البيلويونيسية Peloponnesian War» بينما كانت تدور رحاها، لكن استطاع اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد مراجعة ثلاثة قرون من الكتابة وتقليد أدبي واسع النطاق، وكان بالكاد قد مضى على المغول منذ عام 1228 أكثر من عشرين عاماً من معرفة القراءة والكتابة، وكانت هذه المعرفة مقتصرة على عدد قليل من الخبراء، لذا يتوقف التاريخ عند التاريخ «الحقيقي» كما فهمه «ثيوسيديدز» و«ماكولاي» والمؤرخون المعاصرون، وذلك لأنه يحتوي القليل من التفاصيل حول الطريقة التي ترك جنكيز بها بصمته على العالم، فأخبار عقدين من الحملات على آسيا الوسطى والصين، السنوات التي شهدت دمار المدن بالعشرات ومقتل الملايين، حُذفت من بعض الفقرات، ولربما في عصر الكتابة كان هذا التاريخ من التوسع الإمبراطوري بالفعل خاضعاً للتسجيلات

الرسمية التي فُقدت الآن، وربما أن تلك الأحداث لم تدخل بعد في الذخيرة الفنية لرواة القصص؛ ولربما لم يصاحب الشعراء الحملات العسكرية، وأياً كان السبب، فإن ما تبقى لدينا يعادل ألبومًا من صور العائلة، قصة أصول المغول وظهور جنكيز وتوحيد قبائل المغول وبدايات الإمبراطورية.

وإذا لم يكن هذا العمل ملحمة عظيمة ولا تاريخاً عظيماً، إذاً فما مميزاته؟ هناك ميزتان، وهما: الحيوية والانتقائية، ويبدو الأمر كما لو أن محررًا كبيرًا قد دنا من سلسلة من المصادر المتاحة «شعراء وروايات شفوية معاصرة» بناءً على تعليمات صارمة لتشمل فقط الأحداث الأكثر صلة، والأهم من ذلك إخفاء الحقائق غير السارة، وهذا الكتاب لا يُعد من سير القديسين، بل يعطي انطباعاً صادقاً لكونه يصور السيئ إلى جانب الحسن، إذ صور كيف كان جنكيز، كما يبدو، يخاف من الكلاب، ويقتل أخاه، وتعاقبه أمّه على ذلك، ويكون سبباً في كارثة عسكرية تقريباً، ويُوبخه صديق طفولته.

لكن من كان المسؤول عن هذا الخلط بين شخصية البطل وشخصية الإنسان؟ فقد أُشير إلى أن المؤلف كان شقيق جنكيز بالتبني، «شيجاي»، الذي وُجدَ متروكاً في معسكر للتتار، وكان واضحاً أنه من أصول ارستقراطية، لأنه كان يرتدي أقراطاً ذهبية في أذنيه وحلقاً في أنفه وصدرية مبطنة بفرو السمور، ولكونه رُبّي على يد أم جنكيز كابنها السادس، والأصغر لمدة عشرين عاماً على أفضل ما يكون، فقد أصبح الفتى قائداً عسكرياً برتبة لواء وقاضٍ، ولربما كان «شيجاي» متمكناً من الأدب ومهارات الكتابة، لكن إذا كان هو الكاتب الوحيد، المسؤول عن كل شيء في ذلك الوقت، بكل تأكيد لم يكن راضياً عن العمل بتعجل وإهمال فيما يتعلق بتفاصيل الحملة العسكرية والإدارة والشئون القانونية.

من الذي وضع الخطوط العريضة؟ إن الخيار الواضح هو ولي العهد المنتخب حديثاً، «أوقطاي» فهو الوحيد الذي امتلك السلطة ليصادق على اختيار المادة، كما أنه استمد سلطته من أبيه الراحل، فقد كان جنكيز نفسه يسمع الأساطير والحوادث المدرجة في التاريخ السرّي، وفي الواقع، إن الكثير من الوقائع المتعلقة به يجب أن تُستقى منه في المقام الأول، فقد كان واقعياً، وكان يعرف أن صعوده إلى السلطة اعتمد على الاختيارات التي اتخذها، في السياسة والعلاقات والاستراتيجيات، ففي سن الشيخوخة أدرك الأخطاء التي وقع فيها في

شبابه، وكان حريصاً على إظهار هذه الأخطاء على الملأ، راوياً القصص ضد نفسه ليبرهن على نضجه المتزايد، وليؤكد أفكاره الرئيسة، فهو بكل تأكيد يتمتع بالحماية الإلهية، لكن آلهة المغول، والسماء الخالدة، تقدم العون فقط لأولئك الذين يساعدون أنفسهم، والنجاح هو النتاج الحاصل بشق النفس للمعاناة والفشل. إن ما لدينا في كتاب التاريخ السرّي لشيء رائع، ووصف نفسي لما حسبناه حالة من العجز لتصبح بطلاً وإمبراطوراً.

وأتصور أن عالماً إدارياً، ربما يكون «شيجاي» الذي يقترب من الأربعين من العمر الآن، قد أُسند له مهمة تجميع مادة الكتابة من سيده وقريبه «أوقطاي» وبدأ بمباشرة العمل بمساعدة شاب ذكي، لديه الكثير من المعرفة بالكتابة «الأويغورية» وقادراً على كتابة ما يملى عليه، وجمعوا معًا شهود العيان، وتجولوا في الخيام، وجمعوا القصص وأبيات الشعر والحكايات من أولئك الذين كانوا هناك، إلا أن الوقت أمامهم كان قصيراً، فسينقضي الصيف عما قريب، وسيغادر الجميع إلى قواعدهم وإلى ضروب العائلة لقضاء موسم الشتاء، وقد تجاهلوا معظم التفاصيل العسكرية، بالرغم من بقاء بعض من كبار القادة في القواعد العسكرية في خارج البلاد، وكانوا قد أبقوا على كل ما يبدو جيداً ومناسباً من الأشعار، والباقي جُمع بأفضل ما يكون على شكل نثر، مركزين على القصص الأكثر حيوية والأكثر احتراماً للأساطير.

لقد كان وقتاً مناسباً - ربما الوقت الوحيد المتاح - لجمع المادة التي ستسمح لأمة جديدة بفهم أصولها الخاصة.

الفصل الثاني

صعود المغول

إلى الشمال الشرقي من «أفراجا» يسير حقل ضخم بحجم قرية صغيرة جنباً إلى جنب مع سلسلة جبال «ختني» وصولاً إلى مسقط رأس «جنكيز خان» والأمة المغولية. حيث تراصت الأرض والأعشاب بثبات بسبب الصيف شديد الحرارة، وتموجت مثل البحر الواسع الفارغ. لقد كنا متجهين صوب طريقنا المُترب، ولم يكن هناك شيء ليعوقنا. لقد حولت الحرارة نهر «سبرنغر» الواقع على حدود الريف الإيسلندي، إلى مجرى هزيل، طريق يتجه مباشرة نحو الشرق من العاصمة، والذي أُشير إليه على الخارطة على أنه طريق رئيس، لكنّه في الواقع مسارٌ واهٍ للغاية لدرجة أننا لم نستطع رؤيته عندما عبرناه.

لقد توقفنا لمرة واحدة فقط، لكي نبدي مظاهر الحفاوة بحادثة نادرة: وهي ظهور عربة أخرى، عربة «UAZ» مثل العربة التي كنا نستقلها، وتقدم مثل هذه المناسبات فرصة للحديث وشرب السجائر، وقضاء الحاجة، و وقتاً للتأمل الوجيز الذي يطلق عليه المغول «التأمل في خيول بعضنا البعض»، وكان في العربة الأخرى زوجان مدهشان في شبابهما وجمالهما ودوليتهما. كان الشاب منغولياً ذا شعر قصير وخشن، أما الشابة نحيفة الجسم، الشقراء المتشردة «الأستونية Estonia» فكانت تشرب سيجارتها مقرفصة على فخديها. لقد تقابلا عندما كان يعيش كلاهما في طوكيو، فوقعا في الحب وتمت خطبتهما، ولكونهما جاءا من الحدود المقابلة للإمبراطورية السوفيتية السابقة، كان كلاهما يتحدثان اللغة الروسية كلغة ثانية رئيسة، ولكنهما تحدثا إلى بعضهما البعض باللغة الإنجليزية. قال الشاب وهو ينفخ الدخان من شفتيه المَزمُومتين، إن والده كان أستاذ تاريخ في الأكاديمية العسكرية في جامعة «UB»، وربما كان ينبغي أن أقابله، لكنّه لم يبادلني الاهتمام بالقدر الكافي لكي أتحدث معه حول ذلك الأمر، تماماً كما لو كان الكُتاب الإنجليز وجهين لعملة «توغرك» ملقاة على قارعة الطريق من «أفراجا».

لقد كانت هذه الأراضي جزءاً من منغوليا ما قبل التاريخ. ثم انتقلنا من سلسلة تلال منخفضة إلى سهل خلفته مياه فيضان نهر صغير راكد، وهو نهر «خورخ»، الذي تكونت على أحد أطرافه بحيرة صغيرة ضحلة في وقت ما، وقادنا «باتور» باتجاه سلسلة أخرى من التلال ذات الصخور البارزة، التي انتشرت من خلالها ذكريات الماضي مثل الخارطة، ولم نشاهد

أية «خيمة ger» هناك، ولكنني كنت أقف في مكان كان ذات يوم مأهولاً بالتقاليد المغولية، فمنذ آلاف السنين، امتد النهر الواقع في الأسفل لعدة أميال، مكوناً منطقة خصبة جذبت مجتمع العصر الحجري، وكانت سلسة التلال التي توقفنا فوقها التي كانت ضفة بحيرة مرتفعة ومليئة بالصخور البارزة المشهورة بالتوائها وكهوفها السطحية، في الماضي مصنعاً، وكانت نقوشاً من الأشكال البشرية والحيوانية غير واضحة بشكل جلي على الحوائط، وعندما كنا نتجول أسفل المنحدر، توقف «باتور» وأشار إلى شيء. ثم حمل حفنة من الحجارة مختلفة الألوان، جميعها مصنوعات يدوية قُطعت إلى قطع صغيرة - رؤوس سهام ورؤوس حراب وسكاكين - التي لا بدّ أنها استُخدمت وتوجر بها عبر منغوليا، إذ كان ذلك الوادي الواسع وكثير الاستخدام والوادي الآخر المقابل له، الذي تكون من نهر «الأونون»، أول مكان استقر فيه المغول في حوالي عام 800 م.

وإذا ما تجاهلت البلدة الصغيرة في «بيندر»، بمنازلها الخشبية المعتمة ومساراتها الممتلئة بالحفر، فإن نقطة الاتصال بين نهري «الأونون» و«خورخ» تبدو اليوم واضحة كما كانت عليه في السابق، ومازال المغول يشعرون بالراحة مع الأرض المُعْشَوشبة والممتلئة بأشجار التَّنوُّب وأشجار القَيقُب المتناثرة، والوادي المليء بالروابي اللطيفة وسفوح التلال الممتدة على جانب النهر، وخرير نهر «الأونون» بهدوء فوق المياه الضحلة، واليوم، لا يحتاج القادمون الجدد لنصب الخيام، فعلى المنحدر المطل على النهر انتصب المعسكر الصيفي المليء بخيام العطلة، في صفوف منتظمة خلف سور طُليَ حديثاً. لقد كان مكاناً مهجوراً، بلا ضيوف ولا موظفين. لكن تبع تلك الفترة سلسلة من الأحداث المغولية العشوائية العادية التي أصبحت من خلالها المشاكل مصدراً للملذات، وقد لوحظ وصولنا إلى المدينة، وظهرت سيارة في الأفق، مقلّة شابتين ترتديان عباءتين زرقاوين، أثواب تقليدية رائعة تغطي كاحل القدم، وحاولتا تشغيل المولد لتشغيل المصابيح الكهربائية وجهاز طبخ المطعم. لكن لم يكن هناك وقود، فنقلهما «كيشيج» إلى المدينة و عاد بهما مرة أخرى، فدبت الحياة في المعسكر، بالضوء والطعام والأخبار الطيبة: كان لدى مكتب بريد مدينة «بيندر» تلفزيون أبيض وأسود، وكان ذلك يوم الأحد، الموافق الثلاثون من يونيو، وبعد تناول طعام العشاء انطلقنا إلى المدينة، واحتشدنا في الكوخ الخشبي الذي يعمل مثل مكتب بريد، وشاهدنا من

خلال الضباب الساكن وفودكا جنكيز خان، فريق البرازيل يهزم ألمانيا اثنين مقابل صفر في نهائي كأس العالم.

ولا بد أن تلك الزمرة من المغول الذين وصلوا إلى «خنتي» في حوالي ثمانمئة ميلادية قد رأوا ملتقى النهر تماماً مثلما رأيته في صباح اليوم التالي: غابة في الجانب المقابل لونت بشروق الشمس، والأرض اللينة المشبعة بالهواء من خلال جحور فأر الحقل التي تغطيها عشرات الأنواع من الأعشاب والزهور البيضاء والصفراء والشجيرات القصيرة، وتدفق تغريد طائر القبّرة من السماء ذات النقاء المطلق، وكانت التلال البعيدة نضرة في الهواء الصافي تماماً مثل الخيام في الأسفل، وبالطبع كانت مدينة «بيندر» أكثر قفراً في ذلك الوقت. أما اليوم، فهي عبارة عن مبانٍ خشبية مدهونة باللون البني الداكن وتقع على بُعد عدة كيلومترات، ويوجد بها عدد قليل من الحيوانات، وفي ذلك الوقت، لا بدّ وأنه كان هناك الغزلان ذات الذيول البيضاء تعدو برشاقة، مخلفةً خلفها سُحباً خفيفة من الغبار. أما الآن فقد شُردت الغزلان إلى مناطق نائية من صحراء «غوبي»، إذ كانت «بيندر» بقعة جيدة للغزلان المهاجرة، فالأعشاب كانت وفيرة، وكان يمكن لحيواناتهم أن تتوالد، وعند منبع النهر، قدمت التلال الحرجية لجبال «خنتي» الطرائد، كما قدمت ملاذاً في الحرب لأولئك الذين يمكن أن يتتبعوا آثار الأيائل إلى الوديان ذات المنحدرات الحادة والمرتفعات القاسية.

وبعد عدة قرون، ستدعي أساطيرهم بأن هؤلاء الناس كانوا أحفاد الذئب والظبية، وربما، في ذلك الوقت، عرفوا بشكل أفضل - بأن سلالة العشيرتين سميت باسم الذئب والظبية، وربما سجّلت قصصهم الشعبية أيضاً نشأتهم، في الجبال شمال البحيرة السيبيرية الكبيرة، «بايكال»، أو في «منشوريا» وفي الوقت الذي سُجلت فيه أساطيرهم المتبقية في كتاب التاريخ السرّي، بعد ما يقرب من خمسمئة عام، كانت الذاكرة الشعبية قد ضعُفت، تاركةً فقط إشارات واهنة لأسلاف الحيوانات و«عابري البحار»، وعلى ما يبدو أن هذه المجموعة المهاجرة أطلقت على نفسها اسم المغول، أو شيئا من هذا القبيل، وهو الاسم الذي التقطه الصينيون وحرفوه إلى «مينغ - كو Meng - ku» أو «منغ - وو Meng - wu». ماذا كان يعني ذلك الاسم؟ هذا إن كان يعني شيئاً، لا أحد يعلم ذلك.

وكانت هذه المنطقة الحدودية، حيث تتقابل جبال وغابات الشمال مع المراعي الجنوبية،

بمنزلة اختبار قاس حولت الصيادين الذين يقطنون في الغابات إلى رعاة يسكنون السهول، صانعة منهم خبراء في طريقة حياة مختلفة تماماً عن الأنظمة التي هيمنت على أغلب التطور الاجتماعي الإنساني.

وفي عام 800م كانت هذه الخبرة أمراً جديداً نسبياً، وذلك بالنظر إليها في الإطار الأوسع للتاريخ وما قبل التاريخ، إذ عمل البشر صيادين لحوالي 90 ٪ من المئة ألف سنة التي عاشوها على الأرض، باذلين أقصى ما في وسعهم للتكيف مع التغيرات الموسمية، وعادات الحيوانات وسخاء الطبيعة، ومن حوالي عشرة آلاف سنة خلت، عجّلَ تراجع آخر الطبقات الجليدية العظيمة من وتيرة التطور الاجتماعي، وأصبح التغير لا يُقاس بالحقبات إنما بآلاف السنين. كما ظهر نظامان آخران في تتابع سريع، أحدهما كان في الزراعة، ففي عام 5000 ق.م ملأت المجتمعات الزراعية هوامش القارات، منتشرة على طول الأنهار الكبيرة في مصر وبلاد الرافدين والهند والصين، ومنذ هذه الثورة، تعاقبت التغيرات التي جاءت لتحدّد معالم عالم اليوم: النمو السكاني والثروة والترفيه والمدن والفن والأدب والصناعة والحروب واسعة النطاق والحكومة: وهي معظم الأشياء التي تساويها المجتمعات الحضرية بالحضارة.

أما النظام الثالث (بعد الصيد والزراعة) الذي بدأ المغول الأوائل في استغلاله بالفعل، فكان نظام القطعان والرعاة المتجولين - البداوة الرعوية، كما يطلق عليها، ومنذ قرن من الزمان، كان النمط السائد لدى المؤرخين الأوائل رؤية التطور التدريجي المنتظم الذي ينقلنا من بربرية متجولة إلى حضارة ثابتة، كما يلي:

الصيد > البداوة الرعوية > الزراعة > الحياة المدنية

لكن طبقاً للتفكير الحالي، لم يكن الأمر كذلك، فالآن تتوافق الآراء على أن الزراعة جاءت في المرتبة الثانية، موفرةً مصدرًا من الحيوانات الأليفة الطيعة التي من خلالها أصبح لدى الرعاة متسع من الحرية لتطوير مرحلة البداوة الرعوية، وهذا يفسح المجال لتسلسل مختلف:

البداوة الرعوية

الصيد > الزراعة + الرعي

وبعبارة أخرى، لم تكن الحياة البدوية الرعوية أسلوب حياة «بدائي» إنما أسلوب متطور مثل الزراعة، وعندما حدث هذا التغيير - في حوالي 4000 ق.م، في جنوب روسيا وغرب سيبيريا - أشار إلى وجود عالم جديد: بحر الأعشاب، أو السهل (اعتمدت اللغة الانجليزية المصطلح الروسي) الذي يغطي «أوراسيا» لأكثر من 6000 كم من «منشوريا» إلى «المجر».

أما فيما يتعلق بالصيادين والمزارعين، فإن السهول لم تكن شيئاً واعداً، إذ كانت المراعي في آسيا الوسطى المتدفقة عبر قلب أوراسيا بين «التندرة» والصحراء، وبين الغابة والجبل، مرتفعة ومكشوفة ومروية بشكل سيئ، ومن جبال «الأورال Urals» وحتى المحيط الهادئ، لا يوجد سوى القليل من الأراضي لإقامة بؤرة استيطانية، فالأنهار الكبيرة، التي تُعد في أماكن أخرى شرايين الحضارة، تتدفق شمالاً نحو الأراضي القطبية القاحلة، أو تتدفق بلا فائدة في البحار الداخلية، ويجري نهر «الآمور»، الذي يتدفق فيه نهر «الأونون» شرقاً لمسافة 300 , 4 كم، لكنّه يتجمد على مدار ستة أشهر من السنة، وعلاوة على التأثيرات المعتدلة لأي محيط كان، فإن درجات الحرارة تصل لأكثر من 40 درجة مئوية (104 فهرنهايت) في الصيف، بينما يمكن لعاصفة شتوية أن تُجمد اللحم المكشوف في غضون دقائق (وبالتالي: للحفاظ على اللحم خلال الشتاء في المدينة أو الريف، كل ما تحتاجه ببساطة هو أن تترك اللحم في العراء).

وفي هذا المحيط من المراعي المنغولية الخضراء التي تشكل هوراً بطول 1600 كم وعرض 500 كم، فإنها ارتبطت بالسهول الأبعد إلى ما وراء الممرات الجبلية التي تجري غرباً بين سلسلة جبال «ألتاي» وجبال «تيان شان»، وشرقاً على طول وادي نهر «الأمور» وحتى «منشوريا»، ولكونها حُصرت من الشمال بجبال وغابات سيبيريا، ومن الجنوب بأراضي صحراء «غوبي» القاحلة المليئة بالحصى، شكلت بيئة تحدٍ للإنسان، وكذلك «الأراضي المستوية» التي تقع على مسافة 1200 كم فوق مستوى سطح البحر، وفي صحراء «غوبي» وفي الصيف الحار، تهبط درجات الحرارة التي تصل إلى أكثر من 40 درجة مئوية نهاراً تاركة طبقة من الصقيع على الخيام ليلاً، ومن شهر نوفمبر وحتى أبريل، ما زال سكان الريف يحصدون الماء ككتل الثلج ويذيبونها على النار.

ووجد المزارعون أن بإمكانهم كسب العيش فقط على شواطئ المحيط العشبية، حيث تمتد إلى غابات غير دائمة الخضرة ومنطقة عشبية من أشجار متناثرة، أو في واحات نادرة و وديان نهرية خصبة، وعانى أولئك الذين يعيشون على أطراف تلك المناطق الصالحة للسكن من أوقات أكثر قسوة، وكان لديهم أكثر من حافز للبحث عن شيء أفضل خارج ذلك الكون من الأعشاب الذي عند استغلاله على الوجه الصحيح، سيوفر الطعام والخيول وأعداداً متزايدة من السكان والجيوش وفي نهاية المطاف إمبراطوريات، وبالطبع لا يوجد مثيل لمثل تلك النهايات في المستقبل المنظور، وخاصة للمجربين غير المسجلين الذين كانوا أول من وطئت أصابع أقدامهم بحر الأعشاب، ولابد أن التقدم نحو المراعي كان نتيجةً لعدد لا يحصى من المحاولات والأخطاء والطرق المسدودة والتراجعات، حيث إن الحيوانات التي كانت في يوم من الأيام فريسة تم أسرها ووضعها في حظائر وتربيتها وأكلها وترويضها وأخيراً رُكوبها، إذ أثبتت الكثير من الأنواع أنها مطيعة: مثل حيوان الرنة في المنطقة الحدودية من سيبيريا ومنغوليا، والياك في التبت، والجمال في المناطق شبه الصحراوية. لكن واحداً من هذه الحيوانات على وجه الخصوص أصبح المفتاح الذي فتح الباب أمام ثروة المراعي، وهو الخيل.

لقد بدأ ترويض الخيول في آسيا منذ عام 4000 ق.م حسب تأريخ أحد المواقع الأثرية أسفل نهر «الدون»، ففي البداية - كما تكشف عظامهم المكدسة هنا - رُبيت الخيول من أجل الغذاء، ومن ثم شيئاً فشيئاً على نحو لا يمكن قياسه، حدثت ثورة، إذ وجدت سكين يرجع تاريخها إلى حوالي عام 2000 ق.م، في أعلى نهر «الأوب»، تُظهر رجلاً يمسك خيلاً مربوطة، ففي ذلك الوقت على ما يبدو، كان الناس يروضون وحشية هذه المخلوقات سريعة الهيجان، مستخدمين قطعاً من البرونز لفرض إرادتهم، محولين الفريسة إلى شريك، مُربين ومكيفين الخيل على الطاعة والقوة والتحمل، وبعد أكثر من ألف سنة أخرى من التطور القسري، ما زالت هذه السلالة الجديدة تبدو متوحشة - ممتلئة الجسم وسميكة العنق وشعثاء الشعر - لكن طابعها كان مختلفاً تماماً، فالخيول المنغولية اليوم تشبه ما كانت عليه بالأمس، ففي نظر الأوروبيين فهي ليست مخلوقات جميلة فحسب، ولكنها عنيفة كما هي دوماً، تتغلب على جو الشتاء القارص، جارفة الثلوج بعيداً لكي تصل إلى العشب الموجود في الأعماق،

فالطقس الأكثر شراسة - مثل العاصفة الجليدية، التي تُغلق المراعي بدرع منيع - فقط يمكن أن تقتلها، وعلى مدار سنوات عديدة، بقيت على قيد الحياة لتتوالد بأعداد تفوق احتياجات السكان، وبحلول عام 1000 ق.م أصبحت الخيول في آسيا الوسطى هي وسيلة المواصلات الرئيسة و وسيلة مساعدة في رعاية القطعان وعون لا يقدر بثمن في الصيد وعنصر أساسي في الحرب: الدعامة الأساسية لاقتصاد المراعي.

إنّ روح الخيل المنغولية أمرٌ يبعث على الدهشة حقاً، ففي الحادي عشر من يوليو، اليوم الوطني - «نادام» - تنظم كل منطقة سلسلة من سباقات الخيل، فرسانها من الأطفال، الذين يصل متوسط أعمارهم حوالي عشر سنين، ويمتطون الخيول غير المسرجة، لكن الحدث لا يُقام لاختبار الفرسان إنما لاختبار الخيول، التي تجري لمسافة تفوق العشرين كيلومتر في العديد من الفئات العمرية، ويتسابق أفضلهم خارج العاصمة، «أولان باتور»، ففي عام 2002 كنت عند نهاية خط السباق لمشاهدة الأطفال في سن الخامسة يدخلون مجتازين الحشد الذي تغمره النشوة والحماسة، وكان الكثير منهم يمتطون الخيل بأنفسهم، يشقون طريقهم دافعين أولئك الذين يقفون على الأقدام أمامهم، منتظرين ظهور الخيل فوق المراعي الممتدة، وعندما شرعوا في الانتشار، وساروا في خطوط لعدة كيلومترات، كانت بعض من هذه الخيول قد اقتربت من الإعياء الكلي، إذ وقف إحداها على أرجله المرتجفة على بعد مترين من خط النهاية، وضربه الفارس البالغ من العمر عشر سنوات بالسوط ورفسه لكن دون جدوى، فترجل عن فرسه وسحبه من اللجام. لكن الفرس لم يبدِ أية استجابة، وأصبح الجمهور أكثر إثارة، بعد أن شقت الخيول الواحد تلو الآخر طريقها في سديم من الغبار والعرق، وفي نهاية المطاف، اندفع ثلاثة رجال إلى الأمام وسحبوا ودفعوا وتملقوا إلى الحصان لكي يسير إلى الأمام، ولأنه فيما يبدو يعرف ما سوف يحققه، تقدم بعض الخطوات غير المستقرة، وعبر خط النهاية، ثم توقف مرة أخرى لبضع ثوانٍ، وعندئذ انقلب على جانبه، فتجمهر المزيد من الناس حوله، وتناوبوا على ركله لإرغامه على النهوض مجدداً، تحديداً، برفسه في القلب، مستخدمين كل السبل الممكنة والقوة المُفرطة والضربات التي تستخدم على سبيل العقوبة، فهو الأسلوب المعتاد في مثل تلك الحالات، وفي بعض الأحيان يحقق هذا الأسلوب نجاحاً. لكن في هذه المرة، لم يجدِ نفعاً، فتجمع المزيد من الرجال حوله وسحبوه من اللجام لإيقافه

على قدميه، إلا أنه انهار مرة أخرى. لقد كان جثة هامدة، وبينما كان الفارس الصغير جاثماً على الأرض يذرف الدموع بجانب حصانه المحبوب، وصلت رافعة ذات أصابع فولاذية لنقله بعيداً. لقد كان الحدث برمته مزعجاً بالنسبة للسياح الغربيين: لكن مثل هذه الوفيات تحدث كل عام، وفي الكثير من السباقات، في جميع أنحاء البلد، وكانت الرافعة ذات الأصابع الفولاذية منشغلة بحالات أخرى مماثلة على طول المسار، وبدون أدنى شك سوف تكون منشغلة مرة أخرى. لقد كان هذا تطوّرًا في الأداء، فالحيوان الأقوى فقط يبقى للتربية، وتكون النتيجة ليس فقط مخلوقًا شرسًا بما يكفي للعيش في فصول الشتاء الضارية، بل أيضاً مخلوق يتمتع بالشجاعة الفطرية المطلقة لزج نفسه للموت إذا طُلب منه ذلك - وهي سمة مفيدة عندما يُنقل المحاربون عبر أرجاء أوراسيا.

لقد اعتمدت الأنواع الأخرى من البداوة على حيوانات الرنة والياك الأكثر تحملاً، لكن الخيل - الأسرع والأكثر تكيفاً مع الامتطاء - يمنح إحساساً خاصاً بالتفوق، وتنعكس هذه الخبرة الفروسية في اللغة والموقف، وسيُخبرك المغول بأن لديهم أكثر من مئة أو ثلاثمئة، أو عددًا آخر هائل من المصطلحات المتعلقة بالخيل. لكن عدداً واحداً على الأقل يمكن تحديده. إنه الرقم 169، استناداً إلى دلالة الرقم 13 في التراث الشعبي المغولي، ووفقاً لهذا النظام من التصنيف الغامض، يوجد ثلاثة عشر لوناً أساسياً للخيل (ابتداءً من اللون الكستنائي إلى اللون الرمادي) ولكلٍ منها ثلاث عشرة تقسيمة فرعية (أحد التقسيمات ذات اللون الكستنائي «رائعة أثناء عدوها قادمة من مكان بعيد بلونها الكستنائي»)، وهكذا يمكن معرفة الخيل من خلال اللون وبنية الجسم العامة وبعض السمات الثانوية (مثل العنق أو الذيل) وكذلك القدرة والسمة، وأي مزيج من هذه الصفات.

وحيث إن المغول عرفوا بالفعل أنهم عند صعودهم إلى أعالي وادي نهر «الأونون» فإن راعي القطيع سيكون حراً في جَوْب المراعي واستغلالها وذلك من خلال تربية الأنواع الأربعة الأخرى من الحيوانات الداجنة - الأغنام والماعز والجمال والماشية (مع إحلال حيوانات الياك محل الجمال في الجبال) التي يؤخذ منها اللحوم والشعر والجلود والروث للوقود، واللباد للملابس والخيام، ومئة وخمسون مُنتجًا آخر من منتجات الألبان، بما فيها المشروب الرئيس لراعي القطيع، وهو بيرة حليب أنثى الفرس المُتخمر بشكل معتدل،

ويعرف هذا المشروب في معظم أرجاء آسيا الوسطي بالمصطلح التركي «كومس kumiss» وباللغة المنغولية «إراج»، وقد كتب «الراهب وليام Friar William» من مدينة «روبروك Rubrouck» في شمال شرق فرنسا، أحد أوائل الأوروبيين الذين زاروا القصر المغولي في القرن الثالث عشر: «طالما يشربه الشخص، فإنه يلدغ اللسان مثل الخل»، وأضاف قائلاً: «عندما يتوقف الإنسان عن الشراب، فإنه يترك على اللسان طعم حليب اللوز ويُبهج روح الإنسان بشدة»، ويمكن لشراب «إراج» - بالفعل، الحليب المستخرج من أي من «الحيوانات الخمس» - أن يُركّز بشكل أكبر حتى يصبح مُسْكِراً قوياً يشبه مشروب الفودكا، لكن بنعومة النبيذ الجيد، وهذا أيضاً يُبهج روح الإنسان إلى حدٍ كبير.

وعلى هذا الأساس، تطورت الحياة البدوية الرعوية إلى حياة على درجة عالية من التخصص، حيث استطاعت - بشكل نظري - أن تتمتع باكتفاء ذاتي كامل. لكن ذلك لم يكن، إذ كان ارتباطها بالثقافات والبيئات الأخرى دوماً حيوياً، سواء في مجال التجارة أو الحصول على المواد الأساسية.

ولنأخذ، على سبيل المثال، «الخيمة المغولية ger» (تلفظ بتشديد الحرف g، وتتناغم مع لفظ كلمتي «bear» و«dear»)، فقد كانت مقببة ومستديرة لتتحمل الرياح العاتية دون الحاجة إلى حبال التثبيت، وتُصنع الخيمة اليوم، كما كانت تُصنع دوماً، من خلال بسط طبقة أو طبقتين من اللباد الصوفي السميك فوق سقف من العصي والتعريشات. أما أولئك الذين يُحبون أن يصوروا بطريقة رومانسية أسلوب الحياة البدوية المخصص والمثير فكثيراً ما يمدحون الخيمة كشيء مثالي، كما لو نشأت من السهول نفسها، ولكنها لم تكن كذلك، فقد تطورت من أصول الغابة، فجدرانها الشعرية وسقفها المصنوع من العصي يُصنع من الخشب، والخشب نادر الوجود في السهول، وكان الطراز البدائي للخيمة البدوية في الأصل عبارة عن خيمة غابة، وهي خيمة مخروطية مقوسة في بنيتها التي يستخدمها صيادو اليوم من حين إلى آخر كمأوى ليلي، وعندما نضجت الحياة البدوية الرعوية، وجد الرعاة أن بإمكانهم استخدام الخيول والعربات لحمل المزيد من العتاد، وجعل الحياة أكثر راحة وسهولة، وكان من إحدى وسائل الرفاهية تحويل الخيمة المخروطية ذات السقف المنخفض إلى منزل فسيح وذلك بإضافة المزيد من الجدران، ورفع الخيمة لتشكل سقفاً. لكن الخشب اللازم لصنع

الخيام البدوية والعربات كان لازال يأتي من الغابة، وبالرغم من أن البدو القاطنين في السهول استطاعوا التمتع بالاكتفاء الذاتي، إلا أن وجود الخيام البدوية والعربات عمل كمُذكر لأولئك البحارة القاطنين في محيط من الأعشاب بأنهم احتاجوا إلى منافذ لغاباتهم لكي يعيشوا بشكل جيد.

ولقد امتلكت مجموعتنا المنغولية بالفعل أداة أخرى حيوية للسلم والحرب، وهو القوس المُركب، أو القوس المُنحني. لقد كان القوس المُركب، المتشابه في التصميم في جميع أرجاء أوراسيا، يختلف كثيراً عن القوس الإنجليزي الطويل، وجميعها أقل إثارة للإعجاب عند النظر إليها للوهلة الأولى، فالقوس المركب الحديث منزوع الأوتار ما هو إلا مخلب من البلاستيك الأسمر الفاتح بطول ثلاثة أقدام، لكن لو ثنيت إحداها فوق فخدك وشعرت بقوته الكامنة ستدرك السبب في تصنيف هذا الجسم الصغير مع السيف الروماني والمدفع الرشاش كسلاح غيّر وجه العالم.

لقد كانت مكونات القوس المركب - قرن وخشب ووتر وغراء - متوافرة بسهولة، وكانت البراعة تكمن في كيفية تركيبها بشكل صحيح، ولابد أن هذا حدث كنتيجة لسلسلة من الاكتشافات العابرة في زمن الحلم الذي لم يتم رصده قبل حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف سنة خلت، فلك أن تتخيل ساكن الغابة، شخصاً عادياً بقوس خشبية أساسية، يقوم بكسرها. ثم يكتشف أن قطعة من قرن الأيل - أو قرن البقرة، إذا كان يمتلك ماشية - تكون لينة مثلها مثل الخشب، ثم يبري شريطاً قصيراً ليستخدمه كوصلة، كما إنه يكتشف أيضاً استخدامات لأعضاء أخرى من الحيوانات، فأي صياد يطهو بقايا حيوان سيُخَلِّفُ وراءه بعض الأوتار، التي وبعد عدة أيام من الغليان البطيء ستنتج غراءً قوياً. (بدلاً من ذلك، يمكن أن يصنع الغراء من أجزاء خاصة من السمك. كان غراء السمك مادة قيمة للتجارة عبر آسيا). كما إن سحق الوتر بالحجارة يحوله إلى خيوط منفصلة، تثبت فائدتها كروابط، وسيلاحظ أن القوس الخشبي، الذي يجمع الآن بين قرن ووتر، سيعمل في الحقيقة بشكل أفضل، فالقرن يقاوم الضغط، ويشكل وجه القوس من الداخل، وتقاوم الأوتار ذات النوع الجيد - أفضلها وتر العرقوب - الامتداد، وتوضع على الوجه الخارجي للقوس، وهذه مجرد لمحة عن أساسيات فن صناعة أقواس الرماية، وهذا الأمر يحتاج إلى سنوات لإتقان استخدام المواد - العروض والأطوال

والسُمك والفتائل ودرجات الحرارة والوقت المناسب لتثبيت الشكل وعدد لا يحصى من التعديلات الثانوية، وعندما تُطبّق هذه الخبرة بشكل صحيح مع مهارة وصبر - يستغرق الأمر عاماً كاملاً لصنع قوس مركب - فتكون النتيجة قوساً ذا مواصفات رائعة.

وقد تطورت الأقواس المركبة، التي كانت قيد الاستخدام بحلول الألفية الأولى قبل الميلاد، إلى أسلحة تستحق مقارنتها بالبنادق، فعندما تُدفع بقوة إلى خارج القوس والوتر المعكوس، فان القوس القوية تبدو ثابتة مثل زنبرك السيارة، ولسحب قوس «ثقيلة» فعلاً، فإنك تحتاج إلى بذل قوة تعادل قوة السحب بذراع واحدة وثلاثة أصابع فقط، وفي وقت لاحق، استخدم رُماة السهام الأتراك خاتم الإبهام لسحب القوس، لكن الفرسان المنغوليين رُماة السهام، الذين كانوا يطلقون السهام وهم يعدون بالفرس، لم يعتمدوا على شيء سوى استخدام الأصابع التي تصلبت من كثرة الاستخدام.

إن القوة التي يمكن تخزينها في هذه المساحة الصغيرة من القرن والخشب والوتر مدهشة حقاً، ففي القرن الثامن عشر، أصبح خبراء الرماية الإنجليز مولعين بالأقواس المركبة التي استخدمها الأتراك، فقد ذُهلوا عند اكتشافهم أن القوس التركية - تشبه السلاح المنغولي بشكل أساسي - فاقت بكثير القوس الإنجليزية الطويلة، فالأقواس الطويلة نادراً ما تطلق لمسافة أبعد من ثلاثمئة وخمسين ياردة (الرقم المسجل عالمياً 479 ياردة)، ومع ذلك وفي التاسع من يوليو لعام 1794، في ساحة خلف ميدان «بيدفورد Bedford» بلندن، أطلق سكرتير السفير التركي، محمود، سهماً باستخدام قوس مركبة، لمسافة 415 ياردة بعكس اتجاه الريح، وسهماً آخر لمسافة 482 ياردة في اتجاه الريح، وقال محمود بكل تواضع: إن هذا لم يكن بالشيء الكبير، فسيده، سلطان اسطنبول، كان رامياً أكثر قوة، وفي الحقيقة، في عام 1798 لكي يرقى السلطان إلى مستوى سمعته المفترض، أطلق سهماً لمسافة 972 ياردة، أي بما يزيد على نصف ميل، من المسافة التي يزعم أنها قيست في حضور السفير الإنجليزي للإمبراطورية العثمانية، السيد «روبرت أينسلي Robert Ainslie». لكن الرماة المعاصرين لم يصدقوا ذلك بكل بساطة، فاليوم ومع وجود المواد الحديثة والسهام المصنوعة بشكل خاص من الكربون، تطلق الأقواس المركبة المحمولة باليد لما يقرب من ثلاثة أرباع الميل، بالرغم من أن الأقواس الخشبية تقذف لما يزيد على ستمئة ياردة بقليل. لكن ربما أن ادعاء

السلطان لا يمكن أن يُرفض رفضاً قاطعاً، فالرقم العالمي المسجل لسحب قوس باستخدام قوة العضلات فقط يزيد على مسافة ميل، وقد سُجل ذلك الرقم في عام 1971 من شخص أمريكي يدعى، «هاري دريك Harry Drake» مستخدماً قوساً تزن 300 رطل أطلقت وهو مستنداً على ظهره، وساحباً بكلتا يديه القوس المثبتة على قدميه، مطلقاً سهماً كربونياً رقيقاً كإبرة حياكة، وقد وصل لمسافة 2,028 ياردة (1،854 متر).

ويُعد إطلاق السهام من على بُعد - الرماية الطائرة - نشاطًا متخصّصًا، حيث إنّ سهام الإبرة الصغيرة القاسية لا تصوب نحو أهداف، وذلك لأن المسافة لا تجتمع بسهولة مع الدقة، لكن الرماة المغول عملوا على تحقيق كلا الأمرين، كما تكشف واحدة من أقدم النقوش المغولية، كانت قد نُقشت على حجر ارتفاعه متر، ربما في منتصف العشرينيات لعام 1200، والذي عُثر عليه في عام 1818 عند جنوب نهر الأنون بالقرب مما يسمى اليوم بمدينة «نركينسك» على خط سكة حديد سيبيريا، وهو موجود الآن في متحف «الأرميتاج»، في سانت بطرسبرغ، وقد نُقش عندما عاد جنكيز من حملته العسكرية في تركستان» في طريقه إلى آخر حملاته على الصين، ولكونه عاد إلى أرض الوطن منتصراً، فأمر بإقامة احتفال بالألعاب الرياضية التقليدية: المصارعة وسباق الخيل ورمي السهام، وهنا قرر ابن أخ جنكيز - الأمير والقائد العسكري «يسينج» - عرض قوته ومهارته الأسطورية، فكانت النتيجة المذهلة جديرة بالذكر في هذا الأثر التاريخي، الذي جاء فيه: «بينما كان جنكيز يعقد اجتماعاً مع أصحاب المقامات الرفيعة من المنغوليين... أصاب «يسينج» هدفاً لمسافة 335 «ذراعاً»، والذراع هي المسافة التي يبسط فيها الرجل ذراعيه - دعنا نقول إنها تساوي 1.6 متر، أي حوالي خمسة أقدام وخمس بوصات، لذا، هنا كان الرجل الذي وضع علامة من نوع غير محدد على مسافة تزيد على 500 متر - وبعد ذلك، وعلى مرأى خان بلاده وأصحاب المقامات الرفيعة المجتمعين،أطلق سهمه. ربما كان الهدف كبيراً، مثل خيمة، وربما أنه أطلق عدة سهام، لكن بكل تأكيد لم يكن ليحاول لو لم يكن واثقاً من النجاح.

وفي تلك المسافة، بطبيعة الحال، يفقد السهم المنطلق عالياً وبشكل مقوس الكثير من قوته، ومن مسافة قريبة، لنقل من 50 إلى100 متر، فإن السهام المنطلقة من قوس «ثقيلة» لديها قوة اختراق تزيد عن الكثير من أنوع الطلقات، فهي تنطلق من القوس بسرعة تتجاوز

300 كم في الساعة – ربع سرعة الرصاصة، لكن نظراً لكونها أثقل من الرصاصة بعدة مرات فهي تحمل قوة مكافئة، ومن على بُعد مئة متر، يمكن للنوع الصحيح من السهام ذات الرأس السليم (التي كان يتوفر منها العشرات) أن تَنفذ خلال الخشب لمسافة 2 سم، لذا لم تعد الدرع تشكل الحماية الكافية.

ولم تعد الرماية المنغولية كما كانت عليه في السابق، وذلك بعد أن سُلبت من قوتها عبر ثلاثة قرون من الحكم الصيني، وبالرغم من أن الرماية بقيت واحدة من ثلاثة «ألعاب رياضية رجولية» إلا إن أقواس اليوم أصبحت أقواساً غير مُتقنة الصنع، مع مدى وسهام مثيرة للشفقة شُذِّبت مع الوسادات السميكة التي تُطلق السهام عليها، هل تصدق ذلك؟ فهي لم تعد أكثر من صفوف من سلال صُنعت من أغصان صغيرة لدنة تُصيب من على بُعد بضع عشرات من الأمتار، فالأقواس التي جربتها، تُطلق سهامها متذبذبة مثل قصبة في عاصفة وذلك لمسافة لا تزيد كثيراً على 50 متر، وحتى الآن لم أسمع عن أي شخص في منغوليا يصنع أقواساً على الطراز القديم، أو عن أي شخص دعم إحياء الرماية على الأسلوب القديم.

وما زالت هناك مرحلة نهائية في تطور المحارب البدوي، ولكي تكون فعالة بشكل حقيقي، يحتاج الرامي إلى نظام للقذف، ففي الألفية الأولى قبل الميلاد كان هناك إمكانيتان: الأولى، وبشكل واضح، كان الجواد. لكن كان من الصعب أن تمتطي ظهر حصان غير مُسرّج وتطلق السهام على الفور، لذا طور مجموعة من سكان آسيا الوسطى القدماء، ولاسيما «السكيثيين»، النوع الثاني من العربات، العربة ذات العجلتين، ومع ذلك، كانت منصات الإطلاق هذه السريعة والقابلة للمناورة، متوفرة فقط للناس المنظمين، شبه المدنيين الذين كان لديهم القدرة على الوصول إلى الأخشاب والنجارين والمناجم والحدادين المهرة، وكان على البدو الحقيقيين أن ينتظروا وصول الرِكاب، وهو اختراع ذو تأثير مساوٍ تماماً للقوس المركبة في تطور الحرب، وقد تطورت الرِكبان في وقت متأخر وانتشرت ببطء بشكل مدهش، وذلك ربما لأن الخيالة الخبراء يستطيعون تدبير أمورهم بدونه، وربما لأن العربة ذات العجلتين وفرت حلاً جزئياً لمشكلة استخدام القوس، وكانت الرِكبان أول ما سُجلت في الهند في القرن الثاني قبل الميلاد، كدعامات لإصبع القدم الكبير، ومن ثم نُقلت الفكرة إلى الصين، حيث ظهر رِكاب قدم حديدي مناسب في القرن الخامس الميلادي، ومن هناك انتشرت غرباً، وربما

وصلت أوروبا مع قدوم «الهونيين» في القرن الخامس على شكل جلد، بينما يرجع تاريخ أول رِكاب حديدي إلى القرن السادس.

لذلك وبحلول عام 500 ميلادية، تمتع البدو الرعويون في آسيا الوسطى بميزة عن المجتمعات المستقرة، فالرِكبان التي أُضيفت إلى السرج، واللجام الذي أُضيف إلى الشكيمة، تمكن الفرسان من المناورة ببراعة ضد العربات ذات العجلتين والسهام النارية والحِراب القوية أو حتى استخدام الوهق أثناء العدو بالفرس.

وتبقى هناك مشكلة حشد الجيوش والسيطرة عليها - وهنا يكمن الحل مرة أخرى في ثقافة البداوة الرعوية، فقد كان ركوب الخيل مفتاحاً لثلاث مهارات متداخلة: الرعي، والصيد، والحرب. لكن يبقى الصيد العنصر المركزي الذي يجمع العنصرين الآخرين، إذ كان الصيادون قادرين على صيد الحيوانات الضارية (وخصوصاً الذئاب، مصدر هلاك وجود الرعاة) وتوفير الفراء اللازم للملبس والتجارة، ولأن أعداد المغول تزايدت، أصبح الصيد أيضاً تدريباً على التعاون واستعداداً حيوياً للحرب، ففي فصل الخريف (لا في فصل الربيع ولا في الصيف حيث موسم توالد الحيوانات)، تجمعت العشائر لممارسة مناورات الصيد في تدريبات دامت لعدة أيام، حيث يقوم الكشافون باستطلاع المكان، وتتجمع فِرق من الصيادين، مكونين خطاً بعرض عدة أميال، وبعد ذلك، وعلى مدى أيام، يزحفون إلى الأمام ببطء، بمساعدة الفرسان السريعين الذين يجوبون المكان ذهاباً وإياباً مبقين القادة على اطلاع بالتقدم الذي تحقق، بينما يدفع الجيش الذئاب والغزلان وحتى نمر الثلج الموسمي نحو منطقة ضيقة إلى حيث تُقتل الحيوانات، ومثله مثل الحرب، فإن الصيد يتطلب دبلوماسية لتجميع مجموعات متباينة، كما يتطلب قيادة ومهارة استراتيجيّة وتواصلاً فعالاً لمسافات طويلة، وجميعها تُعزز بالفروسية الرائعة وقوة التحمل ومهارة الرمي، فالمجموعات التي تستطيع أن تصطاد معًا يمكن أن تحارب معًا.

ويمكن لهذا الأمر أن يتحقق إذا تمكنوا من البقاء معًا، لكن في ظل هذا العالم عديم الرحمة، لا يوجد إلا القليل ممن يمكن الاعتماد عليهم، وبالرغم من القوانين المعقدة التي تحكم الوصول إلى المراعي، إلا أن النزاعات كانت مستوطنة، وكان العنف سائداً، فلم تكن الحرب شيئاً منفصلاً عن السلم - فقدماء المغول لم يكن عندهم كلمتا «جندي» أو «مدني» إذ

كان كل راعٍ للقطيع يمثل الاثنتين معاً على حد سواء، ولم يتطلب القتال استثماراً ضخماً في المعدات، ولم يكن هناك حاجة للتخلي عن طريقة حياة وتبني طريقة أخرى، فقد امتد الصيد والرعي بسرعة وبسهولة ليصل إلى الإغارة على الماشية، واختطاف الرؤساء المنافسين أو زوجاتهم، والثأر من المذنبين أو حتى الحرب الكاملة، فكل رجل وامرأة وكل عائلة كان لها ارتباطاتها، ولكنهم جميعا كان عليهم التعاون عند الضرورة - لأجل المراعي وتبادل السلع وتزاوج الشركاء - ولاختبار الحدود الخطيرة حيث واجهت الروابط العائلية والصداقة أراضي العدو، وقد يهب شاب نفسه لقائد، وقد يُقسم أصدقاء على الأخوة الأبدية، لكن كل هذا يمكن أن يتبخر، فالقائد الذي لم يَعد قادراً على ضمان الحماية والغنيمة سوف يشهد تلاشي قاعدة قوته الساخطة في سحابة من الغبار عبر السهل، واليوم، وكما هو الحال دوماً، أصبح المغول فرديين بطرق تسحر وتُغضب الغرباء على حدٍ سواء، ولا عجب في أن الولاء لجنكيز كان المعادل الأخلاقي للذهب النادر، المكتسب بمشقة والمفقود بسهولة.

وبالرغم من أن المغول كانوا متطورين في طرق حياتهم البدوية الرعوية، إلا إنهم كانوا يفتقرون إلى بعض التحسينات الأخرى، فالمبشرون الذين عملوا على نشر البوذية والمسيحية بين القبائل التركية المجاورة لم يتركوا أي أثر عليهم، لقد كانوا شامانيين، يحتفظون بمعتقد قديم بقداسة الأحداث والكائنات الطبيعية، فالأنهار والينابيع والرعد والنار والشمس والريح والمطر والثلج وأشياء من هذا القبيل كانت قد غُلفت بشيء ذي مغزى يماثل مجالات الأرواح، بينما راقبت القوة العليا، السماء الزرقاء، «إيخ تنغر»، الأحداث التي تجري على الأرض بإحسان من على بُعد، وكلمة «تنغر Tenger» تعني كلاً من «السماء sky» و«إله heaven» مثلما تعرف في الكثير من اللغات، وحدث الاختلاف في وقت لاحق من خلال التحول في التأكيد، حيث حلت كلمة «أزرق Blue» بدلاً من كلمة «أبدي Eternal» على نحو متزايد، ويمكن للناس العاديين أن يشعروا بالإله بشكل خافت إذا تسلقوا القمم الأكثر علواً، أو من الشامانيين عندما يقرأون الأحاديث المشؤومة المكتوبة على عظام كتف الماشية المحروقة، وكان هذا الاعتقاد شائعاً عند كل شعوب آسيا الوسطى، كما كان «تينغر Tenger» (ولفظ أيضاً تنغري Tngri أو تانغرا Tangra أو تينغري Tengri) هو إله القرن السادس عشر للقبائل التركية التي هاجرت غرباً وأصبحت في نهاية المطاف تشكل الشعب البلغاري،

ويرد ذكر هذا الإله في نقش يوناني من القرن الثامن عشر على تمثال ضئيل من البروز يُعرف باسم «فارس مادارا» في بلغاريا الشرقية.

ومنذ البداية، شعر أسلاف المغول بأن وطنهم المكتشف حديثاً كان نعمة، إذ بدؤوا في استكشاف أراضيهم الجديدة والخروج إلى المراعي مع قطعانهم والعودة إلى الغابة للصيد والخشب وكانوا يتسلقون قمتها المركزية الضخمة، وهي القمة التي تعرف الآن باسم «خان خنتي Khan Khenti» الملك خنتي، فتسلقها لم يكن صعباً، وذلك لأن قمتها البالغ ارتفاعها 2.452 متراً لا تكاد تُذكر مقابل جبال «الألب Alps» أو جبال «روكي Rockies»، وثلوجها لا تدوم صيفاً، ولا يوجد بها نهر جليدي، وعند أعلى نقطة من الهضبة الجرداء العاصفة، سيفحص المغول موقع الجبال، والطريقة التي تدفقت فيها الأنهار العظيمة من المرتفعات - نهر «أونون» من الشرق ونهر «خيرلين» من الجنوب ونهر «تولا Tula» من الغرب، وحيث إنهم ازدهروا وتقدموا، فقد أصبحوا يرون هذا الجبل كمركز روحي لعالمهم، وهنا، شعروا بأنهم الأقرب إلى الروح الكريمة التي جاءت بهم إلى هنا، التي ستقودهم إلى القوة والرخاء، وأطلقوا على تلك القمة اسم قمة كالدون المقدسة «ساكريد كالدون Sacred Kaldun» - بورخان كالدون Burkhan Khaldun، وقد أثبت بقاؤهم على مدار العقود والقرون إيمانهم، وإذا ما اعتبر جبل «خنتي» معقل المغول، فإن جبل «بورخان كالدون Burkhan Khaldun» كان هو «جبل الآلهة Olympus» الخاص بهم.

ولا زال هذا الجبل باقياً حتى اليوم، وبالرغم من أن بعض المؤرخين يشككون في أن جبل «بورخان كالدون» و«خان خنتي» هما نفس الشيء، إلا أنهم ساووا بين الاثنين على الأقل في أواخر القرن الثالث عشر، وذلك عندما قام ابن حفيد جنكيز «كامالا» ببناء معبد هناك، ويقف على قمة جبل «خان خنتي Khan Khenti» المكشوفة مئات من تلك الأهرامات الحجرية الصغيرة - أوفووس - التي يصنعها المنغوليون في الأماكن المرتفعة، وقد رُصعت بالسواري الرفيعة التي ترفرف بأوشحة وخيوط الحرير، وانتشرت في الكثير من الأماكن مع قرابين - عملات نقدية وعلب وزجاجات وسجائر وعلب كرتون - التي تُمجد روح المكان وروح الرجل الذي شكل الأمة وإمبراطوريتها.

وقد كانت تلك هي الأدوات والمهارات والمعتقدات التي امتلكها أحفاد المغول الذين

أقاموا معسكراً في «وادي الأونون the Onon Valley» في عام 800م، وبعد ذلك عاشوا في حالة من الغموض لما يقارب الأربعمئة عام، حتى ظهر جنكيز، وحسناً ما فعل بهم، فقد كانت أواخر القرن الثاني عشر هي اللحظة الأخيرة التي كان يمكن لفاتح أن يظهر بها، وبعد بضعة عقود، جعل التقدم في تكنولوجيا البارود مهارات البدو القتالية التقليدية مهارات قد عفا عليها الزمن، وكما كان فعلاً، فقد جاء ظهور جنكيز في الوقت المناسب لجمع قوى المغول المتأصلة، مثل رامي السهام الذي يسحب قوساً ملتوية، ويطلق سهامه محدثاً آثاراً مدمرة.

الفصل الثالث

فجر كاذب لأمة جديدة

يذكر كتاب السر التاريخي أنه كان مُقدراً لجنكيز عظمة من السماء، مع ميزة إدراك الحقائق بعد وقوعها، وبات من المؤكد أنه كان يتمتع بجذور اجتماعية مُثلى، نسب من ثلاث خانات «ملوك» طموحين قادوا المغول إلى حافة الإمبراطورية، لكن لم يكن هناك شيءٌ مؤكدٌ فيما يتعلق بظهوره، ففي وقت ميلاد جنكيز، بدا وكأن المغول لم يعُد لهم حول ولا قوة.

وفي حوالي عام 1140 أصبح جد جنكيز الأكبر، كابول، أول زعيم «يحكم جميع المغول» وأول من يحصل على لقب الخان، ونقلت الوحدة تحت سلطته القبيلة إلى عالم أوسع من السياسة الآسيوية (التي كان اللاعبون الرئيسون فيها خارج الحدود على الناحية الأخرى) إذ كان المنافس الرئيس للمغول قوة أخرى متوقعاً لها النجاح والازدهار في الجنوب، مملكة أُشير لها عادة باسم «جين» (الذهبي) بعد أن فُرض اللقب السلالي من حُكامها «الجورشن»، وهي قبيلة منشورية احتلت شمال الصين في حملة سريعة ورائعة قبل عقد من الزمن، ولأن عيونهم كانت تراقب الجارين المنافسين الآخرين، فإن أسرة «جين» احتاجت إلى الأمن على حدودهم الشمالية، إذ شكل «كابول» وشعبه المغولي تهديداً لهم، ولهذا اقترب إمبراطور «الجين» هو - لو - ما» من الخان «كابول» عارضاً عليه اتفاق، فخاطر الخان «كابول» ورحل إلى «بكين» - تشونغ دو Zhong - du (العاصمة المتوسطة) كما تطلق عليها مملكة «الجين» - لإجراء محادثات، وكان هناك، حتماً، «حليب الخيل المخمر» كثير الاستهلاك، وعند قرب نهاية الاحتفالات، شعر الخان «كابول» بطمأنينة كافية للاتكاء ومَرْز لحية الإمبراطور، فشعر رجال البلاط في قصر «هو - لو - ما» بالرعب لشعوره بحرية من هذا القبيل، لكن لم يتلُ تلك الاحتفالات أي اتفاق، وسُمح للخان «كابول» بوصفه ضيفاً رسمياً، بالمغادرة بسلام، محملاً بالهدايا، لكن جنرالات الإمبراطور اعتقدوا أنه من الأفضل السماح لهذا الزعيم الثمل وغير الموثوق به أن يشعر بالزهو، ثم أُرسلت قوة لنصب كمين له، إلا أنه فر عائداً عبر صحراء «غوبي» لكن كلا الطرفين لم يغفر أو ينسى ما فعله الطرف الآخر، فسيتذكر «الجين» إهانة الخان «كابول» لهم وفشلهم بشكل خاص في إلقاء القبض عليه حتى تحين الفرصة للتعامل مع هؤلاء البدو الوقحين.

وهكذا وللمرة الأولى تعثر زعيم مغولي في مواجهة مسألة حددت السياسة في آسيا

الوسطى على مدار ما يقارب ألفي عام - العلاقات الملتوية بين المجتمعات المستقرة والمجتمعات غير المستقرة، بين البدو والمزارعين، وبين عالم السهول في آسيا الوسطى وأعماق آسيا السياسية الاجتماعية، و الصين، ومنذ ظهور أول إمبراطورية بدوية في حوالي 300 ق.م تشابك الطرفان بكابوس علاقات الزواج، الذي رُبط بالحاجة وانقسم بالكراهية، معتبراً كل طرف نفسه متفوقاً على الآخر، وناظراً إلى الآخر بازدراء.

ففي ما يتعلق بالبدو، كانت طريقة حياتهم تتميز بحرية رائعة، فالمزارعون كانوا مجرد عازقين للأرض، بقيمة أقل من الخيول، فقيمة الصين لا تكمن في ثقافتها بل في مصادر قوتها المادية: معادنها، حريرها، أسلحتها وشايها (التي أصبحت جزءاً من طريقة الحياة البدوية في القرن العاشر، ولا تزال حتى اليوم)، فإن أنتجت التجارة البضائع، فإن كل شيء يكون على ما يرام، وإن لم تُنتج فإنه من السهل حصارهم، لكن الخطر يكمن في الاكتساب، إذ كانت الروح البدوية آمنة عندما ترتدي درع الحياة التقليدية، ولكنها كانت عُرضة لرفاهيات الفساد التي كانت متوافرة فيما وراء صحراء غوبي.

وكان الصينيون بدءاً من الإمبراطور وحتى الموظف والتاجر والعالم والعبد يرون في طرقهم الخاصة القديمة والمتطورة كأساس لثقافة حقيقية، كان البدو فيها مجرد بربر، يجسدون الجشع والشهوة المدمرة، وقد أُستخدمت عبارات مماثلة من المؤرخين لما يقرب من 2000 عام، كان البدو ذئاباً مفترسة، جشعين، نهمين، مولعين بالمال، قُساة، متوحشين وغير موثوق بهم، وقد لخص كاتب في القرن الأول رأي الصينيين في البرابرة بالقول: «يعتبرهم الحكام العقلاء وحوشاً، لا يمكن إقامة علاقات معهم ولا يمكن إخضاعهم..، وأرضهم من المستحيل زراعتها كما أنه من المستحيل حكمهم كمواطنين، لذلك يتعين النظر إليهم دوماً على أنهم غرباء وليس كأشخاص حميمين... عاقبهم عندما يهاجمون واحذرهم عندما يتراجعون»، وبطبيعة الحال، لم يضطر أحد للمتاجرة مع هذه المخلوقات المنحطة إلا إذا تعلق الأمر بالحصول على الخيول التي سيقاتلهم بها، لكن تلك العلاقة لم تحدد بأي مصطلح مدني «كالتجارة»، فقد قدم البدو «الإتاوة» بينما منح الصينيون «الهدايا» بكرم، وكان أي اتصال بين الاثنين درباً من الوهم.

ولعدة قرون، تصارع زعماء الممالك والإمبراطوريات الصينية المتحولة مع «قضية البدو»

ومشاكل الحدود الشمالية غير المستقرة، ولا سيما في «أورودس»، منطقة صحراوية ذات أشجار منخفضة داخل محيط من النهر الأصفر. ما هي الطريقة المثلى للحد من العدوان؟ من خلال التهدئة والتفاوض والمواجهة أو الغزو؟ لم يكن هناك حل وحيد، وذلك لأنه في نهاية المطاف سيكون لدى البدو دوماً ميزة إذا ما اختاروا التقدم إلى الأمام، فالمجتمعات الزراعية يمكن تدميرها، أما المجتمعات المدنية فلا يمكن تدميرها، فجيوشها تبعثرت مثل الدخان فوق السهول، ويتم إعادتها وإعادة تشكيلها فقط إذا كانت الظروف تناسبهم.

وكان منع دخول البدو هو أحد الاحتمالات النظرية، فمنذ عام 300 ق.م بُنيت الكثير من الأسوار بين الولايات الصينية المتنافسة، وهي عبارة عن سدود من طوب - اللبن التي كانت تُعد من أفضل التراكيب الدفاعية إتقاناً في العالم، وفي مناسبات عدة سيربط إمبراطور مملكة كبيرة وجديدة أسواراً صغيرة مختلفة إلى سور عظيم، ومازال العديد من «الأسوار العظيمة» يمكن تتبعها، ويمر أحد أقدم هذه الأسوار خلال صحراء غوبي الجنوبية، حيث يستخدم الجزء المركزي من أرضها المعبدة كطريق، ويمر خلال منغوليا الوسطى مروراً بمدينة «باو - تو»، ويمتد سور آخر، بناه «الجين» أنفسهم، من غير اتساق عبر شمال شرق منغوليا، وقد تميز كلاهما بالكثير من الخرائط «كسور جنكيز خان» وذلك بالرغم من أنها بُنيت قبل فترة طويلة من ميلاده، وتُصادف قِطعاً من هذه الأسوار مبعثرة عبر شمال الصين، حيث تمتد عبر صحراء أو تشطر حقول القمح، التي تضاءل معظمها حتى تصل إلى جذوع تبدو كأنها جزء من الأرض، جميعها متهالك ومتآكل - باستثناء سور الصين العظيم اليوم، الذي بُني من الحجر في القرن السادس عشر، آخر مظهر مهيب من حافز قديم، لكن المدهش أن هذا الحافز، لم يكن الحل العملي الذي يُبعد البدو عن الوضع الحرج الذي يضطرون معه للدفاع عن أنفسهم بضراوة، ويكشف تقدم السور العظيم الرائع فوق القمة والوادي عن فضله كتركيب دفاعي، فجيوش البدو لم تعدُ بالخيول فوق التلال، فالسور العظيم لم يُقتحم في الحرب قط ولم يوقف غزواً على الإطلاق، لكنّه خدم الكثير من الأغراض الأخرى، كطريق مرتفع للجند والمراقبين، وكنقطة حدودية لإبقاء الفلاحين في أماكنهم وابتزاز الضرائب، وكدليل على قدرة الحاكم على حشد قوة عاملة ضخمة وتشغيلهم في مشاريع واسعة النطاق، فقد كان السور العظيم وما سبقه رمزاً من رموز القوة والمكانة الرفيعة، بقدر ما عليه الطائرات المقاتلة

والقصور بالنسبة للدكتاتوريين الحديثين.

كما كانت أيضاً رموزاً لإجحاف قديم، لسور عظيم فكري ميز حدود الحضارة، فعلى حد قول مؤرخ القرن الثاني قبل الميلاد «سيما تشيان»، داخل السور «يوجد أولئك الذين يرتدون القبعة والزُّنار، وخارج حدود السور يوجد البربر»، وكان البدو - على النقيض من كل من الفضيلة والسبب، والخوف والشر - يَشتَمون نقيض الحضارة - خارج حدود المقبول، وحاجز الحضارة بكل ما في الكلمة من معنى، وكان قدر الحاكم مقاتلة البربر، وإثبات القدرة والمبرر للقوة، وكان السور علامة مادية واضحة على التزامه.

وسط منغوليا

لقد كان صراعاً لا ينتهي، ولم تفلح أي سياسة على المدى الطويل من إيقافه، ففي نهاية المطاف، ستظهر القبائل البدوية أو الزعماء الذين يتجاهلون المعاهدات ويعدون بالخيول حول الأسوار، دافعين المزارعين بعيداً عن المناطق المستوطنة حديثاً بالعودة إلى معاقلهم الزراعية في وسط البلاد، وحتى هنا يمكن أن ينفذ البدو، ويسيطروا على المدن وأحياناً يسقطون الأسر الحاكمة ويقيمون أسراً خاصة بهم (مثلما فعلت أسرة جورشن) ويبقون كذلك حتى تُفسدهم وتمدنهم الحضارة التي شعروا بعدم الرضا عنها من قبل، وبالتالي أصبحوا بدورهم مهووسين كأسلافهم «بقضية البدو».

إذاً ما الذي حل بالشيطان عندما عبر السور؟ لقد حدث تحول سحري، فبمجرد إقامته داخل السور، لم يعد الشيطان شيطاناً، لكن حاكماً صينياً، ولم يعد وجوده داخل السور دليلاً على قوة البدو العسكرية إنما دليلاً على قدرة الصين على تمدين حتى أكثر القوات الخارجية شيطانية، وسيعاني جنكيز نفسه من التحول ذاته الذي كان يخشاه، ظاهراً (من وجهة نظر الصينيين) من شرنقته البربرية إلى أبهة أنيقة كمؤسس لسلالة صينية، وكان ذاك هو التحول نفسه الذي اجتازه بالفعل إمبراطور مملكة جين «هو - لو - ما» عندما جاءت دعوة للخان «كابول» في الأربعينيات من القرن الثاني، وكان ذلك هو السبب الذي دفع قادته لارتكاب مثل تلك الإهانة ضد إيماءة الخان «كابول» الجريئة، ولهذا السبب أيضاً انتظروا بلهفة اليوم الذي يستطيعون فيه الانتقام.

لقد وقع الانتقام فعلاً من وريث الخان «كابول» «أمباكاي»، وذلك بعد أن أسر من التتار، أتباع مملكة جين، ولربما في ظروف أخرى كان يمكن دفع فدية مقابل عودته إلى شعبه، لكن التتار اقتنصوا هذه الفرصة لإرضاء أسيادهم في مملكة جين، فسلموا «أمباكاي» لهم، وأعدم بطريقة غريبة ومروعة، فقد صُلب على هيكل عرف باسم «الحمار الخشبي»، وكانت رسالته الأخيرة التي وصلت إلى المغول بعد وقوعه في الأسر مباشرة، بمثابة صيحة استنفار لورثته: «لو مُزقت أظافر أصابعك الخمس، ولو قُطعت أصابعك العشر، كافحوا للثأر من أجلي!».

فاستجاب، «كوتولا» عم جنكيز الأكبر، بشن سلسة من الغارات على التتار ومملكة جين، مكتسباً لنفسه سمعة «كهرقل المغول»، ومنحته القصص صوتاً كصوت الرعد وأيادي مثل كَفّي الدب، فقد كان يتناول خروفاً في كل وجبة وكان بإمكانه عضّ أقوى رجل مثل السهم، لكن القوة لم تضمن نصراً، ففي حوالي عام 1160، وفي ظروف غير محددة، هزم الجين المغول، وأصبحت عشائرهم مرة أخرى بلا قيادة، ولم يعد هناك أمة.

ولبضع سنوات انهار المغول عائدين إلى الفوضى مرة أخرى، وكانت تلك الفترة هي أسوأ الفترات التي مر بها المغول، وبعد جيلين، طبقاً لما ورد في كتاب التاريخ السرّي، أعاد حكيم مُتطلع إلى إظهار إنجازات جنكيز بشكل أكثر إشراقاً إلى الأذهان تلك السنوات المظلمة بالنسبة لخانه، عندما التف سطح الأرض حول نفسه وغرقت الأمة بأكملها في الصراع

وفي هذا العالم الفوضوي الذي يعاني من الفقر، عاش أحد زعماء القبائل التي لم يكن له شأن وهو الأب المستقبلي لجنكيز خان، رجل يُدعى «يوسجي»، وحتى كتاب التاريخ السرّي، الذي كان عادة حريصاً على منح مكانة لعائلة جنكيز، لم يُطلق عليه لقب خان، لكنّه كان حفيداً للخان «كابول» الخان الذي مَزر لحية إمبراطور مملكة جين، والذي كان شخصية بارزة بين عشيرته، «البورجيكن»، وحيث إن العشائر - في الواقع، عبارة عن عائلات ممتدة، تطورت وانقسمت جيلاً بعد جيل، فقد احتفظت القليل من هذه العشائر بهوية لمدة طويلة، لكن عشيرة البورجيكن كانت مجموعة تفتخر بنفسها، فإذا رجعنا إلى الوراء مئة وخمسين سنة إلى ذلك الوقت المبهم ما بين الذاكرة والأسطورة سنجد أنها كانت واحدة من العشائر الخمس التي كانت موجودة آنذاك. وحتى الآن، انبثق عن عشيرة البورجيكن ثماني عشرة عشيرة أخرى، ولكنهم احتفظوا بهويتهم الخاصة كنوع من العائلة الملكية (مازالت الناس

تفخر بكونها من عشيرة البورجيكن، أكثر من أي وقت مضى منذ انهيار الشيوعية)، ولابد أن يوسجي كان معروفاً بين الناس الذين ارتادوا السهل واصطادوا في الجبال التي تغطيها الغابات في الشمال، على طول ما يعرف اليوم بالحدود السيبيرية.

وكشاب بذل يوسجي أقصى ما في وسعه في تلك الظروف الصعبة جداً، ناسجاً أنماطاً في بنية حياة البدو التي من شأنها أن تثبت أنها ذات أهمية كبيرة، وكان الهدف الأساسي منها هو إنشاء ودعم التحالفات، وكان أحد الحلفاء المحتملين قبيلة تركية، «الِكريتيين»، جيران الغرب، الذين طواهم التاريخ المبهم في مواضع خلفية منعزلة.

قبل عام 1180 كان «الكريتيون» يدينون بالديانة المسيحية بالاسم فقط لما يقرب من قرنين من الزمان، وحتى أن اثنين من قادة تلك القبيلة، الأب والابن، كانا يحملان نفس الاسم المسيحي اليوناني: «ماركوس كيرياكوس»، فقد دانوا بمسيحيتهم إلى طائفة لا تذكر كثيراً في هذه الأيام، سُميت باسم بطريرك القرن الخامس «نسطور» الذي لُعن لتأكيده مساواة طبيعتي السيد المسيح كإله وإنسان، وفي الواقع، كان ذلك يعني معارضته لعبادة «العذراء» كوالدة للإله (حاملة الإله) التي قال «نسطور» إنها تعرض إنسانية السيد المسيح للشبهة، لكن الإدانة الرسمية لم تُنهِ بدعة «هرطقة» نسطور، ففر أنصاره إلى بلاد فارس حيث تعاظموا وانتشروا شرقاً حتى الصين وآسيا الوسطى، حيث حولوا دينياً العديد من القبائل، بما في ذلك «الكريتيين»: ادعى مطران مدينة «مرو» بأن مائتي ألف منهم عُمّدوا في عام 1009. لكن هذا الخبر بعيد الاحتمال، برقمه المبالغ إلى حدٍ كبير، كان إلى حدٍ ما مسؤولاً عن بدء شائعة مدهشة ودائمة في العالم المسيحي بأن هناك في آسيا الوسطى كان يعيش ملك مسيحي أُشير إليه في أوروبا باسم «القس جون Prester John» (كلمة «Prester» هي اختصار لكلمة «presbyter» أو «priest» وجميعها تعني قسيساً أو كاهناً)، وعلى حد قول الأسقف الألماني الذي كان أول من سجل الشائعة في عام 1145، التي تقول بأن القس جون، سليل الحكماء الثلاثة، سيهرع لمساعدة المسيحيين الغربيين في حالة الضرورة، وفي وقت لاحق، سنجد أن هذه الرواية المحرفة لطائفة مسيحية راديكالية وتحول آسيا الوسطى الغامض نحوها سبب قلقاً في أوروبا، فعندما هوجم المسيحيون الصليبيون في الأراضي المقدسة من المسلمين كان يحدوهم الأمل بأن تأتي الجيوش الغازية باتجاه الغرب المنتمية إلى القس جون لإنقاذ بيت

المقدس. لقد كانوا، بالطبع، المغول، تحت قيادة جنكيز.

كان «توغرال» (الصقر باللغة التركية) هو زعيم الكريتيين الحالي، وكانت له سيرة نابضة بالحياة، لكونه اختُطف وفُدي مرتين في طفولته، وذلك قبل أن يقتل عدداً من أعمامه لتأمين العرش، ثم، وربما في الستينيات من القرن الثاني عشر، أُجبر على الفرار من قريب كان تواقاً إلى الانتقام منه، فساعده يوسجي على استعادة قيادة قبيلته، ولكننا لم نُخبر كيف تحقق ذلك، لكن لا بد أن الأمر اقتضى حشد جيشٍ، كدليل على سلطة يوسجي، وبعد ذلك أصبح توغرال ويوسجي «أخوة قسم sworn brothers» وهو تحالف من شأنه أن يُثبت في وقت لاحق أهمية خاصة في إعادة ظهور المغول.

لقد غيرت مقابلة عابرة مسار حياة يوسجي والعالم، ففي أحد الأيام كان خارجاً للصيد مستعينا بصقر على ضفاف نهر «الأونون» عندما صادف رجلاً يركب بجوار عربة ذات عجلات صغيرة سوداء يجرها جمل، وسيلة من وسائل المواصلات المخصصة لنقل النساء الثريات، وربما أن يوسجي عرف الرجل - لقد كان «تشاليديو» الشقيق الأصغر لزعيم قبيلة أخرى مجاورة، قبيلة «الميركيتيين»، الذين عاشوا في الغابات في الشمال الغربي، ويقول كتاب التاريخ السرّي أنه لمح فتاة فتنته من تحت غطاء العربة، فلم يكن «يوسجي» متزوجاً، والفتاة كانت جميلة، وعلاوة على ذلك، أظهرت ملابسها أنها من قبيلة مرتبطة تقليدياً «بالبورجيكن Brojigins» عن طريق الزواج، قبيلة «الأونجراد»، الذين كانوا يعيشون في السهول الشرقية بجوار دولة التتار، فأسرع «يوسجي» عائداً إلى دياره، وأحضر شقيقيه وبمساعدتهم سيطر على الموكب الصغير بطيء الحركة، ففر «تشاليديو» نحو ممر بجانب أحد التلال، وقام المغول الثلاثة بمطاردته، لكنّه لم يكن مستعداً للتنازل عن عروسه، فقام بالالتفاف حول التل، وعاد لإنقاذها، وقبل ثوانٍ من الاستسلام، أدركت أن هروبهما معاً درب من المستحيل، فتساءلت، ألم يرَ وجوههم؟ ثم صرخت قائلة: «إنهم يريدون حياتك! اتركني، وتابعت بإلحاح، أنقذ نفسك، جد لك زوجة أخرى - طالما أنك حي، سيكون هناك فتيات في المقاعد الأمامية للعربة!» وبينما كان الأشقاء الثلاثة يعدون بخيولهم على مرمى البصر، مزقت قميصها وألقت به إليه، وقالت باكية: «تذكر عبيري، مادمت حياً!».

صفع «تشاليديو» حصانه وفر مسرعاً، يطارده الأشقاء الثلاثة حتى أدركوا أنهم لن يلحقوا

به، فعادوا، وأمسكوا بحبل الجمل وانطلقوا ببطء عبر المراعي، حاملين معهم الفتاة الشابة، هولين، تندب مصيرها، ملقية بنفسها إلى الخلف تارةً وإلى الأمام تارة أخرى، وضفائرها تتطاير في عذاب الحزن والأسى.

لكن مصادر أخرى حذفت هذه الحادثة، كما لو أن المؤلفين رأوا شيئاً معيباً في اختطاف امرأة كان من الواضح أنها عاشقة لزوجها الحالي وغير مستعدة بأن تصبح عروساً «للبطل» يوسجي. لكن كتاب التاريخ السرّي يعرض «شعور هوميري Homeric feel» للسرد والواقعية على حدٍ سواء: فاختطاف الزوجات كان شائعاً في ذلك الوقت، وكان لدى القبائل شركاء الزواج التقليديين، وكان «الميركيتيون» منسجمين مع القواعد المتبعة، فالعمل الذي قام به «يوسجي» يقدم الدافع الأساسي للصراع مع تلك القبائل في وقت لاحق في القصة.

وأمر أحد أشقاء «يوسجي» الذي كان يمتطي فرسه بجانب العربة، «هولين» بأن تُغلق فمها وأن تنسى «تشاليديو»:

الرجل الذي عانقك
اجتاز الكثير من التلال،
الرجل الذي تبكي لأجله
عبر الكثير من الأنهار.
حتى لو انخرطتِ في البكاء،
وحتى لو عاد، لن يراكِ.

لذا لم يكن أمام «هولين» سوى خيار وحيد، وهو قبول «يوسجي» كزوج جديد وحامٍ لحياتهم من الرعي والتجوال والغزو والإغارة عليهم.

وبعد ذلك بسته شهور، عندما عاد «يوسجي» إلى معسكره المطل على نهر «الأونون» بعد هجوم الربيع الموسع على التتار، بشرت «هولين» زوجها بخبر حملها.

الفصل الرابع

جذور الطموح

توحي العادات التي سُجلت في القرن التاسع عشر بأنه في وقت ولادة جنكيز، كانت خيمة «هويلن» محمية من الشيطان بقوس وسهام عُلقت فوق الباب، وكان محظوراً على الجميع دخولها باستثناء أفراد الأسرة المقربين وامرأة شامانية للقيام بدور القابلة، وكانت تلك المرأة تتفحص الطفل عن كثب للوقوف على طالعه، ولم يستغرق الأمر منها قدراً كبيراً من الخيال لكي تقرأ علامة مميزة في دم المولود الجديد توحي بمولد زعيم قوي. كما يروي كتاب التاريخ السرّي بأن الطفل وُلد بكتلة من الدم في يده اليمنى، التي فُسرت في وقت لاحق كعلامة على القوة بطبيعة الحال، وكان الطفل يُدهن بزيت الزبدة ويُلف بقطعة من صوف الغنم ويُوضع في مهد خشبي به ثقوب محفورة على طول جانبيه حتى يمكن لوالدته «هولين» ربطه على ظهرها عندما تمتطي جواداً.

وبعد ذلك جاءت مسألة الاسم، كان «يوسجي» عائداً لتوه من غارة ومعه أسير، زعيم تتريّ، وطبقاً للتقاليد، سُمي الطفل باسم خصمه المأسور (الذي لم نسمع عنه كثيراً، وربما يكون قد عاد إلى قومه في مقابل فدية) وهكذا بدأ جنكيز خان المستقبلي الحياة باسم تتريّ: وهو «تيموجن».

ونظراً للنجاح الذي حققه «تيموجن» في وقت لاحق، تم إغراء الكثيرين لقراءة مغزى هذا الاسم، فقيل في بعض الأحيان أنه مشتق من كلمة «تومور» التي تعني «الحديد» العنصر الأول في «تومور دزام» التي تعني حرفياً «طريق الحديد» أو بمعنى آخر السكة الحديدية، وفي اللغة المنغولية الحديثة فإن كلمة «تومورشن tomorchin» تعني «الحداد»، ويبدو أن هذا المفهوم جاء أصلاً من رحالة القرن الثالث عشر الفلمنكي، «الراهب وليام» من مدينة «روبروك» الذي أشار إلى جنكيز على اعتبار أنه كان حداداً في الأصل، دون أي تعليق آخر. لكن من أين حصل على هذه الفكرة الغريبة؟ يبدو أن مثل تلك التفاصيل قد التقطها من مترجمه، الابن المتبنى من صائغ فارسي كان يعمل لدى المغول، وربما أنه قد سأل عما تعنيه كلمة «تيموجن» كأي عالم انثروبولوجي طموح، فتلقى رداً عرضياً: «حسناً، إنها تعني «رجل الحديد»..».. إن رواية الراهب لمغامراته هي المصدر الرئيس للمعلومات عن إمبراطورية المغول مع اقترابها من ذروتها، لكنّه في هذا الموضوع كان مخطئاً، فطالما أن

الاسم كان لزعيم تتريّ، فمن المفترض، إن كان هناك أي شخص عمل كحداد، أن يكون الأسير «تيموجن»، لكنّه في الحقيقة لم يكن كذلك، فالاسم لا يحتوي على حرف «الراء r» «في اللغة المغولية، لكن بطريقة ما بقي الخطأ، تماماً كما يحدث من أخطاء في علم أصول الكلام، ففي اللغة الفارسية، تسلل هجاء بديل، وهو تيمورجن، بإضافة «الراء r» الزائفة، ونتيجة لتكرار الخطأ في لغتين، أصبح الاشتقاق الخاطئ راسخاً بقوة حتى ظهر في الكثير من الكتب، وسيكون مناسباً إذا ما كان الفاتح العالمي ومدمر الأمم «حداداً Man of Iron» وذلك إذا أصبح «جوزيف جوغاشفلي» «المعروف باسم «ستالين» رجل الفولاذ the Man of Steel، لكن الأمر لم يكن كذلك.

عندما حدث كل هذا بالتحديد فإنه شكّل اهتماماً عاطفياً للمغول. إن تاريخ ميلاد جنكيز المقبول بشكل عام هو عام 1162، وهذا هو العام الذي ما زالت السلطات الرسمية تصر عليه، ففي احتفالات العيد الوطني التي جرت في العام 2002، أعلنت اللافتات بأن ذلك العام كان عاماً خاصاً آخر - الذكرى السنوية الثمانمئة والأربعون لميلاد جنكيز، وفي هذه الحالة فإن كل عام ينتهي برقم «2» سوف يكون ذريعة أخرى للاحتفال، لكن مؤرخين آخرين، يميلون إلى التاريخ المرجح لانتصار مملكة «الجين» على المغول في حوالي 1160، أو أنهم قدروا عمر جنكيز عند وفاته، مختارين ما بين الأعوام 1155 و1167. لكن في الوقت الحالي من المستحيل أن نكون على يقين من ذلك؛ فعام 1162 هو تاريخ مناسب مثله مثل التواريخ الأخرى.

وإذا كان الخبراء يتجادلون حول تاريخ ميلاد جنكيز، فإنهم يتجادلون حول مكان ميلاده أيضاً، فكتاب التاريخ السرّي يذكر أنه ولد على ضفاف نهر «الأونون» بالقرب من مكان يطلق عليه اسم «ديلان بلودج Deluun Boldog» ويقصد بهذا الاسم «رابية الطِّحال»، والشخص الغريب العادي لن يرى الكثير من الشبه بين الروابي والطحال، ومع ذلك تتبارى اثنتان من روابي الطحال من أجل شرف إظهار مسقط رأس البطل.

وتقع واحدة من هذه الروابي بالقرب من «دادال Dadal»، على مقربة من التقاء نهر «الأونون» مع أحد روافد نهر «البالج Balj» على بعد ثمانين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من معسكر الخيام المتقن بشكل فريد بالقرب من مدينة «بيندر»، وكان هذا الموقع المتكامل

بتمثال بلغ ارتفاعه عشرة أمتار، قد اختير رسمياً كمسقط رأس جنكيز في وقت الذكرى الثمانمئة المزعومة لميلاده في عام 1962، والذي احتفل به أيضاً بإصدار طوابع بريدية ومجلة أكاديمية العلوم، وأُجيز كل هذا مباشرة بعد إكمال ضريح جنكيز خان في منغوليا الوسطى، ولم يكن من الصعب تفسير الاحتفالات والتمثال باعتباره يتعارض مع محاولة الصين لانتزاع وجدان المغول الوطني. لقد كان قراراً أدى بالعديد إلى الشعور بالندم، لأنه اصطدم بالعقيدة السوفيتية، فكان من المخاطرة إعادة الصياغة واعتبار جنكيز خان بطلاً، لكونه كان شريراً في عيون السوفيت، ولكون منغوليا كانت تعدّ دولة تابعة، ولكنها بدت كمجازفة تستحق القيام بها، فالاتحاد السوفيتي كان في حالة خصام مع الصين، ولم يبرح عرض القوة مكانه في شمالي صحراء «غوبي»، ولأن الأمر قد وقع، فإن الأمور سارت في الاتجاه المعاكس، ربما لأن راعي التمثال، عضو اللجنة المركزية «تومور اوتشير» قد جرأ على انتقاد «رئيس منغوليا الشيوعي» «تسيدنبال».

وفي حملة قمعية أيديولوجية، طُرد «تومور اوتشير» من عمله بتهمة «تأجيج للمشاعر القومية» وزعامة «جماعة مناهضة للحزب»، وقد نُفي للعمل في وظيفة في متحف في بلدة صناعية صغيرة كئيبة تقع في الشمال، تحت إشراف الاستخبارات الروسية وعاد إلى أذهان الجماهير بعد أن قُتل في ظروف غامضة في عام 1985، وعلى أية حال، فقد سُمح بإقامة النصب نفسه، مما يشير إلى بعض الدعم الضمني على مستوى عال، واليوم، يعدّ هذا النصب مصدر الجذب الرئيس للسياح في منتجع على ضفاف إحدى البحيرات.

أما المنافس الآخر فهو المكان الذي رأيته أمامي في صباح ذلك اليوم من فصل الصيف، منتصباً على تلة مرتفعة فوق معسكر خيام «بيندر» مع آثار من فودكا الليلة السابقة لنهائيات كأس العام التي تلاشت بسرعة، وكنت أقف بجانب كومة صغيرة من الصخور، صنعها شخصٌ ما تكريماً لروح هذا التل، حيث تموجت المياه الضحلة سريعة الجريان لنهر «الأونون» على الحجارة، بينما لا زلت أستظل من الشمس المشرقة خلفي، ومن تحت السماء المقدسة ذات الزرقة الأكثر نقاءً صدح طائر القُبرة واثنان من طيور الوقواق، وهي الأصوات الوحيدة التي ارتفعت من أرض الغابة والنهر، والمراعي والبحيرة، والتل الذي كان بمثابة المفتاح لهذا اللغز التاريخي.

وفي اليوم السابق، كنا قد توجهنا بالسيارة مباشرة فوق رابية الطحال هذه، التي كانت تبدو مثل أية موجة أخرى في محيط العشب، ولكنها كانت لا تُنسى، وذلك لأنها امتدت على طول قاعدتها فوضى مخيفة، فقبل جيلين من الزمان، كانت البلدة «بيندر» تقع على قاعدة هذا التل، لكن السلطات الشيوعية أصدرت أمراً بإخلاء البلدة، فانتقلت البلدة بأكملها لبضعة كيلومترات على الجانبين، تاركةً أساسات الحجارة وأكوام من ألواح الصفيح، حيث ما زالت حتى يومنا هذا، ولازلت أرى ظل البلدة القديمة الباهت من على التلة التي أقف عليها التي تبعد حوالي أربعة كيلومترات، وقد أطلق عليها دعاة حماية البيئة قذى العين، لكن السهل له قوانينه الخاصة، فالمراعي شاسعة جداً، ولا يوجد طرق، ويمكن للقطعان التجوال بحرية ولا يوجد أي أثر للتلوث، إذن ما الداعي لإزعاج أنفسنا بإعادة ترتيبها؟

وهذا هو المكان المدعى الأكثر حداثة ليكون مسقط رأس جنكيز الحقيقي، ويزداد هذا التوجه بسرعة لأسباب تاريخية منطقية، لخصها في كتيّب يعرض للبيع في معسكر الخيام - البروفيسور «سخباتار» الذي يعمل في جامعة جنكيز خان في «ألان باتور» - وكنت قد سمعت ذلك مشافهةً في اليوم السابق من رجلٍ على قدم المساواة في رفعة المقام.

وكنا نقود السيارة فوق تلال فسيحة متصاعدة ببطء في الأفق، ولم يكن هناك شيء يثير الاهتمام على مرمى البصر، حتى ظهر من على بُعد منزل صغير من الخشب داكن اللون، وكان يبدو مثل المنازل التي تُذكر في الحكايات الخرافية، له شرفة وغرفة واحدة، وكان هذا المنزل السيبيري الصغير جداً، على ما يبدو، المقر الصيفي لأحد أصدقاء «باتور» الكثيرين، ورداً على سؤال باتور، أشارت سيدة طاعنة في السن إلى مكان بعيد على طول المسار الباهت، وكانت الأمطار الخفيفة تتساقط في تلك الأثناء، وأمام زجاج السيارة الأمامي الذي تناثرت عليه قطرات المطر كان هناك شكلٌ غريب، الذي بمجرد أن درنا حوله، تبين أنه رجل وسيم بدرجة لافته للنظر في السبعينيات من عمره، يرتدي قميصاً رثاً ويجر عربة صغيرة ذات أربع عجلات، ويجري بجانبه نوع ما من كلاب الرعي ذات اللونين الأسود والأبيض. لقد كان هذا الرجل هو «بادامداش» عالم لغوي ومؤرخ وأستاذ في الجامعة الوطنية المنغولية لمدة ثلاثين عاماً حتى تقاعده، وكان يجر ممخضة لبن معدنية مليئة بالماء جمعه للتو من نبع قريب، ولقبوله بوصول «باتور» المفاجئ دون تعليق، حشر نفسه في الشاحنة، واضعاً كلبه الرطب في حضنه، وحمل

باتور ممخضة الماء والعربة، وداعبت الكلب، الذي لعق يدي وعوى بشكل مثير للشفقة، لقد كان ذلك غريباً تماماً، فالهدف الأساسي للكلاب في السهل هو إخافة الذئاب واللصوص، لذا فإن معظمها وحشي وشرس، ولا يميز بين الذئاب والمجرمين والغرباء أصحاب النية الحسنة، كما أن الكلاب المنغولية بطبيعتها من أكلة لحوم البشر، والبعض منها يحاول التهام من في السيارات المارة على الطريق، وأول شيء تفعله عندما تقترب من خيمة أن تصرخ من على مسافة آمنة: «أبقوا على كلابكم هادئة!»، ولم يحدث من قبل في مكان خارج هذا المكان أن صادفت كلباً أصغر من المهر، وبكل تأكيد لم يكن صدوقاً، بل شديد العصبية.

وعندما عدنا إلى المنزل الريفي الروسي الصغير ذي الغرفة الواحدة، أبلغني «بادامداش» عن أبحاثه التي قام بها بشأن مسقط رأس جنكيز خان، لقد كان على دراية بكتاب التاريخ السرّي منذ طفولته، وبطبيعة الحال، وكان يعرف أن جنكيز قد ولد «على نهر الأونون».

«وعندما ذهبت إلى مدينة «دادال Dadal» اعتقدت أن جنكيز كان ينبغي أن يولد في مثل هذا البلد الجميل، في هذه المساحات الشاسعة، ولكني الآن غيرت رأيي»، فقد طاف جنكيز جانبي نهر الأونون صعوداً ونزولاً على ظهر الخيل مرات عديدة، ويذكر كتاب التاريخ السرّي بأنه اصطاد السمك في النهر عندما كان طفلاً، لذا لا بدّ أن يكون المخيم بالقرب من النهر، والموقع الموجود بالقرب من مدينة «دادال» يبعد مسافة عشرين كيلومتراً عن النهر، لكن الموقع الآخر الموجود بالقرب من مدينة «بندر» يبعد مجرد خمسة كيلومترات، وبالإضافة إلى ذلك، تعد مدينة «دادال» مدينة محصورة إلى حد كبير، ولا يوجد بها مساحات شاسعة تسمح بتجمع القوات، حيث كان والد جنكيز قد أسس جيوشاً، ولم يكن هناك أدنى شك من وجهة نظر «بادامداش»: أن تقاطع نهري «الأونون» و«الخورخ» السهل الذي رأيته من جهة جانب التل الذي كنت أقف عليه في صباح ذلك اليوم من فصل الصيف، والتل الذي تجولت حوله - كان هو مسقط رأس جنكيز.

وعندما بلغ الفتى الثامنة من عمره، شرع والده «يسوجي» بترتيبات زواج «تيموجن» من إحدى قريبات والدته «هويلن»، وفي طريقه شرقاً عبر المراعي الخضراء، وقبل أن يصل عائلة «هويلن» صادف زوجين من عشيرتها، «الأونغرادين»، وكان برفقتهم ابنتهم، «بورتي» التي تكبر «تيموجن» بعام واحد، وكانوا متحمسين للزواج، واتفق «يسوجي» و«دي - تسيتسن

Dei - Tsetsen» - وكلمة «دي» تعني «الحكيم the Wise» - على صيغة متبادلة، بأن كلا طفليهما كان لديهم «حماسة في عيونهم ونورٌ في وجوههم» - الأمر الذي يعني أن الشهرة كانت قدرهم، ولتأكيد الميثاق، ترك «يسوجي» ولده مع أنسابه المستقبليين، ربما لكي يتأكدوا من شخصيته، وربما لكي يستطيع الفتى أن يتخلص من تكلفة مهر «بورتي» المستقبلي (المكلف جداً، كما سنرى لاحقاً)، وعندما غادر «يسوجي» طلب من «دي» أن يعتني بـ «تيموجن» ويتأكد من السيطرة على الكلاب، وذلك لأنا «ولدي يخاف من الكلاب. يانسيبي، لا تدع الكلاب تُخيف ولدي!».

وقد يثير ذلك دهشة الغربيين، هل يخاف الحاكم المستقبلي لأوراسيا بأسرها من الكلاب؟ في الواقع، يمكن أن يكون ذلك ببساطة انعكاساً لحقيقة عامة كنت قد ذكرتها في وقت سابق، فقد كانت الكلاب المنغولية دوماً سيئة السمعة، وأراهن على أن جنكيز نفسه قد وقع ضمن هذا التفصيل الساخر، الأمر الذي أدهش مؤلف كتاب التاريخ السرّي لكونه لمسة إنسانية لطيفة. أترى؟ إن جنكيز العظيم كان رجلاً عادياً في أعماق نفسه، بمخاوف عادية.

وأثناء رحلة العودة إلي الديار صادف «يسوجي» مجموعة من التتار يقيمون وليمة، وطبقاً لقواعد الضيافة على السهل، قُدم له الطعام والشراب، وعندما وصل إلى الديار بعد ثلاثة أيام وقع صريع المرض، لقد كان يحتضر فعلاً، وفي وقت لاحق، وبعد البحث عن تفسير لمرضه، ألقى أحفاده بالمسؤولية على عاتق التتار، فمن الواضح، أن الجماعة التي صادفها لا بدّ أنها كانت تضم أفراداً ممن كانوا ضحايا لغارات «يسوجي»، لكنّه لم يتعرف عليهم - لذا كان هذا التبرير منطقياً - لكن لا بدّ أنهم تعرفوا عليه، فانتهزوا الفرصة للانتقام بدس السم في شرابه، أو ربما مجرد أصابه المرض، وعلى أية حال، وقبل لحظات من موته، اسُتدعى «تيموجن» للعودة من خيمة «دي».

وهكذا تُركت «هويلن» بدون حام، مع ستة أطفال تتراوح أعمارهم بين الثالثة والتاسعة: أربعة من هؤلاء الأطفال هم أولادها والاثنان الآخران «لزوجة ثانوية» لم يكشف عن اسمها، ولم تقدم العائلة - حتى أخوة «يسوجي» - الذين كان ينبغي عليهم دعم زوجة أخيهم، أية مساعدة، فقد اختفى عالمهم وآمالهم في النجاح في الحرب وتأمينهم ضد الكارثة فجأة، فقد تخلوا عن الأرملة، وتركوها للفقر المدقع.

ولكنها كانت امرأة ذات عزيمة، ولكونها لم تكن تمتلك قطعاناً من الماشية، فقد أصبحت جامعة صيد وثمار، ويصورها كتاب التاريخ السرّي، بتنانير مرفوعة، وبقبعة سيدة نبيلة وضعت على رأسها بإحكام، تنبش الأرض مستخدمة عصا العرعر الحادة في جنبات جبل «بورخان كالدون Burkhan Khaldun» المليئة بالأشجار وعلى طول ضفاف نهر «الأونون» لجمع الثمار والجذور، كما تعلم الفتيان صنع سنانير الصيد واستخدام الشباك في صيد الأسماك.

بالبصل والثوم البري

تَغذى أبناء الأم النبيلة

حتى أصبحوا حكاماً.

تربى أبناء الأم النبيلة الصبورة

على جذور الدردار،

وأصبحوا حكماء ومشرعين. (ترجمة أونون)

ومما لا شك فيه أن القصص قد بالغت في نبالة «هويلن» أم الإله، لكن المسألة واضحة، فعلى مدار ثلاث أو أربع سنوات عصيبة، أدرك «تيموجن» ماذا كان يعني أن تكون في وضع مزرٍ، وبدون شبكة حماية عائلية، دون رفقاء وأصدقاء مقربين، وبدون حيوانات كافية لتوفير اللحوم والحليب أو الصوف اللازم لغطاء خيمة جديدة، وربما أنه قد نشأ شاعراً بالحصار من عيشة الكفاف القاسية الموجودة في حالة الفقر التي يعيشها الصيادون، متطلعاً لثروة وحرية السهل النسبية.

وخلال هذا الوقت العصيب عثر «تيموجن» على صديق حميم، فتى يدعى «جاموغا»، في سن العاشرة، تبادل الاثنان الهدايا، وفي فصل الشتاء، لفا جسديهما بالفراء لحمايتهما من البرد، وتبادلا نرداً حيوانياً مصنوعاً من عظام كاحل الخراف، التي كانا يدحرجانها فوق نهر «الأونون» المتجمد، وما زال الأطفال والكبار على حد سواء يلعبون بالنرد المصنوع من عظام الكاحل حتى اليوم، مطلقين على جوانب النرد الستة أسماء حيوانات، لكل جانب نتوء خاص به، وفي فصل الربيع، إذ أصبح العشب جميلاً من خلال الثلج الذائب، صنع «جاموغا»

لصديقه «تيموجن» رأس سهم صافر في مقابل سهم في رأسه قرن. (تعد السهام الصافرة مفيدة في صيد الغزلان، فهي تجعل الغزلان تجفل مما يجعلها ترفع رؤوسها للإنصات، بلا حراك، وبالتالي تحولها إلى أهداف مثالية.) لقد أقسم الولدان مرتين على أنهما سيكونان ما يعادل الأخوة في الدم - «أندا».

لقد كانت عائلة تعيش تحت الضغط - امرأة وحيدة تربي أربعة من أبنائها واثنين من أبناء زوجها، ولم يكن مدهشاً إذا ما شعر الولدان الكبيران، «تيموجن» وأخوه غير الشقيق «بيغتر» بإحساس متزايد بالمنافسة، ففي أحد فصول الخريف، وعندما بلغ «تيموجن» سن الثالثة عشرة، تشاجر الاثنان على طائر قبرة وسمكة منوة كان قد اصطادها «تيموجن»، وعندما اشتكى «تيموجن» لأمه، قامت بتوبيخه، كيف يمكن أن يقول مثل هذه الأشياء في الوقت الذي:

ليس لنا أصدقاء سوى ظلنا.

ليس لنا سياط سوى ذيول خيولنا.

لماذا لم يستطيعا الانسجام معا بشكل أفضل؟ فقد انسل «تيموجن» بعيداً، غاضباً مصطحباً معه أخاه الأصغر «كاسار»، البالغ من العمر أحد عشر عاماً. ثم، والأقواس على أهبة الاستعداد، تسللا خلسة إلى الأعلى نحو «بيغتر» الذي كان يراقب من على مكان مرتفع بعض الحيوانات المخصية ذات اللون الكستنائي الشاحب، وقتلوه بدم بارد.

وقد حذفت مصادر أخرى في وقت لاحق هذا التصرف الأحمق والجبان، لأنه من المفترض أن ينعكس سلبياً على مستقبل الإمبراطور. لكن لماذا ذكر جنكيز أو الشعراء أو مؤلفو كتاب التاريخ السرّي أو جميعهم هذا الحدث؟ ربما لأنه يحقق غايتين: الأولى، أنه حتى كطفل فإن قاهر العالم المستقبلي أظهر القسوة اللازمة للفوز والاحتفاظ بالقيادة، والأهم من ذلك، أنها تكشف إلى أي مدى كان يجب على هذا الفتى المتهور أن يتعلم.

لقد كان هناك شخص واحد فقط يستطيع أن يعلمه تصحيح أخطائه، فعندما اكتشفت «هويلن» الجريمة، شعرت بالذهول، وبكلمات كانت قد تحولت إلى شعر في الوقت الذي كُتب فيه كتاب التاريخ السرّي، وجهت له إدانة لاذعة، لقد صرخت قائلةً: «أنتم مدمرون!».

مثل كلب مفترس

يأكل مشيمته...

إذاً لقد خربتم!

وبالرجوع إلى واحد من المصطلحات الشائعة الكثيرة في كتاب التاريخ السرّي، نجد أنه يحتوي «على مآثر قديمة، مقتبسة من كلمات رجل عجوز» ثم يسأل مرة أخرى كيف استطاعوا القيام بذلك في الوقت الذي «ليس لنا أصدقاء سوى ظلنا؟» وفيما بعد، قيل بأن «تيموجن» لم يفقد احترام والدته، التي كانت في مثل هذه الفترات الحرجة قد غرست في نفسه الحاجة للموازنة بين الرغبة في الانتقام مع الحاجة للتعاون والولاء، وقد وعى «تيموجن» الدرس جيداً، إذ لم يبدِ قط أي شعور بالندم على قتل «بيغتر»؛ لكن الأسرة بقيت معاً، وسوف يصبح «كاسار» مساعداً مقرباً من أخيه الأكبر.

لا يوجد أصدقاء بعيداً عن الظلال، بل وأصبح الأعداء أكثر الآن، ولم يمض وقت طويل بعد ذلك، ربما في أبريل القادم، حتى شن «التايشيوتيين»، أقارب «البورجيكيين» غارة على معسكر «هويلن»، وكانت الدوافع وراء ذلك غامضة، ربما كان زعيمهم غيوراً، وكان بالفعل يعدّ «تيموجن» الحازم اللامع كمنافس مستقبلي، فإذا كان الأمر كذلك، فإن جريمة قتل «بيغتر» قد منحته ذريعة للبحث عن «تيموجن» بوصفه مجرماً، وبالرغم من ذلك، عندما وصلوا إلى معسكر «هويلن» هرب «تيموجن» واثنان من إخوته عبر الجليد الذائب إلى وادٍ ضيق، حيث بقوا هناك محاصرين، وصاح المهاجمون «أخرجوا تيموجن!». «لا نريد أحداً سواه!» لكن «تيموجن» فر بمفرده عبر الغابة واختبأ بها لمدة تسعة أيام، حتى دفعه الجوع للاستسلام «للتايشيوتيين»، واقتادوه أسيراً.

وقد ذُكرت هذه الحادثة والمغامرة التي تلت ذلك بقوة في كتاب التاريخ السرّي، لأنهما إلى حد ما يصنعان قصة جيدة بلا شك، ويرجع ذلك جزئياً لأنها تحتوي على مجموعة من الأفكار عن الحياة في السهل وعن شخصية جنكيز، ولابد أن جنكيز نفسه كان قد روى هذه الحكاية مرات عديدة، وأقر بإعادة روايتها كطريقة لعرض قوته المتنامية ونضجه وأن الله قد منحه حظاً جيداً.

وقد بقي «تيموجن» أسيراً لمد أسبوع أو اثنين لدى زعيم «التايشوتيين» «كيريلتوك» رجل ضخم الجسم أشار له كتاب التاريخ السرّي بكنيته،»الرجل السمينFatty» الذي لم يكن يفضل ركوب الخيل، بل كان يتنقل في عربة، وبأوامر من «السمين» كيريلتوك، كان «تيموجن» يُنقل من معسكر إلى آخر كل يوم. لم يكن مربوطاً، إنما أُجبر على ارتداء طوق خشبي ثقيل حول عنقه ومعصميه، وقد عُرف هذا القيد باسم الكنغ، وقد كانت هذه المُشَهرة المتنقلة الأسلوب المعتاد لتقييد المجرمين في جميع أنحاء منغوليا والصين حتى وقت قريب، وكان بها سلسلة أو حبل، يستخدم لقيادة السجين وربطه.

كان يمكن لتوقعاته أن تكون الأسوأ لكن السمة والحظ كانتا في صالحه، فذات ليلة وجد «تيموجن» نفسه يأوي في منزل رجل يدعى «سوركان شيرا» أحد أفراد القبائل التابعة لقبيلة «التايشوت» ولم يكن مخلصاً لزعيمهم السمين كما ينبغي أن يكون، فقد سمح لأبنائه الاثنين بتخفيف طوق «تيموجن» مما يسمح له بالنوم بشكل أكثر راحة، وكان ذلك أساساً صغيراً جداً لعلاقة صداقة، يمكن البناء عليها عندما يحين الوقت.

وفي الليلة التالية كان القمر بدراً، يوم الدائرة الحمراء، كما يسميها المغول، وكان «التايشوتيين» قد تجمعوا للاحتفال، ولك أن تتخيل وادي «الأونون» الفسيح، بالأشجار المتناثرة التي تطل عليها المرتفعات، والخيول والأغنام ترعى في المراعي، والعشرات من الخيام المستديرة، والدخان يلتف من خلال الفتحات التي أعدت لخروجه، وكذلك الخيول المربوطة خارج كل خيمة، ومئات الأشخاص الذين جاؤوا من المعسكرات المحيطة، إنه لجوٌّ من البهجة، وكان من بين الحشود المجتمعة مساء ذلك اليوم الأسير «تيموجن» مربوطاً في طوقه، ويحرسه «شاب نحيل» أوكلت له مهمة الإمساك بحبل السجين، وقيادته خلال الجمهور، ويقبل جرعات من شراب «إراج» فخوراً لكونه محط الانتباه.

وبينما كان الشفق الصيفي الطويل يتضاءل، انطلق الناس - معظمهم سكارى - نحو خيامهم تحت ضوء البدر، وهنا ينتهز «تيموجن» الفرصة، وينتزع الحبل من أصابع حارسه، ويدير طوقه الخشبية، ويضرب الفتى المسكين على رأسه ويفر إلى الغابة، ويسمع خلفه صرخة حزينة - «لقد فقدت الرهينة!» - فيعرف أنهم سوف يطاردونه. لا وقت للتباطؤ خصوصاً في تلك الليلة المقمرة. لكن يوجد هنا نهر «الأونون»، فيجرى نحو ضفته، ويجد مياهاً راكدة،

فيبدأ في التمايل ويستلقي إلى أسفل، فتظهر رأسه واضحة في المياه الباردة وحولها الطوق الخشبي.

واصل مطاردوه البحث في الغابة، جميعهم ماعدا شخصاً واحداً فقط، الذي كان متجهاً نحو منزله أسفل النهر، لقد كان «سوركان شيرا Sorkan – shira» الذي لم يكن له دور حقيقي في المطاردة، لكنّه لمح «تيموجن»، فتمتم متعجباً، «لا عجب في قولهم بأن هناك ناراً في عيونك وضياءً في وجهك! لا عجب من غيرتهم منك! عليك الرقود هنا فقط، ولن أخبر أحداً بشيء».

ومن ثم رأى المطاردين من على بعد، فاتجه نحوهم، فعلم «سوركان شيرا» أنهم على وشك توسيع نطاق البحث، فأراد أن يعطل الأمور مقترحاً بأن يقوم كل شخص أولاً بالبحث مرة أخرى في الأماكن التي بحثوا فيها من قبل، وذلك من أجل التأكد، فانصرفوا فعلاً، تاركين «سوركان – شيرا» يهمس إلى «تيموجن» بأن آسريه يعدون العدة للانقضاض، لذا من الأفضل له أن يبقى منخفضاً ويلتزم الهدوء.

ويبحث المطاردون مرة أخرى، ويتحرش بهم «سوركان – شيرا» مرة أخرى، ساخراً من فشلهم، ويحثهم على البحث مرة أخرى قبل إيقاف البحث حتى الصباح، وعندما عم الصمت الغابة والمراعي المجاورة، طلب «سوركان – شيرا» من «تيموجن» الانتظار حتى يخلو الساحل من الناس، ومن ثم يرحل إلى أمه – قائلاً له «إذا رآك أحدٌ، لا تقل إنك رأيتني».

ومع ذلك كان لدى «تيموجن» فكرة أفضل، إذ كان في حالة يرثى لها، فيداه مقيدتان في الطوق المرهق، الذي يحك عنقه ومعصميه محدثاً ألماً شديداً، وحتى لو كان لديه حصان، فإنه لن يستطيع أن يمتطيه. كما أن الفرار سيراً على الأقدام سيجعله واضحاً للعيان، كما أن ملابسه الصوفية الرطبة، جعلته يرتعش في المياه المتجمدة، كما أن هواء الليل يكاد أن يتجمد من شدة البرودة، وسيعني الفرار في أسوأ الأحوال الموت بفعل الأحوال الجوية السيئة، وفي أفضل الأحوال الوقوع في الأسر مرة أخرى، لذا بدأ يترنح خلف «سوركان – شيرا» في اتجاه مجرى النهر، قاصداً الخيمة التي أمضى بها الليلة السابقة، متوقفاً من حين لاخر في ضوء القمر ليستمع إلى صوت انزلاق المحراك في الدلاء الجلدية، بينما تمخص النساء حليب

الفرس في وقت متأخر من الليل لصنع شراب «أراج».

فيسمع الضجيج، ويجد الخيمة ويدخلها، وعلى مرأى من الهارب المرتعش الذي يتقطر منه الماء، كان «سوركان - شيرا» يبدو مذعوراً، متخيلاً قدره إذا ما زار الباحثون المكان، لقد كان حريصاً على أن يغادر «تيموجن» في الحال، مهما كانت المخاطر، ومع ذلك لازالت عائلته - زوجته وولداه وابنته - متعاطفين كما كانوا في السابق، ففكوا الطوق وحرقوه، وجففوا ملابس «تيموجن» وأطعموه وأخفوه في عربة صوف الخراف، فخلد إلى النوم.

لقد كان اليوم التالي حاراً، وواصل «التايشيوتيين» البحث، منتقلين من البحث في الغابة إلى البحث في الخيام، وفي نهاية المطاف وصلوا إلى خيمة «سوركان - شيرا». لقد بدؤوا بفضول، باحثين تحت الأسرة، وفي العربة بكومة الصوف التي بها، وعندما كانوا على وشك اكتشاف قدم «تيموجن» - ومن المؤكد أن تفصيلاً قد ضمنه الشعراء منتهزاً الفرصة لزيادة التوتر - لم يكن «سوركان - شيرا» قادراً على التحمل أكثر من ذلك، فقال: «في مثل هذه الحرارة كيف يمكن لأي شخص تحملها تحت هذا الصوف؟» فيشعر الباحثون بالغباء ويغادرون المكان.

وهنا تنفس «سوركان - شيرا» الصعداء، فخاطب تيموجن قائلاً» كدت أن تذروني في الريح مثل الرماد» ثم أخبر «تيموجن» بأن عليه الرحيل، وجرى هناك حديث، وربما جدالٌ، حول ما هو صواب وأفضل، وفي النهاية، تأكد «سوركان - شيرا» بأن لدى «تيموجن» فرصة جيدة للهرب، فوفر له الطعام والشراب وحصاناً، لكنّه لم يزوده بسرج أو «صوفان» أو قوس، لا بدّ ألا يحمل «تيموجن» أي شيء يمكن أن يدل على أثره، أو أي شيء يغريه بإشعال نار أو المجازفة بالقتال، فامتطى «تيموجن» حصانه باتجاه أعلى النهر، وشق طريقه بأمان مجتازاً «التايشيوتيين» الغارقين في النوم، متبعاً مسارات أمه إلى مكان ملاذها في أعلى نهر «الأونون» وأخيراً انضم ثانية إلى عائلته.

وبالرغم من تفاوت التفاصيل في مصادر أخرى، إلا إن نسخة كتاب التاريخ السرّي أصابت كبد الحقيقة، لأنها تصور التجارب وتكشف ردود الأفعال التي شكلت شخصية «تيموجن»، فهو يدرك ما يعنيه أن تكون فقيراً ومنبوذاً، ويدرك أيضاً الأهمية الشديدة للعائلة،

ويفهم متى يتصرف، وأن يتصرف بحزم، لكنّه يمتلك أعصاباً ثابتة، ويستطيع أن يكبح جماح نفسه، والأهم من ذلك، أنه يستطيع أن يحدد الحليف المحتمل، ويفهم كيف يخلق الولاء (سوف يتذكر «تيموجن» العطف الشديد الذي حصل عليه من أبناء «سوركان - شيرا» وسيجعل من أحدهم قائداً عسكرياً) لكنّه في الوقت الذي وصل فيه إلى خيمة أمه، ربما كان تواقاً للانتقام، لكن تجاهل ذلك الدافع، لا بدّ وأنه كان بمثابة التزام واضح بإعادة بناء ما كان قد خسره، فالانتقام سيكون مرضياً، لكن فقط إذا ما خدم الحاجة الأكثر إلحاحاً: وهي الأمن.

ولتحقيق ذلك، كان بحاجة لما هو أكثر من الشجاعة، وأكثر من مهارات المحارب، فقد كان بحاجة إلى المهارات الاجتماعية والسياسية للقائد الحقيقي، باختصار، الهيبة، وعند بلوغه سن الخامسة عشرة، كان يسير على الطريق الصحيح بشكل حسن.

ويواصل كتاب التاريخ السرّي مع حادثة ملحمية أخرى، فيمر عام، ويصبح لدى العائلة قطعان وتسعة خيول: كافية لتلبية احتياجاتهم، لكن ليس بما يكفي لاعتبارها ثروة، وذات يوم، وبينما كان الأخ غير الشقيق الباقي على قيد الحياة، بيلغوتي، خارجاً لصيد المرموط ممتطياً أفضل حصان لديهم، الكستنائي اللون، قام اللصوص بسرقة الخيول الثمانية الأخرى، ولم يكن بمقدور «تيموجن» والآخرين إلا أن يراقبوا بغضب بائس، وعند المساء، وعندما عاد «بيلغوتي» تجادل الفتيان لفترة وجيزة بشأن من سيشرع بمطاردة اللصوص، فأصر «تيموجن» الأخ الأكبر، على أنه هو من سيقوم بذلك، فانطلق بالفرس المتبقي لديهم، متعقباً اللصوص عبر المراعي على مدى اليومين التاليين.

وفي صباح اليوم الثالث صادف خيمة، وقطيعاً كبيراً من الخيول يرعاه شاب في سن المراهقة، شاب «قوي ووسيم» يدعى «بورتشوBoorchu»، وكان الشاب قد رأى بالفعل خيول «تيموجن» المخصية ذات اللون الكستنائي الفاتح تُقاد من أمامه في وقت سابق، فأصر «بورتشو» على أن يترك «تيموجن» حصانه المنهك ويستبدله بحصان آخر جديد، حصان رمادي اللون ذي ظهر أسود، ودله على المسارات، وحينئذ، رأى «بورتشو» كم كان «تيموجن» مستنزفاً من ركوب الخيل، وإلى جانب ذلك، فإن سرقة الخيل جريمة تستحق العقاب، فاتخذ «بورتشو» قراراً مفاجئاً، وقال «كل آلام الرجال مشتركة» «سوف أرافقك»، ولم يكلف نفسه عناء العودة إلى البيت وإبلاغ والده بما يحدث، فانطلق الاثنان معاً.

وبعد مرور ثلاثة أيام أخرى، لحق الاثنان باللصوص وقطعانهم، بما في ذلك الخيول المسروقة، فتصرف الرفيقان على الفور، وانطلقا نحو القطيع، محررين خيولهم ومنطلقين بعيداً، وطاردهم فارس وحيد، لكنّه تراجع عندما أطلق عليه «تيموجن» سهماً.

وعندما وصلا إلى معسكر والد «بورتشو» قام «تيموجن» بلفته كريمة، قائلاً: «يا صديقي، كيف لي أن استرد خيولي بدونك؟ دعنا نتقاسمها، أخبرني، كم حصاناً تريد منها؟».

فأجاب «بورتشو» : كلا، كلا، فلم يكن الشاب يفكر في ذلك، فأبوه رجل غني و»بورتشو» هو الابن الوحيد، فلديه كل ما يحتاج إليه، وبالإضافة إلى ذلك، فقد تصرف من منطلق الصداقة، فلم يكن من الممكن أن يأخذ مكافأة، كما لو كانت الخيول مجرد غنيمة.

وعندما عاد الاثنان إلى خيمة «بورتشو» كان هناك عاطفة لم الشمل بين الولد ووالده، الذي كان قد دُمر لاختفاء ولده وافترض موته، لكن «بورتشو» المراهق المثالي، لم يبدِ ندماً على ما صنع، لقد عاد، إذن ما المشكلة؟ وبعد التوبيخ ودموع الارتياح، قدم الأب والابن الطعام «لتيموجن» وأقر الأب «ناكو» أواصر الصداقة بين الولدين قائلاً: «كلاكما شباب، اعتنيا ببعضكما البعض، ومن الآن فصاعداً، لا يترك أي منكم الآخر،» وسيتذكر «تيموجن» إيثار «بورتشو» النبيل، وسيصبح فيما بعد أحد أعظم القادة العسكريين المنغوليين.

وبقي هناك وعدٌ يجب الوفاء به، وتحالف جاهز لا بدّ من إعادة كشفه، فقد عاد «تيموجن» الذي بلغ الآن من العمر ستة عشر عاماً، لمعسكر «داي - تستسنسDei - Tsetsen's» للزواج من خطيبته، بورتي، كما هو مُرتب من أبيه قبل حوالي سبع سنوات سابقة، فقد بلغت «بورتي» سن السابعة عشرة، وأصبحت مستعدة تماماً للزواج، وكان أبواها سعيدين بذلك، وكان «داي» قد سمع بما حدث وخشي من الأسوأ، وأصبح الآن هناك سبب للاحتفال.

لم يذكر كتاب التاريخ السرّي شيئاً عن الزفاف، ربما لأن طقوسه باتت مألوفة لمستمعيه وقرّائه، ولا بد أنه كان حدثاً بكل ما في الكلمة من معنى، وذلك لأن «داي» لم يكن فقيراً، ولابد أن الشامان قد أعلنوا عنه كيوم مبشر بالخير، والذي سينحني فيه الزوجان خضوعاً «للسماء Heaven» فقد تغيرت مراسم الزفاف بعدما أصبحت البوذية هي الديانة السائدة في منغوليا في القرن السادس عشر، لكن بقي بها مقدار كافٍ من الطقوس القديمة حتى فترة

قريبة تكفي لكي نتخيل المشهد، العريس في ثوب أنيق، حاملاً قوسه وسهامه، اجتماع رسمي للمجموعات العائلية، إلقاء شعري من سلالة النسب لتأكيد المكانة والقرار بأن العريس والعروس من عشائر مختلفة، دخول مهيب إلى خيمة «داي» ؛ تقديم الملابس الجديدة وقوس وسهام جديدة «لتيموجن» تبادل للتمنيات الطيبة، و وليمة، مع تناول لقطعة قاسية جداً من لحم الخراف رمزاً لقوة رابطة الزواج، ويسبق الوداع طقوس هزلية - يصر العريس على البقاء مع زوجته في خيمة عائلتها، وتطردهم عائلة العروس بكلمات بذيئة ساخرة، وتلقي روث الحيوانات المجفف عليهم (المكافئ البدوي لقطع الحلوى التي تنثر على الزوجين في الأفراح)؛ وعند المغادرة، تحمل العروس ملابسها في هذه الحالة، مهرها، وعباءة سوداء اللون مصنوعة من فرو السمور. لا بد أنها كانت عباءة رائعة، ذات لون أسود حالك، ملساء كالزيت، بأكمام طويلة بما يكفي لتغطية اليدين في الطقس البارد، وحاشية تصل إلى أسفل باطن الساق.

ومن الإنصاف الافتراض بأن طموح «تيموجن» قد جارى طموح أسلافه الأرستقراطيين، فلم يضيع وقته في الاستفادة من منزلته المتزايدة كرجل متزوج وزعيم للعائلة، فأرسل «بيلغوتي» الأخ غير الشقيق المطيع، للبحث عن «بورشو» لكي يصبح ساعده الأيمن، كما استطاع الاعتماد على عائلته، اثنين من إخوة القسم، وعشيرة منغولية أخرى، عشيرة زوجته «بورتي» وأمه «هويلن» «الأونغراديين»، ومع ذلك احتاج إلى عون أكبر، وعرف أين يبحث عنه، فقبل ميلاده، كان والده قد أقسم قسم الأخوة مع «توغرل» زعيم قبيلة «كيريتKerait» والذي كان في ذلك الوقت يمتلك من القوة ما يكفي لقيادة «عشرين ألف مقاتل» وهذا يشكل، فرقتين عسكريتين، فقد امتد نفوذه من وسط منغوليا - كان مقر قيادته في الواقع يطل على نهر «التولا Tula» على مشارف «أولان باتور» العاصمة الحالية اليوم - حتى الحدود الصينية جنوب صحراء «غوبي». لقد كان هنا رجل ذو نفوذ حقيقي.

لذا اصطحب «تيموجن» شقيقه «كاسار» وأخاه غير الشقيق «بيلغوتي» في رحلة لكسب حليف جديد، محدثاً نفسه بأن أخا أبيه في القسم «كان تقريباً بمثابة أبي» لكن ما العمل إن لم يقبل «توغرال» بذلك؟ وفي هذه الحالة كان «تيموجن» يحمل شيئاً ربما يكون مقنعاً: مهر زوجته «بورتي» عباءة فرو السمور السوداء.

وقد جاء تخمين «تيموجن» في محله، فلم يستجب «توغرال» عندما ذكره «تيموجن» بالارتباط بينه وبين والده، لكن الهدية آتت ثمارها، فقد قال «توغرال»: «في مقابل سترة السمور، سأوحد شعبك المبعثر».

وبعد هذا مباشرة، ربما في عام 1184، عندما كان «تيموجن» على وشك عامه العشرين، حدثت نكسة أخرى، ونجاح آخر، فقد وصلت أنباء ظهور «تيموجن» إلى «الميركتيين» الذين يقطنون الغابة، فقد كانت «هويلن» والدة «تيموجن» قد سرقها شقيق زعيمهم، تشيلدو Chiledu، الذي مات حينها، والآن جاء الوقت المناسب للانتقام، قبل أن يصبح «تيموجن» قوياً جداً، وهذا سيتطلب عملية واسعة النطاق من شأنها أن تأخذ الرجال بعيداً عن قطعانهم لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، وذلك لأن «الميركتيين» تمركزوا على بعد ثلاثمئة كيلومتر إلى الشمال من نهر «السلينقا Selenga» على الحدود التي تفصل روسيا اليوم عن منغوليا.

لقد وقع الهجوم مباشرة بعد الفجر، عندما كانت عائلة «تيموجن» تعسكر في الوادي الفسيح بالقرب من منابع نهر «خيرلين Kherlen» - الوادي الوحيد الذي يقود إلى جبل «بورخان كالدون Burkhan Khaldun» الوادي الذي ينحدر ببطء من الغابة عبر المراعي ليصل إلى شجيرات الصفصاف على ضفة النهر، الوادي الذي ينبغي على أي شخص أن يمر من خلاله إذا رغب في زيارة الجبل اليوم، فتستيقظ خادمة طاعنة في السن على وقع ضربات حوافر الخيل، وتصرخ مطلقةً تحذيراً، فتنتزع «هويلن» الفتاة ذات السنوات الخمس، التي تدعى «تيمولون Temulun» وتلحق بالرجال الفارين إلى أعلى النهر، أعلى سلسة جبال بين تلتين، وعلى طول جانبي غابة «كالدون Khaldun»، ولا تعدّ السلسة، المعروفة باسم «تريشولد Threshold» جديرة بالذكر في كتاب التاريخ السرّي، لأنه من السهل عبورها بالخيول، لكن لا يمكن عبورها بالعربات (أو السيارات، كما سترى في الفصل السابع عشر)، وتترك فقط «بورتو» والخادمة العجوز «كوكجن Koagchin» بدون ركوبة، فتدفع الخادمة العجوز «كوكجن» «بورتو» إلى داخل عربة مغلقة يجرها ثور، وربما كانا متوجهين نحو «تريشولد Threshold» عندما انطلق «الميركتيون» بخيولهم طلباً «لتيموجن»، فقالت: هاهي خيمته، أما فيما يتعلق به فلم يكن لديها أية فكرة عن مكانه، لكن على أية حال، لقد كانت هناك فقط للمساعدة في جز الخراف، والآن هي في طريقها إلى البيت، ربما تكون

قد هربت بعيداً، لكن الأرض الوعرة عطلت محور العربة الخشبي، فتجمع «الميركتيون» مرة أخرى، متسائلين عما إذا ما كان ما بداخل العربة صوف خراف، فيعتقدون أن ذلك غير مرجح، ويطالبون بإلقاء نظرة، فترجل الشباب عن خيولهم، وفتحوا الباب، فوجدوا غنيمة، «شخصاً ما بدا وكأنه سيدة تجلس بالداخل»، فأمرها رجلان بالخروج، وجذباها على أرداف أحد خيولهم، ثم التحقا بالباحثين عن «تيموجن» في أطراف جبل «بورخان كالدون Burkhan Khaldun» الوعرة، غائصين في سهول الفيضان الموحل والغابات الكثيفة بما يكفي لإيقاف دب، وفي نهاية المطاف، انسحبوا مع أسراهم، قائلين «لقد ثأرنا لأنفسنا» ثم شدوا الرحال إلى موطنهم في رحلة دامت لمدة أسبوع، وعندما وصلوا إلى هناك، سلموا «بورتي» إلى شقيق «تشيلدو Chiledu» الأصغر، «تشيلجر Chilger».

وفي هذه الأثناء كان «تيموجن» مختفياً عن الأنظار، متبعاً ممرات الغزلان التي عرفها منذ طفولته، نائماً في العراء لمدة ثلاث ليال أسفل ساتر من الأغصان اقتُلعت من شجيرات الصفصاف التي تغطي السهول المنبسطة.

وعندما يصبح الساحل آمناً في صباح اليوم الرابع، يخرج «تيموجن» من مخبئه، مقراً بالامتنان لبقائه حياً، فعلى الأقل، هذه هي الطريقة التي قدم فيها الخبرة التي اكتسبها في وقت لاحق من حياته، فقد كان حراً في فعل ذلك، لأنه لم يكن برفقته أي شخص آخر في ذلك الوقت ليروي القصة بشكل مختلف.

فوق جبل كالدون المقدس

كنت كقملة

ولكنني هربت

وأُبقي على حياتي

بحصان وحيد

أتتبع ممرات الأيائل

صانعاً خيمة من لحاء الأشجار

تسلقت جبل كالدون

فوق جبل كالدون المقدس

كنت كطائر السنونو

ولكنني كنت محمياً

وبالرغم من أن جميع الجبال مقدسة، إلا إن هذا الجبل من بين جميع الجبال بالتأكيد يستحق تقديساً خاصاً، ويأخذ على نفسه عهداً بأن يكرمه ويبجله دوماً كمكان خلاصه يتذكره في صلواته كل صباح، «ينبغي على أحفاد أحفادي أن يراعوا ذلك». ثم يثني حزامه حول عنقه، متوجهاً نحو الشمس المشرقة، ويرفع قبعته إجلالاً، ويضرب على صدره، ثم يؤدي طقوس الإكبار التسعة نحو الشمس، راكعاً ليدهن الأرض بالدهن الحيواني وشراب فرس الخيل المختمر.

وربما لم يحدث شيء من هذا القبيل، وربما بعد أن أسس «جنكيز» إمبراطوريته قد اختار مسرحه نجاته ليؤكد الحق المقدس الذي يحكم من خلاله، تماماً كما ادعى الأباطرة الصينيون بأنهم يحكمون عبر «تفويض السماء Mandate of Heaven». لكن التفويض عادة يصبح ظاهراً فقط بعد أن تصل السلالة إلى السلطة، لكن «جنكيز» يتفوق عليهم، مدعياً بأن السماء كانت دوماً إلى جانبه، قبل أن يحقق أي نجاح، وذلك عندما كان لا يزال بائساً على جانب أحد الجبال، ولم يكن له أن يختار موقعاً أفضل لادعائه هذا، فقد كان الجبل دوماً بمثابة كاتدرائية المغول، وكان من الطبيعي «لجنكيز» كحاكم للبلاد أن يرغب في أن يُنظر إليه باعتباره كاهنها الأكبر، وأن يمثل بنفسه ذلك الدور.

ولم يكن ذلك مجرد موقف سياسي، إنما أعتقد أنه قد آمن به، قلباً وقالباً، لكنّه لم يفهم جيداً كيف أو لماذا ينبغي أن يحدث ذلك. وأصبح هذا اللغز جزءاً من شخصيته، مع وجود بعض النتائج المثيرة للأديان التي احتك بها، ولأولئك الذين يقدسونه اليوم، وقد خلق هذا بداخله انقساماً متناقضاً بين كبرياء رجل اختير ليوحد ويقود ويفتح البلاد، رجلٌ كان يبرر له استخدام كل الوسائل الممكنة لتحقيق غرض السماء، وبين تواضع رجل عادي رُوع بطبيعة المهمة غير الواضحة، لقد كان ذلك هو الشيء الذي استقر في قلب الزوبعة المتناقضة من

التدمير والإبداع، القسوة والكرم، التي شكلت شخصية «جنكيز».

وطبقاً لرواية كتاب التاريخ السرّي الصريحة، فإن شعبه قد قبل بظاهر قصة إلهامه على جبل «كالدون Burkhan Khaldun» المقدس، وتصرح العبارة الافتتاحية في كتاب التاريخ السرّي بأنه «ولد بمصيره المقدر من السماء العليا،» لقد كان هذا هو الاعتقاد الذي منحه هيبته، وألهم رفاقه وعائلته وضباطه وأتباعه.

لقد كانت مهمة «تيموجن» التالية هي إنقاذ «بورتي»، فلجأ إلى الرجل الذي أطلق عليه لقب «أب» وهو «توغرال» ولم يخب أمله، ألم يَعد «توغرال» بمساعدة «تيموجن» على توحيد المغول؟ فإنه الآن:

مقابل معطف السمور الأسود

سأسحق «الميركتيين» بأكملهم

وأعيد إليك السيدة «بورتي».

فسيرسل فرقتين من الفرسان، إذ أن «تيموجن» كان لديه جيشٌ صغير، ولمزيد من العون استدعى صديق طفولته وشقيقه بالقسم، جاموغا، الذي كان أيضاً شريكاً في المحنة، لكونه أسره «الميركيتيون» وأُجبر على العبودية، حتى سنحت له الفرصة لينال حريته ويكون مجموعة من المناصرين، وأصبح الآن زعيماً لعشيرته، ورجلاً يحسب له حساب مثل «تيموجن»، ولكونه متلهفاً للانتقام من «الميركيتيين» ومتلهفاً لمساعدة شقيقه في الدم، فقد أخذ على عاتقه توفير فرقتين إضافيتين، فأرسل رسله مزودين بتعليمات مفصلة حول مكان وزمان التقاء القوات.

ولقد حرص مؤلف كتاب التاريخ السرّي على رصد ما حدث بعد ذلك بالضبط، ذلك لأن هذه الأحداث مازالت حتى الآن تعطي درساً قيماً آخر في أساسيات إدارة الحملة العسكرية، فقد كانت الجيوش الثلاثة على موعد للالتقاء عند جبل «خنتي» منطقة التقاء الجبال والوديان التي تشكل قلب منغوليا، فخيّم «توغرل» إلى الغرب من مجرى نهر «التولا Tula» بالقرب من المكان الذي يسمى اليوم «أولان باتورUlannbaatar» ونقل فرقتيه لمسافة مئة وستين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي أعلى وادي النهر، على طول سلسلة جبال خنتي الصغيرة البالغة

ألفان وخمسمئة متر، وفي هذه الأثناء، كان «تيموجن» وفرقته يشقون طريقهم إلى أعلى جبل «خيرلين Kherlen» وإلى نفس مكان تشابك السلاسل الجبلية والأخاديد، وهنا التقى الجيشان وهبطا معاً إلى الوادي الفسيح الذي شكلته جداول نهر «المينج Minj» أحد الأنهار التي تدفقت شمالاً نحو «سيلنقا Selenga»، وهناك كانا على موعد للقاء «جاموغا».

وعندما وصلا إلى هناك، كان «جاموغا» قد وصل إلى المكان قبل ثلاثة أيام، وكان غاضباً، لسبب وجيه، فذلك السهل لم يكن رحباً، فهنا في قلب «خنتي» كانت المراعي محاطة بالجبال، وعلى أقل تقدير، تحتاج إلى عشرة هكتارات لكي تُطعم فرساً لمدة شهر، وكان لدى «جاموغا» فرقتان من الفرسان، وبالرغم من أن إحدى هاتين الفرقتين كان يطلق عليها اسم فرقة «العشرة آلاف» إلا انها عملياً لا تتجاوز أكثر من ثلاثة آلاف فارس، إذاً كان يوجد هنا ستة آلاف فارس على أقل تقدير، وكل فارس منهم يصطحب فرسين أو ثلاثة للاحتياط، ولنقل - أنه كان هناك خمسة عشر ألف فرس، فكل يوم، في المتوسط، ستتغذى الخيول على خمسة آلاف هكتار من العشب - هذا باستثناء الخيول التي تعود للعائلات التي تقطن الوادي، ولك أن تتخيل الرعب المتزايد لدى «جاموغا» - فآلاف الفرسان المستعدون للمعركة، ينامون في ظروف قاسية ويستهلكون إمداداتهم من الغذاء وقلقين بشدة من أجل العودة إلى قطعانهم، فالمراعي تتضاءل والسكان المحليون يواجهون الخراب، ناهيك عن حقيقة أن مثل هذه القوات لن تكون سراً خفياً، فأي شخص من «الميركيتين» يتجول في ذلك المكان سوف يشاهد بسهولة ما الذي يجري، وسيعدو بفرسه محذراً، وحتى تأخير ليوم واحد قد هدد القاعدة الاقتصادية والاستراتيجيّة للعملية برمتها، فهذه الطريقة لا تضمن النصر، ولن تضمن «لتيموجن» استعادة «بورتي»، وربما أن هذه الدروس التي استنتجناها، واستنتجها كتاب التاريخ السرّي، لم يألو «جنكيز» نفسه جهداً ليؤكدها مستخدماً كلمات «جاموغا» الغاضبة.

فقد صرخ «جاموغا» عندما وصل حلفاؤه قائلاً، «نحن المغول عندما نقول «نعم» ألا نفي بوعودنا؟» لا يوجد أي مبرر مقبول! إذا اتفق المغول على لقاء، لا يؤخرهم لا ثلج ولا مطر! ألم نتفق على ذلك، وقد عبر كتاب التاريخ السرّي عن كلمات «جاموغا» ببيتين من الشعر:

دعونا نطرد من صفوفنا

من لا يفي بوعده!

لقد تقبل «تيموجن» و«توغرال» الكلمات الغاضبة بأسف شديد، ماذا يستطيعان أن يقولا؟ إنهما مخطئان، ومن حق «جاموغا» أن يُوبخهما بالطريقة التي يراها مناسبة، ومن حق الزعيم المستقبلي للأمة - والأمة نفسها، المستمعة للقصة - أن يأخذوا العبرة.

وبعد أسبوع أو نحو ذلك، شقت الجيوش المتحالفة - اثنا عشر ألف فارس أو يزيد - طريقها شمالاً فوق الجبال نحو بحيرة «بيكال» مقتربين من روافد نهري «سلينغا Selenga» و«خيلوك Khilok» التي يُخيم خلفها «الميركيتون». لقد عبروا ليلاً، حيث صنع كل فارس منهم طوافة من جذوع القصب وسبح إلى الضفة الأخرى بصحبة فرسه، لقد كانت العملية ضخمة جداً بحيث لا يمكنها تحقيق المفاجأة بشكل كامل، فالصيادون الذين كانوا يتجولون على الضفاف الأخرى لنهر «الخيلوك Khilok» شاهدوا ما يجري، وعدوا بخيولهم محذرين، ففر «الميركيتيون» متفرقين برعب إلى أسفل نهر «سيلنقا Selenga» وعلى طول ضفافه.

وامتطى «تيموجن» فرساً مع أولئك الذين كانوا يطاردون اللاجئين الفارين بخيولهم، فنادى على «بورتي»، وقد كانت الرهينة الجديرة بأن يناضل من أجلها راقدة في إحدى العربات الهاربة، فسمعت النداء، وقفزت من العربة، وجاءت راكضة ممسكة بلجام فرسه، وبمجرد أن ترجل عن فرسه حتى ألقت بنفسها في أحضانه، وقد خلق ذلك مشهداً رومانسياً: محبوبان صغيرا السن يتعانقان في ضوء القمر، سكون وجيز في ظل هذا الهيجان العظيم.

لقد كان ذلك الإنجاز كافياً بالنسبة «لتيموجن»، فقال: «لقد وجدت ما كنت أبحث عنه» فأوقف المطاردة.

لقد كان نصراً مشهوداً، وأصبح «الميركيتيون» مبعثرين، وأُخذت الكثير من النساء كسبايا وخدم، وأنقذ «بورتي»؛ وعُين «تيموجن» كقائد للمغول أسوةً «بجاموغا». لكن الشيء الوحيد المحزن أن «بورتي» عادت حُبلى، وبالرغم من أن الأبوة لم تؤسس بشكل صحيح، إلا إن طفل «بورتي» الأول، «جوتشي» وشم باحتمالية أن يكون طفلاً غير شرعي، لذا فإنه لن يُعدّ أبداً في عداد ورثة «تيموجن».

وبعد مرور ثمانية عشر شهراً على الحملة العسكرية الناجحة ضد «الميركيتيين»عاشت عائلة «تيموجن»مع عائلة «جاموغا»، وأصبح الرجلان متلازمين، تماماً مثلما كانا وهما طفلان، فقد تبادلا الأوشحة، وأعطيا بعضهما البعض الخيول، وتناولا الطعام معاً، وناما معاً (هذا لا يدل على الشذوذ الجنسي، فقد أصبح اللواط جريمة تستحق الإعدام وفقاً للقانون الذي وضعه «تيموجن» بعدما أصبح خاناً).

لكن هذه الصداقة المتينة فسدت فجأة في الأول من أبريل، عندما كانت المجموعات العائلية تنتقل نحو مراعي الربيع على طول نهر «الأونون»، فقد كان الصديقان يمتطيان خيولهما أمام العربات عندما يقترح «جاموغا»أن يقيم كل واحد منهما معسكره الخاص، وهنا يتوقف «تيموجن» لبرهة، حائراً ومتسائلاً إذا ما كان اقتراح «جاموغا» يعني الانفصال، فيطلب نصيحة والدته «هويلن» لكن زوجته «بورتي» عبرت عما يجول بفكرها قائلة: «الكل يعرف أن «جاموغا»يكل من الأشياء بسرعة، وتضيف، وربما أنه شاعر بالكلل من كل ما يحدث».

ومن خلال هذا التلميح، ينمو الشك إلى إدراك فظيع، إذا لم يتصرف الاثنان كشخص واحد، ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ فإذا انفصلا، لن يكونا رفيقين، إذاً سيصبحان ندّين؛ وإذا تنافسا، فإن أحدهما لا بد أن يهيمن على الآخر، و«تيموجن» بكل تأكيد لم يكن مستعداً لأن يكون مجرد تابع، فيأخذ «تيموجن» قراره، ويقود جماعته قُدماً، دون أن يُخيم على الإطلاق، مباشرة خلال اللّيل.

ولربما وبكل بساطة يكون قد انتقل إلى مكان بعيد منعزل، وبقي على هامش التاريخ، لكن في الوقت الذي بدأت تُملى وتُكتب في القصص كان هناك الكثير من الأمور التي لا بدّ من توضيحها، ويراعي كتاب التاريخ السرّي ذلك من خلال تلخيص الغزوات والمعاهدات ذات النطاق المحدود بعمل درامي، ويكمل بتبريرات من المغالطات المنطقية شديدة الوضوح.

وعند الفجر، تحدث أشياء غريبة، فقد لحق «بتيموجن» ثلاثة أشقاء وعائلاتهم، يقودون أفراداً من عشيرة ثانوية، ثم ظهر خمسة أشقاء آخرون، ولحق بهم المزيد من الرجال والمزيد من العائلات من عشائر مختلفة - التاركوتيين Tarkuts، والبوتيين Bayuts، والباروليين Barulas، والمنغوتيين Manguts، والأورلاتيين Arulats، والأورنغايين Urianghais،

والبيسوديين Besuds، والسولوديين Suldus، والجلاريين Jalairs - جميعهم اختاروا «تيموجن» بدلاً من «جاموغا»، وتلك العائلات لم تكن من الأسر العريقة، إذ إن «جاموغا» يُخلص فقط للزعماء الرسميين، لكن «تيموجن» يقدم شيئاً لم يستطع «جاموغا» فعله: وهو الإخلاص الشديد نحو جميع من يعتمد عليه، كما يقدم الأمل لأولئك الذين من ناحية أخرى لم يكن لديهم فرصة للتقدم.

وقد انتشرت الشائعات بين العشائر المغولية مفادها أن الشاب «تيموجن» هو الشخص المقصود، وقويت الشائعة لتتحول إلى أمل، والأمل إلى نبوءة، ويروي الوافدون اللاحقون إيماءات ونذر خير، إذ يروي أحد الرجال بأنه قد سمع ثوراً يخور، «السماء والأرض تتفقان، اتركا «تيموجن» ليصبح سيد الأمة!»، ولا زالت العشائر تتوافد - الجنجيون Geniges، الجوركيون Jurkins، السكايتيون Sakayits وحتى بعض من أفراد عشيرة «جاموغا» الجادارانيونthe Jadarans - جميعهم نصبوا خيامهم في الجوار، البعض منهم من الأقارب، مثل ابن عم «تيموجن» «كوشارKochar» وابن عمه الآخر «أتلان Atlan» وابن «كوتولا» الاسطوري، و«ساشا Sacha» ابن حفيد «كابول»: جميعهم أعلى مقاماً من «تيموجن» حسب التسلسل العائلي، ولكنهم جميعاً أغراهم الشعور بأن هنا أخيراً وُجد الرجل الذي احتاجه المغول لاستعادة وحدتهم المفقودة.

ويتشكل القرار نفسه من قبل أقربائه الثلاثة الكبار، الذين يجب أن يوازنوا بين مميزات الخدمة إلى جانب قائد قوي في مقابل الاستسلام لمن هو أصغر منهم، فاختاروا الخدمة، وأقسموا يمين الولاء على مطاردة أعداء خانهم الجديد، وأن يجلبوا له أجمل النساء وأفضل الخيول، وأن يصطادوا لأجله، وقالوا لخانهم الجديد أن يطردهم، ويلقي برؤوسهم الحقيرة على الأرض إذا ما عصوا في الحرب، وإذا ما عصوا في فترة السلم عليه أن ينفيهم ويلقي بهم إلى البرية.

وكانت عملية الفهم هذه التي دامت لعقد من الزمان التي لم تسجل تفاصيلها بشكل موسع قد اكتملت تقريباً في عام 1200، وأصبح للجسم الرئيس للمغول خان جديد، لقد عادوا أمة كما كانوا في السابق، جاهزين للإغارة على جيرانهم.

الفصل الخامس

الوصول إلى السلطة

يُعدّ مسقط رأس تيموجن أحد المواقع التاريخية المرتبطة بظهوره، وهناك مواقع أخرى كثيرة، أصبح تحديدها جهداً ثانوياً في منغوليا، فالأطالس وصور كتاب طاولة القهوة والكُتيبات الهائلة لشركات السياحة تحدد بدقة المكان الذي تُركت فيه هويلن، والمكان الذي هرب إليه تيموجن من التايشوتيين، والطريق الذي سلكه للعثور على عائلته مرة أخرى، فمعظم هذه الهويات هي نتاج التخمين أو التمني، وذلك لأن الأسماء أشياء متقلبة، تنزلق من الذاكرة إذا ما انتقلت العشائر من أماكنها وإن اتحدت أو تبعثرت. أما الأنهار والجبال فتحتفظ بهويتها على مر العصور، بعكس التلال والسهول والغابات، فإذا كان جبل «بورخان كالدون Burkhan Khaldun» نفسه موضع شك، فمن ذا الذي يستطيع أن يجزم إذا ما كان هذا اللون الأزرق أو ذاك اللون الأسود هو نفسه الذي كان في ذلك الوقت؟.

لكن مازال هناك مكان واحد يربط الماضي بالحاضر، وهذا المكان هو، بحيرة وجبل ومراعٍ مجاورة، حيث استقر تيموجن وعائلته بعد هروبه الكبير، وحيث من المحتمل أن يكونً قد حول نفسه من زعيم قبلي إلى إمبراطور، فالبحيرة الزرقاء Blue Lake، كما كانت تسمى آنذاك ومازالت، تشكل قلب موطنه، فهي آمنة كما كان يتمنى دوماً، وتقبع جنوباً بين سفوح جبال «بورخان كالدون Burkhan Khalun» عالياً بين جبلي «خيرلين Kherlen» و«خورخ kgorkh» على ارتفاع آمن يصل إلى ستين كيلومتراً من السهول الشاسعة التي تمتد لتصل إلى أفراجا. ذاك كان الاتجاه الذي اقتربنا منه: أعلى الوادي الفسيح لنهر «خورخ» مارّين بالتلال الحرجية، إلى ما بعد مصدر النهر، عبر غابة واسعة من أشجار التنّوب الهزيلة، حيث زينت زهور النرجس الظلال باللون الأصفر، حتى وصلنا إلى ساحة البحيرة حيث تغير اسم «تيموجن» إلى «جنكيز Ghenghis».

تركنا «تيموجن»الذي اقترب من عامه الثلاثين، مسيطراً على نصف العشائر المنغولية، ولكي نفهم كيف حكم القبيلة بكاملها ومن ثم القبائل المجاورة كذلك، علينا أن ندخل في لعبة معقدة حدثت على أرض متقلبة، ففي أوروبا، كان الأمراء الذين يبحثون عن السلطة متأصلين في المدن والأرض والعائلات وقوانين الوراثة. أما في السهل، فالأمور كانت متقلبة، إذ يفرض العرف على القادة ألا يعبثوا بروابط العائلة والعشيرة وأخوّة القسم؛ لكن القواعد

التقليدية تذهب أدراج الرياح إذا ما ظهر هناك سبب قوي لكسرها (ومن أجل تحمل الحزن الذي انطوت عليه هذه الأحداث). كما أحاطت قواعد أخرى أقل شأناً بالأعياد والزواج والتحالفات والحملات العسكرية وتوزيع الغنائم. لكن لم يكن هناك قواعد ثابتة، باستثناء القوة والبقاء، فالعالم نفسه تغير بحلول عام جيد بدلاً من عامٍ سيئ آخر، وتغير معها النسيج الاجتماعي، ويعدّ تاريخ سهول القرون الوسطى كغرفة سحابةٍ تتضارب فيها الجزيئات القبلية وتنقسم وتتردد وتضمحل وتعيد تشكيل نفسها وتدمر بعضها البعض على نحو عشوائي تماماً، إذ جمعت الروابط العائلية بين الأعداء؛ فالرجال يمكن أن يعدوا بخيولهم لمسافة مئة وخمسين متراً في اليوم لأجل التجسس أو تقديم العون أو الخيانة، ولا يمكن للمرء أن يخبر مسبقاً أياً من تلك الأمور ستكون، وسيستغرق الأمر خمسة عشر عاماً حتى يظهر «تيموجن» قائد العشيرة «كجنكيزGenghis» مؤسس الأمّة، القائد ذو الغرائز الأكثر رسوخاً، والطموحات الأكثر ثباتاً، والشخصية الراسخة بشكل أكثر حزماً، وسمح لنا الإدراك المؤخَّر والمصادر - التي كان لديها ميزة إدراكهم المؤخَّر الخاص - بكشف الأحداث وسمات الشخصية التي تفسر ظهور تيموجن، وقد ظهرت إحدى هذه السمات بالفعل: وهي إيمانه بتوجيه السماء، وفيما يلي، سنرقب ظهور آخر لسمة أكثر قوة: وهي شعوره بالولاء.

ففي أوائل عام 1190، كان لا يزال في أحسن أحواله كثاني أقوى زعيم عشيرة، وتقريباً أقل من ذلك بكثير، إذ جاء جاموغا في المرتبة الأولى وذلك لتنبئه بالعنف ومعرفته بقوته الخاصة، ولا يوجد شيء مفاجئ في ذلك الأمر: فالوقت المتاح للعناية بالقطيع، وتأكيد الولاء، وحشد الجيوش استغرق عاماً بأكمله، ومن ثم استغل جاموغا قتل تيموجن أحد الأقارب في نزاع حول الخيول كذريعة وأرسل قوة مكونة من حوالي عشرين إلى خمسة وعشرين ألف رجل لمهاجمة تيموجن، ولكونه قد حذره قبل وصولهم شخصان من أفراد عشيرة نائية، ولأن تيموجن لم يكن لديه الوقت الكافي لحشد قوته الخاصة، كانت النتائج كارثية: إذ فر تيموجن من الميدان ليختبئ في الممرات الملتوية على الروافد العليا لنهر «الأونون» محتمياً مرة أخرى بسفوح جبل «بورخان كالدون Burkhan Khaldun»، ولم يُقدم كتّاب التاريخ السرّي سرداً متكاملاً لهذه العملية، لكن تظهر بعض التطورات الرئيسة في ظل هذه الفوضى، إذ يقع نصير تيموجن، توغرال زعيم الكيريتيين، في أوقات عصيبة، ويعزل

شقيق توغرال الأصغر، بمساعدة «النايمانيون» الرجل العجوز ويطردونه، وأصبح النايمانيون الآن يحكمون الكيريتيين، فيستغيث توغرال بحليفه تيموجن، ويعيد الاثنان حشد القوات، وخشية من قوة تيموجن المتنامية، تشكل القبائل القريبة من جاموغا تحالفاً وتنصبه زعيماً لها، مطلقةً عليه لقب «غور - خان Gur - Khan» («الحاكم العالمي»)، وتضم هذه القبائل التايشوتيين، وهي القبيلة التي فر منها تيموجن بأعجوبة.

وفي هذه المرحلة، ربما في عام 1202، تظهر القصة مرة أخرى بقوة إلى بؤرة الأحداث، إذ احتشدت القوات لمعركة كبرى في السهول الشرقية لمنغوليا، وإذا كان كتاب التاريخ السرّي يبخل في التفاصيل السياسية والاستراتيجيّة والعسكرية، فإن مؤلفه بذل جهداً عظيماً لتسجيل أمثلة لإحدى السمات التي يبجلها تيموجن أكثر من غيرها: وهي الولاء، السمة الأكثر أهميةً بالنسبة للحياة على السهل، وعليك أن تتذكر دوماً بأن تلك القصص من المحتمل أن تكون قد اقرها «جنكيز» نفسه، مع بعض التلفيق الإضافي من محرر كتاب التاريخ السرّي لتأكيد رسائلهم، فعلى سبيل المثال قيل لنا إنه خلال المعركة مع ائتلاف جاموغا نجا تيموجن من الموت مرتين بشق الأنفس، مما فتح الطريق لإظهار الولاء الذي ربط المشاركين في المعركة كما لو جمعهم قَسم مقدس.

ففي أحد الأماكن أثناء المعركة يخطئ أحد السهام تيموجن، لكنّه يثقب رقبة فرسه، فيرديه قتيلاً، وبعد أن يُبدل فرسه يصيبه سهم آخر، سهم مسموم، في الرقبة، وأثناء وجوده في المعسكر في تلك الليلة، بدون طعام أو شراب يبقيه على قيد الحياة يدخل في غيبوبة، ويمص نائبه «جيلميJelme» جرحه لتنظيفه، ثم يتسلل إلى معسكر جاموغا ويسرق بعض الروائب، وعندما يسترد تيموجن وعيه، يغذيه جيلمي بالروائب والماء، وعند الفجر، وعندما يستعيد تيموجن قوته، يكتشف أنه يدين لجليمي بحياته.

في وقت لاحق، وبفوزه بالمعركة وهروب جاموغا، يخرج تيموجن ليطهّر المكان من المنافسين المواجدين في معسكر الأعداء حتى وصل إلى «سورخان شيرا Sorkan - shira» الرجل الذي آواه عندما كان يحاول الهروب من التايشوتيين وهو مُقيد بالنير الخشبي، الذي أصبح الآن حرّ الإرادة في الانضمام إلى تيموجن، وأصبح مرافقاً له، ويطلب تيموجن من سورخان - شيرا إذا ما كان بإمكانه معرفة من أطلق السهم الذي قتل فرسه.

لكن الذي بادر بالحديث كان،»جيركوJerko» رفيق سورخان: لقد كان هو من أطلق ذلك السهم، الأمر الذي يُعد تفكيراً سريعاً، فكعدو مقاتل كان على وشك قتل تيموجن، توقع تنفيذ حكم الإعدام به بشكل عاجل. لكن لوجوده برفقة سورخان، مُنقذ الخان الشاب ذات مرة، كان كلاهما يعرف الحقيقة، فلو التزم جيركو الصمت، وكُشفت فعلته فيما بعد، سيبدو جباناً ومخادعاً، لذا كان من الأفضل كشف الحقيقة، حتى لو لزم الأمر المخاطرة بحياته - المخاطرة التي حد من خطورتها من خلال تكريس نفسه لخدمة تيموجن، واعداً بإطاعة أي أمر، مهما كان صعباً، فيخاطب تيموجن قائلاً: «إذا قتلتني، سوف أتعفن في قطعة من الأرض بحجم قبضة يدك، لكن لو غفرت لي، سأخوض غمار المحيطات والجبال لأجلك»، وفي مناسبات أخرى، في وقت لاحق، لم يكن لدى تيموجن وقت للتعامل مع المرتدين. لكن هذا الموقف لا يتضمن أية خيانة، فكلاهما استعبده أعداؤه، ولوقوعه تحت تأثير وجود سورخان، يمتدح تيموجن صدق جيركو وشجاعته، فيقول: «هذا هو الرجل الذي يمكن اتخاذه كرفيق» ويستبدل اسمه باسم مرتبط بذكرى عمله. «سأسميه «جيبيJebe» [«رأس السهم»] وسأستخدمه كسهمٍ لي»، وسيصبح جيبي وجيلمي فيما بعد اثنين من أعظم القادة.

وبعد المعركة، أُسر زعيم التايشوتيين - «كيريوتك السمين» - الذي كان قد أسر تيموجن من قبل، على يد رجلٍ من عشيرة تابعة واثنين من أبنائه، فيدفع الثلاثة بكيريوتك على ظهره في عربة، ومن ثم، وبرفقة والد الشابين الذي كان جاثماً فوق بطن الأسير، ينطلقون ليسلموا أنفسهم ومعهم غنيمتهم، وفي الطريق، على أيه حال، يتذكرون مواقف «تيموجن» غير الموفقة المتعلقة بالولاء، ويبدأون في التساؤل عما إذا ما كان ما يفعلونه هو الصواب، ومع ذلك، يقسمون بأن يخدموا الرجل الذي هو الآن أسيرهم، وبدلاً من اللجوء إلى الخيانة، يطلقون سراح أسيرهم، ويقدمون أنفسهم لتيموجن بدونه. لقد كانت خطوة جيدة، فعلى الرغم من أن تيموجن كان سيودي بحياة كيريوتك إلى موت فظيع، إلا إنه يرسخ الولاء لزعيم كرس جُلّ رغبته للانتقام، فيخبر الرجال الثلاثة قائلاً: «إنكم غير قادرين على التخلي عن خانكم الشرعي. لقد كان موقفكم صحيحاً» ومن ثم يلحقهم في خدمته (نال كيريوتك جزاءه على أية حال، لكونه قُتل في وقت لاحق على يد أحد أبناء سورخان - شيرا.)

وبقي هناك عقبتان رئيستان أمام تيموجن لكي يحقق سيطرته الكاملة على المنطقة: العقبة

الأولى هي بقاء جاموغا طليقاً على رأس تحالف القبائل، والثانية كانت حليفه الكبير غير المستقر، توغرال.

إذ أصبح توغرال الآن طاعناً في السن وبلا حماية، ففي معركة ضد النايمانيين، فر من ميدان القتال قبل أن تبدأ المعركة، ليلاحقه العدو ويرى زوجته وابنه، «نيلكا» وهما يُختطفان، ومع ذلك لازالت لديه الجرأة ليطلب مساعدة تيموجن، فيستجيب له مرة أخرى، مرسلاً أربعة من أفضل المقاتلين لإنقاذ عائلة توغرال، ومن الطبيعي أن يكون توغرال معترفاً بالجميل، مقسماً مرة أخرى بأن تيموجن يُعد كأحد أبنائه، قائلاً: «عندما نمتطي خيولنا لغزو أعدائنا، دعنا نركب جنباً إلى جنب مع هدف واحد؛ وعندما نصطاد الحيوانات البرية، دعنا نصطاد معاً مع هدف واحد».

ولتأمين التحالف، يقترح تيموجن أن يتزوج ابنه «جوتشي» من ابنة توغرال، بينما تتزوج ابنته من ابن توغرال، «نيلكا». لكن نيلكا، وعلى الرغم أنه مدين لتيموجن بحياته، إلا انه يشعر بالغيرة من سلطة تيموجن ويخشى من فقدان إرثه كزعيم للعشيرة لصالح الرجل الذي يطلق عليه والده في الآونة الأخيرة لقب «ابن»، فيرفض بكل شدة عروض الزواج، ويقع توغرال بين اثنين من الولاءات المتضاربة: ولائه لابنه ووريثه نيلكا، وولائه تجاه ابن شقيقه في الدم، منقذه تيموجن، ويبدو توغرال في أزمته هذه كشخصية مأساوية.

ففي حالة رفض عرض تيموجن، الشريك الأصغر، فإن توغرال سيبدو للزعماء الآخرين الرجل المرجح لحكم السهل، وسيعاد تشكيل التحالفات، لذا يرسل جاموغا رسالة إلى توغرال قائلاً: «تيموجن ليس بالشخص الذي يمكن الوثوق به؛ انقلب عليه، وسأنظم إليك». لكن توغرال المرتبط بأواصر دم الأخوة وبمعرفته بإخلاص تيموجن، يتجمد تفكيره، ويصبح غير قادر على حل الصراع تماماً، فيرسل نيلكا رسائل لوالده مرتين، متوسلاً إليه بالعمل ضد تيموجن. ألم يستطع الخان الطاعن في السن رؤية الحقيقة، أن تيموجن نوى بسط سلطته عليهم جميعاً؟ ومازال توغرال لم يفعل شيئاً، ولم يألُ كتاب التاريخ السرّي جهداً لكشف المعاناة التي ألمت به جراء حيرته، فيقول، بشكل يائس: «كيف يمكنني أن أتخلى عن طفلي، ولدي؟ وبكل تأكيد لن نكون محبوبين من السماء! كيف يمكنكم أن تطلبوا مني جميعاً التخلي عن ابني؟».

ومن ثم يلجأ نيلكا للغدر، فيرسل أخيراً دعوة لتيموجن، طالباً يد ابنته، بغرض إلقاء القبض عليه وقتله. لكن تيموجن الذي حذره من الفخ اثنان من الجواسيس، يفر مع مجموعة صغيرة من الرجال على طول نهر «الخلخا Khalkha» ومن ثم إلى شواطئ بحيرة (أو ربما نهر) يسمى «بالجونا Baljuna»، وبدا أن ما حدث بعد ذلك كان ذا أهمية كبيرة، لأنه حدد نظير تيموجن في الناحية العسكرية، لكنّه يعد أيضاً نقطة تحول في مجال القيادة. لكن الشيء الغريب، أنه لا يوجد أحد لديه فكرة عن مكان وجود نهر «بالجونا Baljuna»، لذا تجادل العلماء بشأن احتمالات مختلفة ومتعددة، لكونه يقع على بعد مئات الكيلومترات، وربما كان مجرد بركة بالقرب مما يسمى اليوم «بلازينو Balzino» على بعد مئة وخمسين متراً من الحدود السيبيرية؛ أو في أقصى شرق منغوليا، بالقرب من نهر «الخلكا»؛ أو على بعد خمسمئة متر في أقصى الغرب، على نهر «البلج Balij» على مقربة من المكان الذي حدد كمسقط رأس «جنكيز» في عام 1962، وحيثما كان، فإن الإمبراطور المستقبلي كان مرة أخرى على وشك الاختفاء، وذلك كما سُجل في عدد من المصادر الصينية التي أُعيد اكتشافها وترجمتها في أواخر القرن التاسع عشر، وطبقاً لتلك المصادر، فإن تيموجن تحمل حرماناً شديداً مع تسعة عشر شخصاً من رفاقه المخلصين، الذين أجبروا جميعهم على شرب مياه نهر «البالجونا Baljuna» الموحلة، وطبقاً لواحدة من روايتين متطابقتين تقريباً فإن:

عند وصول «تيموجن» إلى نهر «البالجونا» كانت المؤن قد نفدت، وقد حدث أن حصاناً برياً ركض إلى الأعلى من ناحية الشمال، فاصطاده «كاسار»، وصنعوا من جلده غلاية، وأشعلوا النار مستخدمين الحجارة، وحصلوا على الماء من النهر، و طهوا لحم الحصان وأكلوه، ورفع «جنكيز خان» يده نحو السماء، وأقسم على النحو التالي: «إذا تمكنت من إنهاء «العمل العظيم» سوف أشارككم أيها الرجال في السراء والضراء، وإذا نكثت بعهدي، دعوني أكون مثل هذا الماء»، فانخرط جميع الضباط والرجال في البكاء.

لقد كان موقف «تيموجن» هذا يماثل موقف «هنري الخامس» والذي فيه كان القائد على استعداد لتقاسم المعاناة والهزيمة والموت مع رفاقه مشكلين رباطاً لا مثيل له:

من يذرف اليوم دمه معي

سيكون أخي.

لقد استحسن جنكيز المستقبلي كلمات الملك «هاريHarry»، إذ كانت تجربة «شرب المياه الموحلة» كعيد القديس «كرسبيان» بالنسبة لجنكيز. لقد وحدت زمرة من الأخوة الذين سوف يفخرون بمعاناتهم وإخلاصهم التي جمعت معاً السيد والمقاتلين، ففي وقت لاحق، وقف أولئك الذين كانوا جزءاً من «عهد بالجونا Baljuna Covenant» كما يطلق عليها العلماء، على رؤوس أصابعهم كما ذُكر. لقد كانت قصة جديرة بأن يرويها الرجال لأبنائهم.

لكن وعلى الرغم من أهميتها، إلا إِن هذه الحادثة لم تظهر في كتاب التاريخ السرّي، وحيث إن الأحداث التي وقعت قبل هذا الحدث وبعده موجودة هناك، فإن الاستبعاد كان بكل تأكيد مُتعمداً، ويمكننا فقط أن نُخمن السبب، فربما أن الحدث حذف نظراً لأهميته، باعتباره وسيلة لحلقة داخلية للأعضاء للحفاظ على سرية ارتباطهم، وربما أن «البلجونيين Baljunians» أصبحوا جماعة ماسونية، محميين بقوة بمنزلتهم الخاصة، وغير راغبين بأن تُقص هذه الحادثة من الشعراء الملحميين وتُدون في الكتب ليقرأها العالم بأسره، ويمكنني أن أُخمن أيضاً سبباً أكثر إيثاراً، ففي الوقت الذي كُتب فيه كتاب التاريخ السرّي، بعد خمسة وعشرين عاماً، كان الكثير من الرجال الشجعان والمخلصين قد انضموا لصفوف الإمبراطور، وربما أنه بدا من الحماقة التفاخر علناً بتجربة استثني الكثير من الوجهاء منها.

ومن «بلجونا Baljuna» حيث يستعيد تيموجن وقلة محظوظة قوتهم في نهاية صيف 1203، يرسل رسالة طويلة مثيرة للمشاعر لتوغرال، وفي الواقع تشير الرسالة إلى الوحدة الوطنية، لكن بشروط من؟ ما احتوته الرسالة يمكن لأي شخص تخمينه، وكل ما لدينا هو القصة المختلقة التي ذُكرت على لسان جنكيز المستقبلي وكتاب التاريخ السرّي، وبطبيعة الحال، فإنها تدعي أنه الأفضل أخلاقاً، وفي هذه الرسالة يتساءل تيموجن بحزن: «أيها الخان، يا والدي، لماذا تنقلب ضدي؟ ألا تتذكر كيف أقسمنا على الولاء؟ ألم نكن مثل الثيران نعمل معاً، أو مثل العجلات على عربة ذات عجلتين؟ ألم يهبّ «يوسجي» والدي، لمساعدتك؟ ألم تقسما أنتما الاثنان على الأخوّة؟ ألم تقل: «سأرد جميلك لأحفاد أحفادك»؟ ألم أسترد لك زعامتك حينما طردت، وكنت تعتاش على خمسٍ من الماعز، وتشرب دماء إبلك؟ وعندما نَهَبك «النايمانيون» ألم أرسل أفضل أربعة رجالٍ لدي، «خيول الحرب» الأربعة، لنجدتك،

وإنقاذ ولدك؟ فلماذا، أيها الخان الأب، تنقلب ضدي الآن؟».

أخلاقياً، موقف تيموجن قوي، ويعرفه توغرال، فيتأوه قائلاً: «أوه، ياولدي المسكين». «أملزم أنا بالانفصال عنه»؟ لكن عسكرياً، يعدّ تيموجن ضعيفاً، ويستطيع فقط انتظار النهضة التي تأتي مع ظهور عشب الصيف، مستمدّاً قوته من وصول التعزيزات من عشيرة زوجته، «الأونغراديين» والعشائر المحلية الأخرى.

لقد كان «تيموجن» محقاً في الانتظار، فأثناء غيابه، تفكك تحالف توغرال، ويخطط جاموغا الذي كان دوماً غير صبور مع توغرال لاغتيال الرجل العجوز. لكن توغرال يكتشف المؤامرة، ويفر المتآمرون للانضمام إلى «النايمانيين»، وهنا ينتهز تيموجن الفرصة ويهاجم توغرال سيئ الحظ، وبعد معركة دامت لثلاثة أيام - لا توجد أية تفاصيل أخرى عن هذا الصدام الكبير - يحقق النصر، فيفر جاموغا وتوغرال وولده غرباً، نحو أراضي النايمانيين.

وهناك يُقتل توغرال على يد أحد الحراس الذي يرفض التصديق بأن اللاجئ هو الخان الكبير «للكيريتيين»، وفيما بعد، وعندما كُشفت هويته، نقل رأسه إلى مقر قيادة النايمانيين، حيث تأمر الملكة الأم بتكريم حليفهم السابق، فتوضع الرأس على سجادة لباد أبيض، وتصبح محوراً في مراسم إراقة النبيذ والعزف على الكمان، وقد تأثر ولي العهد، «باي بوخا Bai Bukha» - المعروف عادة بلقبه الصيني «تاينغTayang» - تأثراً كبيراً بهذه الطقوس الغريبة، ولم يستطع إزاحة بصره عن الرأس المقطوعة، ويصرخ فجأة: «إنها تبتسم!» ويدوس الرأس حتى اللب المليء بالدماء، فيشعر والداه بالرعب، وخصوصاً والده، وعندما يفسر رجلٌ من «الشامان shaman» نباح الكلاب كنذير كارثة، فإن الخان الأكبر يغرق في الاكتئاب، وبدأ يتمتم: «لقد أصبحت طاعناً في السن، وولدي ولد غبيٌ» دون أدني تفكير بشيء سوى الصقور والصيد، وكان يخشى على مستقبل شعبه تحت حكم هذا المهووس بجنون العظمة.

وفي هذه الأثناء كان نيلكا قد فر جنوباً وغرباً، تاركاً جاموغا مع النايمانيين، وفي نهاية المطاف، قُتل نيلكا في «كشغار» في أراضي «اليوغريينUighur» في أقصى حدود الصين الغربية.

ولم يزل النايمانيون لم يقهروا بعد، بالرغم من أنهم يقطنون في أقصى الغرب النائي،

إلا إنهم الآن يشكلون تهديداً لأنهم يؤوون حليفهم الجديد، جاموغا، فقد عرف تيموجن أن المواجهة قادمة لا محالة، وكنوع من أنواع الاستعداد انسحب شرقاً مرة أخرى، عائداً إلى نهر «الخلخا Khalkha» لتجميع الصفوف والتخطيط للحملة القادمة، وعندما استكملت كل هذه الاستعدادات، في منتصف مايو 1204، بدأ مسيرته العسكرية من أعلى نهر «الخيرلن Kherlen» نحو سلسلة تلال «ختني» حيث تعسكر قبائل النايمان، تحت القيادة المريبة «لتاينغ Tayang»، وعندما لاقوا العدو، واجهوا قوة ساحقة متفوقة، واستنزفت الخيول المغولية، وبعد جمع معلومات عن المقاومة، اقترح أحد القادة الجدد إقامة معسكر لاستعادة القوة، وفي الوقت نفسه ردع المقاومة من خلال قيام كل رجل بإشعال خمس نيران، وقد نجحت الخطة بالفعل، ففي تلك الليلة، أخبر حراس النايمان، الذين تمركزوا على القمم المرتفعة، أميرهم بأن المغول «لديهم نيران أكثر من النجوم».

فيشعر «تاينغTayang» الضعيف بالاضطراب، ويقترح الانسحاب ليقاتلوا في يوم آخر، والآن ولأول مرة نسمع عن ابن «تاينغ» العنيف، كوشلاغ، الذي أتخيل أن يكون في العشرينيات من عمره، ولم يحمل كوشلاغ شيئاً عن أبيه، قائلاً: إن والده لا طائل منه، مثل العجل المربوط أو «المرأة الحامل التي لا تذهب أبعد من مكان تبولها»، وقد كان أحد قادة «تاينغTayang» صريحا بشكل مساوٍ حيث قال: لو كنا نعرف أنك ستكون جباناً لهذا الحد، لكنا قد أرسلنا إلى والدتك، أيها اللعين، وفي نوبة غضب، يصدر «تاينغ» أوامره بالقتال.

وفي مناوشة تمهيدية في السهول على بعد حوالي مائتي متر غرب ما يسمى اليوم «بأولان باتور» أجبرت طلائع جيش تيموجن قوات النايمان النائية على مغادرة أماكنها، ويبدأ كتاب التاريخ السرّي الآن بالابتهاج بالنصر القادم، وعندما يسأل «تاينغ Tayang» عن سبب فرار رجاله، يُذكر جاموغا الأمير بأن تيموجن لديه أربعة رفقاء عظام، «كلاب صيده الأربعة» القائد «جيبي Jebe» و«جيلميJelme» و«سوبيدايSubedei»و«قوبلايKhubilai» (لا ينبغي أن نخلط بينه وبين حفيد جنكيز، الخان المستقبلي). لقد تربوا على اللحم البشري، ولديهم:

جباه كالنحاس المسبوك

وأزاميل للأنوف

ومخارز للألسنة

وينطلقون بقلوب من حديد و

بسياط للسيوف،

لأكل الندى

وركوب الرياح.

فتمتم تاينغ العصبي قائلاً: آه «دعونا نقف على مسافة من هؤلاء البرابرة» ويتراجع بعيداً نحو التلال، ويتساءل تاينغ من مكانه الآمن الجديد، من ذا الذي يقف هناك، الشخص الذي يبدو كالصقر المتضور جوعاً؟ فأجاب جاموغا قائلاً: أتعني الشخص المحاط جسده بالنحاس المسبوك والحديد المطاوع؟ إنه تيموجن، أخي بالقسم.

ثم ساد هناك فترة من الصمت.

ومن ثم يقول «تاينغ Tayang»: «إن هذا لموقف محير. دعونا نتسلق بعيداً إلى أعلى الجبل ونقيم هناك».

وفي هذه اللحظة بدأ «جاموغا» يخطو خطوات سريعة. هل لأنه رأى «كاسار» شقيق «تيموجن» الذي كانت أمّه تغذيه على لحم البشر؟ فقد كان يتغذى على الثيران ذوات الثلاث سنوات، وكان باستطاعته بلع رجل بأكمله - بجعبته وكل ما تحمل - دون أن تلمس حتى جوانب حنجرته. كما كان باستطاعته إطلاق سهامه مباشرة على عشرة أو عشرين شخصاً، حتى لو كانوا على الجانب الآخر من الجبل.

هكذا سارت الأمور، حتى تراجع «تاينغ Tayang» إلى أعلى الجبل، ومن ثم يرسل جاموغا رسالة إلى «تيموجن» يخبره فيها كيف أنه «جاموغا» المخلص، زرع هذا الخوف في قلب الأمير الذي تراجع. ثم يكذب قائلاً؛ «أما فيما يتعلق بي فقد انفصلت عن النايمانيين».

وأياً كانت الطبيعة الحقيقية للمعركة الملحمية، فقد انتهت بانتصار «تيموجن»، ومات «تاينغ» متأثراً بجراحه، بينما فر «كوشلغ» إلى الغرب (إلى «خارا خيتاي Khara Khitai» حيث سيقيم حياة جديدة لنفسه، ويعيش ليقاتل «تيموجن» في يوم ما).

و فر جاموغا أيضاً إلى الجبال في أقصى الشمال الغربي، مع خمسة ناجين آخرين، طالباً العون من «الميركيتيين» الذين أسروا «بورتي» قبل عشرين عاماً، وانتهت الحملة النهائية بهزيمة «الميركيتيين»، ويُغدر «بجاموغا» من رفقائه ويقع في الأسر، وطبقاً لكتاب التاريخ السرّي، يقوم «جنكيز» بإعدام رفاق جاموغا بتهمة انقلابهم على خانهم، ثم يمنح جاموغا فرصة للاعتراف بخطئه علناً، مذكراً إياه بالقسم القديم، فيقول؛

يجب أن نُذكر بعضنا البعض بما نسيناه

نوقظ بعضنا البعض من سُباتنا

عندما ذهبت بعيداً وانفصلت عني،

كنت لا تزال حظي، ياشقيق القسم المبارك،

بالتأكيد في الأيام التي كنت تقتل أو كدت أن تُقتل،

تاق جوف معدتك وقلبك لي؟

في الواقع، كان «تيموجن» يبحث عن فرصة لإظهار الرحمة، فيقول: ربما أن «جاموغا» تكلم ضدي، ولكني «لم أسمع أنه كان في نيته إيذائي». لكن «جاموغا» يعرف أنه قد انتهى أمره، وبعد كل شيء، أثبت أنه منافق ومتآمر وخائن، فخاطبه «تيموجن» قائلاً: «أما الآن فإن العالم الآخر أصبح جاهزاً لك، ما جدوى أن تكون هناك مع رفقائك؟ على العكس، يا شقيقي في القسم، سأطاردك في أحلامك، وفي النهار المشرق سأزعج تفكيرك».

سأكون مثل القملة في ياقتك

سأصبح كالشظية في بطانة معطفك.

ولم يتبقَ «لجاموغا» شيء سوى البحث عن موت مشرف، فقال: «دعني أموت دون سفك دمي. اقتلني وضع عظامي في مكان مرتفع، ومن ثم سوف أحمي أحفاد أحفادك إلى الأبد».

هذا على الأقل، هو ما ذُكر في رواية التاريخ السرّي، فمن خلالها ظهر جاموغا كرجل ضال، لكن في النهاية استعاد النبالة التي تبرر ثقة تيموجن السابقة، وظهر تيموجن كقائد حكيم

وكريم، لم يكن على استعداد لترك رابطة الأخوة والدم، فها هو جاموغا يدين نفسه، ويُمنح موت الأمراء بواسطة الخنق، وجثته لم تُكشف كالمجرمين، بل دُفنت كما يليق بالنبلاء.

لقد أصبح تيموجن الآن السيد المطلق لمعظم منغوليا المعاصرة، الرجل الذي «وحد شعب خيام اللباد»، وفي عام 1206 عُقدت الجمعية الوطنية - الكلمة التي استخدمت في ذلك الوقت هي، «هورال Khural» وتستخدم اليوم في إشارة إلى البرلمان المنغولي - على ضفاف «البحيرة الزرقاء Blue Lake» معلنة عنه كزعيم للأمة الموحدة حديثاً، مانحة إياه لقب «جنكيز خان».

ويعتبر هذا اللقب موضع جدال. لقد كان هناك عدد من الألقاب التقليدية، البعض منها كان يمنحه بسخاء حكام «ليو Laio» أو «جورشن» في شمال الصين: فزعيم «خارا خيتاي Khara Khitai» كان يطلق عليه لقب «غورGur» أو الخان «العالمي Universal» وهو اللقب الذي اختاره أيضاً «جاموغا»؛ أما «توغرال» فكان يطلق عليه لقب الخان «وانغ Wang» (باللغة الصينية: يعني الأميري). لكن لا الألقاب التقليدية، سواء التركية أو المنغولية، ولا أي لقب صيني كان يبدو مناسباً، وذلك لأنه لم يرتقِ أي مغولي من قبل لمثل هذا السمو. بينما الشعوب الأخرى، نعم وصلت لتلك المكانة، أما المغول فلا، لذا كانوا يحتاجون إلى شيء جديد.

لقد كان لقب «جنكيز» لقباً مبتكراً، لم يُمنح لأحد من قبل أو منذ ذلك الحين، وتعد أصوله موضع جدل كبير، وكان أحد المعتقدات ينص على أن من يمنح هذا اللقب هو القيادي المغولي الشاماني، أو الرجل الأكبر سناً والأكثر احتراماً، لكنّه لم يذكر شيئاً حول معناه، فربما تكون الكلمة لها علاقة «بالبحر sea» «تينكز tengis»، فالمحيطات والبحيرات كانت موضع إجلال خاص، ففي القرن السادس عشر عندما رغب الخان اللاحق، «أتلان Atlan» منح فخامة للوجيه البوذي الأعلى، اختلق ترجمة منغولية للقب «الكاهن التبيتي Lama's Tibetan» وأطلق عليه لقب «الكاهن دالي dalai lama» التي تعني أيضاً المحيط أو البحيرة العظمى. أو ربما كان المقصود من كلمة «جنكيز» تذكر كلمة «الله Heaven أو السماء Sky» «تينغر Tenger» التي ستجعل من الإمبراطور الجديد «حاكم إلهي Heavenly Ruler» مجارياً في ذلك الأباطرة الصينيين الذين حكموا «بتفويض من السماء

Mandate of Heaven»؛ وربما، لو كان هناك حرف «راءr» في كلمة «جنكيز» وبعض القواعد النحوية المناسبة - لأفضت إلى «تينغر Tenger» ولكنها لم تكن موجودة. أو ربما تعود بالذاكرة عدة قرون إلى حاكم «اليغور Uighur» المدعو «دينغس Dengis» أو حتى إلى ابن «أتيلا» «دينغزكي Dengizikh» الذي قد يساوي أو لا يساوي في اللغة المنغولية الحديثة «تينغز - اغا tengis - ikh» (بحر - عظيم sea - great). لكن حتى مع افتراض ذاكرة شعبية لمثل هؤلاء الأسلاف الغامضين، لما لا يعود بكل بساطة على المؤسسين أنفسهم، الأوغز Oghuz واوتيلا Attila؟ وفي الحقيقة لا تجدي أيٍ من هذه التخمينات نفعاً، ففي ذلك الوقت، لو افترضنا أنه كان هناك من يعرف أصل اللقب، إلا إنهم التزموا الصمت، ولم يرَ أحد حاجة لتوضيحه.

وكانت هذه هي المرحلة التي كان رفاق «تيموجن» المخلصون يعملون ويقاتلون وينتظرون، فجاءت الجوائز بكثرة، كما يسجل كتاب التاريخ السرّي بالتفصيل، مستعرضةً المغامرات والحملات التي أوصلتهم لهذه المكانة، وأصبح أولئك الذين وقفوا إلى جانبه - ذُكر ثمانية وثمانون منهم في صلوات المديح والثناء بالاسم - قادة على ألف أو أكثر، وإجمالاً، بلغ تعداد الجيش «خمسة وتسعين ألف أسرة» وبرغم أن الطبيعة التقريبية محددة بالرقم «ألف» فإن تعداد الجيش ربما لم يزد على «خمسين ألفاً». أمّا أولئك الأشخاص المميزون فسيغفر لهم حتى تسع جرائم، فقد أصبح «بورتشو Boorchu وموخالي و بوروكولBorokul و شيليغن Chilagun» «خيول الحرب الأربعة» بالنسبة «لجنكيز» وأصبح «قوبلاى Khubilai وجلمي Jelme وجيبي Jebe سوبيداي Subedei» «كلاب صيدي الأربعة». أما «سورخان - شيرا Sorkhan - shira» الذي أنقذ حياة الإمبراطور الجديد عندما هرب من «التايشوتيين» أصبح مساعداً ملكياً، حامل الجعاب، وكذلك أبناؤه أيضاً.

تميزت الوظائف بشيء جديد في إدارات الإمبراطورية البدوية، ففي الماضي، كانت الوحدة المغولية دوماً مقوضة من التنافسات القبلية، فطفولة «جنكيز» الخاصة دُمرت بسببها، وصعوده البطيء نحو السلطة كان دوماً يلقى تهديداً منها. أما الآن فجاءت الثورة بوظائف لم تحدد على أساس المكانة الوراثية حسب التسلسل القبلي، إنما على أساس الخدمات

المقدمة، فكان الولاء هو الأساس، ولم يكن «سورخان - شيرا Sorkhan – shira» وأبناؤه هم الوحيدون الذين وصلوا إلى السلطة من الغموض. بل شمل ذلك رعاة الأغنام ورعاة القطيع والنجارين، فقد كان «جلميJelme» و«سوبيداي Subedei» أبناء حدادين.

احتاج مجتمع جديد، وخاصة مجتمع بهذا الحجم، إلى قوانين جديدة، وطرق جديدة في الإدارة، وبشكل خاص، كانت بحاجة إلى إدارة مكتوبة، وقد أدرك «جنكيز» الحاجة إلى ذلك مع تنامي فتوحاته، وكان أحد المأسورين من «النايمانيين» «ياغورياً Uighur» ويسمّى «تاتونغا Tatatunga» وكان يعمل إدارياً رئيساً، وكان يدون سجلات «النايمانيين» مستخدماً الكتابة اليغورية، فيأمره «جنكيز» الآن بالقيام بالعمل نفسه لسيده الجديد، وأن يُعلم أيضاً النصوص المكتوبة للأمراء الشباب.

لكن هذا المنصب البدائي كان لا بدّ أن يُشرف عليه أحد أفراد العائلة، شخصٌ ما مقرب من «جنكيز» أكثر من الموظف الأسير، فوقع الاختيار على شقيق «جنكيز» بالتبني، «شيقاي» الذي كان قد أسره من التتار من عشر سنوات خلت، فأخبر «جنكيز» «شيقاي» قائلاً: «بينما أُرتب شؤون الأمة بأكملها تحت حماية السماء الخالدة، ستكون عيوني التي أرى بها، وأذني التي أسمع بها، وزّع الحصص على شعب خيام اللباد...، وعاقب أولئك الذين يستحقون العقاب، وسجل توزيع الأملاك، والقوانين والأحكام على ورق أبيض في كتاب أزرق» وسيكون هذا سجلاً دائماً للأجيال القادمة، وأي شخص يحاول تغييره لا بد وأن يُعاقب، وأصبح كتاب «شيقاي» الأزرق معروفاً باسم «ياسا العظيم Great Yassa» أو «جاسغ jasagh» (تنوعت الترجمات في اللغة المنغولية بالنسبة للحكومة أو القانون الشرعي، التي تبدو مثل «دزاساج» dzassag). لقد اختفى الكتاب بحد ذاته - ربما لأنه لم يعدّ سلطة شرعية في الصين، حتى بعد الغزو المنغولي - لكن عناصره يمكن أن تشتق من مصادر أخرى، من الصين إلى بلاد فارس.

ويُعدّ الإخفاء في الفقرة السابقة ابتكاراً آخر، يلمح إلى تزايد ثقة «جنكيز» بقدره، وبشكل تقليدي، كان المغول يمجدون «السماء الزرقاء the Blue Heaven». أما الآن، ولأول مرة، فتأتي إشارة بأن «جنكيز» يخضع لحماية «السماء الخالدة Eternal Heaven»، ومن الصعب معرفة متى حدث هذا التحول بالضبط، لكن هنا دليل بأن «جنكيز» وأتباعه بدؤوا

برؤية الإيمان كمبرر، وتصبح الأحلام حقيقة واقعة، وربما يدوم نجاح العشيرة قصير الأجل، الذي تحقق بمساندة السماء الزرقاء المتقلب لموسم واحد، وأوحى تأسيس الأمّة إلى دعم شيء أكثر من مجرد البقاء، لكن ما ذلك الشيء الأكثر عوناً في تحقيق إمبراطورية من إلوهية أبدية؟

لقد توغلت ثورة «جنكيز» مباشرة خلال المجتمع، إذ رحلت أفواج عشائرية، وحلّ محلها أفواجٌ تدين بالولاء لقادتهم، وصحيح، أنه لا تزال هناك بعض الأفواج العشائرية، لكن فقط إذا ما كان ولاؤها «لجنكيز» مؤكداً، وأصبح تحول ولاء العشائر جريمة تستحق الموت، والقادة الذين أخفقوا في مواكبة الأحداث يمكن طردهم، وعُزز الهيكل الاجتماعي والعسكري برمته من خلال قرار «جنكيز» بتشكيل حرس النخبة الخاص المكون من عشرة آلاف رجل، والذين مُنحوا امتيازات خاصة. لقد كان هذا عملاً شديد الذكاء، لأن القوات كانت تضم أبناء قادة الأفواج، الذين حصلوا على رتب عسكرية مساوية لآبائهم، إلا إنه، في حالة حدوث نزاع، فإن الابن سيفضّل على أبيه. لقد كان عملاً ذكياً جداً، وأصلياً جداً، إن لم يكن فريداً، فقبل أن يضمر القائد نوايا الخيانة، سيتذكر أن ابنه كان رهينة لدى الخان، وأن تلك الخيانة ستشمل الاثنين معاً، وقد حل الولاء الشخصي محل الروابط العشائرية، ناسجاً قواماً اجتماعياً جديداً وثابتاً، كُرس لغرض واحد، وهو الغزو.

فالغزو كان حيوياً، وذلك لأنه لم يكن اقتصاداً قائماً على المال، فالقوات لم يكن يُدفع لها مال،إنما سلع، فالقوة نفسها لا تحقق نتيجة، وبمجرد السيطرة على القبائل المحتلة - عُين الرجال في أفواجهم، ووزعت النساء، وأُخذ الأطفال كعبيد، وقُسمت الحرائر والأقداح والسروج والسهام والخيول والقطيع - وسينظر المقاتلون إلى قائدهم بتوقعات جديدة، فالوسائل القديمة حُطمت، وصيغت وسائل جديدة - لكن كيف ستعمل، بالضبط؟ فقط بالتفكير في المصدر النهائي للثروة، التي ستكون أيضاً مصدراً للتحديات المستقبلية: الأراضي المستقرة إلى الجنوب فيما وراء صحراء «غوبي».

ولم تكن «البحيرة الزرقاء Blue Lake» هي الموقع الوحيد المرجح لإقامة المراسم التي تحول فيها «تيموجن» إلى «جنكيز خان» لكن جمالها، وموقعها الجغرافي وتخطيطها يحمل إقناعاً غامراً، وبالنسبة لي شخصياً أود أن يكون هذا هو المكان الذي اختاره «تيموجن»

لتتويجه، إذ يوجد هناك منصة واسعة من العشب تبلغ حوالي ستة أمتار أعلى البحيرة، بينما يرتفع شاطئها الشرقي بلطف ليقدم مرعىً جيداً وموقعاً طبيعياً للقوات لتتجمع وتعسكر، وإذا ما احتاج قائدٌ إلقاء نظرة على قواته، يمكنه أن يتسلق مئة متر فوق القمة المعتشبة المقابلة، لجبل القلب الأسودBlack Heart mountain.

ولست وحدي في هذا الرأي، فقد قَبل المغول منذ مدّة طويلة هذا الموقع كمكان أكثر احتمالاً لمراسم التتويج، وكرموا المكان وفقاً لذلك. المكان الذي ترسم خطوطه دائرة وعرة من الحجارة المستوية المكسوة بنباتات الأُشْنَة كقاعدة لشيء ما كبير جداً، قصر متنقل، وربما، لا أحد يعلم متى ظهر وما السبب الذي ظهر من أجله، ومن المغري التفكير فيه كقصر للتتويج، لكن ما الدليل على ذلك؟ فمن المحتمل أن يكون بقايا مبنى سابق يُجل ذكرى التتويج، كما يوجد إضافة أكثر حداثة - عمود رخام صغير، مُحاط بحجارة مبعثرة وكؤوس التقديم، والذي وضع فيه صورة صارمة (الصورة الموجودة على الغلاف) ويوجد حوله مسار باهت ارتاده الزوار للممارسة طقوس الطواف الثلاثية، ولوحات حريرية زرقاء عُلقت في العراء وكتب أسفلها تعليق على مخطوطة عمودية قديمة: «هنا في جبل القلب الأسود على ضفاف البحيرة الزرقاء، تُوج «تيموجن» كجنكيز خان».

وعبر البحيرة، وجبل القلب الأسود نفسه أُعلن سبب شهرته بحروف بيضاء كبيرة في مخطوطة عمودية قديمة: «جنكيزGENGHIS» وبجانبه وبخط أصغر: «خان Khan»، وكنت أتساءل كيف صُنعت تلك الإشارة، ربما من خلال إزاحة العشب بعيداً لكشف الحجر الجيري القابع أسفله، مثل الخيول البيضاء على التلال الإنجليزية، وسيقدم الصباح فرصة لمعرفة ذلك.

لقد كانت الليالي باردة جداً هناك، حتى في ذروة الصيف، فليلتي كانت بائسة، بدون وسادة، وبدون فراش وكل ما حصلت عليه كان مجرد كيس نوم خفيف الوزن، وعند الفجر، طرد الارتعاش من البرد النوم، فزحفت خارج خيمتي المبللة بالندى نحو الكمال، حيث أحاطت الشمس المشرقة بالتلال، وأزالت حرارتها المائلة على البحيرة الضباب الرقيق الذي كان يتحرك ببطء، كالأنوار المسرحية والجليد الجاف، على سفح جبل القلب الأسود، وكانت اللافتة التي كتب عليها اسم «جنكيز» المتجه بالطبع مباشرة نحو الجنوب، تلوّنت باللون

البرتقالي من جهة الشرق، فسرت بسرعة لتدفئة أقدامي المبللة، وأدهشني شاطئ أصبح وعراً بفعل جحور المرموط وفئران الحقل، ولم يكن هناك نسيم لتحريك أشجار التنّوب أو حجاب بخار الماء المتصاعد ببطء، وكان الصوت الوحيد المسموع صوت وقواق بعيد وقبرة غير مرئية في قشرة بيض زرقاء، وقد نامت حيوانات المرموط، وكذلك، بفضل الله، الحشرات، وكانت الأشياء الوحيدة المتحركة أنا والضباب المتبدد.

وقد حذرني الخوض في الطين من أن الطرف الشرقي للبحيرة ما هو إلا مستنقع، وتتبعت حافة البحيرة القديمة حتى وصلت إلى أرض مرتفعة، فشاهدت منظراً يمتد مباشرة نحو الغرب فوق ظلي الممتد جداً، فوق الجدول الذي يغذي البحيرة، وكان الضباب قد انقشع الآن، وعكست البحيرة الزرقاء صورة السماء الزرقاء، رمزاً مثالياً للإحسان الإلهي.

وبدا أن لافتة «جنكيز» المصنوعة من الصخور الكبيرة جداً، التي ربما يبلغ عددها مئة وخمسين، قد طليت باللون الأبيض، وعندما بدأ الذباب بالمضايقة، قستُ اللوحة بالخطوة: فوجدتها سبعة وثلاثين متراً من القمة إلى القاع، تماماً مثلما حددتها من على ذلك المنحدر. لقد كانت الصخور من جميع الأحجام، تتراوح من الصخور التي تزن طناً إلى الحجارة التي أستطيع حملها، وكنت أتساءل من صنع تلك اللافتة؟ ومتى؟ لقد تم المحافظة عليها بشكل جيد، وكان الطلاء جديداً إلى حد ما. لقد كانت إبداعاً جديداً، لكن في ذلك الحين، بالنسبة «لجنكيز» كانت مجرد انبعاث منذ سقوط الشيوعية، وقد بدأ الصقيع والمطر والماء المذاب والخراف المرعية بإحداث الضرر، مدحرجةً بعض الحجارة أسفل سفح الجبل، وكانت إحدى الحجارة - الزاوية اليسرى العليا للحرف الأول - مستبدلة حديثاً، واستطعت أن أرى أثراً ضئيلاً جداً من الحجر الأصلي ملقى على العشب في الجوار، ولو كان هذا العمل عملاً رسمياً، الأمر الذي بدا مشكوكاً فيه، فإنه عمل ينم عن الحب أيضا.

ولجمال المنظر، لهثت إلى القمة، فوجدت «أوفو - Ovoo» كومة من الحجارة زُينت بأطوال متساوية من الحرير الأزرق والركام المألوف من الزجاجات الفارغة، مبعثرة في كل مكان إما كنوع من التقديس أو الكسل، وعندما نظرت إلى الوراء، إلى الجنوب مباشرة، شاهدت غابة، تمتد بانتظام فوق سلسلة بعد سلسلة من التلال، في مجموعة ضخمة من الأشجار تفصلها المنحدرات العشبية، كما لو أنشئت جميعاً بوساطة بستاني الطبيعة بمصادر

لا حدود لها لتمثيل الجيوش في الاستعراض العسكري، وكانت شواطئ البحيرة الغربية ناعمة وخضراء، وسبخة كالطرف الشرقي، مع عشب فضي طيني ومجموعة ضخمة من أشجار الصفصاف تقسم البحيرة الرئيسة عن البركة.

وفي وقت لاحق، وعندما أدليت ببعض التلميحات المبتذلة عن خلود المنظر، فهم «باتور Baatar» معنى المستنقعات والصفصاف، فقال: «أنت تنظر إلى ذلك المنظر الآن، وتعتقد أنه لا يوجد شيء يمكنه تغيير هذا المنظر فعندما كنت صغيراً، كانت جميع هذه البحيرات أكبر مما هي عليه الآن»، وأوضح قائلاً: «إنّ ما حدث كان نتيجة الانحباس الحراري، فقد كانت البحيرات ترقد تحت جليد دائم، وفي هذه الحدود السيبيرية يذوب الجليد، فتجف جميع البحيرات، وعلى الفور، ستختفي جميعها».

لقد كانت ألوان جبل القلب الأسود والبحيرة الزرقاء غامضة، فمن أعلى المكان الذي كنت فيه بجانب «الأفوovoo» تمكنت من الإطلال على زاوية أكثر حدة، فوجدت أن الماء لم يعد أزرق على الإطلاق. إنما أصبح بني اللون، وحتى الآن، وكما أكتب، عندما أنظر إلى الصورة التي التقطتها، أرى البحيرة زرقاء بحق كما السماء، ويبدو أنه يوجد أكثر من تساؤل حول الزوايا هنا، فالكاميرا والعين ترى حزماً موجية مختلفة، وفيما بعد، وعندما خضت في البحيرة للاغتسال من العرق، كان الماء شفافاً، حتى القاع البني الداكن الخثي، فغرفت بعض الماء بكلتا يدي وشربت؛ فوجدتها صافية ونقية بما يكفي لملء زجاجة، وبدت هذه الغرابة بتوضيح اسم هذا المكان. بحيرة زرقاء بقلب أسود، فكلمة «خارkhar» - تعني «اسود black» - وتعني أيضاً «معتم dark»، فالاسم يذكرنا بالأضداد القديمة - فوق وتحت، النور والظلام، السماء والأرض، مقدس ودنيوي، تذكيراً بأن «جنكيز» المنشأ حديثاً كان من المقرر أن يكون إله الإمبراطورية الأرضية التي، إذا نُظر إليها بشكل صحيح، ستعكس القدسية.

الجزء الثاني

الإمبراطورية

الفصل السادس

دولة الرجال ذوي البشرة البيضاء والمكانة العالية العظمى

تتبع نظرتنا المتخيلة الآن نظرة جنكيز خان تحديداً صوب الجنوب، عبر ستمئة كيلومتر من المراعي الخضراء وصحراء غوبي، أعلى التلال حيث تفسح الحصى المجال للمراعي الخضراء، بين سلسلتين من الجبال حتى النهر الأصفر، ومن ثم تسير قدما لأعلى النهر الفسيح والمحمل بالطمي لمسافة مئتين وخمسين كيلومتراً أخرى، باتجاه مدينة «ينتشوان».

وتستطيع أن تحصل على منظر لمدينة «ينتشوان» عاصمة إقليم «نينغشيا»، من فوق قمة معبد القرن الحادي عشر الذي يعلو فوق الأشجار التي تظلل فناء متحف المدينة المعشوب، فتسلقت الجزء الداخلي المظلل للقمة شديد الانحدار، وذلك لأنه عادة ما يقدم نظرة عامة من التأمل نوعاً ما. لكن الأمر لم يكن كذلك في هذه الحالة، إذ بدت مدينة «ينتشوان» التي يقطنها ما يقرب من مليون شخص، للوهلة الأولى كحي ضخم وكئيب بما فيه من مباني ما بعد الحرب المنخفضة التي تلاشت في الضباب، وإلى الغرب، لاحت الجبال في الأفق بشكل باهت، واعتقدت أنني سأرى أثراً من اللون الأصفر في الأفق: رمال الصحراء، إذ نتج هذا الضباب عن الصحراء المتربة، وعن حركة الدراجات والعربات ثلاثية العجلات التي تشق طريقها بشكل متعرج، وعن المصانع التي جثمت على طول السهول إلى الشمال.

لكن هناك وجه آخر لمدينة «ينتشوان» التي كان المعبد نفسه وحكايات الأشجار والأعشاب الإحدى عشر التي تمتد أسفل منها بمثابة مفتاح لهذا اللغز، فالشوارع كانت مزروعة بالأشجار على كلا الجانبين وكانت حواف الشوارع مكسوة بالأعشاب وترش بمياه الشاحنات، وكانت جميع السهول التي اكتنفها الضباب، عندما تقود سيارتك خلالها، مكسوة بالمحاصيل - القمح والخضار وبساتين الفاكهة - التي تُسقى عبر شبكة قديمة ومعقدة من القنوات التي تستمد مياهها من النهر الأصفر، الذي يجري لمسافة اثني عشر كيلومتراً إلى الشرق، ويعتبر متحف المعبد بمثابة تذكير بأن هذه المدينة لها جذور قديمة، وأنها كانت ذات يوم مركزاً للديانة للبوذية، وفي الواقع، فإن البناء الشاهق الآخر الوحيد هو معبد يبلغ ارتفاعه أربعة وخمسين متراً بُني من الطوب الزاويّ الذي يعود تاريخه إلى ألف وخمسمئة عام، وكان هذا المعبد قد أُغلق، لكنه لم يُهمل، بل على العكس تماماً، فقد كان الموقع برمته يخضع للتجديد، وتكتشف مدينة «ينتشوان» ماضيها الغني بالموارد الطبيعية مرة أخرى، وذلك

لضمان مستقبل أكثر ثراءً.

ويكمن ذلك الماضي في عالم مختلف تماماً وهو عالم لا يمت للصين بأية صلة على الإطلاق، فمنذ ألف سنة خلت كانت «ينتشوان»، التي تقع فقط على بعد ثلث المسافة عبر الصين في الوقت الحاضر من الساحل، بعيدة عن متناول أي حاكم صيني. لقد كانت مركزاً لثقافة مستقلة بذاتها، تذهل آثارها الغريبة والمبهمة الزوار الذين يزورونها لأول مرة، وكنت قد وصلت بوساطة السكة الحديدية قادماً من عاصمة منغوليا الداخلية، «هوهيهوت»، برفقة صديقي ومرشدي «جوريجت» الذي كان محاضراً في جامعة منغوليا الداخلية، وإذا ما سافرت لمدة نصف ساعة باتجاه الغرب من «ينتشوان» على طول طريق سريع أُنشئ حديثاً، فإن الجبال التي يكتنفها الضباب تزداد صلابةً في جدار من الصخور الوعرة: وهي جبال «هيلان شان» Helan Shan، وعلى الجهة المقابلة لها، أعلى أشجار جانب الطريق، تلوح في الأفق هياكل غريبة على شكل الرصاصة، يبلغ ارتفاعها ثلاثين متراً، تبدو مثل أعشاش النمل الأبيض الضخمة الرمادية اللون في أرضٍ أنهكتها مياه الأمطار، ويوجد هناك تسعٌ منها، لكن وللوهلة الأولى يمكنك رؤية ثلاثٍ فقطَ أو أربعٍ. أما البقية الأخرى فقد التهمها الفضاء الذي كان يحيط بها، وهو عبارة عن غطاء من الحصَى والتربة التي تمتد لمساحة عشرة كيلومترات على امتداد سفوح الجبال المنحدرة التي انجرفت منها، وكانت القباب بمثابة مقابر للأباطرة.

ولقرابة ثمانية قرون، كانت الأضرحة خرائب فرعونية ملغزة ومثيرة للجزع كساقين مبتورتين من جذعهما تم إحياء ذكراها من «شيلي»، ولا يزال الموقع أحد المواقع الضخمة المحطمة، وذلك بفضل اهتمام قوات جنكيز، التي لم تخلف أية بقايا باستثناء القليل من المشغولات اليدوية، ولكنها أصبحت الآن محور اهتمام علماء الآثار وعنصر جذب رئيس للسياحة، وذلك بوصفها المكافئ الصيني للأهرامات، وهي ليست - بالطبع - على مستوى مكافئ؛ لكنها وموقعها، الممتدين على مساحة تزيد على خمسين كيلومتراً مربعاً، تؤكدان قوة وهيبة ثقافة هيمنت على مدار مائتي عام على منطقة بمساحة تعادل مساحة فرنسا وألمانيا معاً، فكان من الطبيعي أن يُدير جنكيز عيونه الضارية صوبها.

لكن لِمَ أدار جنكيز عيونه صوب تلك الشعوب بالذات، ولم يلتفت إلى جيرانهم الأكثر ثراءً، أسرة الجين، التي كانت بمنزلة عدو المغول التقليدي؟ ولفهم ااستراتيجيّة جنكيز فإن

ذلك يتطلب لمحة عامة للخيارات المتاحة.

لقد كانت الصين في بداية القرن الثالث عشر أرضاً مقسمة (ربما يساعدك النظر إلى الخارطة في صفحة 74 - 75 على فهم ذلك)، إذ خضعت المناطق الوسطى والجنوبية لفترة طويلة لحكم أسرة «سونغ» التي أشرفت على نهضة فنية وفكرية، وكان الجزء الجنوبي منها مازال تحت سيطرة هذه الأسرة، بينما وقع الجزء الشمالي في أيدي اثنين من شعوب البرابرة، ففي الشمال الشرقي أقيمت المملكة التي تأسست قبل قرن من الزمان على يد «الجورشن» الذين قدموا من «منشوريا» الذين أطلقوا عليها الاسم نفسه كلقبهم السلالي المعتمد: «الجين»، وكان جد جنكيز الأكبر «كابول» وعمه الأكبر «كوتولا» قد حاربا «الجين» وستكون حتماً هدف جنكيز الأساسي، لكن أسرة «الجين» كانت عقبة صعبة أمام المغول، ولأنهم تحالفوا الآن مع عدوهم السابق «السونغ» نسوا أصولهم البربرية وحكموا الملايين من فلاحيها الصينيين والعشرات من المدن المحصنة جيّداً وراء أسوار بكين الحصينة.

لكن في الجوار، كانت المملكة البربرية الثانية، التي كان بها تسعة أضرحة على شكل الرصاصة، واشتهرت باسمها الصيني «شي شيا» وكانت أكثر من شيء واعد.

ولنفكر للحظة في تداعيات ما كان جنكيز على وشك القيام به، فهنا كانت ثلاث قوي منافسة - أسرة الجين والسونغ والشي شيا- في موازنة محفوفة بالمخاطر، وعلى الأطراف كانت هناك قوتان أخريان: «التبت» Tibet و«الخارا خيتاي» Khara Khijai (من أوائل القرن الثاني عشر) وأضف الآن القبائل والعشائر المستقلة جزئياً التي تسعى لتحقيق أهدافها الخاصة داخل القوى الكبرى وبينها، التي ارتبطت جميعاً بطرق التجارة، وبالذات الشبكة التي نسميها طريق الحرير - على الرغم من أن الحرير كان آنذاك مجرد سلعة ثانوية - وربط هذا الطريق الصين بآسيا الوسطى وبأوروبا في نهاية المطاف، ولكَ أن تتخيل اختلاف الديانات - الإسلام في الغرب، يتداخل مع البوذية والكونفوشوسية والمسيحية والنسطورية والشامانية - واختلافات اللغات الكبرى: الصينية والتبتية والتركية والعربية والتنغوتية (التي سنتحدث عنها أكثر لاحقاً) هذا هو المرجل الذي كان جنكيز على وشك الإلقاء بنفسه وبشعبه فيه، مُقحماً جيشاً مخالفاً في لغته وثقافته وديانته في شراب مُخمر غير مستقر بشكل مُتأصل، فكانت العواقب على المدى الطويل مجهولة تماماً.

ولا يعني ذلك أن على الفاتح أن يقلق بشأن العواقب على المدى البعيد، إذ كانت مهمته الآنية أن يجد أضعف نقطة لشن هجوم من شأنه أن يحقق عائدات أسرع وأكثر ربحيةً، ويؤسس مكانة لا يمكن تعويضها في التسلسل الهرمي للممالك، ومن بين الخيارين الممكنين، كانت أسرة «الجين» قوية للغاية، بمدن كثيرة محصنة بالأسوار وبالكثير من الجبال التي يتوجب عبورها في الطريق إليها، بينما كانت «شي شيا» بالمقارنة مسرحاً مفتوحاً، تحرسها فقط صحراء غوبي والصحارى الرملية التي يستطيع المغول عبورها في أيام، وكانت مدنها قليلة العدد، وجيوشها أصغر، ومن الناحية الإستراتيجية، سيكون من الأفضل أولاً إحراز النصر على الأضعف، ومن ثم الانقضاض على الأقوى، وكان هناك مجازفةٌ بأن «الجين» ستدخل النزاع على أية حال، لكنها كانت حالياً قد أُضعفت بموت حاكمها منذ زمن قصير، لكن المخاطرة كانت مقبولة، إذا ما تم إحراز النصر بشكل سريع.

وأوضحت أن ضحية جنكيز المقصودة كانت معروفة جيداً باسمها الصيني. لكن الحقيقة، إن «شي شيا» كانت بالكاد معروفة لأحد ما عدا قلة من المتخصصين، وذلك لأن جنكيز بذل قصارى جهده ليزيل الدولة والثقافة والشعب من على وجه الأرض، وهناك قضية يجب الإشارة إليها وهي أن هذا كان أول مثال يُذكر على محاولة الإبادة الجماعية، وبالتأكيد كانت عبارة عن إبادة عرقية ناجحة تماماً، ولم يكن لدى الثقافات التي خلفت «شي شيا» وهم المغول والصينيون، أدنى اهتمام في الاحتفاظ بسجلاتها أو قراءة نصوصها أو الحفاظ على آثارها، لكنها فتنت العلماء من أمم أخرى، وبالذات الروس، لبدء العمل في فك الرموز وفهمها. كما سعى الصينيون مؤخرا فقط إلى كسب الريادة في هذا المجال، فأنشؤوا معهدًا للبحوث واسترجعوا المشغولات اليدوية الأثرية واستعادوا النصب التذكارية، والآن فقط تعود هذه الثقافة القديمة مرة أخرى للظهور أمام نظر الجمهور على المسرح الذي كانت قد طُردت منه بقسوة.

وأطلق شعب شي شيا على نفسه لقب «مي ياو The Mi». لكن، كالعادة، فان مصطلحات الثقافة المهيمنة هي التي تسود، فأطلق الصينيون عليهم لقب «الدانغشيين Dangxian»، في حين أصبحوا «تانغوتيين Tangut» باللغة المنغولية (دانغ Dang مع إضافة الجمع المنغولية tu-)، واليوم يعرفون باسم «تانغوتيين شي شيا»، وفي القرن السابع هاجر سلف التانغوتيين

تحت ضغط التبتيين Tibetian باتجاه الشرق من جبال التبت الشرقية، وبعد ثلاثمئة عام كانت قاعدتهم في أوردوس، وهي امتداد من الأراضي في حدود منحنى النهر الأصفر، حيث حكم قادتهم حدود منطقة شيا القديمة لأسرة «تانغ»؛ وبالتالي اسمهم اللاحق.

وعندما تولى «السونغ» زمام الحكم في عام تسعمئة وستين، اغتنم «التانغوتيون» فرصتهم، فشيّدوا عاصمة جديدة إلى الغرب من النهر الأصفر في عام ألف وعشرين - بجوار أو على موقع ينتشوان في الوقت الحاضر - ثم شقوا طريقهم غرباً، إلى أعلى جبال هيلان Helan، وشيدوا إمبراطورية بعرض ألف وخمسمئة كيلومتر وبعمق ستمئة كيلومتر، وكان الطريق الضيق الغني بالمراعي الذي يجري بين التلال السفحية الشمالية لسلسلة الجبال التبتية والأراضي القاحلة لصحراء «آلاشان»، والذي يُعد جغرافياً امتداداً جنوبياً لصحراء غوبي، هو العمود الفقري لإمبراطوريتهم، وتمتد هذه المراعي على طول الطريق المؤدي «لدونهوانغ» بكهوفها ومعابدها البوذية المعقدة على الحافة الشرقية لصحراء «تاكلا ماكان» التي تعود إلى القرن الرابع، وكان هذا الجزء من طريق الحرير، الذي يبلغ طوله ألف كيلومتر، ويبلغ عرض بعض أجزاء منه خمسة عشر كيلومتراً فقط، يعرف باسم ممر هيكسي Hexi Corridor (He - xi تعني «غرب النهر River - West»، أي غرب النهر الأصفر) واليوم يطلق عليه بشكل أكثر شيوعاً اسم ممر قانسو Gansu Corridor، على اسم المقاطعة الحالية الذي هو جزء منها، وفقط على بعد منتصف الطريق بين ينتشوان و«دونهوانغ» أدى طريق فرعي عبر الصحراء باتجاه الشمال على طول النهر الذي يعرف اليوم باسم شوي Shui، لكن يعرفه المغول باسم يتسن Etsin، الذي تدفق عبر الصحراء إلى حصن حدودي يعرف بشكل مغاير باسم يتسنا the Etsina (بالنسبة لماركو بولو) أو «خارا خوتو» Khara Khoto («المدينة السوداء»، اسمها المغولي، بالرغم من أن حرف «O» الأخير هو حرف زائد الآن).

لقد كان، لي يوان هاو، المؤسس الحقيقي لشي شيا كإمبراطورية مستقلة، حاكماً طموحاً وموهوباً حيث أكد مكانة شعبه من خلال القيام بعدة إجراءات، إذ أعاد تسمية العائلة المالكة وأطلق عليها اسم وي - مينغ Wei - ming (أو شيء ما من هذا القبيل: وهذه هي الترجمة الصينية للتانغوتيين)، وأصبحت مملكته تُعرف باسم دولة الرجال ذي البشرة البيضاء والمكانة العالية العظمى، ووَضَع التانغوتيين بمعزل عن جيرانهم وذلك بإصدار التعليمات للرجال بأن

يحلقوا أعلى رؤوسهم، وأن يتركوا الحواف التي تغطي الجبهة والأذن، ومنح رعاياه ثلاثة أيام ليستجيبوا لهذه التعليمات، وإلا سيُقتلون، وفي عام ألف وثمانية وثلاثين أعلن نفسه إمبراطوراً، فأغضبت هذه الخطوات السونغ، مشعلين، بكل بساطة، حرباً دامت ستة أعوام وانتهت فقط عندما أوقع بهم يوان - هاو Yuan - hao في شرك، إذ اختار وادياً ليكمن فيه للسونغ المتقدمين، وهكذا تمضي أحداث القصة، انسحب التانغوتيون، ولكنهم ووجهوا بمشكلة: كيف لهم أن يعرفوا أن جيش السونغ كان في المكان المناسب لتنفيذ الهجوم عليهم، فكانت إجابة يوان - هاو Yuan - hao بأن يصطادوا بالشباك عدداً كبيراً من الطيور، ويضعوها في صناديق على طول جانب الطريق، وعندما وصل جيش السونغ، فتح الجنود، الذين شعروا بفضول تجاه الأصوات الغريبة المنبعثة، الصناديق، فطارت منها الطيور، وعندما رأى التانغوتيون السرب من مكان اختبائهم، نفذوا هجومهم وقتلوا عشرين ألفاً من السونغ، وفي عام 1044 وقّع السونغ معاهدة مع التانغوتيين، ووافقوا على دفع «إعانة مالية» مقدارها مئة وخمسة وثلاثون ألف لفة من الحرير وطنّين من الفضة وثلاثة عشر طناً من الشاي.

وكان الاستقرار مرة أخرى في منطقة ينتشوان بجوار النهر الأصفر خطوة ذكية، وذلك لأنها منحت التانغوتيين ملكية وادٍ خصب يعادل تقريباً مساحة مقاطعة ماساتشوستس Massachusetts أو ويلز Wales: عشرين ألف كيلومتر مربع، التي كان مركزها - الذي يصل لمليون هكتار - يُسقى بمحطات مياه قديمة، وكانت تطعم من أربعة إلى خمسة ملايين شخص، طبقاً لتقدير وضعه مؤرخ صيني.

كما أكد يوان - هاو Yuan - hao أمرًا كان أحد أسلافه قد أقره، وهو تدوين اللغة التانغوتية، وذلك لأنه علم - مثلما أدرك جنكيز بعد قرنين من الزمان - أن الكتابة ستكون الركيزة الرسمية للإدارة والديانة، وبالتالي للهوية الوطنية، وليجاري طموحه، يجب أن تكون الكتابة هي التعبير الأسمى للحضارة، مع ذلك يجب أن تكون فريدة من نوعها أيضاً، فكانت المهمة تتمثل في إيجاد نموذج كتابة ليتم تعديله، وربما أنه أيد نموذج الكتابة التبتية Tibetan، التي كانت بسيطة نسبياً، إذ إن اللغة التانغوتية كانت لغة مسرودة بينما كانت اللغة التبتية نصوصاً مكتوبة، ومن المحتمل أنه بعد ذلك قد خرج ببضع عشرات من الحروف، مثلما فعل المغول، وعوضاً عن ذلك، اهتم بالنصوص الثقافية السائدة في المنطقة، وبالتحديد

النصوص الصينية، التي يتوافق كل رمز من آلاف رموزها مع مقطع لفظي ويندرج في خانة. كما استفادت الثقافات الأخرى المتأثرة بالثقافة الصينية -الكورية واليابانية - من الرموز الصينية لتدوين لغاتهم، لكن «يوان - هاو» أمر عالِمه، يلي رينرونغ Yeli Renrong، بأن يؤكد اعتماد اللغة التانغوتية غير الصينية وذلك بابتكار رموز أصلية تماماً. لذلك تبدو الرموز التانغوتية التي تبلغ ستة آلاف رمز مثل الرموز الصينية، لكنها ليست صينية، وحتى الرموز المستمدة من الصينية قد بُدلت تماما لدرجة أنه لا يمكن لأي صيني قراءتها، وعلى أية حال، لم تساعد الصوتيات بمفردها، إذ إن اللغة التانغوتية كانت بعيدة عن اللغة الصينية كبعد اللغة الإنجليزية عن اللغة المجرية.

هذه هي الكتابة التي استُخدمت لتدوين القوانين ولترجمة النصوص البوذية،التي جلبها أجداد التانغوتيين معهم من التبت التي كانت من البداية هي الديانة الرسمية، وفي الحقيقة، لقد كانت البوذية أكثر من ديانة للتانغوتيين، إذ كانت أيديولوجية استخدمتها العائلة المالكة لمعارضة الديانة الصينية الكونفوشيوسية ولتأكيد قومية شيا Xi، وحصل الإمبراطور، الذي كان يسعى لنيل الأهلية عن طريق أداء الأعمال الصالحة، من السونغ على نسخة كاملة للتريبيتاكا المكونة من ستة آلاف فصل، وهي المجموعة الكاملة لكتابة القانون الكنسيّ البوذي، وترجمها إلى اللغة التانغوتية، وفي هذا المجال، لم تكن شي شيا تنافس انجازات السونغ فقط، بل كانت أيضاً تنافس إنجازات اللياوLiao والكوريين Koreans، فجميعهم أنتجوا نسخاً من التريبيتاكا قبل قرن من الزمان. لقد كان هذا أكثر من كونه مشروع ترجمة وكتابة، فطبع التانغوتيون - مثلما فعل السونغ واللياو والكوريون - موادهم، ونقشوا صفحات كاملة من الخشب في اتجاه معاكس، وتطلبت التريبيتاكا مئة وثلاثين ألف قالب طباعة، يحتوي كل واحد منها مئات الرموز، وأنتج كل قالب منها نصين، وهذا كان مجرد واحد من آلاف الأعمال البوذية التي إمّا أنتجت بوساطة التانغوتيين أو كانت في متناول أيديهم منذ زمن طويل، وعندما فُتحت كهوف الموقاو قرب مدينة «دونهوانغ» التي كانت قد أُغلقت في حوالي سنة 1000، أمام عالِم الآثار البريطاني السيد أوريل شتاين في عام 1907، اشترى (مقابل 130جنيه استرليني فقط، كما ذكر لاحقاً) «كتلة صلبة من المخطوطات يصل ارتفاعها لحوالي عشرة أقدام، وتشغل، كما أظهرت القياسات اللاحقة، خمسمئة قدم مكعب تقريباً» نحو أربعين ألف

مخطوطة وعدة مئات من اللوحات، التي تشكل اليوم الجزء الرئيس من مجموعات ضخمة في المتحف البريطاني والمكتبة البريطانية وغيرها، وتدل الوثائق الصينية والتبتية واليوغورية والسنسكريتية، التي كانت مخبأة قبل أن تبلغ الثقافة التانغوتية ذروتها، على ثِقَل التعاليم البوذية المتاحة عندما شرع التانغوتيون في إعداد سجلاتهم الخاصة، وأصبحت النتائج واضحة عندما استكشف المستكشف الروسي بيتر كوزلوف الحطام المهجورة لإمبراطورية شي شيا عند نقطة الحدود الشمالية، «خارا خوتو» وذلك في عامي 1908 - 1909: نُقلت عشرة آلاف وثيقة، الكثير منها باللغة التانغوتية، إلى سانت بطرسبورغ San Petersburg، حيث مازالت تقبع ككتلة ضخمة ولا تزال عبارة عن مجموعة نفيسة من الأدب البوذي التانغوتي التي لم تُقرأ بشكل موسع بعد.

وإذا كان نتاج التانغوتيين مذهلاً، فكذلك كانت مهارتهم وتنظيمهم وأساليبهم أيضاً، فلكي يتم طباعة التريبيتاكا، على سبيل المثال، لك أن تتخيل إنتاج موسوعة بريتانيكا Encyclopedia Britannica بتأليف نصك الخاص، ومن ثم، لطباعة القوالب، تنقش كل صفحة في واحد وثلاثين عموداً في الخشب في الاتجاه المعاكس.

لقد مثل اختفاء المواد الخام التانغوتية في متاحف»الإمبريالية» إحراجا للثقافة الصينية منذ زمن بعيد، والآن، وكجزء من المحاولة الصينية لاسترداد زمام المبادرة، فإن جامعة نينغشيا في ينتشوان بها معهد رائع وهو معهد شي شيا، ويدير هذا المعهد «دو جيان لو» Du Jian Lu، الذي عرض الدستور القانوني لشي شيا، وهو «أول مجموعة قوانين كاملة لأقلية عرقية في الصين» وبكل فخر كأن هذه النسخة الأصلية من سان بطرسبرغ St Petersburg تعود إليه، وأُنجز الكثير من العمل على مدى القرن الماضي، لكن هؤلاء العلماء القلائل الذين بإمكانهم قراءة النص مازالوا يعثرون على مواد جديدة لإحياء الثقافة التانغوتية: «ونجد هنا قواعد فيما يتعلق بالملبس، وحتى الألوان التي خُصصت للناس العاديين، والمراسيم العليا الصادرة بحق أماكن السكن، والطريقة التي يجب أن تُروى بها المزارع، وطريقة بناء القنوات، وطريقة تدفق الماء».

وتعتمد الجهود الصينية للهيمنة على هذا المجال الملغز بشكل كبير على العمل الدائم لرجل واحد، وهو «لي فانوين»، الذي كان في هذه اللحظة واهناً جداً بحيث لا يمكنه

رؤيتي، فقد اشتعل شغفه باللغة غير المعروفة جيدا في عام 1955، ومازال يبذل الجهود لفهم تعقيداتها منذ ذلك الحين، فالكثير من الرموز الستة آلاف قد فُسرت على يد العلماء الروس، لكن الرموز كانت مجرد جزء من المشكلة، وكان على «لي Li» أن يتصارع مع قواعد اللغة، ومن ثم يطبق فهمه ليحل الرموز المركبة مفاهيم جديدة تم استنباطها من خلال دمج وقلب الرموز، إذ أُضيفت كلمة «خشب» wood إلى كلمة «ينحت carve» لتكون «النحت بالأزميل chisel» وذلك مثال بسيط. لكن من يخطر بباله أن كلمة «قلب heart» مع كلمة «شر evil» ستعني «أذى harm» وأن كلمة «رُكبة knee» مع كلمة «يد hand» مع كلمة «يمشي walk» تعني «يتسلق climb»؟ أو أن كلمة «أصبع اليد finger» إذا ما كُتبت بشكل مقلوب فإنها تعني «إصبع القدم toe»؟ وبعد ما يقرب من خمسين عاماً في هذا المجال، جامعاً ثلاثين ألفاً من بطاقات الملاحظة ومترجماً ما يزيد على ثلاثة آلاف من شواهد القبور، شهد «لي Li» إصدار قاموسه «شي شيا - ماندرينXi Xia - Mandarin Dictionary» الضخم وقد نُشر في عام 2001.

كما طورت دولة الرجال ذوي البشرة البيضاء والمكانة العالية العظمى ثقافة مثيرة للإعجاب، بستة مدن كبرى، وجميعها كانت مزودة بنساجين وصانعي جلود وعمال بناء وعلماء معادن، وتداول تجارها السلع عبر آسيا الوسطى، مزودين نخبتها بالكماليات، وفي عام 1980 وجد علماء الآثار كنزاً مكوناً من عشرة آلاف عملة نقدية حديدية، صُنعت جميعها في عهد شي شيا في القرن الثاني عشر، وبالرغم من صحاريها الشاسعة، إلا إنه يوجد بها مراعي ممر قانسو Gansu Corridor الرائعة على طول التلال السفحية المروية بشكل جيد لجبال غيليان Qilian الشمالية. كما مَولت ثروتها جيشاً قوياً، انتشر عبر اثنتي عشرة منطقة عسكرية، كل واحدة منها بقيادة عضو من العائلة المالكة، وفي زمن الحروب يرسل الإمبراطور الرسل بألواح فضية تأمر الجنرالات المحليين بتجنيد جميع الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والستين، وبهذه الطريقة كون جيشاً يفوق قوامه الثلاثمئة ألف.

وعلى مدار المئة وخمسين عاماً المقبلة خَلَف أباطرة وي - مينغ Wei - ming الواحد تلو الآخر في شؤون الحكم العائلية وتخللت فترات حكمهم النزاعات العصبية، التمرد العرضي وحروب المروج على طول حدود شي شيا غير المستقرة. كما أسفر نفي

الخيتانيين عن اضطرابات عندما فروا من الغزاة الجورشيين في عام 1125، كما أشعلت المجاعات والزلازل الثورات في الأربعينيات من عام 1100، وبشكل عام، وبالرغم من حالة عدم الاستقرار التي كانت عليها على مدار العصور، إلا إنها كانت مملكة مستقرة ومتطورة ومزدهرة، ولم يخطر ببال أحد أن قوتها كانت أيضاً مصدر ضعفها، وذلك لأنها كانت أمة يحكمها العلماء والبيروقراطيون، ولم تكن جيوشها مدعومة من سكان الريف، كما كان الأمر بالنسبة للقوات المغولية، وإنما كان يدعمها المزارعون وتجار المدن.

وفي زمن ولادة جنكيز كان لدى شي شيا نظام شامل من المدارس الحكومية وكلية بثلاثمئة مقعد لتدريب البيروقراطيين والعلماء، فكتبت أكاديمية للعلماء السجلات التاريخية وخزنتها، وكان الإمبراطور، «رينشياو»، مثل أسلافه شخصية بوذية شبه مقدسة، يحتفظ بالسلطة من خلال لعب دور الحاكم الطاهر الذي يسعى للتنوير، وفي عام 1189 كَرم رينشياو الذكرى الخمسين لتبوئه للحكم بتوزيع مئة ألف نسخة من محاورات بوذا حول صعود وانبعاث مايتريا Maitreya، «بوديساتفا» الخامسة (مخلوق مستنير)، وخمسين ألف نسخَة من كل من الحِكم الأخرى العديدة، وطبعت كلها بكلتا اللغتين التانغوتية والصينية، لكن رينشياو كان آخر الحكام العظام، إذ مات في عام 1193، تاركاً إمبراطورية في يد خلفاء أقل أهلية.

ويقود الممر المهيب المعبد بالحجارة المؤدي إلى الأضرحة نحو الضريح رقم ثلاثة مباشرة، الذي بناه مؤسس شي شيا، الذي يقبع الآن في سياج ضخم ونُقب عنه من الحفريات الأثرية، وبالرغم من كونه جزءاً صغيراً من المكان ككل، إلا إنه المكان المفترض أن يأتي إليه الزوار، وبعيداً أعلى السهل، مثل القصور الرملية البعيدة، يوجد ثمانية قبور إمبراطورية ومئتين من الهياكل الأصغر بنيت للجنرالات وأفراد العائلة الأقل مرتبة، وجميعها في متناول ذوي القدرة على الاحتمال وأصحاب الحذاء المناسب والوقت الكافي، وجاء السائق لمساعدتنا، وكان بجانب مكتب التذاكر طريق ترابي أدى بعد أرض جرداء من حزم الأعشاب المليئة بالحصى وأزهار فيضانات الربيع الجافة إلى الأضرحة رقم واحد واثنين، اللذين بناهما «يوان - هاو» Yuan - hao ليضفي المجد على والده وجده بأثر رجعي، وكان العمال مشغولين بالخشب والخرسانة، ويستعدون لحشد الزوار القادمين، وكنت أنا و«جورجت» وحدنا مع الحصى والشجيرات والجبال البعيدة وهذه الهياكل الغريبة جداً.

إن المخاريط التي بليت بفعل العوامل الجوية لا تبدو مثل أية مبانٍ أخرى رأيتها في حياتي، فلك أن تتخيل مقدمة الصواريخ التي بدت عليها البثور بفعل الصدامات البغيضة مع الكواكب السيارة، ويشكل فتات الصخور المتآكلة حواف ترابية حول قواعدها، لكن المخاريط لم تبلَ على نحو مطرد، فهناك نمط للأضرار التي لحقت بها على مدى ثمانية قرون من المطر والشقوق التي تجري أفقياً وعمودياً، مما نتج عنها أعداد كبيرة من الثقوب.

وهنا سألت: «جورجت، ما رأيك بهذه الثقوب؟ إنها تبدو كأعشاش الطيور. ثم استطردت قائلاً: «كلّا ليست بأعشاش طيور، فمن المحتمل أن تكون فتحات للتهوية»، فنظر إلي بغرابة قائلاً: «في الحقيقة، إنها ليست كذلك. إن هذا ضريح، وينبغي أن يكون مجوّفاً، ولا بد من وجود هواء بداخله».

لقد كنت مخطئاً تماماً في كلتا الحالتين، ففي الواقع، كان الدليل هناك بالتحديد، تحت أقدامنا، إذ سوّت الجرافات الأرض – وهي جاهزة الآن، كما افترضت، لجحافل السياح الذين سيمشون هنا ذات يوم، لكن كانت في ما بين الحصى قطع من القرميد، قطع صغيرة ذات لون أخضر وبني فاتح، وبجانب الضريح رقم ثلاثة يوجد الدليل مكوّمٌ لم يمسسه بشر: مجموعة من القرميد النصف دائري يبلغ طولها خمسين متراً، وبحسب تقديري يوجد حوالي عشرون ألفاً منها. إن وجود القرميد يعني وجود أسقف. كما أظهرت الثقوب والشقوق الأماكن التي شُقت بداخلها العوارض الخشبية في الهياكل التي لم تكن مجوّفة على الإطلاق، لكنها أجسام مصمتة من الأرض الصلدة التي علت القبور نفسها والممرات الموصلة إليها، وكانت العوارض الخشبية تدعم أسقف القرميد، وربما تداخلت مع بعضها البعض وقُوّست من الأمام قليلاً على غرار المعابد الصينية.

في ذروة قوة شي شيا، في أوائل القرن الثالث عشر، لا بدّ وأن هذا المكان بدا مدهشاً، حيث تتوهج معابده التسعة بألوانها في الباحات الخاصة بها، مع «أضرحتها الرفيقة» الملازمة لها، وجميع هذه المنشآت التسع الفخمة يحرسها ويتولى العناية بها وحدات من القوات العسكرية.

ويتبيّن كل هذا بشكل واضح في متحف أنيق جديد عند مدخل الضريح رقم ثلاثة، حيث

يعلن عن نفسه ليكون «أحد اللآلئ الرائعة في بيت الكنز العظيم للتاريخ والثقافة الصينية»وبدا أن ذلك زعم مقبول، يعززه الطراز الذي بني عليه الموقع، والمئات من التماثيل وقطع القرميد والمخطوطات والعملات النقدية والكتب المطبوعة والأواني، كل ذلك يروي قصة شي شيا حتى اليوم، ولكون دليلنا كان متحمّساً لمهمته استوقفني وجود شيء غريب بشأن ما كان يقوله، ولم يكن هذا الشيء الغريب هو أن تعليقاته كانت محفوظة عن ظهر قلب وأدلى بها برتابة إنسان آلي، وذلك لأنه كان لافتاً للنظر عدم وجود مرشد ينطق باللغة الإنجليزية على الإطلاق، ولم يكن أيضاً عادته بالتنحنح بعد كل جملة، مع إصدار صوت يشبه الصوت الحادث «من زر»الإنهاء» لجهاز اتصال لاسلكي، كما لو كان يضيف علامة تعجب صوتية لكل جملة. لقد كان ذلك الشيء هو الافتراضات وراء كلماته التي استوقفتنا.

إذ قال إن شي شيا دامت لمئة وتسعين عاماً حتى غزتها قوات منغوليا الداخلية [أصدر صوت نحنحة]!.

وتمتم «جورجت» قائلاً: «قوات منغوليا الداخلية! «أين يعتقد أن جنكيز وُلد؟»».

لم يكن هناك خطأ. «فنحن نرى أضرحة الأباطرة التسعة [نحنحة]» وتابع دليلنا حديثه المتكلف، مع علامات الترقيم الصاخبة. «لكننا نرى أنه كان هناك اثنا عشر إمبراطوراً [نحنحة] ويعتقد المتخصصون أن الأباطرة الثلاثة الآخرين لقوا حتفهم في الحرب مع قوات منغوليا الداخلية.

فهمهمت قائلاً: فإذا كان دليلنا هو أيضاً دليلًا باتجاه التفكير الرسمي، فإن شخصاً ما في السلطة رغب في أن يُخبر الزوار أن المغول الغزاة القادمين من وراء صحراء غوبي قد جاؤوا فعلاً من مقاطعة صينية. هل كان يقصد أن نعتقد أن التانغوتيين قد هُزموا على يد رعايا صينيين؟

إن الإجابة السريعة عن هذا السؤال هي نعم، وذلك لأسباب سأبدأ في سردها بعد لحظة، لكن الإجابة السريعة لا تعطي جواباً شافياً. كما أنها تفتح الباب أمام أسئلة أخرى بشأن طبيعة الهوية، التي وجدت نفسي أعود إليها مراراً وتكراراً في هذه الرحلة، فالمسألة تكمن في لب الكثير مما يتعلق بكيفية الحكم على جنكيز خان، عبر كل من التاريخ والوقت الحاضر.

وبالتالي فلنخض في الأسباب الكامنة وراء الإجابة السريعة، ولندعها تنبثق من استجواب

يمكن تصوره:

من هاجم التانغوتيين في أوائل القرن الثالث عشر؟

المغول بقيادة جنكيز خان.

جيد جداً، وماذا حدث؟

انتصر جنكيز خان.

ممتاز، وبعد ذلك؟

هزم المغول بقية الصين في نهاية المطاف.

لقد فعلوا ذلك بالفعل، وبعد ذلك؟

أقاموا أسرة يوان.

وفي تاريخ أية أمة كانت أسرة يوان جزءاً أساسياً؟

الأمة الصينية.

رائع، فمن الذي أسس هذه الأسرة الصينية؟

جنكيز خان، بالطبع.

إذن - وهنا يكمن الجزء الذي يتطلب حذراً - ماذا يجعل هذا من جنكيز خان: صينيًّا أم مغوليًّا؟

أترى أين نحن متجهين؟ بالنظر إلى الأشياء من جنوب صحراء غوبي، فإن جنكيز خان كان في الحقيقة صينيًّاً، مع ما يترتب على ذلك بأن المغول جميعهم هم في الحقيقة صينيون، ويجب أن يكونوا كذلك، فهذا شيء منطقي تماماً.

ولنصُغْها كالتالي؛ يصبح الماضي فجأة جزءاً من الحاضر، مع الآثار السياسية المتضمنة التي ستشغلنا عن قرب أكثر فيما بعد، في تلك اللحظة - أثناء الاستماع إلى دليلنا الملحاح - عاد بي شيء من الذاكرة إلى حوار دار مع جورجت بينما كنا على متن القطار حيث تبادلنا

أطراف الحديث ببطء جنوباً على طول النهر الأصفر.

ويتوجب عليّ أن أقول شيئاً بشأن جورجت، ولد ابناً لأحد الرعاة في مراعي منغوليا الداخلية، وعندما بلغ السابعة من عمره، سار إلى المدرسة من خيمته، قاصداً مدرسة منغولية، مُتحدثاً اللغة المنغولية فقط، ولم يكن والداه يتحدثا باللغة الصينية، وفي وقت لاحق، أصبح والده موظفاً صغيراً في بلدة شيلينغهوت Shilinghot، وكان هو وأمّه، التي لم تتعلم القراءة مطلقاً، مصرّين على أن التعليم هو الطريق نحو التقدم، وعندما تخرج، مؤدياً امتحاناته باللغة المنغولية، تقدم بطلب للقيام بدراسات منغولية في جامعة منغوليا الداخلية في هوههيوت، لكنه أدرك في هذه اللحظة أن العالم الذي يعيش فيه ليس منغولياً على الإطلاق، بل كان عالماً صينياً، وليكتسب المعرفة، اضطر لتعلم اللغة الصينية، وبدأ بتعلم اللغة عندما كان في السابعة عشرة من عمره، وأصبح طليق اللسان باللغة الصينية عند السن الواحدة والعشرين. ثم واصل ليتخصص في العلاقات التركية والمنغولية، ودرس في أنقرة Ankara، وأخيراً - في أواخر العشرينات من عمره - شرع في تعلم اللغة الإنجليزية، ويعود الفضل إلى وجود بروفسور أمريكي في هوههيوت Hohhhot، وبالتالي، فإن المنغولية هي لغته الأم والصينية لغته الثانية والتركية لغته الثالثة ولغته الرابعة هي الإنجليزية. لقد كان مترجمي بلغته الرابعة، وأدين له بالشيء الكثير الذي يكاد لا يُحصى، وكان أيضاً عدّاءً جيداً، فقد فاز ببطولات الجامعة في الركض لمسافة ثمانمئة متر وألف وخمسمئة متر وعشرة كيلومترات، الأمر الذي سيتكشّف عن ميزة مفيدة أيضاً.

فطرحت عليه سؤالاً: «إذن، هل أنت صيني أم منغولي؟».

«أنا منغولي» وتوقف قائلاً «لكني صيني الجنسية».

ولتوضيح وجهة نظره، أخبرني قصة اسمه، فجورجت اسم واضح المعالم بما فيه الكفاية باللغة المنغولية، التي تُكتب حرفياً بسهولة باللغة الإنجليزية، لكن الرموز الصينية أحادية المقطع، ينتهي كل مقطع بصوت حرف علة أو بحرف نون n، وبالتالي لا يجتمع ساكنان معاً، ولتمثيل اسمه، كان عليه أن يختار رموزاً تمثل بشكل وثيق أصوات اسمه باللغة المنغولية، وتبدوا هذه الرموز كشيء مثل «جي - تشي - جي - تو»، والآن، من الواضح أن هذا ليس اسم

صينيّ، لكنه يمنحه هُويةً صينية، لأنه يمكن أن يُكتب ويُنطق، وبيت القصيد في كل ذلك هو، أياً يكون الخليط المركب الذي يشعر نفسه أنه يكون، فهو صيني بالنسبة للصينيين.

وهكذا هنا، وبشكل رئيس، يكمن الموقف الصيني من الهوية. طالما تقع ضمن المجال الصيني، ستصبح في نظر الصينيين صينياً، فجورجت صينيٌّ، وكذلك كان جنكيز خان أيضاً، وهذا كل شيء.

إلى أين وصلت قوات منغوليا الداخلية؟ إن الإجابة ذات مغزى كامل، لكن عليك أن تتبعني عن كثب، ففي يوم من الأيام، كانت منغوليا والصين شيء واحد، تحت قيادة المغول، الذين أصبحوا بالتالي صينيين بكل الأحوال، ومنذ ذلك الوقت، اختفت الإمبراطورية المغولية، وأُضعفت الصين أيضاً بطرق أخرى، وللأسف اختفت منغوليا الخارجية - الجمهورية الشعبية المغولية، كما أصبحت تعرف - من العائلة في زمن الضعف الصيني في أوائل القرن العشرين. لكن هناك منغوليين في منغوليا الداخلية، التي لازالت جزءاً من الصين، أكثر من منغوليا نفسها، التي هي ليست جزءاً من الصين، وبالتالي فإن الحقيقة التاريخية المفهومة ضمناً يمكن الإفادة منها بالشكل الأمثل من خلال إطلاق لقب «المنغوليين الداخليين» على جميع المنغوليين، وذلك لأنه للصينيين هو المكان الذي جاء منه المنغوليون، وبناءً على ذلك فإن القوات التي غزت شي شيا في القرن الثالث عشر كانت قوات منغوليا الداخلية.

كما أن هناك بعداً آخر لهذا الموضوع، فإقليم شي شيا يتداخل مع ما يسمى اليوم شينجيانغ وقانسو ونينغشيا ومنغوليا الداخلية، وجميعها جزء لا يتجزأ من الصين، وإذا كان التانغوتيون معنا في الوقت الحاضر فسيكونون، مثل جنكيز وجورجت صينيي، بغض النظر عن أن لغتهم كانت مرتبطة باللغة التبتية، وأنهم أقاموا دولتهم الخاصة بهم، وأنهم قد أُخمدوا عملياً أو تم استيعابهم قبل بزوغ الصين الموحدة، وبعد كل هذا، فقد أُبيدوا تماماً على يد شعب صيني، أي المغول، وبالتالي فإن موضعهم بشكل لا لبس فيه هو أنهم جزء من العائلة الصينية الكبيرة التي ظهرت عام 1949، وهكذا، بالتطبيق القاسي للإدراك المؤخَر، فمن الممكن أن نرى صراعاً ممتداً من أجل السيطرة على آسيا الداخلية يشمل ثلاث جنسيات منفصلة كخلاف صغير بين أفراد العائلة الواحدة.

ولخّصت القصة صورة بحجم الجدار لجنسيات الصين الستة والخمسين، التي كانت بمنزلة نقطة توقف للمعرض، وأجاب الدليل عن سؤالي الواضح قائلاً: «تخبرنا هذه الصورة أنه لا يوجد لدينا جنسية تانغوتية من بين الستِ وخمسين جنسية، لكن الجنسية التانغوتية اختلطت في هذه الجنسيات، واليوم تجتمع الجنسيات معاً لتجعل بلدنا بلداً جميلاً».

وهناك قدر كبير يثير الإعجاب في السلك الرسمي بشأن الأقليات، فجميعها ما عدا واحدة من الست والخمسين ثقافة معاً لا تمثل سوى حوالي خمسة بالمئة من السكان، فالأغلبية العظمى منها من الهان Han، لكن كل واحدة منها ضمنت من الناحية النظرية صوتها ولغتها وثقافتها الخاصة بها. كما أنها تُقدم أيضاً للأقليات القومية التحدي المتمثل في اتباع الثقافة الأكثر انتشاراً، وهو تحدٍ كان على الدوام سمة ثابتة للمناطق الحدودية ووجود المهاجرين واليوم يتكرر هذا التحدي في حالات أكثر في عالم الأقليات المتشردة، لكن شمولية الهان تثير المشاكل، وبالذات فيما يتعلق بالتاريخ، فالعودة إلى الحدود التاريخية أو الاستيلاء على مناطق جديدة يتخلص من الثقافات الحدودية التي قد تنخرط بسهولة تحت ثنايا الثقافة الصينية، وتمثل التبت قضية بارزة وثيقة الصلة بهذا الموضوع، وفيما يتعلق بقضية التانغوتيين، فهي تشويه غريب للتاريخ لفرض التصيُن بأثر رجعي على شعب غير صيني فريد من نوعه حكمه التبتيون Tibetians، وأياً كان، قبل أن يقيموا مملكتهم الخاصة بهم.

وهناك أثار سياسية تتعلق بجمع الرعايا الصينيين السابقين مع أولئك الذين هم داخل الحدود المعاصرة، ففيما يتعلق بالجزء الخاص بمنشوريا الذي هو الآن روسي كان في وقت ما صينياً إلى حدٍ كبير (أو على الأقل تابعاً للياو أو للجين، الأمر الذي يعدّ من وجهة نظر الصينيين الشيء نفسه)، ويمكن لهذا الأمر أن يخلق تطورات مثيرة، توجب على الروسيين السيطرة لئلا ينزلقوا، ولنأخذ منغوليا على سبيل المثال: إذا أصبح جنكيز، لكونه فاتحاً منغولياً ناجحاً، صينياً، وإذا،كنتيجة لذلك، اعتُبر المنغوليون صينيين؛ فالصين إذاً لها استحقاق في منغوليا، وذلك على الرغم من كونها مستقلة في الوقت الحاضر، وهنا توجد إمكانية لوجود وجهات نظر متصارعة بشان من يمكن أن يمارس السلطة بحق على الكثير من حدود آسيا الداخلية- الأمر الذي، كما سنرى، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتراث جنكيز خان.

عرف جنكيز بالفعل الكثير حول شي شيا، وذلك لأن المغول والتانغوتيين كانوا متشابكين

كتشابك الأقارب الذين يتنابهم الشك، فالتانغوتيون كان لديهم صلات وثيقة مع حليفه وعدوه القديم توغرال، خان الكريتيين، إذ وقع شقيق توغرال، جاخا، في الأسر فرباه التانغوتيون عندما كان صبياً، وفي وقت لاحق، جعلوا منه محارباً عظيماً (جنرالاً أو مستشاراً كبيراً). كما أصبحت ابنة جاخا واحدة من بنات زوجة جنكيز، وفي الوقت المناسب أصبحت أماً لاثنين من أباطرة المغول الصينيين وأماً لأول حاكم مغولي فارسي، وعندما هرب ابن توغرل نيلكا، فعل الأمر نفسه عبر الأراضي التانغوتية، مقدماً ذريعة لغارات المغول الأولى في عام 1205، وبذلك عرف المغول كل شيء يتعلق بالتانغوتيين: تطورهم وثقافتهم وإيمانهم البوذي العميق (فقد كانوا يشيرون إلى جميع أباطرة التانغوتيين بلقب «بورخان Burkhan» الذي كان يعني كلاً من بوذا الخالد والمقدس، نفس الكلمة كما في اسم جبلهم المقدس بورخان خالدون Burkhan Khaldun)، ولم يكن أي من ذلك ذا أهمية، وكان الأمر ذو الأهمية هو أن التانغوتيين كانوا أثرياء وضعفاء.

إلا إنه لم يكن هناك حتى الآن أي هدف استعماري، إذ كان جنكيز، الذي انشغل في حملة عسكرية ليقهر عدوه القديم الميركيتيين، بحاجة إلى كسب عظيم لقواته، مع مدفوعات طويلة الأمد إن أمكن ذلك؛ فكانت شي شيا هي المصدر الواضح لهذا الكسب، الأمر الذي كان يعني تحويل شي شيا إلى دولة تابعة تدفع الجزية، في أسرع وقت ممكن، قبل أن يتدخل الجين في النزاع، ولم يكن هناك أية نية للاحتلال؛ فلم تكن هناك سوى خطة مبهمة غير واضحة المعالم، على الأرجح، ليستخدموا ثروة شي شيا كجسر موصل للاستيلاء أو لابتزاز ثروة أكبر من الجين.

وفي ربيع عام ألف ومائتين وتسعة وقع الغزو بشكل فعلي، وربما اختار جنكيز لهذه الحملة العسكرية الأولى واسعة النطاق طرقاً مختلفة كثيرة عبر صحراء غوبي، وربما أنه سار مسافة خمسمئة كيلومتر إلى الجنوب الغربي من أفراجا، ثم نزولا إلى نهر،الأونجي Ongi، الذي لم يتجمد في الآونة الأخيرة والممتلئ بالمياه الذائبة، وذلك بهدف الوصول إلى ملتجأ سلاسل المحاسن الثلاث، وهنا تتلاشى جبال ألتاي أخيراً في شكل بيضاوي من القمم والأخاديد والمراعي العالية والرمال والحصى على مساحة عشرين ألف كيلومتر مربع، وإلى الغرب تقع سلاسل شاهقة متصلة من الكثبان الرملية، تُعرف اليوم باسم الرمال المغنية Singing

Sands بسبب اللحن الأثيري الغريب الذي تحدثه الرياح الحاملة لذرات الرمال، وإلى الشرق توجد الأراضي المنخفضة الممتلئة بالحصى، حيث يندر وجود الماء وتتبدد الحياة البرية. لكن بين الرمال والسهول صنعت المحاسن الثلاث بجداول المياه والمراعي والحياة البرية مكاناً للتوقف لجيش مرتحل، وعلى مر القرون، كانت الحياة البرية تتراجع كلما ازدهر الرعاة، ولكنها اليوم حديقة وطنية، تعود إليها الحياة البرية، معطية إشارة إلى جاذبيتها السابقة، ورأيت في زيارة قمت بها مؤخراً الأغنام الجبلية وهي تثب فوق النتوء الصخرية، واستمعت إلى الرعاة وهم يشتكون بشأن الذئاب، ورأيت مهراً كان نمر الثلوج قد أوجعه ضرباً. حتى أنه كان هناك مشهد مروي لأحد أكثر الثدييات ندرة، دب صحراء غوبي، بقية معمرة متنوعة انفصلت عن أبناء عمومتها في جبال الهيمالايا عبر انتشار الصحراء قبل آلاف السنين، وفي القرن الثالث عشر كانت المحاسن الثلاث أيضاً ملاذاً للحمر الوحشية، التي لم تقدم طعاماً طيباً فحسب بل قدمت أيضاً تدريباً رائعاً للقوات، وذلك لأنها تتنقل في قطعان وتنافس الخيول في السرعة والقدرة على المناورة (ذات مرة، عندما كنت في سيارة جيب رباعية الدفع قمت بقياس سرعة قطيع يعدو بسرعة سبعين كيلومتر في الساعة في صحراء غوبي الغربية النائية، حيث استعادت الحمر الوحشية، المحمية الآن، كوضعها السابق.

وانطلاقاً من المحاسن الثلاث، قادنا الطريق إلى الجنوب مسافة ثلاثمئة كيلومتر أخرى باتجاه جبال هيلان Helan، التي تشكل الحافة الشرقية لصحراء ألاشان، وليس هذا هو الطريق الواضح على الخارطة، والذي سيبدو أسفل النهر الأصفر، حيث تمر السكة الحديدية الآن، لكن هذا سيعني عبور الأراضي الزراعية ذات الكثافة السكانية العالية المتداخلة مع القنوات، لكنّ الفرسان سريعي الحركة فضّلوا صحراء آلاشان الشاقة والواسعة، بدفاعاتها المتباعدة على نطاق واسع، وعندما استولى المغول على بلدة ضئيلة التحصين، بعث التانغوتيون بطلب عاجل إلى الجين من أجل المساعدة، والذين توقعوا منهم أن يضعوا خلافاتهم السابقة جانباً وأن يأتوا لمساعدة التانغوتيين ضد عدو مشترك، لكن اختيار جنكيز للتوقيت كان مثالياً، فقد كان الجين تحت إمرة زعيم جديد، الأمير وي Prince Wei، الذي أخبر الحاكم التانغوتي برضىً قائلاً: «إنه لمن صالحنا أن يهاجم أعداؤنا بعضهم بعضًا. أين يكمن الخطر بالنسبة لنا؟».

وسار المغول صوب الجنوب، الصحراء من على يمينهم، والجبال من على يسارهم، وبلغوا حصناً يتولى الدفاع عن الممر الوحيد المؤدي عبر الجبال إلى العاصمة التانغوتية، ينتشوان في الوقت الحاضر، واليوم، يمكنك السفر خلال هذا الممر في نصف ساعة، وهذه رحلة يسيرة، أما في زمن جنكيز، تبع المسار مجرى نهر جاف في الصيف، أو جانبي الجبل في أوقات الفيضان، وترتفع الأرض نفسها بلطف من مئة إلى مائتي متر فقط، ويمكن للفرسان أن يقطعوا التلال العالية لكن بصعوبة وبطء وبسرعة، لذلك فقد كان الممر هو الطريق الوحيد تماماً، كما هو اليوم، ومن ثم يأتي الحصن، وهو عبارة عن قاعدة لجيش تانغوتي بلغ قوامه سبعين ألف مقاتل، ويعزز على عجل بخمسين ألفاً آخرين (وتذكر دائماً أن هذه عبارة عن تقديرات، وبالتأكيد هذه التقديرات سخية تقريباً).

وحتى مع حصار جيش، فإن اقتحام هذا الموقع كان أمراً مستحيلاً، فكان أمل جنكيز الوحيد أن يقع التانغوتيون في شرك بالنزول إلى السهل، وبعد وقوف دام لشهرين، استخدم المغول تكتيكاتهم المعتادة في مثل هذه الظروف، متظاهرين بالتقهقر، لكنهم في الحقيقة توقفوا في التلال السفحية، مخلفين وحدة عسكرية صغيرة لتكون بمنزلة شَرَك، وعندما هاجم التانغوتيون كما هو متوقع، انقض المغول عليهم وحققوا انتصاراً مذهلاً، وأصبحت الطريق إلى ينتشوان مفتوحة أمامهم.

ولكنهم واجهوا الآن مشكلة، إذ كانت ينتشوان مدينة محمية بشكل جيد، وكان المغول عبارة عن فرسان بدو سريعي الحركة، ولم يسبق لهم من قبل أن حاولوا الاستيلاء على مدينة، ولم يكن لديهم أقواس الحصار الثلاثية مثل تلك التي استخدمها السونغ والجين، التي كان بإمكانها إطلاق سهام بحجم أعمدة التلغراف؛ ولا المقاليع ذات النطاق الواسع، ولا قنابل حارقة تُملأ بالبارود منخفض الدرجة أو المعدن المنصهر، ولا، حتى الآن، خبراء أسرى ليعلموهم أساليب حرب الحصار طويل المدى، فقد كانت خبرتهم في كل من الحركة والسرعة، وربما يمكنهم الاعتماد على الأرض لفترة وجيزة، لكن القوات أرادت مكافأة سريعة، وإلى جانب ذلك، لم تستطع القوات تحمل الانتظار في المكان حتى تصل التعزيزات التانغوتية بأعداد كافية من مناطق بعيدة من إمبراطورية شي شيا.

وبقيت وسيلة لم تُستخدم بعد: نظام قنوات ينتشوان القديم، الذي كان يجلب المياه من

النهر الأصفر لري سلة غذاء شي شيا، ولم يكن لدى المغول أية مصلحة في الحفاظ على مثل هذا الاستثمار، الذي كان ينهض بأعبائه من فلاحي الأرض المحتقرين، لذا حطموا السدود وحاولوا غمر المدينة بمياه الفيضان حتى الاستسلام، لكن هذه الفكرة لم تكن بالشيء الجيد، فالأراضي الزراعية المحيطة بينتشوان مستوية مثل أراضي هولندا، فانتشرت مياه الفيضان بعيداً، لكنها تبقى ضحلة، وفي المدن، لم تُصب المباني بأذى جراء الفيضانات الضحلة، لكن الخيام والخيول والعربات لم تسلم من ذلك، فغمر المغول أنفسهم بمياه الفيضان، وأُجبروا على العودة إلى أرض أكثر علواً.

وكان القادة التانغوتيون في مأزق أيضاً، فمازال أعداؤهم على مقربة منهم، ودُمرت محاصيلهم، ولن يحصلوا على مساعدة من الجين.

المأزق

وللخروج من المأزق، تراجع الطرفان، فقد استسلم الإمبراطور التانغوتي، عارضاً إحدى بناته (شاكا تحديداً) للزواج من جنكيز، وسلم الإبل والصقور والمنسوجات كجزية. أما جنكيز، الذي اقتنع أنه الآن لديه تابع مذعن سيوفر الجزية والقوات كلما تطلب الأمر، فقد أمر قواته بالانسحاب.

لكن هذا الاتفاق كان أول اتفاق دولي، وكان ينقصه الدهاء، وكما ستُظهر الأحداث، فقد كان جنكيز ضحية تفكيره المبني على الرغبة لا الحقيقة، فقد استسلم التانغوتيون آملين تحقيق نتائج إيجابية، وتنفسوا الصعداء، فقد بدا لهم أن العاصفة قد مرت، وربما يبتز البرابرة المغرورون عربات الغنائم وقطعان الإبل، لكنهم بالتأكيد لن يستولوا على مملكة قوية صمدت مائتي عام، بمدن محصنة بشكل جيد وبجيش من بضع مئات الألوف، هل سيفعلوا ذلك؟

الفصل السابع

إلى الصين

عندما وصلت بعثة الجين إلى قصر جنكيز للإعلان عن إمبراطور جديد للجين ولطلب إجلال شعائري، قيل إن جنكيز بصق بازدراء قائلاً: «كنت أعتقد أن حاكم المملكة الوسطى لابدّ أن يأتي من السماء. هل يمكن أن يكون شخصاً بمثل هذا الضعف مثل الأمير وي Prince Wei؟ لماذا يتوجب عليّ الخضوع له؟».

لقد كان لجنكيز أسبابه الوجيهة للازدراء، فإمبراطور الجين الجديد كان يحكم دولة متزعزعة حيث هيمنت أسرة «الجورشن» البالغ عددها نحو الثلاثة ملايين على أربعين مليون فلاح صيني، وهم السكان الذين أضعفتهم الآن المجاعة والانهيار الاقتصادي، فانشق العديد من كبار مسؤولي الجين وقائد تابع من «الخيتانيين»، مستشعرين وجهة الخطر، بالفعل اتجهوا نحو المغول، وجلبوا معلومات قيمة معهم، كما قدمت قبيلة حدودية «الأونغت Ongut»، التي انتشرت عبر المنطقة الانتقالية بين الأراضي العشبية للرعاة والأراضي الزراعية، ممراً مفتوحاً للمغول، وكانت المعلومات حول دفاعات الجين تَرد من التجار المسلمين أيضاً، وذلك امتناناً للأمن الذي وفرته إمبراطورية جنكيز الواسعة، وكما هو الحال دوماً، فإن إسقاط نظام «الأسوار العظيمة» لم يمثل عائقاً أمام المحاربين البدو، هذا بالإضافة إلى أن جيشه كان مفعماً بالحيوية والنشاط على إثر النصر الذي حققه على شي شيا.

ومع ذلك، لن يكون الهجوم بالأمر الهين، إذ استطاع إمبراطور الجين أن يجتذب - من عدد سكان بلغوا عشرة أضعاف سكان المغول - الفرسان والمشاة الذين بلغ قوامهم عدة مئات من الألوف. وكانت مدنه محصنة بشكل جيد، فقد حرس حصنان ضخمان الطريق إلى بكين، التي هي منيعة فعلياً في وجه أي هجوم مباشر.

لقد كان غزو جنكيز يمتاز بشدة الدقة في التخطيط وجرأة التنفيذ، ففي ربيع العام 1211 تجمع المغول في الوديان إلى الجنوب من نهر «الخينتي» وتقدموا عبر صحراء غوبي، وانتشروا بشكل جيد في موجات عدة لئلا يستنزفوا آبار المياه المتناثرة وبِرَك المياه الذائبة. لقد كانت عملية عسكرية ضخمة بكل المقاييس، تخيل ما يقارب من مئة ألف من المحاربين بثلاثمئة ألف من الخيول، تحركوا في ربما من عشر إلى عشرين مجموعة بلغ قوام كل

مجموعة منها من خمسة آلاف إلى عشرة آلاف، ومع كل واحدة العربات التي تجرها الإبل، وربطت جميع هذه المجموعات بالرسل سريعي الحركة حيث عبر الجيش مسافة ثمانمئة كيلومتر من السهول المفروشة بالحصى، ومع ذلك، تجاهلها افتتاحية كتاب التاريخ السرّي بالكامل، وسار كل شيء على ما يرام، إذ جرت هذه الأحداث أمام أعين كلٍ من الجيوش البدوية والجيوش الصينية، وستجري مرة أخرى، وبالنسبة للجمهور المنغوليّ، الذي يتوق إلى الشخصية والحكاية، ستكون مجرد روتين، إذن،المصادر الوحيدة المتوافرة هي المصادر الصينية، وهي ضئيلة ومتناثرة إلى حدٍ ما.

وعندما تدفق الجيش المغولي إلى شمال الصين واقترب من الممر المُسمى آنذاك هوان - يرح - تسوي Huan - erh - tsui - فم الغُرير - المؤدي إلى بكين، يبدو أن قائد الجين، تشي تشانغ Zhi - zhong، ارتكب خطأً فادحاً، إذ كانت لديه فرصة لشن هجوم مباغت وذلك عندما كان المغول منشغلين في السلب والنهب، وعوضاً عن ذلك، ربما لكسب الوقت، أرسل ضابطاً يدعى «مينغ - آن Ming - an» لمناقشة اتفاق السلام مع جنكيز، فانشق «مينغ - آن Ming - an» على الفور، وأدلى بالمعلومات التي مفادها أن الجين كانوا ينتظرون عند أقصى نهاية الممر، وهناك، سُحق فرسان الجين، المحتشدين بين سلاسل التلال، بالسهام وبهجوم مغولي مفاجئ، فانقلب الفرسان على أعقابهم وداسوا مُشاتهم، وتمددت الجثث المتناثرة «مكوّمة مثل جذوع الشجر العفنة» كما يذكر التاريخ السرّي، على مساحة خمسين كيلومتراً على طول الوادي الذي ينحدر نحو كالغان Kalgan (تشانغجياكو Zhangiakou اليوم) المدينة الحدودية بين نجد منغوليا الداخلية وأراضي الصين المنخفضة، وسيعتبر المغول دوماً معركة فم الغُرير واحدة من انتصاراتهم العظيمة.

وبعد عشرة أعوام، عندما مر حكيم طاوي يدعى «تشانغ - تشون»، في طريقه للقاء جنكيز خان، كانت عظام القتلى لا تزال ظاهرة للعيان على المنحدرات، وكتب أحد تلامذة ورفقاء «تشانغ - تشون» في الرحلة «بددت نسمة عذبة الغيوم، وكان الهواء متناغماً».

لم يوجد شيء في الشمال سوى رمال شتوية وعشب ذابل. تنتهي الصين فجأة هنا، عاداتها ومناخها. لكن ألا يجب على الطاوي أن يتعلم قبول البيئة التي ربما يجد نفسه فيها بسرور؟ وأشار سونغ - تي - فانغ Sung - Te - Fang والبقية [من تلاميذ تشانغ - تشون

Ch'ang – chun] إلى الهياكل العظمية الملقاة على أرض المعركة وقال: «دعونا – إن عدنا سالمين – نُقِم قدّاس الألواح الذهبية من أجل أرواحهم، فمن يعرف ربما كان انطلاقنا في هذه الرحلة مُقدراً إلى حد ما لنساعدهم على الخلاص».

ولدى عودته في أوائل العام 1224، مكث تشانغ – تشوان Ch'ang – chuan في بلدة على بعد نحو مئة كيلومتر جنوب أرض المعركة على طريق جيش الجين الهارب، وهنا، مع منظر القرى التي لازالت مدمرة جراء الحرب، وَفَّى بوعده وصلّى على مدار ليلتين وثلاثة أيام من البرد القارس» نيابةً عن الموتى الراقدين هناك بمفردهم».

كما دفعت مناوشات الملاحقة جنرالات الجين إلى التقهقر إلى بكين واستولت على عدة مدن وحصون رئيسية، وصمدت بكين – المعزولة – تاركةً الحرية للمغول ليتجولوا وينهبوا بمحض إرادتها، وبينما توجه جنكيز جنوباً لمسافة ثلاثمئة كيلومتر أخرى صوب النهر الأصفر، سار أحد جنرالاته اللامعين، جيبي Jebe إلى أبعد من ذلك باتجاه الشرق إلى منشوريا، عابراً نهر لياو Liao المتجمد ليهاجم عاصمة منشوريا القديمة موكدين (شنيانغ Shenyang اليوم)، لكن أثبتت هذه المدينة – مدينة الجين الثانية بعد بكين – أنها منيعة إذا ما شُن هجوم مباشر، لذا قام جيبي Jebe بما قام به المغول في كثير من الأحيان، إذ تظاهر بالفرار، تاركاً الأمتعة تتناثر كما لو كان في حالة من الذعر، وعندما أكد كشافة الجين أن المغول كانوا على بعد مئة وخمسين كيلومتراً، شرع المواطنون المبتهجون في إقامة الاحتفالات بالعام الجديد لعام 1212 وذلك بجمع كسبهم السهل غير المتوقع، الأمر الذي أغراهم أكثر من أي وقت مضى للخروج من المدينة، فانطلق المغول: بعد رحلة لمدة أربع وعشرين ساعة متواصلة، ووجدوا المدينة مفتوحة والسكان يحتفلون، فكان وقع المفاجأة كاملاً، واقتلعوا موكدين مثل حبة برقوق ناضجة.

ومن ثم انسحب جنكيز الذي كان راضياً عن النصر باتجاه الشمال صوب الأراضي الحدودية بين المراعي العشبية وصحراء غوبي، وما زال النصر بالنسبة له ولقواته لا يعني أكثر من مجرد الحصول على الغنيمة والتدمير وتأكيد الهيمنة، وذلك لأن جنكيز كان في داخله لا يزال مجرد زعيم زمرة في حرب المغول، دون أدنى مصلحة في احتلال الأرض أو إدارتها، لكنّه كان قد أقحم نفسه – بدون وعي – في نوع جديد من الحرب – الاستيلاء على المدن –

الأمر الذي سيجعل منه قائداً من نوع جديد تماماً.

وفي خريف العام 1212 أُعيق الهجوم الجديد عندما أُصيب جنكيز بسهم، وأمر بالانسحاب من أجل الراحة والاسترخاء، وعاد في الصيف التالي، واستولى على المدن على طول الطريق مرة أخرى، وجدد الهجوم على فم الغُرير، بحصنيها الضخمين، وتتحدث تسجيلات المنطقة المحيطة التي تبعد خمسين كيلومتراً، أنها قد غُطيت «بالكلتروبات» - كرات حديدية ذات أربعة رؤوس مسمارية شائكة تهدف إلى وخز أقدام الخيول - لكن انطلق اثنان من أعظم جنرالات المغول، جيبي Jebe وسوبيداي، على طول قمم الجبال للاستيلاء على الحصن الجنوبي عند أقصى نهاية الممر، مجبرين الحصن الشمالي على الاستسلام، وأخيرا أصبح الطريق إلى بكين مفتوحاً.

لقد كانت الجين إمبراطورية تقع تحت ضغوط رهيبة، إذ لقي آلاف الجنود حتفهم في المعركة، وتعرض المدنيون للمجاعة، وذلك نتيجة لاستيلاء المغول على المواد الغذائية أينما ذهبوا، ولجأ المقيمون في الحصون إلى أكل لحوم البشر. كما غرقت بكين في اضطرابات سياسية عظيمة، وكان الجنرال تشي - تشونغ Zhi - zhong الطموح وغريب الأطوار، المُفضل لدى الإمبراطور، قد عُفي عنه بسبب الخسارة الكارثية للغاية في هوان - يرح - تسوي Huan - erh - tsui، فأظهر احتقاره للتهديد المغولي بتنظيم رحلات صيد خارج العاصمة بصحبة جيشه الخاص، وعندما اقترب المغول، أدرك أن مثل هذه الأناقة في العمل من المرجح أن تُثبت أنها انتحارية، لكنه لم تكن لديه نية في وضع نفسه في أيدي إمبراطوره غير الجدير بالثقة، فنظم انقلاباً، وقتل الخمسمئة جندي الذين كانوا يحرسون المدينة المُحرمة Forbidden City، وقتل الإمبراطور نفسه، ونصب دميته على العرش وأعلن نفسه وصياً على العرش، واحتفل بهذه الأعمال المثيرة للدهشة بإقامة مأدبة حضرتها أشهر بغايا العاصمة وأجملهن.

وبعد شهرين، عندما طوق المغول المدينة أرسل «شي شونغ Zhi - zhong» حوالي ستة آلاف رجل لملاقاتهم، مهدداً بقتل القائد «كاو تشي Kao - sh'I» إذا ما فشل في المهمة؛ التي نفذها بالفعل، ولتجنب المصير الذي عرف أنه ينتظره،تحول «كاو تشي» إلى سفاح، فعاد بسرعة قسوة مستبقاً الأخبار السيئة، ربما بمجموعة صغيرة من الرجال، وحاصر «تشي

شونغ» وقطع رأسه، وانطلق «كاو تشي» حاملاً الرأس المقطوعة إلى الإمبراطور واعترف له بما جرى، ويبدو أن الإمبراطور تنفس الصعداء لتخلصه من سيطرة الوصي الذي نصّب نفسه، أو ربما أنه كان مذعوراً للغاية من المشهد المرعب الذي جعله على الفور يعيين «كاو تشي» نائب قائد الإمبراطورية.

ولم يكن قد تبقى الكثير من تلك الإمبراطورية، ومع وجود الإمبراطور القابع في عاصمته، ومعظم المدن التي شل حركتها الخوف، أرسل جنكيز جميع قواته باستثناء قوة صغيرة لنهب البلاد والاستيلاء على المدن، وكان هذا الجيش لا يزال بدوياً، بدون معدات الحصار القوية، لكن جنكيز كان يأخذ الدروس والعبر، إذ استخدم المغول القسوة بينما استخدم آخرون المقاليع. كما جمعوا الأسرى بالآلاف، وأجبروهم على السير في مقدمة الهجوم، فلم يستطع المحاصَرون، الذين تعرفوا في كثير من الأحيان على أقربائهم في الأعداد الكبيرة الهائجة أسفل أسوارهم، تحمل مهاجمة أقربائهم، فاستسلموا، وهكذا انطلق جيش قوامه مئة ألف مقاتل، مقسمين إلى ثلاثة أرتال، باتجاه الجنوب والغرب إلى النهر الأصفر، وشرقاً إلى المحيط الهادي، ليسيطروا على العشرات من المدن عبر مستطيل بعرض سبعمئة وخمسين كيلومتراً وبعمق أربعمئة وخمسين كيلومتراً، وهي منطقة تعادل مساحة ألمانيا. كما كتب كاتب السير الصيني، الذي كتب سيرة الجنرال المغولي موخالي قائلاً: «أمكن رؤية الغبار والدخان في كل مكان شمال النهر الأصفر، وارتفع صوت الطبول إلى السماء»، وفي غضون شهرين، دُمر ما يُطلق عليه اليوم «شانشي» و«هيبي» و«شاندونغ».

لكن بكين مازالت صامدة، وذلك لأنها قبل قرن من الزمان كانت قد حُولت إلى معضلة صعبة للغاية، فخارج أسوارها كان هناك أربع قرى محصنة، لكل منها صوامع القمح ومستودعات الأسلحة الخاصة بها، وارتبط كل منها بالعاصمة عن طريق نفق، فتقهقر القادة العسكريون والسياسيون نحوها، بصحبة أربعة آلاف جندي لكل واحد منهم، وكان يحمي الأسوار نفسها ثلاثة خنادق مائية غُذيت من بحيرة «كونمينغ»، التي شكلت مستطيلاً تقريباً بطول أربعة كيلومترات - وبمحيط بلغ حوالي خمسة عشر كيلومتراً - وبعمق خمسة عشر متراً عند القاعدة تقريباً، وكانت المتاريس ذات الشرفات (التي تطلق منها النيران) ترتفع مسافة اثني عشر متراً فوق الأرض، وكان بها ثلاث عشرة بوابة وبرج حراسة كل خمسة عشر

متراً، أي أكثر من تسعمئة من هذه الأبراج في المجموع.

وبداخل هذه الدفاعات الهائلة، نشر السكان أسلحة قوية إلى حدٍ ما، وكان باستطاعة أقواس النُشابيات المزدوجة - والثلاثية - أن تطلق السهام ذات الثلاثة أمتار لمسافة كيلومتر واحد (هذا المدى المدهش تسجلته المصادر الفارسية خلال هجوم مغولي على أحدى قلاع الحشاشين في عام 1256)، وكان باستطاعة قوس حصار آخر يعود إلى عصور التانغ Tang إطلاق سهم من سهامه السبعة التي يبلغ مداها خمسمئة متر، وهي المسافة التي تمكنه من تدمير أي شيء يصيبه، حتى الأشياء الصلبة مثل المتاريس وأسوار المدينة، ويمكن للمدفعية أن تكون على هيئة مقاليع عُرفت باسم «المجانيق» رافعات محمولة على عربات يبلغ طولها حوالي عشرة أمتار، بصخور حُملت على أحد أطرافها وبحبال رُبطت في الطرف الآخر، وبجذب الحبل، كان باستطاعة فريق مكون من ستة رجال، يوجههم رئيس مدفعية من على الأسوار، قذف صخور تزن خمسة وعشرين كيلو جراماً لمسافة مئتين إلى ثلاثمئة متر، كما يمكن تعديل جميع هذه الأسلحة لإطلاق مجموعة متنوعة غريبة من الأدوات الحارقة، ومع تلك الأسلحة كانت بدايات البارود، إذ استُخدمت السهام المشتعلة التي تُطلق من أقواس الحصار وكرات النيران المقذوفة من المجانيق، بعضها صنع من الشمع ليحترق ببطء، وبعضها بأشواك في نصل السهام تلتصق بالخشب، وبعضها صنع من الخزف المُشبع بالحديد المنصهر، استخدم جميعها لإشعال النار في مرقاوات سلالم أسوار الحصون وأبراج المراقبة. كما عرف الصينيون أيضا كيفية تصفية النفط الخام لصنع النيفتالين، الذي يمكن قذفه في أوانٍ أو رميه في زجاجات، مثل مركب قنابل المولوتوف، وكان استخدام النفط المُقطر، المعروف في الغرب باسم «النار الإغريقية» وسيلة أخرى للدفاع، ووصف دليل التعليمات لعام 1044 قاذفة لهب بدائية لكنها فاعلة: أنبوب مليء بالنار الإغريقية يمكن إشعاله من حجرة إشعال مليئة بالبارود، ناثراً النفط المشتعل على من هم في الأسفل، وربما استخدم الصينيون أيضا «قنابل الدخان السامة» الممتلئة بالمواد الكيميائية والفضلات، فأبقت مثل هذه الوسائل المغول في وضع حرج اضطروا معه إلى الدفاع عن أنفسهم بضراوة، لكنها كانت بمنزلة درس مفيد لهم، فللاستيلاء على المدن وامتلاكها، ينبغي أن يكون هناك إلمام بهذه الأسلحة، بمساعدة الأسرى والمنشقين.

لقد دام حصار بكين لما يقرب من عام، إلى ربيع عام 1214، وكان شتاءً قاسياً بالنسبة للمغول، الذين يقال إنهم قد عانوا من وباء من نوع ما وأنهم لجؤوا إلى أكل لحوم البشر (علماً بأن الدليل على هذا جاء من مصادر جميعها غير مغولية، والكثير منهم كانت لديه مصلحة في تقديم المغول في أسوأ شكل ممكن) لكن بحلول الربيع كان من بداخل الأسوار أكثر سوءاً بكثير، فأبدى جنكيز رغبته في الانسحاب وأخبر الإمبراطور قائلاً: «لقد أضعفتكم السماء جداً، وإن كنت سأهاجمكم في عوزكم، ماذا ستظن السماء بي؟» وبالطبع، كان جنكيز بحاجة إلى إقناع ضباطه فقال للإمبراطور: «ماذا ستقدمون لتخمدوا مطالب ضباطي؟»، فكان ذلك عرض لا يمكن للإمبراطور رفضه، فوافق على تسليم أميرة وخمسمئة صبي وفتاة وثلاثة آلاف من الخيول وعشرة آلاف ثوب قماش من الحرير المدهش (التي - إن بسطت - ستمتد لمسافة تسعين كيلومتراً)، فوعد جنكيز أن يتراجع بسلام، وأمر قواته المحملة بالغنائم بالتراجع شمالاً إلى المراعي العشبية الرائعة.

لقد تلقن امبراطور الجين درساً قاسياً، ولا يمكن اعتبار بكين، المحاطة بالدمار، والمهددة من البدو التي أصبحت الآن معتادة على حرب الحصار، مدينة منيعة بعد اليوم، ولن يوفر السور العظيم Great Wall المتآكل والمليء بالفجوات، الذي يعد الآن مجرد رمز للانهيار أكثر من كونه قوة مضادة للبرابرة، حماية من أمثال جنكيز، ويمكن أن يكون هناك أمان فقط خارج الحدود الجغرافية الحقيقية بين المملكة الوسطى Middle Kingdom والبدو، فقرر نقل عاصمته، ليس بالعودة إلى أرض الجين في منشوريا، بل إلى ناحية الجنوب، إلى العاصمة الصينية القديمة كايفنغ، وفي نهاية المطاف، سيقطع الجين أنفسهم من جذورهم الجورشينية، ويعلنون أنفسهم صينيين بشكل نهائي.

لقد كان هذا مشروعاً ضخماً، إذ تشير المصادر إلى ثلاثة آلاف من الإبل محملة بالكنوز وثلاثين ألفاً من أحمال العربات من الوثائق والممتلكات الملكية، تمشي بتثاقل لمسافة ستمئة كيلومتر جنوباً على مدار شهرين، وجميعها محاطة بحراسة إلى ما وراء النهر الأصفر، لكنّه حقق العكس تماماً، إذ إن حوالي ألفين من الجيش الإمبراطوري كانوا من الخيتانيين من منشوريا، الذين رأوا أن الانتقال كان بمنزلة اعتراف بالضعف والهوان، وبالتأكيد لم تعجبهم فكرة الانتقال لمكان أبعد عن وطن أسلافهم إلى قلب الأراضي الصينية، فتمردوا على بعد

خمسين كيلومتراً خارج حدود بكين، ورجعوا بخيولهم، وأقاموا خيامهم وبعثوا برسالة خضوع لجنكيز.

أقام المغول خيامهم على بعد حوالي أربعمئة كيلومتر إلى الشمال من عاصمة الجين المنهوبة، عند بحيرة في المراعي العشبية لمنغوليا الداخلية، وشعر جنكيز بالذعر والدهشة عند سماعه نبأ رحيل الحكومة، ويسجل مصدر صيني كلمات جنكيز: «إن إمبراطور الجين لا يثق بوعدي! لقد استخدم السلام ليخدعني!» كما أذهل جنكيز أيضاً أنه قد مُنح فرصة رائعة، تخلى إمبراطور بكين عنها، وأصبحت القوات المتمردة جاهزة للقتال من اجل المغول، لكنه كان عليه أن يتصرف فوراً من غير تأجيل، فعاصمة جديدة في كايفنغ يمكن أن تكون قاعدة لانطلاق هجوم جيني في المستقبل، وسيكون من الصعوبة بمكان إخضاعهم، فعاد المغول إلى أسوار بكين بحلول شهر سبتمبر.

لم تكن هناك أية محاولة لشن هجوم، وعندما انقضى الخريف وجاء الشتاء، لم يبرح المغول مكانهم، وفي الربيع، أرسل الإمبراطور من كايفنغ رتلين محملين بالمساعدات، فسحقهما المغول، واستولوا على عشرة آلاف من أحمال العربات من المواد الغذائية، وسقط المزيد من مدن بكين النائية في أيدي المغول، وبدأت بكين تجوع، وكما يحدث في كثير من الأحيان في المدن المحاصرة، لجأ الأحياء إلى أكل لحوم الأموات، وتجادل القادة بعنف حول مسألة القتال حتى الموت أو الفرار، كما انتحر نائب كاو - تشي Kao - ch'i، القائد المدني للمدينة، وانسل قائد الجيش هارباً، حاملاً معه أقرباءه فقط (ووصل كافينغ، حيث أعدم هناك بتهمة الخيانة)، وفي شهر يونيو، فتح السكان المتبقون، بلا قيادة وبلا أمل، البوابات معلنين الاستسلام.

وفي هذه الأثناء، رحل جنكيز نفسه بشكل مفاجئ وسري إلى حافة المراعي العشبية نحو مئة وخمسين كيلومتراً شمالاً، وكان عندئذ في طريق عودته إلى نهر الخيرلين Kherlen، ومع عدم وجود تأثيره الكابح، انطلق المغول بوحشية، فنهبوا المدينة، وقتلوا الآلاف، واشتعلت النيران في أحد القصور، وظلت النيران في جزء من المدينة طيلة شهر كامل.

وبعد عام، جاء مبعوث من خصم جنكيز التالي، شاه «خوارزم»، لمعرفة ما إذا كان

صحيحاً فعلاً أن مثل هذه المدينة العظيمة والمحصنة بشكل جيد قد سقطت في أيدي مجرد بدو، فكان الدليل واضحاً للغاية، وأفاد أن عظام القتلى شكلت أكواماً كالجبال، وأن التربة كانت مشحمة بالدهن الآدمي، وأن بعضاً من حاشيته ماتوا جراء الأمراض التي انتشرت بفعل الجثث المتعفنة. حتى أنه روى كحقيقة قصة وحشية مفادها أن ستين ألف فتاة ألقين بأنفسهن من على الأسوار لتجنب الوقوع في أيدي المغول.

والآن أصبح المغول أسياد جميع أنحاء شمال شرق الصين؛ وقطعوا أوصال إمبراطورية الجين إلى نصفين، مخلفين موقعين غير ذي أهمية إلى الجنوب من النهر الأصفر ومنشوريا، وفي المناطق التي احتلت حديثاً، استسلمت القلة المتبقية من المدن التي كانت لا تزال صامدة، كما ثارت الحاميات التي بقيت على قيد الحياة ضد أسيادهم السابقين وأعلنوا ولاءهم وتأييدهم لأسيادهم الجدد. كما فر مليون شخص جنوباً بسبب الدمار والمجاعة إلى قلب أراضي الجين الجديدة حول كايفنغ، لكن جنكيز لم يشعر بالرضا بعد، وذلك لأن إمبراطور الجين الذي استقر حديثاً في كايفنغ رفض الخضوع بشكل نهائي، فكانت هناك حاجة لهجوم حاسم، في الحقيقة، هجوم مزدوج: اختزال كلي لقوة الجين في منشوريا، وهجوم نهائي على كايفنغ.

لقد كانت منشوريا عبارة عن منطقة ريفية منعزلة من المزارعين والرعاة والصيادين، التي كان قد أعلن فيها أقوى القادة الختانيين، ليو - كه Liu – ke، ولاءه لجنكيز في عام 1212 ونَصب نفسه قائداً عسكرياً لمعظم أرجاء منشوريا، وسيداً لستمئة ألف عائلة، ولأن بقية المنطقة كانت قد أرسلت الشبان منذ زمن طويل إلى جيش الجين، بالتالي سيكون النصر على منشوريا أمراً هيناً وسهلاً.

وقد ثبت ذلك فعلاً، عندما اجتاح «موخالي» وشقيق جنكيز «كاسار» جميع أنحاء منشوريا في الأعوام 1214 - 1216، وكان موخالي البالغ من العمر الخامسة والأربعين - الذي عُرف بقوة بنيانه الجسمي وبشعر لحيته المجعد وبالرماية الرائعة وبالقدرة على التخطيط الدقيق - بالفعل واحداً من أعظم قادة جنكيز، وذلك لأنه كان بصحبته على مدار خمسة عشر عاماً، وسيصبح الركيزة الأساسية في الصراع الطويل من أجل إخضاع شمال الصين، وكان من بين المهام الكبرى الاستيلاء على «لياو» Liao العاصمة القديمة الريفية «لبي تشينغ Pei

Ching» التي سقطت بسهولة وبطريقة غريبة جداً، إذ نَصَبَ ضابطٌ مغولي يُدعى «يسين» Yesen، الذي كان يتحدث كلاً من اللغة التركية المحلية واللغة الصينية، كميناً لقائد جيني جديد وصل لتولي السيطرة على المدينة، واستولى على وثائقه وأقنع الحراس بأنه كان فعلاً القائد القادم الجديد، ثم بعد ذلك، كمسؤول المدينة الجديد، وأمر جميع الحراس بالابتعاد عن الأسوار، فدخل موخالي المدينة بدون مقاومة تقريباً، واستولى على ممتلكات المئة ألف أسرة في المدينة، بما فيها موادهم الغذائية وأسلحتهم، وبعد ذلك، انهارت المقاومة في المناطق الأخرى، ولمعاقبة بلدتين كان لديهما الجرأة للصمود، أمر موخالي بقتل جميع السكان، باستثناء النجارين وعمال البناء، والأمر المدهش أنه أبقى على الممثلين.لابد أن المغول كانوا تواقين لفترة وجيزة من الراحة.

كما انطلقت قوة صغيرة قدوماً لمسافة ثلاثمئة كيلومتر أخيرة صوب نهاية شبه جزيرة «لياودونغ Liaodong» ووصلت إلى المحيط الهادي بحلول خريف العام 1216، تاركةً رتلاً من الجنود لملاحقة عدة آلاف من المتمردين الخيتانيين عبر نهر يالو Yalu في كوريا Korea، وبعد قتل الكثير وأسر آخرين، رحل مبعوث مغولي متهور إلى البلاط الكوري في كايسونج، الميناء النهري الثري والعالمي الذي يقع اليوم على الحدود بين شمال وجنوب كوريا، ودون أن يُظهر آداب تشريفات البلاط، حمل السيف والقوس داخل الحجرة الملكية ليُبشر الملك بخبر إنقاذ كوريا من الخيتانيين القتلة. ماذا بوسع الملك أن يقدم على سبيل التعويض؟ ففي مثل هذه الحالات، كان ينبغي عليه أن يقدّم الكثير جداً، بما في ذلك مئة ألف ورقة من أكبر أوراق كوريا، ويبدو أن جنكيز رغب في إبقاء موظفيه المتعلمين القراءة والكتابة حديثاً مزودين بالقرطاسية بشكل جيد.

وهكذا كانت نهاية ما يُعرف اليوم بجنوب منشوريا، إذ أضيفت منطقة تعادل نصف مساحة فرنسا (أو تعادل مساحة دولة وايومنغ) إلى الأملاك المغولية، مع استعداد إذا ما رغب الإمبراطور المستاء بالتوجه نحو الشرق.

وعندما وصلت جنكيز أنباء هذه الفتوحات، طلب وحصل على ثلاثين ألفاً من القوات من تابعه الجديد، شي شيا، وأرسل قوة إلى أوردوس، جنوباً على طول النهر الأصفر، في مسعى للاستيلاء على كايفنغ من المؤخرة، وكان هذا عملاً آخر ضخماً، حملة عسكرية لمدة عام، تقدمت خلالها جيوش المغول والتانغوتيين Tangut، الذين بلغ عددهم ستين ألف جندي، مسافة ألف كيلومتر في مواجهة قوات متفوقة بشكل ضخم، عبر منطقة تتخذ موقفاً عدائياً بحصون تصل إلى ضواحي كايفنغ البعيدة، وخاضوا غمار ستة معارك كبرى، معظمها في الشتاء، قبل أن يتراجعوا في نهاية المطاف عندما أثبتت دفاعات الجين أنها منيعة جداً بالنسبة لهم، وأثناء الجزء الأكثر قسوة في هذه الحملة العسكرية، على طول النهر الأصفر، اجتاز الجيش حوالي ثمانمئة كيلومتر في غضون ستين يوماً، ولك أن تقارن هذا بسرعة جيش ميكانيكي في حالة حركة، ففي أوائل أغسطس لعام 1944، بعد يوم الإنزال في يونيو، تقدم الأمريكيون تحت قيادة الجنرال «باتون Patton» لمسافة ثلاثين كيلومتراً يومياً على مدار ثلاثة أيام فقط، بدون مقاومة تقريباً، على طرق بريطانيا Brittany الجنوبية الطويلة والمستقيمة والمعبدة. وفي خريف العام 1216 اجتاز الفرسان المغول ثلاثة عشر كيلومتراً في اليوم الواحد، عبر البلاد، وهم يخوضون غمار أربعة معارك كبرى وكانوا في خطر دائم من هجوم آخر، وذلك على مدار شهرين كاملين.

وليس من المستغرب، أن يتوسل الجين السلام، إذ يقتبس أحد المصادر الصينية رد جنكيز عندما طرح سؤالاً على قادته: «لقد استولينا على جميع الغزلان والحيوانات الضارية الأخرى، ولم يتبقى سوى أرنب، لم لا ندعه يذهب؟» لقد كان هذا بمنزلة تحدٍ لمدى إصرار قادته، الذين تحدث أحدهم قائلاً: «بالتأكيد لن يكون هناك سلامٌ إلا إذا لم يَعُد الإمبراطور إمبراطوراً، بل مجرد تابعٍ ملكي للخان؟» وكان هذا هو الرد الذي أراده جنكيز، فالحرب ستستمر، واستمرت فعلاً، وانتهت بتحقيق النصر الكامل على الجين بعد عشرين عاماً تقريباً.

وكان النصر سيتحقق بسرعة أكبر لو لم تستحوذ الأحداث التي وقعت بعيداً في الغرب على اهتمام جنكيز، فاتحةً فصلاً آخَر في تاريخ الفتوحات المغولية.

الفصل الثامن

محرقة المسلمين

ارتبطت قصة الفتوحات المغولية بالفعل بثقافتين مميزتين، نقلتنا من الأراضي العشبية المنغولية إلى ثروة وأمن «شي شيا» وشمال الصين المتحضرة، وحتى الآن، كانت النتائج دموية، لكن ليست مسبوقة كلياً، والقصة الآن على وشك إشراك ثقافة ثالثة، وهي الثقافة الإسلامية، التي لها تأثير إنساني وثقافي جديد تماماً في تاريخ العالم، ولم تسيطر أية ثقافة على مثل هذه القوة التدميرية من قبل مثلما فعل المغول؛ ولم تعانِ أية ثقافة مثلما كان العالم الإسلامي على وشك أن يعاني، ولا بدّ أن الموت في الصين كان يقدر بعشرات الألوف، لكن الأحداث الآن على وشك أن تكشف مضاعفة ذلك الرقم عشرة أضعاف على الأقل.

وتوحي الأرقام - المبالغ فيها بشكل شبه مؤكد من الكُتاب المسلمين، ولكنها مع ذلك مرتفعة بشكل مروع، بإطلاق العنان لنوع من الكراهية العرقية أو الدينية الرهيبة، أو التطبيق المقيت للأيديولوجية، لكنها لم تكن كذلك، فلم تكن هناك أية طموحات صليبية لتغليب الحقائق الكبرى للشامانية على المعتقدات الأخرى؛ ولم يكن هناك أي عزم مبني على أفضلية العرق لإبادة الخصوم المحتقرين أو كسب «المجال الحيوي» في وسط آسيا، إذ كان الاعتبار الطاغي الوحيد هو الغزو، لأنه مهما كان السبب غامضاً، فذلك كان القدر الذي فُرض على جنكيز من السماء Heaven. لقد كان التدمير مسألة استراتيجيّة، وأصبح هذا الأمر شخصياً في بعض الأحيان، وذلك في حالة إذا ما سبب قائد أو مدينة إساءة معينة، ولكنها في الغالب بقيت أمراً غير شخصي على نحو مبيت، فهي وليدة إحساس متصلب بالتفوق، ليس على أية جماعة بعينها، بل على الجميع. كما أن العرقية انتقائية، وهذا ما لم يكنه المغول، فالجميع يدينون لهم بالاحترام (وهو توجه مشترك من جانب قليل من الشعوب الأخرى في ذروة الإمبراطورية، مثل البريطانيين في حوالي عام 1900 والصينيين في القرن الثامن عشر والمحافظين الجدد الأمريكيين في عام 2003)، فقد انهارت المدن والأقاليم والممالك والإمبراطوريات ليس إلا بهدف ضمان تحقيق النصر التالي، التي كان فيها الموت والتدمير عرضياً، وأياً كان النصر المحقق فهو أمر جيد، وأي تأخر هو أمر سيء، والأمر كان بتلك البساطة.

وكانت أول حلقة في سلسلة الأحداث قد صيغت قبل سنوات عندما فر سليل أسرة «النايمان» الحاكمة، «كوشلغ»، غرباً على رأس قواته الناجية القليلة، وانتهى به المطاف في عالم آخر واسع اختفى عن الأنظار الحديثة، مثل شي شيا، بفعل البعد في الزمان والمكان،

وبالرغم من كونها غامضة ونائية، لعب «كوشلغ» وقاعدته الجديدة دوراً حيوياً في هذه القصة، وذلك لأنهم لفتوا انتباه جنكيز غرباً إلى العالم الإسلامي، والذي أصبح بدوره نقطة انطلاق لمزيد من الفتوحات الغربية.

ولفهم ما حدث، علينا أن ندير عقارب الساعة إلى الوراء قرناً من الزمان، فعندما طُرد شعب «خيطان»، الذين كانوا يحكمون مثل سلالة اللياو Liao، من «عرش التنين Dragon Throne» على يد سلالة «جورشن» في عام 1124، حشد أحد أفراد الأسرة الحاكمة «لخيطان» يدعى «يه - لو تا - شيه»، مائتين من أتباعه وفر غرباً لمسافة ألفين وخمسمئة كيلومتر، خلف صحاري شينجيانغ وفوق جبال «تيان» Tien، بعيداً عن أيدي حكام شمال الصين الجدد، وهنا، وبعد عقد من الزمان، في أحد الأقاليم الفوضوية من أسيا الداخلية الذي سكنه مزيج من القبائل التركية والشعوب الإسلامية، أسس «تا - شيه Ta - Shih» مملكة من العشب والجبل والصحراء تعادل مساحة أوروبا الغربية، وكانت تتمركز حول ما يُعرف اليوم باسم «قيرغيزستان»، لكنها اشتملت أيضاً على مناطق تُعرف الآن بغرب الصين وجنوب «كازاخستان Kazakhstan» و«طاجيكستان Tajikistan». لقد كان «تا - شيه» هو الشخص الذي حاز على لقب الخان «العالمي» Gur Khan، وسمى مملكته «خارا خيتاي Khara Khitai» «الكاثاي السود» على اسم قبيلته «خيطان»، وبمجرد إقامتها، شرع في ابتزاز الجزية من جيرانه المسلمين (الذين سنتحدث عنهم بعد فترة وجيزة).

وعندما وصل «كوشلغ» بعد مرور سبعين عاماً، رحب به الخان العالمي، وأمن مكانته بزواجه من ابنة الخان، ومن ثم، وعلى حد تعبير مؤرخ أواخر القرن الثالث عشر الفارسي جوفايني، «قفز للأمام مثل سهم منطلق من قوس قوي» ليستولي على السلطة. إلا إن خيانته أكسبته القليل من الأصدقاء. بل إنه جعل الأمور تزداد سوءاً، فبناءً على طلب زوجته الجديدة، تحول إلى شخص بوذي وأصبح معادياً للإسلام بشكل عنيف، وطلب من القادة المسلمين أن يتخلوا عن دينهم، وهكذا نفر منه رعاياه الجدد، وعندما شتمه إمام خوتان Khotan في جنوب شينجيانغ - قائلاً: «فلتضع النفاية في فمك، يا عدو الدين!» - صلبه «كوشلغ» على أبواب مدرسته madrasa الخاصة، ومن الواضح، من وجهة نظر جنكيز، أن هذا المضطرب المتعصب سيتمنى يوماً ما أن يستخدم قاعدته لينتقم لوالده وجده، ومن أجل أمن مستقبل

الأمة المغولية، فإنه يتعين القضاء عليه.

وبعد سنوات من الحملات العسكرية القاسية في الصين، لم يبدُ هذا الأمر بالمهمة الشاقة للغاية، وفي عام 1218 عهد جنكيز بهذا الأمر لقائده جيبي، فلن يقتضي الأمر من جنوده البالغ عددهم عشرين ألفاً فرض حصارات طويلة الأمد، وربما مثلت جغرافية المكان التحدي الأكبر، مسيرة ألفين وستمئة كيلومتر، أولاً عبر الأراضي العشبية لمنغوليا، ثم فوق جبال ألتاي البالغ ارتفاعها ثلاثة آلاف متر، وبعد ذلك خلال المرتفعات الوعرة لتين شان، حيث تصل القمم إلى ما يزيد على خمسة آلاف متر، ولابد أن الجيش، الذي تبع أحد مسارات طريق الحرير، قد التف حول «ايسيك كول»، ثاني أكبر بحيرة ألبية في العالم، التي لها بيئتها الخاصة، حيث يجتمع العمق والنشاط الحراري والملوحة معاً لتجعل من البحيرة مستودعاً حرارياً، مانحةً الوادي مناخاً معتدلاً بما فيه الكفاية لزراعة كروم العنب ولزراعة أشجار التوت لتربية ديدان القز، وعلى بعد حوالي ثمانين كيلومتراً من الطرف الغربي «لايسيك كول» كانت تقع عاصمة «كوشلغ» بلاساغون، التي اختفت الآن عن الوجود إلا من أثرها المتبقي الوحيد، جدعة يبلغ طولها خمسة وعشرين متراً من مئذنة أنشئت في القرن الحادي عشر تُعرف باسم برج بورانا Burana Tower.

ومن الناحية العسكرية، تحقق النصر بسهولة، كما توقع جنكيز، فعند اقتراب المغول، فر «كوشلغ» جنوباً لمسافة أربعمئة كيلومتر فوق جبال «تين شان» الشاهقة، ربما عن طريق ممر «توروغارت» Torugart Pass البالغ ثلاثة آلاف وسبعمئة وخمسين متراً، وصولاً إلى سوق طريق الحرير في «كاشغر»، على الحافة الغربية لصحراء «تاكالا ماكان»، وعندما شرع «جيبي» في المطاردة، بحظر النهب والسلب، الأمر الذي يعني أن سكان «كاشغار اليوغوريين Kashgar's Uighur» كانوا سعداء لرؤيته، ففر «كوشلغ» مرةً أخرى، إلى الجانب الآخر للصحراء باتجاه جبال «البامير Pamirs» التي تنتصب عالياً لأكثر من مئة كيلومتر إلى الجنوب الغربي من «كاشغار» وربما بهدف اتباع الوادي الضيق شديد الانحدار لنهر «غيز Ghez» الذي يؤدي إلى ما يُعرف اليوم باسم «باكستان» Pakistan، وكما يروي «جوفايني»، فقد دخل «كوشلغ» وأتباعه، «المطاردون ككلبٍ مسعور» من المغول، في وادٍ مسدود الطريق، وعندما التقى المغول ببعض الصيادين المحليين، أخبروهم بمن يلاحقون، وعند ذلك،

أمسك الصيادون، الذين رأوا في ذلك فرصة للشهرة والمال «بكوشلغ» وسلموه، وبعد أن دفع المغول المال للصيادين، قطعوا رأس «كوشلغ»وعرضوها بتباهٍ، لتأكيد فتحهم، في أرجاء مدن مقاطعاتهم الجديدة، وبذلك انتهى صراع جنكيز مع ثلاثة أجيال من الحكام النايمانيين.

لقد أتاح النصر الذي حققه المغول على «كوشلغ» الفرصة للاتصال بجيرانه المسلمين، وهي مملكة تمتد عبر كثير مما يُسمى اليوم بأوزباكستان وتركمانستان، وتتداخل مع إيران وأفغانستان، وكانت تُعرف باسم خوارزم (كما في إحدى التراجم الحرفية الشائعة؛ وهناك ستة تراجم أخرى) نسبةً لقلب مقاطعتها، وأصبحت هذه المنطقة صعبة المراس الواقعة على المناطق الحدودية الشرقية للإسلام، التي كانت على مدار قرنين من الزمان جزءًا من الإمبراطورية «السلجوقية Seljuk»، نواة لإمبراطورية جديدة قبل نصف قرن من الزمان، مما أدى إلى وجود حالة مستمرة من الحرب بين المشاركين، بما في ذلك خانات «خارا خيتاي Khara Khitai»الذين سيطروا في لحظة ما على غالبية خوارزم واستمروا في ابتزاز الجزية منها، ومع نهاية القرن الثاني عشر، توسعت «خوارزم» أيضاً في المقاطعات المجاورة «لخراسان» و«ترانسكسانيا»، وبالتالي سيطرت على أسواق طريق الحرير – سمرقند وبخارى وأورغينش وخوجاند ومرو ونيسابور – وكذلك النهر الحدودي التقليدي، الآموداريا Amudar'ya، الذي كان يُعرف في العصور القديمة باسم أوكسوس Oxus، ووصلت المنطقة المعروفة باسم «ترانسكسانيا» أو بلاد ما وراء النهر Transoxiana - الأراضي التي «تمر عبر نهر الأوكسوس Oxus» - إلى ما يقرب من خمسمئة كيلومتر فوق صحراء «كيزيل كوم» وصولاً إلى الضفاف القاحلة لنهر «السيرداريا» Syrdar'ya (جاكسارتيزJaxartes القديمة). إن الصراع من أجل السيطرة على هذه المنطقة، المزودة بشكل جيد بالمياه الذائبة من جبال «البامير Pamirs» والغنية بالأراضي الزراعية والمراعي الخضراء والمعادن والسلع التجارية، خلف القليل من التسجيلات؛ لذا فإن المؤرخين يستنتجون ما يمكن استنتاجه من خلال القطع النقدية. لقد كان عصراً مضطرباً وقاسياً، فسمرقند وحدها صمدت أمام سبعين هجوماً شنته قوات «خارا خيتاي» بمعدل هجمة واحدة في السنة تقريباً، وتحت هذا الضغط، عقد في عام 1210 شاه خوارزم – محمد – تحالفاً قصير الأمد مع كوشلغ، ثم واصل تقدمه، وكانت النتيجة أنه عندما استولى كوشلغ على السلطة في خارا خيتاي، أصبح الشاه محمد

جاهزاً للبدء ببناء إمبراطوريته، وبالتالي بدء سلسة من الأحداث التي أدت إلى المرحلة التالية من رحلة جنكيز صوب السيطرة الممتدة عبر القارة.

إن مفتاح ما حدث بعد ذلك يكمن في شخصية شاه خوارزم، الشاه محمد، فلا يملك أحد كلمة طيبة ليذكرها حول هذا المخلوق المروع، الذي جلب لشعبه ولدينه مصيبتهم العظمى. كما تتحمل أمه أيضاً، «تيركين» التي كانت تُدير قصرها الخاص، قدراً كبيراً من اللوم، وربما أنه حاول، بمبادرةٍ منها، لكونه تركياً متقلباً ومتزعزعاً، فرض إرادته بالقوة على شعبه الإيراني بشكل أساسي، فقاد أحد السلاطين العثمانيين، ثورة في سمرقند، وبدأ ثورته قصيرة الأمد بقتل جميع الخوارزميين في المدينة، وذبحهم ببساطة، وعلّق جثثهم على شكل قطع صغيرة في الأسواق، وعندما استولى الشاه محمد على المدينة مرةً أخرى مات عشرة آلاف شخص، بمن فيهم السلطان العثماني؛ لذا عندما جعل منها الشاه عاصمة له، أقل ما يقال حول ذلك إن بها جماهير ساخطة، وبالإضافة إلى ذلك، كان قد دخل في صراع مع الرئيس الأعلى للإسلام، الخليفة في بغداد، لذا لم تكن أمامه أية فرصة لتقديم نفسه بوصفه المدافع عن الإسلام، وأخيراً، لقد كان فاجراً سيء السمعة، وكما يصوره جوفايني أنه «يسعى باستمرار إلى إشباع رغباته بصحبة الغانيات الشقراوات وبالشرب المتواصل للنبيذ الأرجواني» وإذا ما كنت سمحاً، فربما تقول إن محاولته لإحلال السلام في هذه المنطقة التي مزقتها الصراعات كانت ضرباً من المستحيل، ومن ناحية أخرى، يمكنك أن تسميه منبوذاً ومجرداً من المبادئ الأخلاقية ومنعزلاً ومهيمناً عليه من أمّه وسكيراً مهووساً بالجنس؛ منتظراً وقوع كارثة.

لم يكن لدى جنكيز أية مصلحة في توريط نفسه في هذه الفوضى، قائلاً إن كل ما أراده إقامة صِلات تجارية، وكان الشاه محمد - مع ذلك - قد سمع تقارير سلب ونهب بكين، وذلك من السفير الذي أورد ذكر تلك الجبال من العظام وتلك البحيرات من الدهن الآدمي. هل كان من المرجح فعلاً أن يتحول أمير حرب دموي مثل جنكيز فجأة إلى حالة السلام؟ وكما حدث فعلاً، ربما كان الجواب نعم إلى حد بعيد، وذلك لأن شمال الصين لم تكن قد فتحت بعد، ولن تفتح على مدار عشرين سنة أخرى، لكن رد الشاه محمد كان مثالاً للحماقة، الصفات الخمس التي تتمثل في الضعف والسذاجة والجهل والخوف من الأجانب وكرههم والغطرسة، قائلاً: إنهم جميعاً مثل بعضهم البعض، فهؤلاء الوثنيون: «بالنسبة لي ليس هناك

فرق بينك وبين الخان العالمي Gur Khan وكوشلغ... دعهم هناك ثم لتكن بعد ذلك الحرب التي فيها تُكسر السيوف وتُبعثر الرماح!».

ومازال جنكيز مصراً على أن هدفه كان التجارة، وذلك لأن الحرب هنا ستعني توسعاً آخر لإمبراطورية المغول وحملة عسكرية أخرى وحدوداً أوسع أيضاً للدفاع عنها وربما، من يدري، الهزيمة، وإضافة إلى ذلك، كان هناك فرصة جيدة للتجارة، فقد وصل ثلاثة تجار من بوخارى إلى منغوليا وكانوا حريصين على استغلال الطريق التي فُتحت فجأة مع التقدم المغولي في شمال الصين، وعندما عادوا، أمر جنكيز أن يرافقهم وفد تجاري كبير تكون من مئة تاجر (كما يذكر الكتاب السرّي The Secret History) أو ربما وصل إلى أربعمئة وخمسين (كما يذكر آخرون) وكانوا جميعاً من المسلمين باستثناء قائد مغولي، وذلك ليشرعوا في الأعمال التجارية في الأراضي الإسلامية، فسافروا لعدة أسابيع عبر الأراضي العشبية لمسافة ألفين وسبعمئة كيلومتر، وحمل هذا الوفد رسالة أخرى من جنكيز إلى الشاه، تقول إنهم جاؤوا «من أجل الحصول على سلع هذه المنطقة الرائعة؛ وإنه من الآن فصاعداً ربما يقطع تحسين العلاقات الطريق على ظهور الأفكار الشريرة».

وربما قيل شيء من هذا القبيل، فهناك روايات مختلفة لما قاله جنكيز فعلاً، وردت جميعها من الطرف الإسلامي، ولا توحي أيٌّ منها بعدائية معلنة، وطبقاً لأحد المصادر فقد طالب جنكيز بالمساواة، أو أنه أطلق على الشاه محمد لقب «أفضل أبنائي المحبوبين» الأمر الذي من شأنه أن يحدث انطباعاً لأي قائد على أنه نوع من الرعاية، وليس إعلاناً للحرب، ومع ذلك، اعتبره الشاه محمد على هذا النحو.

وفي عام 1217 وصل الوفد إلى أوترار، الواقعة على نهر السيرداريا، واليوم تُسمى أوتيرار Otyrar، في أقصى غرب كازاخستان الحديثة، ولم يتبقَّ منها سوى القليل من الروابي المعشوبة والأنقاض المبعثرة، وفي أوائل القرن الثالث عشر كانت عبارة عن مدينة حدودية مزدهرة تغطي مساحة عشرين هكتاراً، يحكمها الشرير الآخر في هذه القصة، الذي ورد اسمه في المصادر برتبته أو بمنصبه، إينالشوك («اللورد الصغير Little Lord») أو قدير خان Qadir Khan («الخان القوي» Mighty Khan). لقد كان الحاكم العاشر، إينالشوك، كما يعرف عادةً، أحد أقرباء أم الشاه محمد المتسلطة، ولم يخاطر بالتصرف من

تلقاء نفسه، وكان هو الشخص الذي، بإيماءة رأس وغمزة عين من سيدته العليا، قد فتح أبواب الجحيم، في غضب مزدوج: أوّلاً، عندما اتهم التجار بالتجسس وألقى القبض عليهم جميعاً، فشعر جنكيز بالصدمة والاستنكار جراء هذه الإهانة، لكنه رفض أن يثير هذا الأمر غضبه، فقدّم غصن زيتون أخيراً لتسوية الخلاف، مرسلاً ثلاثة رُسل مانحين الشاه محمد فرصة لينكر معرفته التامة بفعلة حاكمه وأن يسلمه لينال عقابه، لكن الشاه محمد، الأحمق، اختار على الفور إلحاق الأذى الفوري وغير المُغتَفر وذلك بقتله لأحد الرُسل على الأقل، وربما قتل الثلاثة معاً.

ويذكر جوفايني أنه بعد ذلك - ودون أي تفكير أو تبصر - أصدر الشاه الأوامر على الفور بتنفيذ حكم الإعدام بحق فريق المسلمين [تجار جنكيز في أوترار]،» كما أمر بمصادرة بضائعهم الثمينة، فقتل «اللورد الصغير» إينالشوك الوفد بأكمله، وتذَكر أن هؤلاء جميعاً كانوا إخوة في الدين، باستثناء القائد المغولي، فلم ينل هذا التصرف إعجاب شعبه، وفي الواقع، كان الشاه محمد قد خسر الحرب لفقدانه الأمل والقدرة على اتخاذ القرار السليم قبل أن يشتبك في المعركة الأولى، وكما هو الحال دوماً، يلجأ جوفايني، لشيء أشبه بالشعر ليرثي تصرفاً متهوراً، «أوقع الكآبة ودمر عالماً بأسره...، ومع كل قطرة دم من دمائهم تدفق نهر أوكسوس، كما بيّنت الأحداث.

إنّ قتل رسول واحد كان كافياً لإشعال فتيل الحرب، ناهيك عن التجار المئة، وناهيك عن التجار الأربعمئة، أو مهما كان عددهم، فعندما وصل الخبر لجنكيز، يصفه جوفاينيي أنه اشتاط غضباً، ودفعت نار الغضب الماء من عينيه ولم تكن هذه النار لتنطفئ إلا بالدم. «فذهب وحده إلى قمة تلة» - وأعتقد انه لو فعل ذلك فمن المفترض أن تكون قمة بورخان خالدون - «وعرى رأسه وتحول بوجهه نحو الأرض وصلى لمدة ثلاثة أيام وليال، قائلاً: «أنا لست من خلق هذه المعضلة؛ امنحني القوة للانتقام».

وهكذا بدأت مرحلة جديدة من مهمة جنكيز، وحتى هذه اللحظة كانت التقاليد هي السائدة، إذ مثّل غزو الصين جزءاً من موروث حاكم مغولي؛ ولهذا السبب، كانت الوحدة القبلية تُعد متطلباً أساسياً؛ وهذا بدوره برر مطاردة زعيم عشيرة منافسة، حتى وإن فر إلى دولة بعيدة، في هذه الحالة خارا خيتاي؛ وهذا - كما سيفهم أي استراتيجي محنّك - كان يعني

أيضاً التعامل مع شي شيا. لكن لم يكن هناك أي زعيم بدوي، لا يزال متشبثاً بموطنه، على استعداد للمجازفة في مهمة إخضاع إمبراطورية بعيدة جداً عن موطنه، ناهيك عن أنها كانت القوة المهيمنة في آسيا الداخلية. لكن من وجهة نظر جنكيز لم يكن هناك خيار آخر، إذ إنه لم يتعرض للإهانة والتحدي المباشر فحسب، بل إنه إن لم يواجه التهديد، سيصبح من شبه المؤكد ضحية لشاه طموح متلهف لتوسيع رقعة سلطته إلى أراضي الصين الغنية، وكما يذكر كتاب التاريخ السرّي، لم يكن لدى جنكيز أية شكوك حول ما يجب القيام به قائلاً: «دعونا ننطلق صوب الأمة الإسلامية، للانتقام منهم!».

ويبدو أن قرار جنكيز قد أثار نقاشاً بين عائلته بشأن موضوع الخلافة، وكانت هذه المعضلة قد طرحتها إحدى زوجاته، يسوي Yisui، اللواتي كان منهن العديد الآن، وذكر كتّاب التاريخ السرّي كلمات وردت على لسان «يسوي»: عندما ينهار جسدك،

مثل شجرة طاعنة في السن وذابلة،

لمن ستورث شعبك؟

فأدرك جنكيز المسألة، وذلك لأنه بالعرف سيكون وريثه هو أكبر فرد في العشيرة، طالما يستطيع تأكيد الاستحقاق، وبالرغم من أنه ليس بالضرورة أن يكون الشخص الأكثر أهلية للحكم، وربما لا يكون أيًا من أبناء الزعيم، ومع ذلك، فإن الوريث كان لديه شيء أكثر بكثير من عشيرة ليديره الآن، كما كان الأبناء جميعاً قادة من ذوي الخبرة في حد ذاتهم، وبالتالي ستتغير القواعد، فالابن ينبغي أن يحكم، لكن أي منهم؟ وعلى الفور عرض جنكيز المشكلة على أبنائه الأربعة، على الملأ، وربما آلت المسؤولية بشكل طبيعي إلى جوتشي، الابن البكر؛ لكن من المحتمل أن يكون جوتشي ابناً لرجل ميركيتي وذلك عندما وقعت أمّه في الأسر، فأشغل الاقتراح نقاشاً ساخناً، ذُكر بالتفصيل في كتاب التاريخ السرّي.

فانفجر جغتاي، الابن الثاني، غضباً: «هل تقول إن علينا أن يحكمنا هذا النذل الميركيتي؟

فأمسك جوتشي أخيه من ياقته: «لم يقل أبونا الخان مطلقاً إنني أختلف عنكم. كيف لك أن تقول ذلك؟ هل تعتقد أنك أذكى مني بكثير؟ أنت فقط أكثر عنفاً!».

ففصل اثنان من القادة - بورتشو وموخالي - عن بعضهما البعض بينما هدأهما رجل

شاماني، يدعى «خوخو - جوز»، مذكراً إياهم بالمخاطر التي تغلب عليها جنكيز لقمع الفوضى وتأسيس الأمة، عندما لم يكن لدى الخان شيء يشربه سوى لعابه، ناضل حتى بلل عرق جبينه قدميه، وماذا بشأن أمّكم؟ لقد جاءت من أجلكم، وسحبتكم من رقابكم لجعلكم على قدم المساواة مع الآخرين.

فتقبل «جغتاي» التوبيخ، وقال إنه موافق وإنه سيعمل مع «جوتشي» واقترح العمل مع الابن الثالث، أوقطاي، كحل وسط قائلاً: «أوقطاي شخص رحيم؛ فلندعه يحصل على اللقب»، فنزع جنكيز فتيل التوتر إلى حد كبير، إذ رأى أنه ليس هناك داعٍ لأن يكون ولداه الأكبران شريكين فقال: «أُمّنا الأرض واسعة وأنهارها كثيرة، وسينال كلٌ واحد حصّته الخاصة من الحوزة الملكية». أما تولوي، الابن الصغر، فربما كان خاناً جيداً، إذ أظهر مهارته العسكرية في الصين، لكن زوجته كانت أميرة كيرياتية وكانت مسيحية نسطورية ذات طموح وذكاء هائلين، وربما لم يعد ورثة جنكيز يحترمون تقاليدهم تحت تأثيرها. (لقد كان جنكيز محقاً في الشعور بالقلق من ناحيتها، فالأميرة، سورغغتاني، ستظهر باعتبارها واحدة من أكثر النساء نفوذاً في عصرها؛ وأبناؤها هم من سيُقتسمون الحكم الملكي في نهاية المطاف.)

ماذا كان على أوقطاي أن يقول؟ فقد علم أنه لم يكن الخيار الواضح، فصحيح أنه موهوب وشهم، لكن كلمة «رحيم» فُسرت بأنه «ليس متحجر القلب بما فيه الكفاية» وبالإضافة لذلك، فقد كان سكيراً مسرفاً. كما عكَس رده المتواضع المُتلعثم قوته وضعفه على حدٍ سواء. حسناً، سيبذل قصارى جهده، على الرغم من أنه لم يستطع ضمان ذريته. عموماً، إن ما ورد في كتاب التاريخ السرّي لم يكن بالكلام الكثير، لكنه كان كافياً. لقد اختير الوريث، ولم تزل العشيرة والأمة موحدة.

وبعد الانتهاء من هذه المسألة وضعت الأسس السياسية للتوسع غرباً.

كما سعى جنكيز، الذي تولى شخصياً مسؤولية حملة احتاجت تخطيطاً دقيقاً، إلى الحصول على كل مساعدة ممكنة.

لقد كانت المساعدة تتمثل، على وجه الخصوص، بأمر لم يسبق لأي قائد مغولي أن تعامل معه من قبل: إدارة الأراضي التي غزة من قبل، ولابد أنه استوقف جنكيز بالفعل أن

الغزو نفسه مرة بعد مرة كان درباً من الحماقة، كما كان الأمر في الصين، حيث حوصرت بعض المدن وستولي عليها ثلاث مرات، وكان لدى القليل من أمراء المغول فكرة أولية عن الإدارة، حيث أنهم تعلموا الكتابة اليوغورية التي اعتُمدت قبل بضع سنوات، ولم يكن هناك أي روتين حكومي حتى الآن، وحتماً سيحتاج إلى واحد من هذا القبيل، إذا ما أراد عدم تكرار نمط الحملات العسكرية في الصين.

وذكر أحد الأسرى الذين أُسروا في بكين قبل ثلاثة أعوام، أنه من المحتمل في تلك اللحظة أن يكون جنكيز، أو شخص ما قد وضع الروتين الحكومي وذلك عندما أجرى شقيقه بالتبني شيجاي مسحاً للثروة الملكية وللأسرى البارزين، إذ برز شخص من بين الموظفين الجين - بشكل فعلي: وهو شاب طويل القامة (يبلغ طوله ثماني «تشوchu» التي من المفترض أن تساوي حوالي ست أقدام وثماني بوصات) يبلغ من العمر الخامسة والعشرين، بلحية تصل إلى خصره وبصوت رائع رنان. لقد كان من سلالة خيطان، أحد الشعوب التي حكمت ذات مرة شمال شرق الصين وشردهم الجين، مثلهم مثل سلالة اللياو، وكان يدعى تشو - تساي Chu - tsai، وكانت عائلته، يه - لو Yeh - lu، واحدة من أكثر العائلات بروزاً في إمبراطورية اللياو، ويعود نسبها الذي يرجع إلى مائتي عام إلى مؤسس سلالة اللياو، وفي الواقع، لقد كان أبوه مُتبَنى، لكن تشو - تساي كان يعدّ نفسه فرداً من عائلة يه - لو Yeh lu - بشكل كلي، وكان أبوه يعمل مع الجين، أولاً كمترجم - إذ كان يتحدث اللغة الصينية الخيطانية والجورشنية - ثم كمسؤول ملكي كبير، فأصبح ثرياً وشخصية ذات نفوذ. لقد كان تشو - تساي، الذي ولد بمزايا كثيرة، تلميذاً لامعاً وشاعراً وإدارياً مع ميل نحو الأدب البوذي، وعندما غزا جنكيز البلاد، كان تشو - تساي Chu - tsai يشغل منصب نائب المحافظ المحلي، وعندما استدعي إلى العاصمة، خدم طوال فترة الحصار. لقد كان نهب بكين تجربة مريعة له، فعقد العزم على فهمها بطريقته الخاصة، وذلك من خلال دراسة البوذية، فسعى في طلب إرشاد حكيم بوذي، ودخل في عزلة لمدة ثلاثة أعوام، وخرج بإيمانه القوي بأن الحقيقة والفضيلة يمكن أن تخدم في أفضل حالاتها من خلال الجمع بين مذاهب الحكماء الثلاثة Three Sages، كونفوشيوس Confucius وبوذا Buddha ولاو تسو - Lao tzu، مؤسس الطاوية Taoism، ووجد نفسه الآن يستدعي لمقابلة جنكيز، الذي كان بحاجة

لشخص ما لتأسيس وإدارة بيروقراطية الإمبراطورية. لقد كان ذلك شرفاً عظيماً؛ وكان من المتوقع من تشو - تساي إظهار التواضع الواجب في مقابل تحريره من أسياده السابقين.

وفي نقاش أصبح مشهوراً فيما بعد، خاطبه جنكيز قائلاً: «لقد كان اللياو والجين أعداء لعدة أجيال. لقد انتقمت لكم».

فرد تشو تساي برباطة جأش مدهشة: «لقد خدم أبي وجدي الجين بكل احترام، فكيف لي، باعتباري أحد الرعايا وأحد الأبناء، أن أكون غير مخلص في أعماق قلبي باعتبار ملكي وأبي أعداء؟».

فأُعجب جنكيز بهذا الرد، ومنح الوظيفة لهذا الشاب الذكي الذي تمتع برباطة جأش، ورأى «طويل اللحية» كما كان جنكيز يسميه، أن الغزو كان دليلاً على أن تفويض السماء قد وقع على جنكيز، ومن الآن فصاعداً، سيلعب تشو - تساي دوراً مهماً في تشكيل شخصية الخان وإمبراطوريته، وذلك من خلال التأثير في فضول سيّده بشأن الأمور الروحانية، ومن شبه المؤكد أن تشو - تساي الذي صاغ نداءً طويلاً للحكيم الصيني تشانج تشون Ch'ang Ch'un في عام 1219، مقدماً جنكيز بوصفه محارباً متقشفاً، قد مال إلى حياة التقشف وناضل من أجل فرض الفضيلة.

لقد سئمت السماء من مشاعر الغرور والترف التي وصلت لذروتها في الصين. أما أنا، فأعيش في المناطق البريّة في الشمال، إذ لا يمكن ظهور الشهوة، وأعود إلى البساطة، وأتخذ سبيلي نحو الطهارة مرة أخرى وأراعي الاعتدال، وفيما يتعلق بالملابس التي أرتديها أو اللحوم التي أتناولها، فلدي نفس الخرق ونفس الطعام الذي لدى راعي البقر أو سائس الخيل في الإسطبلات، وأتعاطف مع عامة الناس كما أتعاطف مع طفل صغير، وأتعامل مع الجنود كإخوة لي، وشهدت مئة معركة وكنت دوماً أمتطي جوادي بنفسي في الطليعة، وفي غضون سبع سنوات حققت عملاً رائعاً، وفي جميع أرجاء الكون يخضع الجميع لقانون واحد.

هل هي العودة إلى البساطة البدوية؟ ليس بعد تماماً، وذلك لأن الوحدة والفضيلة لم يتحققا في شتى أنحاء العالم، ولم تتحقق إرادة السماء بعد.

فأرسل جنكيز في طلب مدد من القوات من أتباعه في الأراضي الحدودية لمنغوليا وفي

الأراضي اليوغورية وفي شمال الصين وفي منشوريا وأخيراً في شي شيا، فقد فتح شي شيا وأخذ الجزية وكان ملكها البوذي، بورخان Burkhan، المُقدَس، قد وعد بتقديم المساعدة عند الضرورة، إذ كانت ولاية تابعة بشكل جيد ومناسب، وستستجيب بكل تأكيد بما يليق بها كولاية تابعة، فأرسل جنكيز طلبه إلى الملك قائلاً: هل تتذكر وعدك بأن تكون ذراعي الأيمن؟ حسناً، أنا بحاجة لأن أصفي حساباتي مع المحمديين، لذا «كن ذراعي الأيمن وامتط فرسك معي!».

لكن ما تلقاه جنكيز، كان صفعة في الوجه كالتي تلقاها من شاه خوارزم،محمد، لكن الصفعة لم تأتِ مباشرة من حاكم شي شيا، بل جاءت من قائده العسكري أو» قامبو – قائد محارب حكيم» الذي كان يدعى آشا Asha، القوة التي تكمن خلف العرش، فعندما وضحت رسل جنكيز المطلوب والسبب في ذلك، بدا لآشا أن ذلك الأمر قدم له فرصة رائعة لإعادة استقلال شي شيا، فالمغول كان عليهم إحراز النصر النهائي في شمال الصين، والآن يواجهون حرباً أخرى على بعد مسافة تزيد على ألفي كيلومتر نحو الغرب، وبكل تأكيد لا توجد قوّة على وجه الأرض تستطيع خوض حرب على مثل هاتين الجبهتين المتباعدتين على نحو واسع، فاستبق آشا مَلكه برفض مليء بالازدراء قائلاً: «إذا كان جنكيز بهذا الضعف، فلِم يزعج نفسه دائماً ليصبح خاناً؟».

وعندما وصل الرد، لم يكن باستطاعة جنكيز فعل شيء للتعبير عن غضبه كما تمنى تماماً، فمهمته الأولى كانت الزحف باتجاه محمد، لكن فيما بعد «إذا كانت السماء الخالدة تحميني» إذن سيكون هناك تصفية حساب بكل تأكيد.

وفي عام 1219 قاد جنكيز جيشه متّجهاً نحو الغرب، ساحقاً القبائل الصغيرة على طول الطريق، إذ اختلف هذا الجيش عن ذاك الذي اجتاح شي شيا وشمال الصين عبر صحراء غوبي ؛ كما كان مختلفاً عن الجيش الذي قاده جيبي في مطاردة كوشلغ، وبشيء من قبيل مئة ألف إلى مئة وخمسين ألف جندي، مع كل واحد منهم اثنان أو ثلاثة من الخيول، احتفظ هذا الجيش بالحركة السريعة ومرونة ركوب الخيل العالية لجيوش بدوية تأسست منذ زمن طويل، وبالقدرة على إرسال وحدات يمكن أن تجتاز مسافة مئة كيلومتر في اليوم الواحد وتعبر الصحاري وتجتاز الأنهار سباحةً وتظهر فجأة وتختفي كما لو كان ذلك بفعل السحر،

لكن يوجد الآن نواة صلبة تُعدّ شيئاً جديداً تماماً، فحصار بكين والمدن الصينية الأخرى زوّد المغول بالأفضل في مجال تكنولوجيا وخبرة الحصار، إذ رُبطت الأكبُش في الخيول والإبل وسُحبت في عربات أو على عجلاتها الخاصة وكذلك سلالم تسلق الأسوار ودروع متحركة ذات أربع عجلات ومجانيق بأنواعها الكثيرة المختلفة من القنابل الحارقة وقنابل الدخان وأنابيب قذف اللهب وأقواس الحصار المقوسة المزدوجة والثلاثية، التي باستطاعتها إطلاق سهام مثل السواري لتثقب فتحات في أسوار الطوب الأحمر من على بعد كيلومتر، وإنه لمن المناسب أن نفترض أنهم قد نقلوا هذه الأسلحة وطواقمها من الصين، فبعد أربعين سنة، أي في عام 1258، رافقت طواقم أقواس الحصار الصينية التي بلغت ألفاً الجيوش المغولية في هجومها على بغداد، ولم يكن لهذا الجمع الهائل من الفرسان البدو وأسلحة الحصار مثيلاً من قبل.

بل كان هناك ما هو أكثر من ذلك بكثير؛ فالجيوش المسافرة كانت تقتات دوماً على الأرض التي يسافرون عبرها، وذلك من خلال السرقة والنهب، وعلاوة على كل هذا، كان ذلك هو الجزاء الوحيد، للضباط وللجنود على حدٍ سواء، لكن الجيوش السابقة، سواء أكانت بدوية أو حضريّة، كانت محدودة الخبرة. لقد كان البدو المسافرون متخصصين بارزين، ولم يكن بإمكانهم فعل الكثير بضحاياهم، باستثناء إرسال الحرفيين إلى المقر الرئيس وقتل الرجال واغتصاب النساء واستعباد الأطفال، وكان يتوجب الإشراف على الأسرى والعبيد لتحويلهم إلى أفراد منتجين، لأنهم كانوا سيقوضون، بشكل جماعي، المرونة العالية التي جعلت من الفتح شيئاً ممكناً، ولهذا السبب، وبشكل تقليدي، جاء البدو وظهروا على الساحة وفتحوا البلاد ثم غادروا، وفي المقابل، كانت الجيوش التي كان قوامها يتكون من عمال الأراضي والمدن، في جوهرها، بمنزلة آلات لاجتياح الأراضي وفرض السيادة على عمال الأراضي والمدن الأخرى، ولذلك كانت لديهم مصلحة في تجنب التدمير الكامل لما سيكون لهم عما قريب. لقد كان لدى هذا الجيش المغولي أجندة جديدة، مُنحت لهم في الصين من خلال الجمع الفتاك بين البداوة والتكنولوجيا الحربية، وكان للسجناء الآن استخدام ثلاثي الأبعاد، كقوة عمالية من العبيد الحرفيين المتخصصين وكجنود في وحدات الجيش غير البدوية وكعلف للمدافع، وهي وسيلة بغيضة على وجه الخصوص يُقاد فيها المدنيون في مقدمة

الجيش ليملؤوا الخنادق المائية ويباغتون قوة الدفاعات الحصينة، وربما يحدون من فعاليتهم وذلك من خلال إجبار المدافعين على التراجع للحفاظ على لحومهم ودمائهم من الحرق.

وبالتالي فإن القوات التي تدفقت غرباً في عام 1219 كانت قوة ماحقة، يوجهها الفرسان، وكانت، بما لديها من عربات وآلات الحصار، تُعد وحشاً مرهقاً تطلب بناء الطرق والجسور، وبالذات عبر جبال ألتاي وتين شان، لكنها كانت أكثر من مجرد وحش مرهق، لا يعتمد على نفسه فحسب، بل في تنام مستمر، فلم تفقد وحدات سلاح الفرسان أياً من قدرتها على المناورة، وكانت الوحدات غَير البدوية، مع كل مدينة يستولي عليها، تزداد قوة في الثروة والأعداد والسلاح والنفوذ، وإذا ما أحرزت نجاحاً أولياً، ستتدفق على نحو متفجر، وسيعوقها فقط جغرافية المكان والمناخ وأجندة قائدها الأعلى.

ولم يتخيل أحد كل ما حدث في ذلك الوقت، ولم يتوقع أحد العواقب، إذ لم يكن لدى القائد الأعلى أجندة طويلة المدى، باستثناء تقويم الأخطاء ودفع المال للقوات وضمان الأمن، ولم يستطع القائد الأعلى إدراك أنه كان مقدماً على شيء لم يكن له حدود متوقعة؛ لأنه أياً كان الحاكم، خصوصاً إذا كان منبوذاً، سيقول دوماً إن لديه ما يكفي من الثراء والأمن.

وعندما وصل الجيش إلى حدود خوارزم واجه قوة ربما كانت أعظم بكثير من قوته، لكن الشاه لم يكن محبوباً، ولم يكن بإمكانه المخاطرة بإنشاء هيكل قيادة موحدة تحت إمرة قائد ما ربما ينقلب ضده ببساطة شديدة، لذا عندما حاصر المغول مدينة أوترار، كانت قوات الشاه متناثرة بين المدن الرئيسة. لقد علم جنكيز بكل هذا من الضباط المسلمين الساخطين الذين قطعوا مسافات طويلة للوصول إلى المغول، فاستغل جنكيز هذه الانقسامات إلى أقصى حد ممكن، وشجع تجاره المسلمين ليطمئنوا السكان المحليين، وعرض على المدن والحصون فرصة الاستسلام دون قتال ودون أي نهب من قبل قوات المغول.

كما كانت مراكز المقاومة مسألة أخرى، فمدينة أوترار، التي أثار حاكمها هذه الحرب الدامية، حظيت باهتمام خاص، وذلك في هجوم عُرف في أسيا الوسطى باسم «نكبة أوترار Otrar Catastrophe». لقد أراد جنكيز إلقاء القبض على حاكم المدينة حياً، وذلك لضمان تنفيذ إعدام يشهده العامة بشكل مرض، ودام الحصار - كما تشير الديوراما المثيرة في

متحف مدينة ألماتي التاريخي Almaty's Historical Museum - لمدة خمسة شهور، حتى حاول قائد كبير الفرار عبر بوابة جانبية، فعجل هذا التصرف من نهايته - إذ أسره على الفور المغول وأُعدم لخيانته - كما عجل من نهاية المدينة على حد سواء، فدخل المغول عنوةً عبر البوابة نفسها التي استخدمها القائد الفار، فتحصن طريدتهم، «اللورد الصغير» في الحرم الداخلي مع عدة مئات من المدافعين، وبما أن المغول كان لديهم أوامر بإحضار إينالشوك حياً، تبع ذلك هجوم بطيء وممنهج استمر لمدة شهر آخر، فنظم المدافعون، الذين أدركوا أنهم قد حُكم عليهم بالهلاك، هجمات انتحارية ضد حملة الرماح والرماة المغول، خمسين هجمة في وقت واحد، حتى حُوصر أخيراً إينالشوك وبعض حراسه الناجين في الطوابق العلوية، حيث اقتلعوا الطوب من الجدران لرميه على مهاجميهم، وانتهى الحصار بسحب إينالشوك بالسلاسل لإعدامه، الذي يقول أحد المصادر عنه إنه نفذ بصب الفضة المنصهرة في عينيه وأذنيه، وأعتقد أنها نهاية غير مرجحة ومكلفة من دون داع، فربما تم الإعدام بطريقة أكثر فاعلية بكثير. أما المدينة نفسها فقد سويت بالأرض تحت أكوام من الأنقاض كشف عنها علماء الآثار حديثاً فقط، تقريباً بعد ثمانمئة عام.

وفي هذه الأثناء، كان جنكيز قد قسم جيشه، فأرسل جوتشي شمالاً لينطلق بسرعة وبقوة كبيرة في حركة تطويقية عسكرية ضخمة من شأنها في نهاية المطاف فصل جميع المناطق الشمالية في خوارزم، وخلال شهر يناير لعام 1220 كان جنكيز قد أرسل قوة ثانية للسيطرة على مدينة أوترار، في حين قاد بنفسه ذراع الكماشة الآخر عبر صحراء كيزيل كوم - مجرد أربعمئة وخمسين كيلومتراً من الرمال وحزم الأعشاب المتجمدة - باتجاه بوخارى، وعبر نهر السيرداريا المتجمد، ووصل إلى مدينة صغيرة، تدعى زرنوق Zarnuk، حيث وضح سياسته: قاوم ومت، أو استسلم وعش، فلم يستغرق الأمر من سكان مدينة زرنوق وقتاً طويلاً ليختاروا مسار الحكمة والبقاء على قيد الحياة، فدُمرت القلعة وجُندت فرقة عسكرية من الشباب للانضمام لصفوف القوات وسُمح للآخرين بالعودة إلى بيوتهم، وترددت مدينة ثانية - تدعى نوراتا، المعروفة آنذاك باسم نور Nur - لبرهة قصيرة من الوقت قبل أن تتخذ القرار نفسه.

وعندما اقترب جيش المغول من بوخارى في شهر فبراير أو مارس لعام 1220، شنّت

حامية مكونة من عشرين ألف جندي هجوماً وقائياً، وانتشرت على ضفاف نهر الآموداريا. تقهقرت القوات المتبقية سريعاً نحو القلعة، نحو الحِمى Ark، بينما فتح سكان المدينة، الذين لم يكونوا على استعداد لأن يُقتلوا من أجل شاه كانوا يحتقرونه، البوابات، فانطلق جنكيز ممتطياً فرسه، خلال الأزقة المتراصة مع المنازل الخشبية للعامة من السكان، ماراً بقصور القرميد المصنوعة من الطوب الأحمر، إلى قلب المدينة، شاهرستان، وإلى بنائها الأكبر، وهكذا وجد جنكيز نفسه لأول مرة في حياته في مدينة ثرية في مجالات لم يكن يعرفها من قبل.

لقد كانت الحضارة التي ترقد الآن عند أقدام جنكيز عبارة عن مجد مماثل لنظيره في الصين، على الرغم من كون هذا المجد وافداً جديداً بالمقارنة مع الصين، إذ أُنشئت قبل أكثر من خمسمئة عام، عندما اجتاح العرب، الذين استمدوا إلهامهم من مؤسس الإسلام، النبي محمد، بلاد فارس وسوريا والعراق ومصر وشمال أفريقيا وآسيا الوسطى وحتى أسبانيا، حتى سيطر العرب في وقت قصير على الأراضي الممتدة من جبال البرانس إلى غرب الصين.

ولفترة من الزمن، كانت هذه الإمبراطورية قد توحدت من خلال دينها الجديد وكتاب الإسلام المقدس القرآن، الذي - تماماً كما فعل كتاب الملك جيمس المقدس للإنجليز - نقى وحفز لغةً في لحظة حاسمة في تطورها، ويشير المسلمون إلى روعته كدليل على وجود الله، ونشأ من هذا الأساس مصدر عقائدي آخر، وهي السنة، أفعال وأقوال النبي وخلفائه، وأثر مصدري العقيدة هذين معاً في جميع جوانب الإسلام - الحكم والقانون والمعرفة والسلوك والإبداع - فالإسلام لا يفرق بين الدين والدولة، وبين المقدس والمدنس؛ فكلها يجب أن تكون مقدسة، وكان الإسلام «يؤاخي بين المؤمنين» بدرجة أكثر قوة من منافسه الأضعف المسيحية.

إن حكم إمبراطورية كان مختلفاً جداً عن بنائها، إذ استحوذت الأقاليم والطوائف على الثروة والسلطة لأنفسها، فادعى الشيعة Shittes الحق في الحكم على أساس أنهم «شيعة علي، حزب علي، صهر النبي محمد. كما ظهر على هامش الإمبراطورية، لاسيما في العراق، فصيل آخر، مطالباً بأحقية عم النبي محمد، العباس، وفي ظل حكم العباسيين، انتقل مركز ثقل الإمبراطورية شرقاً إلى بغداد، وبحلول عام 1000، كان العالم الإسلامي، الذي أنشأه

العرب كنهر إمبراطوري واحد، قد انقسم بشكل مثلث يحتوي على خمسة تيارات فكرية كبيرة وعشرات التيارات الصغيرة، ومع ذلك، كانت تحمل نوعاً من الوحدة، فعلماء المسلمين بدءاً من هندو كوش Hindu Kush وحتى جنوب أسبانيا جميعاً عبدوا الإله نفسه وأجلوا النبي نفسه وتشاركوا في اللغة العربية بوصفها لغة مشتركة وورثوا العباءة الفكرية الغنية نفسها بشكل مدهش، وتقاسم جميع المسلمين قوة الإسلام الاقتصادية، من خلال التجارة التي ربطت شمال أفريقيا وأوروبا وروسيا والشرق الأوسط والهند والصين، وطالما أن الإسلام قد قبِل استرقاق غير المسلمين، فقد استفاد الجميع من تجارة العبيد المربحة، سواء أكان العبيد أفارقةً أو أتراكاً أو هنوداً أو سلافيين. كما شقت القطع النقدية العربية طريقها شمالاً وصولاً إلى فنلندا، وكتب التجار المسلمون شيكاتٍ قُبلت ودُفعت عند الاستحقاق من مصارف في مدن كبرى بدءاً من قرطبة وحتى سمرقند، وكان لدى أحد التجار مستودع على نهر الفولغا Volga وآخر بالقرب من بوخارى وثالث في ولاية غوجارات Gujarat، في الهند.

كما كان للإسلام في العصور الوسطى، الذي استمد وقوده من الثروة المذهلة، نهم شديد للتعلم والبحث العلمي الرائع الملهم، فحلت الأوراق محل ورق البردي وازدهرت المكتبات وزينت المكتبات والمخطوطات منازل الأغنياء، وبما إن اللغة العربية كانت لغة الوحي الإلهي، فقد بُجلت الكلمة المكتوبة وأصبح الخط شكلاً من أشكال الفن احتل منزلة أسمى من الرسم، ولم يكن الإسلام عالماً من الأصولية المنغلقة على نفسها، فقد كان الإسلام الذي أكد تفوقه في العصور الوسطى، مبتكراً ومحباً للاستطلاع والتعلم وكان متسامحاً بشكل مدهش، إذ نزحم العرب، الذين التفتوا إلى الإغريق من أجل فهم أسس العلوم والفلسفة، أدب الإغريق جملة بالكامل. كما شكلت أيضاً لغات ومذاهب أخرى كثيرة، مثل الفارسية والسنسكريتية Sanskrit والسريانية Syriac والمسيحية واليهودية والزرادشتية Zoroastrianism، جزءاً من هذا المزيج الغني.

كما ازدهرت الفنون والعلوم، إذرعت الطبقة المثقفة المتحضرة الشعراء، وكرم المؤرخون الإنجازات الإسلامية، وبنى المهندسون المعماريون المساجد ذات القباب، سابقةً بذلك قباب عصر النهضة الإيطالي بعدة قرون. كما قدمت القصور المزخرفة بالجص واللوحات الجدارية الجصية نموذجاً منمقاً نافس على مدار تاريخ الإسلام، وقدمت الأرقام العربية،

المستمدة من الأرقام الهندية، أداة أقوى بكثير من أي نظام رياضي سابق، الأمر الذي اكتشفته أوروبا في وقت لاحق، وعلى الرغم من أن العلماء العرب ظلوا مقتنعين بأن الذهب يمكن تصنيعه بتحويل المعادن، إلا إن بحثهم الدقيق عن «حجر الفيلسوف» الذي من شأنه أن يؤدي إلى حدوث ذلك كان قد خلق جسراً بين «الخيمياء» والكيمياء الحديثة. كما كتب الرحالة المسلمون تقارير عن الصين وأوروبا وجزء كبير من أفريقيا، ومازالت اللغات الأوربية، التي تم أثريت بالتراجم من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية، تحتوي على الكثير من الإشادة بالتفوق العلمي العربي، فكلمة زيرو zero (مستمدة من كلمة صفر sifer، أي «فارغ») وكلمة الجيبرا algebra (من كلمة الجبر al - jebr، أي «عمليات التكامل»)؛ وكذلك أسماء النجوم مثل منكب الجوزاء Betelgeuse (من كلمة بيت الجوزاء bayt al - jawza، أي «منزل التوائم») والنسر الطائر Altair («الطيار the Flier»)؛ والسمت Zenith، ونظير السمت Nadir، وزاوية السمت azimuth.

وكانت بغداد واحدة من أكبر مراكز الثقافة الإسلامية الكبرى، فقد كانت تمتد على جانبي نهر دجلة، وصُممت لتبدو كحلقة متكاملة، متراساً ثلاثياً يحرسه ثلاثمئة وستون برجاً، وسرعان ما أصبحت المدينة الدائرية، كما كانت تُعرف سابقاً، مركز جذب للتجار والعلماء والفنانين من مناطق بعيدة جداً مثل أسبانيا وشمال الهند، ونمت لتصبح واحدة من أكبر المدن الكبرى في العالم، مضاهيةً القسطنطينية - التي بلغت حوالي نفس مساحة باريس في نهاية القرن التاسع عشر - بثروة معادلة. كما أوت أرصفة مرافئ المدينة السفن التي جلبت الخزف من الصين والمسك والعاج من شرق أفريقيا والتوابل واللؤلؤ من جزر الملايا والعبيد الروس والشمع والفراء.

وعلى مدار أربعة قرون، كانت مدن الواحات الفارسية لسمرقند وبوخارى ومرو وجورغانج Gurganj، النقاط الحدودية الشرقية للإسلام، تعد نظائر جديدة لبغداد، وبالالتفات لسلفهم الفارسي في القرن الثامن، «سامان خودات» Saman Khudat، بنى السامانيون Samanids هويتهم الإسلامية الفارسية الخاصة، وانتشروا شرقاً إلى أفغانستان، مبتعدين عن العرب نحو الغرب وعن تحدٍ جديد قادم من الشمال، البدو الأتراك، الذين كانوا يتطلعون إلى ثروة المجتمع الإسلامي.

إن هذه المدن الأربع، التي تقع جميعها على الأنهار التي تجري من جبال البامير إلى صحاري كيزيل كوم، التي مُدت بأسباب الحياة عن طريق أنظمة قنوات معقدة وقنوات تحت الأرض (قناة qanat) التي أُحيطت بأسوار لحمايتها من الأعداء ومن زحف الرمال، كانت على مدار زمن طويل الحصون الغنية لأقاليم خراسان وترانسكسانيا، وكانت عبارة عن أسواق تجارية تربط الشرق بالغرب، إذ كان البطيخ المُعبأ في حاويات محفوظة بالثلج يُرسل إلى بغداد، وكان ورق سمرقند، المُصنع بتقنيات مستوردة من الصين، مطلوباً في شتى أنحاء العالم الإسلامي، وسيصبح عما قريب رائجاً في شمال جبال البرانس Pyrenees. كما طافت القوافل التي كانت بحجم جيوش صغيرة - تألفت إحداها من خمسة آلاف رجل وثلاثة آلاف من الخيول والإبل - جيئةً وذهاباً إلى أوروبا الشرقية، متاجِرةً بأثواب الحرير وأواني النحاس وحلي لتزين الفراء إضافة إلى العنبر وجلود الغنم، وكانت الأواني الفخارية والتوابل تأتي من الصين لتبادل بالخيول والزجاج.

وبدأت بوخارى، البالغ عدد سكانها ثلاثمئة ألف نسمة، بمنافسة بغداد نفسها تقريباً. خلق علماؤها وشعراؤها، الذين كتبوا باللغتين العربية والفارسية، منها «قبة الإسلام في الشرق» كما في وصف شائع، وكان لدى مكتبتها الملكية، التي احتوت على خمسة وأربعين ألف مجلد، مجموعة من الغرف، خُصصت كل واحدة منها لموضوع مختلف، وعلى حد قول أحد المتخصصين في جمع الأعمال الأدبية في القرن الحادي عشر، الثعلبي، إنها كانت «بؤرة العظمة ومزار الإمبراطورية ومكان تجمع المفكرين الأكثر تفرداً في ذلك العصر»، وربما كان الفيلسوف والطبيب ابن سينا 1037 - 980) Ibn Sina) واحداً من أعظم هؤلاء المفكرين، المعروف في أوروبا بالترجمة الاسبانية لاسمه، أفيسينا Avicenna، الذي ولد بمكان ليس ببعيد عن المكان الذي كان جنكيز يقف عليه الآن، وقد أصدر ما يزيد على مائتي كتاب، وأشهرها موسوعته الطبية، قوانين الطب Canons of Medicine، التي أصبحت عندما تُرجمت إلى اللاتينية كتاب أوروبا الطبي البارز وظلت على تلك الحال لمدة خمسة قرون.

لكن كل هذا خضع للتهديد لفترة وجيزة من الوقت، وذلك عندما وصل الأتراك، كجزء من انجراف القبائل التركية نحو الغرب الأمر الذي استمر لعدة قرون، لكن الحضارة الإسلامية صمدت وذلك لأنه عندما استقر الأتراك تحولوا إلى مسلمين سنة واكتسبوا أسماء

وألقاباً إسلامية، وبالتالي عندما دخل الأتراك بوخارى في عام 999، دخلوها بسلام، وطُرد السامانيون على وجه السرعة إلى منفى مخزٍ، واختفى تقريباً ضريح إسماعيل سماني Ismail Samani، الذي يعد جوهرة من معمار أوائل القرن العاشر، تحت الرمال المتحركة (وربما كان هذا هو السبب وراء عدم ملاحظة جنكيز له، والسبب وراء إعجاب الزوار اليوم بمباني الطوب المزركشة، والمعقدة كالنسيج المحبوك.) وفي أوائل القرن الثالث عشر، ورَثت خوارزم، تحت قيادتها غير الملهمة، هذه التقاليد الدينية والفنية والفكرية، التي لم يعرف جنكيز عنها سوى القليل؛ كما ورَثت ثروتها، التي سمع بها جنكيز كثيراً.

***

ويذكر جوفاني ما حدث بعد ذلك بتفصيل حي. لقد كان جنكيز محقاً بشأن واحدة من أمجاد العمارة الإسلامية في العصور الوسطى، وهي مئذنة كاليان Kalyan Minaret، التي بناها تركي طموح، يدعى أرسلان خان Arslan Khan، قبل ثمانين عاماً. لقد كانت، ومازالت، معماراً مثيراً للعجب والدهشة، ليس لمجرد ارتفاعها فقط - الذي يبلغ خمسين متراً تقريباً - لكن لكونها أيضاً واحدة من المباني القليلة التي نجت من زلازل المنطقة الكثيرة، وكما يُخبر المرشدون السائحين اليوم، أن مهندس معمار أرسلان Arslan، الذي يدعى ماستر باكو Master Bako، عرف من خلال تجاربه ما ينبغي القيام به، إذ كان أساس المئذنة على شكل هرم مقلوب بعمق عشرة أمتار، وصُنع من المِلاط والجير والجص وحليب النياق وبياض البيض. ثم ترك هذه المادة اللدنة الغريبة المُجربة بشكل جيد لمدة ثلاثة أعوام لتتصلب، ثم أضاف طبقة من عيدان القصب؛ وأقام على جذر الأسنان هذا، بسطحه غير اللامع وغير القابل للكسر، بناءً ظل الأطول في آسيا الوسطى على مدار أكثر من سبعمئة عام، ومازالت أطواقها الاثنا عشر المصنوعة من الطوب الأحمر تحمل اسم باكو Bako المكتوب بخط يدوي ملتف كالدوامة، ويطلق عليه المحليون اسم برج الموت tower of Death، وذلك لأن المجرمين كانوا يُلقون من الأعلى، هكذا قال مرشدي سيرجي Sergei عندما تسلقنا بعناء المئة والخمس درجات القاتمة والمتربة.

وبجانب البرج كان هناك مدخل كبير، يؤدي إلى فناء بطول مئة وعشرين متراً، ويحيط به صف أعمدة متعدد القباب، وسأل جنكيز مترجمه في إحدى روايات الأحداث عما إذا كان

هذا هو القصر أم لا، فأُخبر أنه لم يكن القصر، وإنما هو بيت من بيوت الله، مسجد الجمعة، فترجل عن فرسه، ودخل الفناء وتسلق بضع درجات من درجات المنبر و...

أو ربما كان أكثر تعقيداً من ذلك، ووفقاً للخادم الذي كان يجلس بجوار حجيرة السجاد الرث الصغيرة داخل المدخل، فإن ما حدث فعلاً هو أن جنكيز نظر إلى مئذنة كاليا،

«فحثث الخادم، بنظرة معرفة إلى سيرجي، متسائلاً: «هل هذا هو برج الموت؟».

فرفع الخادم أحد أذرعه في إيماءة رفض مستغرباً «برج الموت! لم يكن أبداً برجاً للموت ! إنه مكان مقدس. لقد وقعت جميع الإعدامات في منطقة «ريجيستان». لكن هناك قصة حول أرملة عُرض عليها الزواج من أحد جيرانها، وعندما رفضت عرضه، قائلة إنها ستكون وفية لذكرى زوجها الراحل، اتهمها بالزنا، وأُدينت وتوجب رميها من على البرج، لكن ملابسها عملت كمظلة ونجت من الموت وهكذا أثبت ذلك براءتها من التهمة الموجهة إليها. كلا، كلا، إنه ليس برج الموت».

وواصل الخادم حديثه قائلاً إن جنكيز، على أية حال، حدّق بنظره في المئذنة، وبينما كان يرفع عينيه إلى الأعلى سقطت قبعته، فانحنى لالتقاطها، ثم قال: «إن هذه المئذنة هي أول شيء انحنيت له من قبل».

لقد جمعت قصة الخادم هذه بين السرعة والتفصيل، ويشير جنكيز إلى المنبر ويسأل: هل هذا هو العرش؟ فيُخبَر أنه ليس بعرش، وإنما هو للخطابة والوعظ؛ وأن العرش موجود في القلعة، وهكذا يذهب جنكيز إلى القلعة، ويأمر الحراس بالاستسلام، ويقتل بعضهم عندما لم يستسلموا، ويعود إلى المسجد، ويقتل مائتين من الشيوخ، ويرمي برؤوسهم أسفل بئر الماء في المسجد - ولا تزال هذه البئر هناك حتى يومنا هذا، أسفل منصة ثُمانية الأضلاع - وطبقا لهذه الرواية، يعتلي جنكيز المنبر في هذه اللحظة فقط...

ليتفوه بالكلمات الشائنة التي يتفق عليها كلٌّ من جوفاني وسيرجي والخادم:

«إن الريف فارغ من العلف؛ فلنملأ بطون خيولنا».

وبينما أمسك الأئمة المذعورون ووجهاء آخرون بخيول المغول، أفرغت القوات مخازن

الحبوب وأحضرت العلف إلى المسجد وقذفت مصاحف القرآن من صناديقها الخشبية لجعلها أحواضاً لغذاء خيولهم، وبعد مرور ساعتين، بدأت الوحدات العسكرية بالعودة إلى معسكراتها خارج الأسوار للاستعداد للهجوم على القلعة، تاركين النصوص المقدسة لتُمزق وتُداس تحت حوافر الخيول غير المبالية.

واعتبر بعض المؤرخين هذا بمنزلة تدنيس متعمد، بإيعاز من جنكيز شخصياً. لكن ذلك لا ينسجم مع شخصية جنكيز، فجنكيز، المفضل من السماء، كان ينظر إلى الآخرين بوصفهم أدنى منزلة، لكنه لم يحتقرهم على أسس دينية، ولم يصدر جوفاني نفسه حكماً بشأن مصاحف القرآن المُداسة، فما حدث هو أن جنكيز وقواته غير المبالية قد صبوا جل تركيزهم على الشؤون العملية للغزو فقط.

ومع ذلك كان هناك درس مستفاد من هذه الهيمنة غير المبالية أدركه جنكيز على الفور، فهنا، لسهولة الفتح، كان دليل آخر بأن جنكيز كان محقاً في إيمانه بمساندة السماء، وأنه كان حريصاً على أن أعداءه سيفهمون ذلك ويذعنون له، فتوجه لدى رحيله من المدينة إلى المُصلى، ساحة تقام خارج أسوار المدينة لإقامة الصلوات خلال الاحتفالات، وهنا قرر أن يدلي بخطاب لجمهور اختير بعناية، فأمر أولاً المواطنين المجتمعين أن يختاروا من بينهم من هم أكثر ثراءً وبروزاً، وأتصور أنه قد تجمع مائتان وثمانون رجلاً - رجال خائفون لكنهم فضوليون - داخل جدران المصلى البسيطة. أما جوفاني وكان أكثر تحديداً فيما يتعلق بعدد الرجال، مئة وتسعون من المقيمين في المدينة وتسعون تاجراً من مدن أخرى، فاعتلى جنكيز المنبر، وقدم لهم شرحاً لنهوضه ولسقوطهم:

«أيها الناس، اعلموا أنكم قد ارتكبتم ذنوباً عظيمة، وأن العظماء من بينكم هم من ارتكبوا هذه الذنوب، وإذا سألتموني عن الدليل الذي أحمله لهذه الكلمات، فأقول لكم إنه لأني عقاب الله لكم، فإن لم تكونوا قد ارتكبتم آثاماً عظيمة، لما أرسل الإله عليكم عقاباً مثلي».

ولكون جوفاني مسلماً فإن لديه وجهة نظر ليوضحها، على الرغم من أنه كان دائم الاطلاع على الحكام المغول الذين كتب تحت رعايتهم، فلم يكن هناك شيء شخصي أو انتقامي في خطاب جنكيز، ففي الواقع، إن الكلمات كانت ملائمة للظروف بشكل جيد، مانحةً قيادة

خوارزم المُرَوعة والطريقة التي مُزق بها المسلمون مجتمعهم الخاص على مدار العقود الأخيرة، ولم يكن الأمر يعود إليه في فرض عقوبة بلا مبرر، شريطة أن يحصل على ما يكفي من الغنائم لإبقاء جيشه سعيداً.

وهذا ما حدث فعلاً، فجمهوره المُرَوع كان عبارة عن تجار ومدنيي مدينة بخارى البارزين، وخصص لكل واحد منهم حارساً لضمان سلبهم فقط من جنكيز أو قادته، وليس من جنود عاديين، وعلى مدار الأيام القليلة التالية، حُبس جنود الشاه وعائلاتهم في القلعة وحُبس أهالي البلدة في منازلهم، وسار الأغنياء ومرافقوهم في صفوف خارج المدينة متجهين نحو خيمة جنكيز، حيث سلموا ثروتهم، أموالهم النقدية ومجوهراتهم وملابسهم وأقمشتهم.

ولإكمال «عقوبة الإله» بقي أمران هما: الاستيلاء على القلعة المركزية، التي كانت قاعدة لشن الغارات الليلية من نواة صلبة من قوات الشاه محمد، والأمر الثاني هو التخلص من السكان، ولتمهيد الطريق للهجوم، أُشعلت النيران في المنازل الخشبية المحيطة، وتصاعدت ألسنة اللهب من معظم أنحاء المدينة، باستثناء المسجد الرئيس وتلك القصور المصنوعة من الطوب الأحمر، وأصبح الآن بإمكان المجانيق والمقاليع وأقواس الحصار المزدوجة والثلاثية الكبيرة أن تُدار في مواقعها، وأسفل الأسوار، دُفع المدنيون إلى الأمام تحت قذائف النفتالين المشتعلة ليملؤوا الخندق المائي بالجثث والأنقاض، واحتدمت المعركة لعدة أيام حتى سُحق الحِمى واحترق في خضوع، ومات مدافعوه، الذين إما قتلوا في المعارك أو أعدموا، بمن فيهم جميع الذكور «الذين قتلوا وهم في حالة من الخنوع»، وسيق المدنيون الباقون على قيد الحياة معاً بجوار المصلى ليوزعوا، الشبان إلى الخدمة العسكرية والنساء وأطفالهن إلى الاسترقاق والحدادين والنجارين وعمال الذهب للانضمام إلى فرق الحرفيين المغول.

ثم تدفقت القوة المغولية الماحقة شرقاً نحو سمرقند، بقوات كافية للقيام بعملية أقل أهمية لحصار خزجاند، البلدة الحدودية التي كانت تحرس أراضي وادي فرغانة Fergana الرائعة والخصبة، وكان يدافع عن سمرقند، العاصمة الجديدة للشاه محمد،» أكثر جنات هذا العالم بهجة» ما بين أربعين ألف ومئة وعشرة آلاف جندي (أو ربما كان ذلك عدد السكان؛ فالمصادر تختلف بشكل كبير) وكانوا يحتمون داخل الخندق المائي وأسوار المدينة وإحدى

القلاع، عُززت جميعها على عجل في غضون أسابيع منذ بدء حصار أوترار، وكان من بين المدافعين لواءٌ من عشرين فيلاً، التي يفترض أنها قد جُلبت من الهند بواسطة بعض التجار المغامرين، وقيدت حشود الأسرى، وكان كل عاشر في جيش المغول يلوح براية لإعطاء انطباع عن جيش مغولي ضخم، ونصب المغول خيامهم حول المدينة مباشرة، حيث لحقت بهم آخر الوحدات القادمة من أوترار، وفي محاولة يائسة لكسر الحصار، أرسل المدافعون أفيالهم، التي أصيبت بحالة من الذعر وارتدت على عقبيها فداست رجالها قبل أن تهرب إلى السهل الفسيح، ومرةً أخرى، كانت قيادة الشاه محمد اليائسة هي التي صنعت هذا بالمدينة، كما صنعت من قبل لإمبراطوريته، إذ هرب بنفسه، وحث الجميع على طول طريقه على جمع بضائعهم والخروج، وذلك لأن المقاومة كانت بلا جدوى. أما الأمراء التجار ورجال الدين في سمرقند، الذين كانوا غير مستعدين للمخاطرة بالموت من أجل رجل من هذا القبيل، فاستسلموا بسلام، وتلقوا معاملة مماثلة للمعاملة التي تلقاها سكان بخارى، إذ أخذ المغول وعائلاتهم صفوة ممتلكاتهم ونسائهم والحرفيين منهم.

وبالطبع سيشمل غزو خوارزم بالضرورة إلقاء القبض على الشاه محمد الهارب أو موته، وهي المهمة التي أوكلت إلى جيبي وسوبيداي، اللذين تعقباه عبر ما يسمى اليوم بأوزبكستان وتركمانستان وإيران، وفي بحثه اليائس عن مكان آمن، وبعد تعقب خيول المغول خلفه ليوم واحد، وصل إلى شواطئ بحر قزوين، حيث نصحه الأمراء المحليون بأن يختبئ في جزيرة صغيرة، فترك ثروته ليستولى عليها، وجدف هو وحاشيته (بمن فيهم ابنه جلال الدين) إلى الجزيرة، حيث توفي هناك جراء الصدمة واليأس، وسارت أمه البغيضة على خطاه، وانتهى بها المطاف في قلعة جنوب بحر قزوين مباشرة، ليجوعها من قبل المغول وينقلونها في عربة لتقضي الكثير من سنوات الأسر السحيق في منغوليا.

وفي هذه الأثناء، أطبق المغول على مدينة جورغانج Guganj العظمى، أو أورغينش كما أصبحت لاحقاً (ولا تزال حتى اليوم)، فمن جهة الشمال، وفي أواخر عام 1220، وصل جوتشي Gochi، الذي كان قد فتح الآن ستة من المدن الصغرى، وجاء جيغتاي وأقطاي من الجنوب الشرقي، كما عززهم بورتشو بفيلق جنكيز الخاص، فاجتمعوا معاً، وربما كان هناك مئة ألف منهم؛ ومع ذلك فإن هذا العدد لم يكن كافياً ليروع السكان، الذين اتفقوا على

معركة ستستمر لمدة ما لا يقل عن خمسة أشهر. لقد كان هذا هو القتال الأصعب الذي خاضه المغول، فهنا، في سهل فيضان نهر الآموداريا، لم يكن هناك حجارة لاستخدامها في المقاليع، وبالتالي قطع المغول أشجار التوت لصنع الذخيرة، وأُجبر الأسرى، كما جرت العادة، على ملء الخنادق المائية ومن ثم على تقويض الأسوار من خلال الحفر أسفلها، وعند انهيار الأسوار، اضطر المغول لخوض القتال شارعاً تلو شارع وذلك للاستيلاء على المدينة، وكانوا يدمرون المنازل تدميراً تاماً عندما كانوا يمرون بها بإلقاء النفتالين المشتعل فيها، وعندما تبين أن هذا الأمر يسير ببطء، عقد المغول العزم على إغراق المدينة بالفيضان عن طريق تحويل مجرى النهر، وهي محاولة انتهت بكارثة عندما فاجأ المدنيون ثلاثة آلاف من المغول العاملين على السد وقتلوهم، وبحلول الوقت الذي تحقق فيه النصر في أوائل عام 1221، لم يكن المغول في مزاج يسمح لهم بالرحمة، فقيد - مئة ألف من المهرة - كأسرى، وذُبح الباقون، ويتحدث جوفاني عن خمسين ألف جندي قتل كل واحد منهم أربعة وعشرين رجلاً، أي 1.2 مليون قتيل.

وأخيراً، عندما خضعت الإمبراطورية بأكملها تقريباً لجنكيز، اختار جنكيز تولوي ليطهر المناطق الغربية من بقايا جيش العدو، خلف نهر الآموداريا، واستغرق الأمر منه ثلاثة أشهر فقط للتعامل مع المدن الثلاث الرئيسة: مرو ونيسابور وهرات، فسقطت مدينة نيسابور في شهر أبريل وقُتل سكانها ودُمرت المدينة تدميراً تاماً وقُلبت رأساً على عقب. كما استسلمت مدينة هرات بشكل حكيم، وصُفح عن سكانها، باستثناء حاميتها المكونة من اثني عشر ألف جندي. أما مدينة مرو فهي التي تستحق اهتماماً خاصاً.

هناك القليل من بين تلك المدن التي عانت من النكبات من يحتفظ بآثار جروحهم، فقد بنت هيروشيما بشرة مدنية جديدة فوق حروقها النووية المروعة. كما أن أنقاض سان بيير St Pierre في جزر المارتينيك Martiniqu، التي سويت بالأرض جراء انفجار بركاني في عام 1902، أعادت إلى الأذهان ما حدث لهيروشيما؛ واليوم، تُخفي أكشاك البائعين وألعاب الأطفال الحجارة المحروقة، وفي هامبورغ وبرلين وحتى في درسدن Dresden، هناك القليل الآن مما يُذكر بأن هذه المدن قد تعرضت قبل نصف قرن من الزمان للقصف والحرق وتحولت إلى أنقاض.

لكن الحال لم تكن كذلك بالنسبة لمدينة مرو القديمة، ففي أوائل القرن الثالث عشر، كانت مدينة الواحة هذه لؤلؤة آسيا الوسطى ومدينة المساجد والقصور المحاطة بالكثير من الأسوار والضواحي المشيدة بقوالب الطين التي تغطي مساحة مئة كيلومتر مربع، وكان كل ذلك يتغذى بالمياه الباردة المتدفقة عبر ممرات مائية من سد عبر نهر مرغب Murgab. كما حوت مكتباتها العشر مئة وخمسين ألف مجلد، التي كانت تعد أكبر مجموعة في آسيا الوسطى، وقبل قرن من وصول جنكيز، عمل عمر الخيام Omar Khayyam في مرصدها الذي فُقد منذ زمن طويل. أما اليوم، فمدينة مرو القديمة ما هي إلا صورة باهتة، فإذا ما وقفت على واحدة من التلال الصغيرة المجاورة لمركزها، فستحيط بك سلاسل التلال الترابية وأكوام من الأنقاض «بالهكتاراتacre»، وقد وقع الانبعاث الوحيد هنا على بعد ثلاثين كيلومتراً ونيف إلى الغرب، حيث تطلق مرو الجديدة - ماري Mary - سحابتها الصناعية القاتمة نحو السماء، والى الخارج على السهل، تُشكل الأكوام المتقطعة الصورة الحقيقية للخراب، وتبرزها الأنقاض المقفرة والمعزولة، قبة ضريح السلطان سنجر Sultan Sanjar التي تعود إلى القرن الثاني عشر، التي كانت ذات يوم مغطاة بالقرميد الفيروزي اللون إذ يمكن رؤيتها تتألق من على بعد مسيرة يوم عبر الصحراء، ومازالت تعد واحدة من أعظم العجائب المعمارية في آسيا الوسطى وكذلك الحال لكزكالا العظمى Great Kyz Kala - « قصر العذارى Maidens' Castle» - مستطيل لا سقف له من أعمدة على شكل مزامير الأرغن كنتاج إنساني غريب ومحير أسقطه الغرباء.

لقد حدث شيء ما حَوَّل المدينة إلى صحراء. لكن ليس هناك ما يدل على ماهية ذلك الشيء. إن الأمر يشبه ملاحظة أنقاض هيروشيما أو سان بيير St Pierre أو درسدن Dresden دون علم مسبق بالقنابل النووية أو البراكين أو عواصف النيران، فكل ما هو موجود هناك يدل على حدوث انفجار، لكن ليس هناك أي مفتاح حالي لحل لغز سبب الانفجار، ولفهم ما حدث، ينبغي أن نتعمق في الماضي وفي الأرض وفي السجلات المكتوبة.

إن ذلك الشيء لم يحدث في وقت واحد - فالكثير من الدمار سببته الرياح والأمطار - لكن عملية التدمير بدأت في شهر يناير 1221، وذلك عندما وصل المغول إلى خارج أسوار مدينة مرو، وكانت روح المدينة قد أحييت تحت قيادة أحد قادة الشاه السابقين، أرستقراطي

مغرور يدعى مُجير الملك، الذي يكشف جوفاني عن أحلامه في السلطنة قائلاً: «لقد أصبح الوهم مزروعاً في صميم قلبه بأن السماء لا يمكن أن تدور إلا بإذنه»، وعندما جست وحدة مغولية مكونة من ثمانمئة جندي دفاعات مدينة مرو، لاحقتهم دفاعات مرو؛ لكن ستين من هذه الوحدة وقعوا في الأسر، وعُرضوا في أنحاء المدينة ثم أُعدموا. لقد كان ذلك إذلالاً كفل مصيراً مروعاً للمدينة وذلك عندما سمع به جنكيز وتولوي.

فلم يكن جيش المغول كبيراً، حوالي سبعة آلاف رجل، مع كل واحد منهم قوسه وسهامه وسكينه، وارتدى كل واحد منهم درعه الجلدي المُقسى، وزود كل واحد منهم بالعديد من الخيول، وكالعادة، كانوا أقل عدداً بكثير، إذ واجهوا جيشاً تألف من اثني عشر ألف مقاتل ومدينة بلغ عدد سكانها الطبيعي حوالي سبعين ألف وارتفع هذا الرقم إلى أكثر من عشرة أضعاف جراء نزوح اللاجئين من القرى المحيطة، فارتكب قادة مدينة مرو خطأ المقاومة، وأدرك مواطنوها ما كان يعنيه ذلك بالنسبة لهم، ونُومت المدينة مغنطيسياً جراء الخوف، وأحكم الجنود والمدنيون على حد سواء إغلاق الأبواب وجلسوا ينتظرون، بلا حراك، وكتب جوفاني «لقد ارتدت الدنيا أثواب الحداد، واتخذ المغول مواقع لهم في عدة حلقات حول التحصينات».

وعلى مدار ستة أيام سير قائد المغول دوريات حول الأسوار، وفي أَحد الأماكن، حاول مائتا رجل كسر الحصار، ليجدوا أنفسهم قد صُدوا إلى الداخل، وعندما لم يرَ مُجير الملك Mujir al - Mulk أي بديل، توسل لإحلال السلام، فطالب المغول بمائتين من المواطنين الأكثر ثراءً ونفوذاً، الذين سلموا في حينها وتم استجوبوا بشأن ثرواتهم. ثم دخل المغول المدينة، دون مقاومة، عاقدين العزم على الانتقام، وعلى مدار أربعة أيام ساقوا الحشود المنصاعة خارج المدينة باتجاه السهل.

ثم بدأت عملية القتل، ونُهب المكان ووضعت الألغام في البيوت وأحرقت الكتب أو دُفنت. لقد دُمرت هيروشيما في ثوانٍ وسان بيير St Pierre في أربع دقائق ودرسدن Dersden في ليلة واحدة، وكان القتلى بعشرات الألوف. أما مدينة مرو فقد استغرق إفناؤها عدة أيام، وخسرت كل شيء وجميع من فيها تقريباً.

بصرف النظر عن الأربعمئة حرفي الذين حددهم واختارهم المغول من بين الرجال وبعض الأطفال، ومن الفتيات والغلمان، الذين قادوهم إلى الأسر، فقد أمر المغول بقتل جميع السكان، بمن فيهم النساء والأطفال، وألا يُستثنى أي واحد منهم سواء أكان رجلاً أو امرأة، فوُزع أهل مرو على الجنود والقوات، وباختصار، خُصص لكل جندي إعدام ثلاثمئة أو أربعمئة شخص.

وعندما رحل المغول، جاء وقت حساب عدد القتلى، الأمر الذي قام به رجل دين بارز، «فقد أمضي الآن وبرفقة أشخاص آخرين ثلاثة عشر يوماً وليلة في حصر عدد القتلى داخل المدينة، مع الأخذ في الحسبان أولئك القتلى الذين كانوا واضحين للعيان فقط وترك أولئك الذين قُتلوا في حفر وتجاويف وفي القرى والصحاري، فوصلوا في عدهم إلى رقم أكبر من مليون وثلاثمئة ألف قتيل».

مليون وثلاثمئة ألف قتيل؟ إضافةً إلى 1.2 مليون قتيل يُفترض أنهم قتلوا في أورغينش؟ يشكك الكثير من المؤرخين في هذا الرقم، وذلك لأنه ببساطة يبدو غير معقول، ولكننا نعرف من أهوال القرن الماضي أن القتل الجماعي يتم بسهولة مع أولئك الذين يمتلكون الإرادة والقيادة والوسائل التكنولوجية، ففي مجازر الأرمن التي وقعت في عام 1915، قتل الأتراك 1.4 مليون شخص من مجموع سكان الأرمن البالغ عددهم 2.1 مليون، كما ذبح النازيون ستة ملايين شخص في المحرقة، وفي منتصف السبعينيات لعام 1900 قُتل 1.7 مليون شخص (من أصل حوالي ثمانية ملايين شخص) في فظائع الخمير الحُمرKhmer Rouge في كمبوديا؛ كما قُتل ثمانمئة ألف شخص في الإبادة الجماعية في رواندا في عام 1994 (من أصل إجمالي السكان البالغ عددهم 5.8 مليون شخص).

وهكذا فإن الرقم 1.3 مليون قتيل هو أكبر من عدد القتلى الممكن بالنسبة لمدينة مرو - وقد تحقق في وقت أقل بكثير من أي من الأمثلة التي وردت في الفقرة السابقة، فالمحرقة امتدت على مدار خمس سنوات؛ وامتدت أعمال قتل الخمير الحُمر لثلاث سنوات، كما دامت الإبادة الجماعية الرواندية - التي يطلق عليها «سامانثا باور» Samantha Power «أسرع إبادة جماعية عرفها العالم» - لثلاثة أشهر فقط، لكن، إن لم نتجادل حول تعريف كلمة «الإبادة الجماعية» فإن ما حققه المغول في مرو لا يماثل أياً من أعمال القتل الجماعي تلك،

فبالنسبة للمغول، كان ذبح أسير غير مقاوم أسهل بكثير من ذبح خروف، فالخروف يُذبح بعناية لكي لا يفسد اللحم، وذلك بشق فتحة صغيرة في الصدر، فتصل إلى الداخل وتنتزع القلب وتوقفه، ويبدو أن الخروف لا يشعر بأي شيء وتنتهي العملية في غضون نصف دقيقة. إلا إنه لم يكن هناك حاجة لتحمل مثل هذا العناء مع سكان مرو، الذين كانوا أقل قيمة من الخراف، فقطع رقبة ثم الانتقال لرقبة تالية لا يستغرق سوى ثوان معدودة، ونحن لا نتحدث هنا عن سنوات أو شهور ولكننا نتحدث عن ساعات، وبالنسبة لسبعة آلاف جندي، فإن قتل مليون شخص لا بدّ أنه كان عملاً صباحياً شاقاً.

أكثر من مليون قتيل في أورغينش، وأكثر من مليون قتيل في مرو، وعشرات الآلاف في مدن أخرى عديدة، لقد كان هذا بلا شك محرقة على نطاق لم يسبق له مثيل، وبالنظر إلى مواقف المغول تجاه غير المغول، وطاعتهم ومهاراتهم في القتل، فإنه من الناحية الفنية من الممكن أن يكونوا قد قتلوا ثلاثة ملايين شخص أو أكثر على مدار عامين من غزوهم للإمبراطورية الإسلامية.

لكن هل كانت هذه الأرقام صحيحة؟

إنه لمن المفيد النظر إلى ما حل بمدينة مرو كما ذكره جوفاني بعدما وضح مذبحة ال1.3 مليون شخص، فهذا يعني، على نحو مفترض، أنه ذبح كل شخص داخل المدينة وحولها، وذلك في شهر فبراير من العام 1221، ومع ذلك وفي شهر نوفمبر من العام نفسه، أثارت الشائعات حول مقاومة جلال الدين Jalal ad - Din للمغول ثورةً في المدينة، فأمر «القائد المغولي - الغولتيرGauleiter» الذي يدعى «بارمز»، بإحضار «الحرفيين، الخ» إلى معسكر خارج الأسوار، وحاول استدعاء «الوجهاء» لكنه فشل، «فقام بذبح أعداد كبيرة من الأشخاص الذين وجدهم عند البوابة» وقاد المزيد إلى بوخارى، وفي داخل مدينة مرو، ناضل المتمردون والقوات الموالية للمغول من أجل فرض الهيمنة على المدينة، فرمّم أحد المتمردين «الأسوار والقلعة..، وبحسن الزراعة وأصلح السد»، وعندما وصل متمرد آخر، أحد رجال جلال الدين Jalal ad - Din، «ثار عامة الناس واتجهوا إليه،» فشرع بدوره بتنفيذ مشاريع زراعية وفي بناء السد، فوصل شيقاي بنفسه لقمع التمرد، وذلك لأن«الغرباء من جميع الأنحاء، الذين جذبتهم غزارة ثروة المدينة، غادروا مناطقهم وتوجهوا نحو مدينة مرو» والتف حولهم أهالي

البلدة وانتهى الحصار الجديد بالطريقة التي أصبحت مألوفة الآن: «وضع المغول أرسنة الجمال حول أعناق المؤمنين، وقادوهم في صفوف من عشرة أو عشرين شخصاً وألقوا بهم في حوض من الدماء [أي أعدموهم] وبهذه الطريقة قتلوا مئة ألف شخص» ثم خطر ببال أحد الحكام المحليين ممن أبقاهم المغول، فكرة جبانة وذلك بدعوة من بقوا على قيد الحياة إلى أداء الصلاة، فحوصر وطوّق «كل من خرجوا من جحورهم، وأُلقي بهم في نهاية المطاف من فوق سطح المسجد، وبمثل هذه الطريقة لقي الكثير من الناس حتفهم» حتى «إنه لم يتبقَ في البلدة بأكملها أربعة أشخاص على قيد الحياة»، ومع ذلك تولى القيادة أمير جديد، يدعى أرسلان Arslan - وهنا يحق لنا أن نتساءل، قيادة ماذا ومن؟ - فجمع جيشاً تألف من عشرة آلاف مقاتل وحكم لمدة ستة شهور، فعاد أحد القادة المغول مرة أخرى،» وذبح كل من وجده»، وعاد شيجاي مرة أخرى «وبدأ بتعذيب السكان»، ومرةً أخرى، «لم يتبقَ في المدينة سوى عشرة أو اثنا عشر هندياً«ومع ذلك وفي الأربعينيات من العام 1200، وصل الحاكم «أرغون» Arghun إلى قرية بجوار مدينة مرو، حيث «تناولوا طيب الطعام على مدار أيام عديدة في القصر الملكي، وشرع كل وزير... بإقامة حديقة وتشييد قصر»، وفي عام 1256 كانت مرو واحدة من بين تلك الأقاليم التي «أدير فيها النبيذ كالماء وتوافر فيها المؤن بكميات لا حصر لها» وكان يُصادر لصالح الحاكم المغولي «هيلوغو» Helugu، في هذه القصة التي تتكرر فيها النكبات، كان هناك دوماً المزيد من الأشخاص ليقتلوا، ودوماً كان هناك اقتصاد لا يزال يستحق النهب، الأمر، الذي إن كان صحيحاً، يوحي بأن كل نكبة لم تكن بهذا القدر من الغموض وذلك كما وضح «جوفاني».

لكن كم عدد الذين قتلوا بالفعل؟ من الواضح أنه يستحيل حصر عدد الأشخاص الذين قتلوا بالفعل، وذلك لأنه لم يكن هناك تعداد للسكان، وجميع الأرقام التي ذكرت ما هي إلا مجرد تخمينات. لكن هناك بعض الدلائل لعملية التخمين هذه، ففي جميع أرجاء خوارزم كان هناك حوالي عشرون مدينة كبيرة، بمتوسط سكان بلغ مئة ألف شخص لكل مدينة، معطياً بذلك مجموعاً تقريبياً بلغ مليوني شخص من سكان المدن. كما سجل الجغرافيون الذين نقل عنهم «بارثولد Barthold» مائتين وثلاثة وعشرين قرية في الوادي الخصب لنهر «زارافاشان Zarafshan» الذي كان تطل عليه بوخارى وسمرقند، ودعنا نفترض أن كل قرية بها ألف

شخص - لنقل أن مجموع سكان القرى بلغ مائتين وخمسين ألف شخص معاً، ثم لنفترض أن سبعمئة وخمسين قرية للمناطق الأقل ثراءً، الأمر الذي يعني وجود مليون قروي آخر، وهذا يعطينا في مجموعه ثلاثة ملايين شخص، ولنلقِ نظرة الآن على الأرقام الأكثر حداثة للمنطقة التي كانت ذات مرة تقع ضمن حدود خوارزم، ففي أوائل القرن العشرين، بلغ عدد سكان أوزباكستان وتركمانستان و جزء من «تركستان الروسية» حوالي مليوني شخص، في حين بلغ عدد سكان المنطقة الإيرانية في خراسان حوالي مليون شخص. ومرة أخرى، فإن ذلك يقدر حوالي ثلاثة ملايين شخص في المجموع (مقابل عدد سكان المنطقة بأكملها في الوقت الحالي الذي يُقدر بحوالي ثلاثين مليون شخص)، وبالتالي إذا كان جوفاني محقاً، على افتراض أن الأعداد كانت متماثلة إلى حدٍ كبير مع الأعداد التي كانت قبل فرض الحكم الشيوعي، فإن هذا يعني أن المغول لم يقتلوا فقط جميع السكان في بعض المدن الرئيسة، بل قتلوا السكان بأكملهم في ملكهم الجديد.

ولكنهم لم يفعلوا ذلك، وحتى في الحالات الأكثر تطرفاً، واصلت المدن العمل، فقد سُحق المتمردون وتشكلت الجيوش ودُفعت الضرائب وشُرع في إعادة البناء. كما أن التقييم البسيط للدمار القائم على بعض المصادر المتبقية لم يتعامل بإنصاف مع غموض الأحداث، لذلك فالافتراضات و/ أو المصادر ينبغي أن تكون مخطئة، تاركةً الحقيقة طي الكتمان وغير مكشوفة، ولعل كل ما بوسعنا فعله هو افتراض عدد أكبر من السكان وعدد أقل من القتلى، شيء من قبيل خمسة وعشرين بالمئة من الخمسة ملايين شخص، وهي نسبة تسمح لمجتمع سحق وعومل بوحشية بمواصلة حياة، من نوع ما، حتى حررتهم السنوات التي مرت من الظلم.

ولا يزال ذلك يتركنا مع 1.25 مليون قتيل في غضون عامين، كتقدير متحفظ.

ولازالت تمثل واحدة من أكبر عمليات القتل الجماعي وفقاً للمفاهيم المطلقة في التاريخ، ووفقاً للمفاهيم النسبية، ربما تكون الأكبر، وهو ما يعادل من ٪25 إلى ٪30 من السكان الذين عانوا من أكبر كارثة حلت بأوروبا، وهي الطاعون.

ولدى مجازر خوارزم ما يقابلها في العصر الحديث، فما حدث في مرو وفي أورغينش

وفي أنحاء المنطقة يشير إلى وجود مقارنة مع المحرقة النازية نفسها، وذلك لأنه هناك بعض أوجه الشبه الرهيبة في موقف المغول التابعين لتولوي وموقف أولئك الذين ارتكبوا جريمة «الحل النهائي» Final Solution. وما يدهشني بشدة هو تفاهة هذا الشر، كما ورد في عبارة «هانا أرندت Hannah Arendt» الشهيرة، فالمغول كافةً كانوا جزاري حيوانات بارعين؛ إذ إن ذبح الأغنام عمل روتيني تماماً بالنسبة لهم، وقتل هؤلاء البشر كان مجرد عمل ينبغي القيام به، تماماً مثلما كانت إدارة غرف الغاز والأفران مجرد تحدٍ فني وبيروقراطي بالنسبة لقائد «أوشفيتز» Auschwitz، «رودولف هويس» Rudolf Hoess، لكن المقارنة لا تستمر حتى النهاية، فالمحرقة كانت نتيجة لسياسة الدولة، أنجزت على مدار سنوات، دون هدف عسكري أو اقتصادي، فلم يكن هناك غرض سوى تحقيق هاجس «هتلر» المعادي للسامية، في حين أن مجازر خوارزم كانت عبارة عن خلاصة مجموعة من التطبيقات لقرا اتخذ لمرة واحدة باستخدام الإرهاب لاستعادة الااستراتيجيّة، ليس الإبادة الجماعية بالضبط،، إنما قتل سكان المدن، وهي الستراتيجيّة تستحق مفهومها الخاص، ممارسة العنف ضد المدن، وبالنسبة للمغول لم يكن الانتقام بدافع العرق أو الدين؛ بل كان محلياً واستراتيجياً.

لم يكن ذبح سكان مدينة مرو هو النهاية تماماً، فقد كان ابن محمد الشاه، جلال الدين Jalal ad - Din، مختلفاً كثيراً عن أبيه، إذ حشد القوات التي بقت على قيد الحياة وتراجع جنوباً إلى أفغانستان في الوقت الحاضر، بعدما طارده جنكيز، وفي ربيع العام 1221، في بارفان Parvan، شمال كابول مباشرة، ألحق أول هزيمة عانى المغول منها في هذه الحملة العسكرية. (وبالمناسبة، لقد كان قائد المغول هو شقيق جنكيز بالتبني والمؤلِف المحتمل لكتاب التاريخ السرّي، شيجاي، وكان جنكيز يأخذ العبر والدروس، فقال إن شيجاي لم يتعرض (يجرب قط مقارعات المصير القاسي، وكان هذا بمنزلة درس مفيد له.) وواصل جلال الدين القتال،في محاولة منه للحفاظ على بؤرة للمقاومة، حتى عندما تراجع لمسافة أربعمئة كيلومتر أخرى، عبر هندو كوش Hindu Kush ونزولاً عبر ممر خيبر Khyber Pass إلى سهول الهند الشمالية الخانقة، حتى حُوصر بين الهندوس والمغول المتقدمين، وتلك كانت نهاية جيشه، لكنها لم تكن كذلك بالنسبة لجلال الدين نفسه، الذي - في رواية جوفاني المثيرة - أقحم فرسه في الماء ووصل لبر الأمان على الضفة البعيدة، فشاهد جنكيز

ذلك واضعاً يده على فيه في دهشة وإعجاب بشجاعته وتركه يذهب، قائلاً: «ينبغي أن يكون لكل أب ابنٌ مثل هذا الابن!» وعاش جلال ليقاتل مرة أخرى، وإن لم يكن لذلك تأثير كبير، وسجّل نفسه في الأسطورة كبطل، ولا يعرف أحد على وجه اليقين كيف مات، فربما أغتيل في عام 1231 على أيدي لصوص أكراد لم يكن لديهم أدنى فكرة عن هويته، واستمرت الشائعات حوله لعدة سنوات، ويذكر جوفاني أنه أعدم شخصان ادّعيا زيفاً أنهما جلال الدين.

لكن جنكيز لم يواصل نصره بالمُضي قدماً نحو الهند، وتقول إحدى الروايات أنه أرجأ الغزو عندما قابل «حيواناً أُحادي القرن» الذي تحدث إليه، وربما كان هذا الحيوان هو وحيد القرن، وهو مشهدٌ مثير للرهبة الأمر الذي جعل جنكيز عندما سمع تفسير تشو - تساي الحكيم - عُد فوراً! - وهو الأمر الذي استجاب له فعلاً، وحَوّل اهتمامه إلى مكان آخر، ليواجه مصيره، إلى التابعين المتمردين الذين تجرّؤوا على تحديه قبل بدء الحملة، وإلى الأراضي المجهولة التي كانت تقع إلى الغرب.

الفصل التاسع

الغزو العظيم

إن القانون الوحيد للتاريخ هو أنه لا يوجد أية قوانين أخرى، لكن هناك مقدار ضئيل من شبه الحقائق، وإليك واحدة منها:

تتوسع الإمبراطوريات طالما تمتلك القوة لفعل ذلك.

تخلق الفتوحات الجديدة حدوداً جديدة وتكشف النقاب عن تهديدات جديدة، وتؤدي إلى فتوحات جديدة عند مواجهتها، فما كان ينطبق على الرومان والبريطانيين والروس والفرنسيين والصينيين وعلى الأمريكيين اليوم كان ينطبق على المغول أيضاً.

ونتيجة لمقتل الشاه محمد ومع قرب اندثار الإمبراطورية الخوارزمية من التاريخ، أدار سوبيداي وجيبي وقواتهما المنتصرة على شواطئ بحر قزوين أنظارهم لتحدٍ من نوع جديد إلى حد ما، فعندما انطلق سوبيداي عائداً بفرسه لمناقشة المسائل الهامة مع جنكيز في سمرقند في أوائل عام 1221، لم يكن الغزو الإقليمي لما وراء الأراضي الإسلامية يحتل مركز الصدارة من وجهة نظره، وذلك لأن العالم الإسلامي فيه ما يكفي من التحدي، فمركزه - بغداد - لن تسقط بسهولة. لكن إلى الشمال الغربي عاش هناك مسلمون أطلقوا على أنفسهم اسم البلغار، وهم تجار فراء كان لهم تجارة جيدة مع خوارزم، ويفترض الآن علماء الأعراق وجود علاقة بعيدة مع البلغار الجنوبيين الآخرين، الذين أصبحوا فيما بعد جزءاً من بلغاريا، لكن في ذلك الوقت لم يكن هناك أي اتصال بين المجموعتين منذ وقت طويل، وكان هؤلاء البلغار، الذين اعتنقوا الإسلام منذ القرن العاشر، أمة بدائية من صائدي الحيوانات والأسماك وأصبحوا أغنياء عن طريق التجارة بالفراء مع الروس والعالم الإسلامي، ولكونهم مسلمين وحلفاء لخوارزم، أصبح البلغار هدفاً للمغول. لكن كم كان يبعد مكان سكناهم؟ ومَن وماذا يترصد بهم في الطريق، في جبال القوقاز الوعرة على الجانب الآخر لبحر قزوين؟ فأقر جنكيز أن الأمر جدير بالاستكشاف، ولأنه كان يطارد بنفسه جلال الدين جنوباً، وكان تولوي على وشك منح مدينة مرو جل اهتمامه، لم يجد جنكيز شخصاً مؤهلاً بشكل أفضل من المحارب المخضرم ذي العين الواحدة البالغ من العمر الخامسة والأربعين الذي خاض حروباً في الصين ومنشوريا وخارا خيتاي وخوارزم، والذي كان قد ادخره لعام أو عامين،

لتنفيذ تلك المهمة، فتقابل سوبيداي وجيبي مع جوتشي، الذي كان قد تحرر الآن من أية التزامات في خوارزم، وانطلق الثلاثة نحو بحر قزوين ورأوا الكنوز التي يمكن أن يحصلوا عليها من البلغار، وكانت البعثة مصممة على أن تكافئ نفسها مرات عدة فيما يتعلق بالغنيمة والحصول على المعلومات.

وهكذا وُلدت واحدة من المغامرات الأكثر دهشةً في التاريخ العسكري، عدو بالفرس لمسافة سبعة آلاف وخمسمئة كيلومتر، جعل المغول لأول مرة على تماس مع العالم المسيحي.

لقد كانت جورجيا التي كانت تدين بالمسيحية لما يقرب من ألف عام، ومستقلة منذ مئة عام، أول مملكة في طريق المسيرة، وكانت في هذه اللحظة في ذروة قوتها وهيبتها، ويعود الفضل في ذلك إلى ملكتها البطلة تمارا Tamara، التي امتدت إمبراطوريتها من البحر الأسود على طول القوقاز إلى ما يسمى اليوم بأذربيجان، وينظر الجورجيون إلى فترة حكم الملكة تمارا (1184 - 1213) كعصر ذهبي وعصر النهضة في الأدب والفن المعماري والثقافة والفن، بتمويل من الأراضي الخصبة والتجار الذين حولوا «تبليسي» إلى مركز تجاري يربط أوروبا وروسيا وخوارزم، وكان «رستافليRustaveli» الذي كُتبت ملحمته الوطنية «الفارس في جلد النمر The Knight in the Panther's Skin» قبل وصول المغول بأعوام قليلة، على دراية بالفلسفة الصينية والإغريقية، وكانت جورجيا، بقصورها وأديرتها وتماثيلها وأناجيلها المصنوعة من الذهب، هي ما احتاجه جيبي وسوبيداي لتمويل مغامرتهما الكبرى.

وفي الحقيقة، سرى في أوروبا المسيحية في السنة نفسها، 1221، أول شائعة حول ما كان يجري في وسط آسيا، وفي تلك اللحظة، كانت المسيحية بحاجة للعون، فعلى مدار الأعوام الثلاثة السابقة، كانت الجيوش الفرنسية والألمانية من الحملة الصليبية الخامسة تحاول فتح مصر وكانت قد قُطعت إرباً من المسلمين الشرقيين، فتوجه البابا إلى الجورجيين، الرفقاء المسيحيين الأغنياء والأقوياء، لطلب المساعدة، لكن ولي عهد الملكة تمارا، الذي يدعى «جيورجي اللامع Giorgi the Resplendent» لم يكن المصدر الوحيد الممكن لتقديم المساعدة، فقد جاءت الأنباء من الأسقف الفرنسي لمدينة عكا Acre الصليبية،

«جاك دو فيتري Jacques of Vitry»، الذي كتب لزعماء أوروبا المسيحية في روما ولندن وفينا وباريس، مخبراً إياهم أن «حامياً جديداً وقوياً للمسيحية قد ظهر»، وكان هذا الحامي يدعى «ملك الهند داوود» King David of India، وكان حفيد ذلك الملك المسيحي الأسطوري «القس جون» Prester John، اللذان اختلط اسماهما معاً بعد فترة قصيرة من الوقت، وعلى ما يبدو، انطلق الملك داوود/ القس جون من أعماق آسيا بناءً على طلب من رئيس الكنيسة النسطورية في بغداد، وبعد أن هزم جحافل الإسلام كان في طريقه لإنقاذ أوروبا المسيحية واستعادة القدس لأصحابها الشرعيين. هذا الهراء، الذي يحاكي حكايات المسافرين من خوارزم وجورجيا، دمج العديد من الحقائق، فالزعيم الذي كان بينهم هناك كان ملكاً نسطورياً (توغرل) وأنه كان هناك انتصارات على القوى الإسلامية (من تا - شيه Ta - Shih، مؤسس خارا خيتاي Khara Khitai؛ والآن من جنكيز نفسه).

ثم جاء نوع من التأكيد غير المباشر لإشاعة جاك Jacques، من جورجيا نفسها، وكان مستوحى من وصول المغول، فقد جاء الهجوم بسرعة الزوابع، وبدون أي منطق واضح، إذ انطلق المغول إلى تبليسي، وقطعوا زهرة الفروسية الجورجية قطعاً صغيرة وتراجعوا إلى الخلف في شمال إيران وقرروا شن هجوم ضد بغداد ثم تحولوا إلى الشمال مرة أخرى وسحقوا الجيش الجورجي للمرة الثانية (وقتلوا جيورجي اللامع (، ثم واصلوا التحرك خلال القوقاز، تاركين الجورجيين دونما أن يدركوا أن المغول لم يكونوا سوى في مهمة استطلاعية، متعجبين بشأن سبب الصفح عنهم لحين وقوع هجوم آخر.

وأياً كان السبب، لم يكن هناك نية لإرسال العون إلى الصليبيين في مصر في الوقت الحالي، فكتب ولي عهد جيورجي Giorgi، أخته روسودان Rusudan، اعتذاراً أصاب البابا بالذهول قائلة «لقد غزا بلادي شعب همجي من التتار، شيطاني الهيئة، شرهٌ مثل الذئاب في جوعها للغنائم، وشجاع كالأسود. لا بدّ أنهم من أصل مسيحي..». لقد كانت تعتقد على ما يبدو أن علم المغول الذي كان عبارة عن صقر طائر كان صليباً مشوهاً، وكذبت قائلة إنهم الآن يُطاردون من فرسان جورجيا، واختتمت اعتذارها قائلة «للأسف، لم نعد في وضع يسمح لنا برفع الصليب كما كنا قد وعدنا قداستكم».

وعلى السهول الواقعة شمال القوقاز، في ما يسمى اليوم بالشيشان، لقي المغول عدواً آخر

أكبر، إذ سيطر هؤلاء الأتراك البدو - الذين يُعرفون للروس باسم «البولفتسي Polovtsy» وللأتراك باسم «الكيبتشاكيين» Kipchacks وللأوربيين باسم «الكومانيين Kumans» - على المراعي التي امتدت إلى شمال البحر الأسود، عبر نهر الدون وصولاً إلى الأراضي الحدودية للدولة الروسية وعاصمتها، كييف Kiev، وكان «البولفتسي» الذين كانت لهم اتصالات مع جورجيا وبيزنطة وروسيا، أكثر من مجرد كونهم نداً للمغول، إذ كان لديهم مزيج مرن من آلات الحرب الثقيلة والفرسان الرماة، وبالإضافة إلى ذلك، كانوا يحاربون على أراضي بلادهم وكان لديهم عدد أكبر من المحاربين، ومعززين بفرق محلية أخرى، ولفترة طويلة، واجه جيبي Jebe وسوبيداي Subedei، اللذان حوصرا بين الجيوش المتفوقة والممرات الجليدية للقوقاز، الهزيمة، فشرع المغول بفعل الشيء الوحيد الذي بإمكانهم عمله، وهو إرسال مبعوث إلى «البولفتسي» محملاً بهدايا من القطعان المحملة بالكنوز التي كسبت في جورجيا، وهنا تساءل «البولفتسي» عن سبب عدم قبولهم لهذا الكسب المفاجئ وغير المتوقع في القتال، فأخذوا هذا الكسب ورحلوا بخيولهم ليلاً، تاركين المجموعات المحلية الأصغر لتقع فريسة سهلة للمغول. لكن بعد ذلك، بالطبع، لحق المغول الذين لم تمثل لهم العربات أو الكنوز أو آلات الحرب الثقيلة عبئاً بالبولفتسي الفارين وهزموهم وانتزعوا كنوزهم مرة أخرى، وفر الذين بقوا على قيد الحياة إلى روسيا، تاركين للمغول مسئولية السهول الواقعة شمال شبه جزيرة القرم.

وفي تلك اللحظة فصل جيبي وسوبيداي قواتهما، فبينما أمّن جيبي لنفسه قاعدة على ضفاف نهر الدون، اتجه سوبيداي جنوباً إلى شبه جزيرة القرم، ملاحقاً فلول البولفتسي الهاربين، وهنا قابل المغول الأوربيين لأول مرة، وكان هؤلاء الأوربيون من إمبراطورية من نوع مختلف عن إمبراطوريتهم - إمبراطورية البندقية Venice التجارية، وكانت بلادهم، التي امتدت فوق مدخل بحر أزوف Sea of Azov، واحدة من القاعدتين التابعتين لمدينة «فنيتو» في شبه جزيرة القرم، وكانت القاعدة الأخرى في مدينة «خيرسون» Cherson، بالقرب مما يعرف اليوم باسم «سيفاستوبول»، مع النقاط الحدودية المعادية لمدينة «جنوة» الواقعة بين بلدة «سوداك» (التي كانت تعرف آنذاك باسم سولدايا Soldaya) و«فيودوسيا» (كافا Kaffa)، وفي الحال رأى تجار البندقية إمكانات القادمين الجدد، إذ كان المغول

أغنياء بسروج وعدة حرب مصنوعة من الفضة، وكانوا يرتدون الحرير أسفل دروعهم؛ وكان لديهم جيش فعلي من المترجمين الفوريين؛ وفيلق من التجار المسلمين الحريصين؛ وكان باستطاعتهم انتزاع كل ما أرادوا بقوة السلاح، وبالنسبة للمغول كان لسكان مدينة فينيتو فوائدهم، مع وجود السفن المبحرة والاتصالات التجارية والوصول إلى عالم جديد من السلع والبضائع، فعُقدت صفقة، أكره على أثرها سوبيداي أهل جنوة على الرحيل من سوداك وذلك بإحراق منازلهم، ومنح سكان مدينة فنيتو احتكار تجارة البحر الأسود، وتوجه عائداً لينضم إلى جيبي على ضفاف نهر الدون.

وفي أواخر عام 1222 انطلق الاثنان معاً باتجاه الغرب، عبر السهل الخالي من الدفاعات، إلى نهر «دنيستر Dniester»، وجلب الكشافة الأسرى للتحقيق معهم، واستأجر العلماء القادمون من الصين فرقاً من المترجمين الفوريين، وجمع البيروقراطيون المعلومات حول الشعوب والمدن والجيوش والمحاصيل والمناخ، كما جند الجواسيس ودُفع لهم وأُرسلوا إلى الديار ليرقدوا هناك، بانتظار المزيد من التطورات. ثم انطلق جيبي وسوبيداي، اللذان كان معهما وفرة من المعلومات والغنائم، عائدين إلى نهر «الدنيبر Dnieper» من أجل الغنيمة التي سيستغرق الحصول عليها وقتاً طويلاً إلى الشمال من البلغار.

ومع ذلك، لم ينتهِ الأمر بعد، فبالرغم من أن «البولوفتسي» كان لديهم علاقات شائكة مع الروس، إلا إن خان البولوفتسي، الذي كان يدعى «خوتيان» Khotian (أو خوتين Khoten في تهجية آخر) كان قد أمّن مكانته وذلك عندما أصبح حليفاً، بل صهراً، لأمير حرب محلي روسي، يدعى الجريء «مستيسلاف مستسلافيتش Mstislav Mstislavich»، فعرض «خوتيان» على «مستيسلاف» تشكيل تحالف عسكري ضد المغول قائلاً: «لقد استولوا على بلادنا اليوم، وغداً سيحين دوركم»، فانضم إلى صفه أمراء مقاطعات روسية أخرى من «فولينيا Volynia وكورسك Kursk وكييف Kiev وتشيرنيقوف Chernigov وسوزدال Suzdal وروستوف Rostov» واحتشدوا جميعاً على ضفة نهر «الدنيبر» الغربية في ربيع العام 1223.

فتردد المغول عندما واجهوا هذه القوة الهائلة، وجاءت الرسائل تقول أن جوتشي، الذي كان يشق طريقه غرباً إلى الشمال من بحر قزوين، كان قد تلقى أوامر بالانضمام إليهما، لكن

جوتشي، كعادته، كان يثبت أنه رجل عنيد إذ لا يمكن أمره بفعل بشيء، وكان على ما يبدو «مريضاً»، ربما لم يكن على استعداد ليفقد استقلاليته في أفعاله، ونتيجة لغيابه المستمر، أرسل جيبي وسوبيداي وفد سلام إلى الأمراء الروس قائلين: «إن نزاعنا ليس معكم، إنما مع البولوفتسي وأن كل ما نريده هو وعدٌ بأنكم لن تساعدوا أعداءنا». لكن، كما فعل الشاه محمد قبل أربعة أعوام، رفض الأمراء العرض واتهموا المغول بأنهم جواسيس وقتلوهم، والآن كما كان في السابق، كانت هذه إهانة تطلبت الانتقام.

لقد تجمعت القوة الروسية ببطء على ضفاف نهر «الدنيبر» حيث انتشرت أسفل منحدر النهر الغارق الآن بفعل البحيرة التي تشكلت جراء السد الكهرومائي الضخم الواقع عند «زابوريزهايا Zaporizhzhya» (ما وراء المنحدر)، وانتشرت القوة الروسية حتى جزيرة «خورتتسيا Khortytsya» التي ستصبح فيما بعد قاعدة «قوزاقية» Cossack مشهورة، وبلغ عدد الرجال فيها حوالي ثمانين ألف رجل: الفرسان الرماة من بولوفتسي، وجنود المشاة «الجاليكيين» Galician القادمين بالقوارب، وعربات محملة بالمعدات والغذاء، والفرسان الروس المرتدين للدروع الثقيلة بخوذاتهم المخروطية الشكل وأقنعة الوجوه الحديدية والسيوف الطويلة والقضبان الشائكة التي كانت تُستخدم لكسر الدروع والرايات الأيقونية. لقد بدوا مخيفين، ولكنهم، في الواقع، جيشٌ اعتاد القتال على النمط الأوربي، بترتيبات مخططة تدعمها القلاع والأسوار، وكانت الوحدات العسكرية المختلفة تحت قيادة الأمراء الذين كانوا على استعداد لمحاربة بعضهم البعض تماماً مثلما كانوا على استعداد لمواجهة عدو مشترك، ولم يكن هناك وقت كافٍ ولا إرادة لخلق وحدة في هيكل القيادة أو الاستخبارات أو الاستراتيجيّة.

ولنقارن هذا الوضع بالانضباط الصارم عند المغول الذين تراوح عددهم من عشرين ألفاً إلى خمسة وعشرين ألف مقاتل، وبسرعتهم في ميدان المعركة ووحدتهم في الهدف، التي ضمنها خدمة رسول كان في تواصل دائم مع مقر قيادة جنكيز، فالمهر المغولي السريع، والاستبدال المنظم للحصان والفارس في مراكز الترحيل، مكنه من قطع مسافة ستمئة كيلومتر في اليوم الواحد، وهي سرعة لم يضاهها شيء حتى وصول السكك الحديدية، وهي أكثر مرونة من الحصان الحديدي (القطار) بشكل مطلق، وعلاوة على ذلك، شكلت هذه المهور

الآن سلاح فرسان مُسلحاً بطريقة رائعة، ومجهزاً ليس فحسب بأقواسهم الخاصة، إنما بدروع المسلمين والسيوف خفيفة الوزن المصنوعة من الصلب الدمشقي.

أما الروس فقد اصطفوا على الضفة الغربية لنهر «الدنيبر» ولم تثر رؤيتهم الأولى للعدو سوى الازدراء، إذ أطلقت مجموعات من المغول، المسلحة فقط بسهام وسيوف، بعض السهام ثم فرت عبر السهل الواسع عندما عبرت النهر كتيبة من سلاح الفرسان الروس، وتعاظمت الثقة الروسية عندما فرقوا وحدة مغولية صغيرة وأسروا وأعدموا القائد - الذي كان مختبئاً عند رابية لدفن الموتى، وربما كان يخطط للبدء بعملية عسكرية خلف خطوط العدو، وسارع الجيش الرئيس بعبور النهر، مستخدمين جسراً من القوارب، ومازال المغول يتراجعون، فرحين على ما يبدو للتخلي عن قطعانهم وأسراهم المحليين، الذين اكتسحهم الجيش المتقدم في تقدمه المظفر حتى «كان الجيش بأكمله ممتلئاً بالماشية» وذلك على حد تعبير مؤرخ روسي مجهول الاسم.

وعلى مدار تسعة أيام فر المغول ممتطين خيولهم الصغيرة السريعة، واستمر التقدم، إلى أعماق أكبر في المراعي، وأصبح الروس بسلاح فرسانهم الذي كان يحرس العربات أكثر ثقة بالنصر من أي وقت مضى، وابتهج مقاتلو «البولوفتسي» لاستعادة أراضيهم مرة أخرى، وفي الواحد والثلاثين من شهر مايو وصل الروس إلى نهر صغير، يدعى نهر الكالكا Kalka، الذي بالكاد يعدّ مجرد ثنية في التلال المنخفضة التي يتدفق منها نحو سهلٍ باتجاه بحر أزوف Sea of Azov، لمسافة أربعين كيلومتراً جنوباً، وبطبيعة الحال، كان مقاتلو البولوفتسي أول من عبر ذلك النهر، وذلك لأنهم كانوا على قدم المساواة مع المغول في السرعة. ثم وصل خلفهم سلاح الفرسان الروسي، ثم تبعهم جنود المشاة، تاركين العربات والعتاد الثقيل على الضفة البعيدة للممر الضيق، وفي الحال، أصبح الجيش كبقعة ماء لزجة تنساق ببطء في شكل قطرات من الماء.

فشن المغول في هذه اللحظة هجومهم - بطريقة غير تقليدية تماماً، إذ تحرك الفرسان المسلحون بشكل أكبر نحو الرماة البولوفتسيين Polovtsian المسلحين تسليحاً خفيفاً، ثم انقض الفرسان المغول على سلاح الفرسان الروسي، وواصلوا تقدمهم مستخدمين رماحهم وحرابهم وسيوفهم خفيفة الوزن، حتى انتاب القوات المتقدمة حالة من الفوضى، فاندفعوا

بقوة متراجعين نحو المؤخرة، مقحمين الجموع في الوادي الضحل، ولقي ستة من الأمراء وسبعون من النبلاء حتفهم، وعند عبور النهر، بالكاد كان لدى مقاتلي مدينة كييف البلهاء وقتٌ ليضعوا عرباتهم في تشكيل دفاعي ويبدأون بالتراجع ببطء، بينما ركضت وفرت القوات الأخرى للنجاة بأرواحهم عبر السهل، وبعد عدة أيام، وصل بعض الناجين لنهر «الدنيبر» وأبحروا قبالة مجرى النهر، وسيق آخرون لحتفهم عندما فروا عبر الأراضي العشبية، وكان «مستيسلاف جريء غاليسيا Mstislav the Daring of Galicia» القائد الوحيد الذي تمكن من الهرب، وعاد إلى موطنه على حدود ما يسمى اليوم بالمجر وأوكرانيا.

وفي نهاية المطاف استسلم القادة الذين بقوا على قيد الحياة، بمن فيهم الأمير «مستيسلاف رومانوفيتش» Prince Mstislav Romanovich أمير مدينة «كييف Kiev»، شريطة ألا يُسفك أي دم، ولم يكن لدى «سوبيداي» و«جيبي» أية نية في التخلي عن الانتقام لمقتل سفرائهم، لكنهم أوفوا بعهدهم، ومنحوا خصومهم الاحترام الواجب للأمراء وذلك بقتلهم دون إراقة دماء، فكانت الطريقة التي أختيرت لإعدامهم قذرة ووحشية وتم إطالتها عمداً، ليس فقط لمنح القادة المغول الإشباع السادي، لكن لإرسال تحذير شديد اللهجة للغرب المترقب، إذ رُبط الأسرى ومددوا على الأرض، حيث أصبحوا أساساً لمنصة خشبية ثقيلة أقام عليها سوبيداي وجيبي وضباطهم وليمةً، بينما اختنق الأمير «مستيسلاف» وحلفاؤه تحتهم ببطء.

وفي هذه اللحظة، وفي مطلع شهر يونيو لعام 1223، كان جوتشي، الذي تباطأ أكثر مما ينبغي إلى الشمال من بحر قزوين، في طريقه جالباً التعزيزات، وبعد غزوة دامت لفترة وجيزة عبر نهر «الدنيبر» تراجع سوبيداي وجيبي باتجاه نهر «الفولغا» Volga، حيث تقابلت القوتان هناك، فشقّوا طريقهم لأعلى النهر لمسافة سبعمئة كيلومتر، ولاقوا مقاومة كانت هي الأكثر شراسة حتى الآن، وكانت على نمط ما يسمى «ببلغار الفولغا» Volga Bulgars، إذ كان لديهم بلدتان، «بلغار Bulgar» و«سوفار» Suvar، تسيطران على نهر الفولغا بالقرب من «قازان Kazan» اليوم. لقد كان هذا هو الهدف الأصلي للحملة برمتها، لكنها تكشفت عن كارثة وشيكة، ولا تقدم المصادر أية تفاصيل عن هذه الكارثة، لكن البلغار اثبتوا أنهم كانوا صعاب المراس، فتراجع المغول، الذين كانوا قد منوا بهزيمتهم الأولى والوحيدة – واضعين

أمامهم ذكرى الإذلال الذين سيتحملونه حتى يصبح الانتقام ممكناً بعد خمسة عشر عاماً.

كان للغزو العظيم على روسيا والمواجهة الحاسمة التي دارت رحاها على ضفاف نهر «الكالكا» Kalka نتائج استثنائية، فعندما عاد المغول للانضمام مرة أخرى إلى جنكيز على نهر «ايرتيش Irtish» جلبوا معهم معلومات قيمة حول الأرض ومواردها والمقاومة الموجودة بها، وسيستغرق الأمر قوة أكبر بكثير لهزيمة القبائل الحدودية، وبعد ذلك يمكنهم استئصال الروس، الذين كانوا يفتقرون لقيادة موحدة، مقاطعةً تلو الأخرى وعندئذ نهب مدنهم.

وفي وقت لاحق - وفقاً للمعلومات التي استقوها من أسرى بولوفتسي - كان هناك امتداد آخر من المراعي العشبية الغنية بما يكفي لدعم أي جيش مغولي متجه نحو الغرب، وبالتخطيط الجيد، سعى جنكيز لتحقيق مصيره الجلي لإقامة مركز محوري ثالث لإمبراطوريته البدوية، ففي المركز كانت بلاده، وفي الشرق الأقصى كانت مدن الصين الغنية، وفي الغرب الأقصى كان الهدف الجديد، وهو سهول المجر الخصبة والغنية.ولم يستغرق الأمر سوى القليل من التخيل لاعتبار المجر منغوليا الجديدة، وأوروبا كصينٍ أخرى، وقد حان الوقت لقِطافهما.

الفصل العاشر

البحث عن الخلود

لكن ماذا كان يعني كل ذلك؟ من الواضح أن الأحداث أثبتت لجنكيز أنه كان قد عُين من السماء لسيادة العالم، وأنه كان على الطريق الصحيح لتحقيق الوعد الكامن في خلاصه قبل أربعين عاماً على سفوح بورخان كالدون. لكن ما السبب في اختياره؟ وما طبيعة قوّته الخفية التي رفعت من شأنه وشأن أمته من خلاله؟ لا بدّ أنها كانت قوة محيرة لسببين، أولاً: لكونه انتُزع من ضآلة الشأن وحُمي وكُوفئ لطاعته بالفتوحات التي لم يسبق لها مثيل، ومن ثم سَلّمَ بأنه لا تبصُّر في فهم الحقيقة Truth، بحرف تي T كبير، الأمر الذي يعني الطبيعة الكامنة وراء هذا الكون.

إن ذلك مجرد تخمين، لكن هذه التكهنات كانت في الهواء الذي تنفسه جنكيز منذ طفولته، وذلك عندما كانت الشامانية والمسيحية النسطورية في حالة تنافس بين المغول والقبائل التركية، وكشاب أدرك جنكيز أن الشامان المغول، بطبولهم وأقنعتهم وروحانياتهم، ليس وحدهم من فسحوا الطريق نحو المعرفة الروحية، بل إن جماعات الكهنة الآخرين كانت تستحق تفكيراً أكثر عمقاً، وإن هناك قادة سياسيين آخرين ادعوا الدعم الإلهي على نحو مماثل، وكقائد وفاتح، ازدادت خبرته اتساعاً، فقد حكم إمبراطور الصين بتفويض من السماء، وكان ملك شي شيا شخصاً مقدساً، كما كان بمنزلة بوذا الحي Living Buddha، وفي كل مكان رأى النصب التذكارية التي أعلنت عن الاعتقادات الدينية، ومقابر وأضرحة ينتشوان الملكية، ومعابد داتونغ Datong وبكين، والآن، علم من خلال الرسائل التي كتبها كُتاب سوبيداي وأحضرتها المهر السريعة بأمر النصب التذكارية الأخرى، وهي الكاتدرائيات المسيحية في جورجيا Georgia، وبدا له أن جميع هذه الأديان – الشامانية والكونفوشيوسية والبوذية والمسيحية – ربما يلتمس كل منها طريقه نحو الحقيقة الغامضة، وهذا هو الاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من مراسيمه، التي أمر فيها أن تُمنح جميع الديانات القدر نفسه من الاحترام، وهو قانون شكّل واحدة من أبرز صفات الأباطرة المغول منذ عصر جنكيز فصاعداً، وهي تسامحهم الديني.

ويبدو أيضا أن البحث المتفتح وعدم التحامل أيقظا في جنكيز أفكاراً أخرى، أقل روحانية إلى حد ما، فإن كانت مثل هذه الأديان غير المؤكدة قد استطاعت صناعة هذه الإمبراطوريات

والآثار، فما القوة التي سيستخدمها إذا ما تمكن من فهم الحقيقة الصحيحة ولاسيما إذا كان ذلك ينطوي على: (أ) معرفة الحياة القادمة والبقاء المؤكد فيها؛ (ب) والمقدرة على إطالة هذا الأمر، وهو أمر ذو أهمية عملية أكبر إلى حدٍ ما.

وكان بصحبة جنكيز اثنان من الرجال المؤهلين بشكل أفضل من معظم رجاله لتشجيعه على مثل هذه التكهنات، أحدهما هو الخيتاني «لو - يه تشو - تساي» «ذو اللحية الطويلة» الذي كان قد صمد في حصار بكين ومن ثم سعى إلى التنوير من خلال تراجعه عن الديانة البوذية قبل الانضمام لجنكيز والعمل كمستشاره الأكثر قرباً منه في عام 1218، والرجل الآخر هو وزير الخان الصيني، الذي كان يدعى «ليو وين» Liu Wen، المعروف أيضاً بمهاراته في المداواة بالأعشاب وفي بَرْي العظام وتحويلها إلى رؤوس سهام صافرة، وكان جنكيز قد سمع لأول مرة من هذين الرجلين، بينما كان يجمع قواته لغزو خوارزم، عن الطائفة «الطاوية» Taoist المعروفة باسم «تشوان تشين Ch'uan - chen» (التي تعني «الكمال التام Complete Perfection») وعن زعيمها البارز الحكيم «تشانغ تشون» Ch'ang - ch'un.

وكانت طائفة الكمال التام، المتجذرة في مزيج من العقلانية العالية وغرابة الأطوار، قد تأسست على يد «وانغ تشي»، الملقّب بوانغ المجنون Wang the Madman، الذي كُشفت له هذه العقيدة في عام 1159 من اثنين من الغرباء اللذين اكتنفهما الغموض وذلك عندما كان خارجاً للتنزه، وكان هذا المذهب، في جوهره، شكلاً من أشكال الطاوية، التي كانت قد تطورت على مدار ألف وسبعمئة عام من تعاليم «لاو - تزو» Lao - tzu شبه الأسطورية، ويعتقد الطاويون أن الحياة يمكن معيشتها بالشكل الأفضل بالعثور على الطريق واتباعها the Way، التي تعني التاو Tao أو الداو Dao بالمفهوم الطاوي، وهم يقصدون بهذا فهم الطهارة الأصلية للناس والأشياء - أي «حالتهم الطبيعية» قبل أن تفسدهم الحياة - ومعرفة مصيرهم كما قُضي من السماء ثم إتمام تلك الطهارة التي كانت قبل هبوط آدم وحواء من السماء مرةً أخرى عن طريق تحقيق ذلك المصير، وكان أحد المساهمتين الرئيستين لوانغ Wang لهذا المذهب القديم هو الإصرار على الزهد الروحاني الشديد الذي يشبه معيشة الفقراء، الذي تضمن النوم بأقل قدر ممكن، هو امتناع عن النوم عُرف على أنه «إخفاء للشيطان الشرير»،

وبإيحاء من هذا الفكر، حفر لنفسه حفرة بلغت ثلاثة أمتار وبقي فيها لمدة عامين من الزمان ثم استبدل مأواه في وقت لاحق بكوخ، وبعد أربعة أعوام أخرى من العزلة أشعل النار في كوخه ووجد يتراقص في الرماد، وعندئذٍ فقط، من المحتمل أنه قد شحذ عقله وجسده بشكل جيد وأسس معهداً، سمى «تجمع اللوتس الذهبي the Golden Lotus Congregation» من أجل تعزيز تعاليمه التوفيقية، المذاهب الثلاثة التي وحدت ديانات الصين الثلاثة الرئيسة، الكونفوشيوسية والبوذية والطاوية، مع اعتبار الطاوية بمنزلة العقيدة الأساسية، ولمُثلها العليا في الأخلاق وقواعد السلوك والحكم، أضافت التزاماً بالرعاية الاجتماعية؛ وطُبقت جميع أحكامها بالتساوي على الرجال والنساء، وكان إشراك النساء يعد واحداً من أبرز سماتها.

وكان من بين التابعين «لوانغ المجنون» شابٌ مراهقٌ يُدعى «تشيو» Ch'iu، الذي لقي مديحاً وترحيباً واسعاً لذاكرته المذهلة وشِعره الرائع، وعندما توفى «وانغ» في عام 1170، كان «تشيو» الذي بلغ الآن الثانية والعشرين من عمره والذي لقب نفسه تشانغ تشون Ch'ang - ch'un (أي «الربيع الأبدي Everlasting spring») واحداً من أولئك الذين نشروا رسالة وانغ، ولذلك كان على دراية كبيرة بالمعرفة الطاوية الضخمة في الأدب الخيميائي، وكان يعتقد أن بعض المواد المحددة يمكن استخدامها، إذا ما صُنعت - مثل حجر اليشم واللؤلؤ وأم اللؤلؤ والسينابار والذهب - لصناعة الإكسير المطيل للحياة، ومثله مثل الكيميائيين المسلمين والأوربيين القدماء، كان تشانغ تشون Ch'ang - ch'un يهتم بشكل أكبر برمزية الكيمياء القديمة - وكان كل هذا يدور حول التحول الروحي - أكثر من تطبيقاتها العملية، لكن فكرة وجود حياة أطول هي التي أوضحت بشكل جزئي سبب شعبية الطائفة المتزايدة، ورعيت الطائفة من أسرة اللياو Liao الحاكمة في بكين، وبدأت تقيم معابدها الخاصة بها، وبالإضافة إلى ذلك، وفي وقت الحرب مع السونغ وعندما أُحرقت المدن وجاب قُطّاع الطرق الريف، تحوّل عامة الناس باتجاه مبادئ الطائفة الخيرية.

ولا بّد أن رجلاً مثل «تشانغ تشون» كان محل اهتمام جنكيز وبعض المسؤولين في حكومته لعدة أسباب، إذ تضمنت أجندة عمل «تشو تساي» العرض على جنكيز نظاماً ربما من شأنه أن يمد يد العون للسماء Heaven من خلال تحويل زعيم بربري قاتل إلى إداري إمبراطوري متحضر وروحاني، ومن الناحية السياسية، لا بدّ أن جنكيز وافقه الصواب في

اختيار رجل بهذا التأثير الرقيق في رعاياه الصينيين القلقين، لكن التطبيق العملي للكيمياء القديمة هو الذي حسم الأمور، فجنكيز ناهز الآن أكثر من ستين عاماً ولم يكن بإمكانه الاستمرار في شن الحملات العسكرية إلى الأبد - إلا إذا ما كان قد سمعه من ليو وين Liu Wen صحيحاً، وهو أن تشانغ تشون بلغ من العمر ثلاثمئة عام وأن باستطاعته تعليم السر لآخرين.

وفي عام 1219 تلقى تشانغ تشون زعيم الطائفة، الذي بلغ في الواقع السبعين من عمره، ورفض بالفعل دعوة من أسرة السونغ الحاكمة، والآن، وصل وفد من أقصى الشمال الغربي إلى معبده الواقع على بعد خمسمئة كيلومتر من بكين في مدينة لايتشو Laizhou، في شبه جزيرة شاندونغ، حاملاً دعوة أكثر إلحاحاً، وهي رسالة طويلة كتبها باللغة الصينية تشو تساي، ونُقشت في وقت لاحق على عدة نُصُب تذكارية تبنى جنكيز فيها هيئة حكيم طاويّ متقشف. حمل هذه الرسالة ليو وين، برفقة عشرين رجلاً من المغول، وكان ليو وين يقيم في معسكر نايماني Naiman في وسط منغوليا عندما تلقى الأمر من جنكيز، فاستغرق الأمر سبعة شهور لعبور المراعي العشبية وصحراء غوبي والريف الذي مزقته الحرب في شمال الصين للوصول إلى معبد تشانغ تشون.

فتردد الخبير العجوز للوهلة الأولى بشأن ما ستتضمنه الرحلة، إذ كان غزو جنكيز لخوارزم يسير على ما يرام وكان كل يوم يزداد فيه بعداً عن الصين، وانتابت «ليو وين» حالة من القلق، متسائلاً عم سيحدث لو رفض الرجل العجوز الدعوة كما رفض دعوة السونغ من قبل. فقال «ليو وين» عندما وصل إلى تشانغ تشون Ch'ang - ch'un: «لقد أرسلني الإمبراطور عبر الجبال والبحيرات كمبعوثه الخاص وأمرني بألا أعود بدونك تحت أي ظرف من الظروف سواء أاستغرق هذا الأمر شهوراً أو سنوات»، وأتصور في هذه المرحلة أنه كان هناك إغراءٌ لطموحات تشانغ تشون، ففي حال سارت الأمور على ما يرام، ألن تكون مقابلة جنكيز هي الشيء الأفضل الممكن أن يحدث لطائفته وديانته؟

من الواضح أن الرفض لم يكن خياراً قد وضع في الحسبان. حسناً: إنها إرادة السماء، فاستعد «تشانغ تشون» لخوض رحلة سيقطع خلالها عشرة آلاف كيلومتر وستستغرق تقريباً أربع سنوات، وقد سُجلت هذه الرحلة من أحد أتباعه، ويسمى لي تشي تشانغ Li Chih

ch'ang - (وترجمها - بشكل رائع - المُستشرق آرثر ولي Arthur Waley في كتاب «رحلات خيميائي Travels of an Alchemist» الذي استشهدت ببعض مقتطفاته في هذا الفصل)، ويقدم هذا الكتاب مسحاً فريداً من نوعه لبلاد وشعوب آسيا الداخلية في فترة حاسمة، فلم يسبق لأي شخص من قبل في هذه البلاد التي كان بها الكثير من الصراعات، ناهيك عن كونه ناسكاً طاعناً في السن، السفر من المحيط الهادئ إلى قلب أراضي الإسلام، وحتى إلى الأراضي الحدودية للهند، وهو يخضع لحماية سلطة واحدة، وهي إمبراطورية جنكيز الموحدة، وتعد رحلة «تشانغ تشون» أول مثال على الحرية التي لم يسبق لها مثيل التي تأسست بوحشية غير مسبوقة في السنوات العشرين الماضية، وستُمكن «المغولية المسالمة» Pax Mongolica الكثير من الرحالة الغربيين من عبور أوراسيا من الغرب إلى الشرق وذلك على مدار القرن ونصف القادمين، بما في ذلك القساوسة الكاثوليك والتجار والمستكشفون، الذي يعد ماركو بولو Marco Polo أكثرهم شهرة.

لكن أول شخص عبر وصل من الاتجاه الآخر، إذ كان عبوره بناءً على طلب جنكيز شخصيّاً.

وبعد أيام قليلة من لقائه مع ليو وين، انطلق تشانغ تشون برفقة تسعة عشر من أتباعه وبحراسة بلغت خمسة عشر رجلاً متجهاً إلى خوارزم، أو إلى أي مكان ربما يكون فيه جنكيز حتى وإن استغرق الأمر الكثير من الشهور للوصول إلى هناك (أفغانستان، في غضون عامين، كما تبيّن بعد ذلك)، ووصل «تشانغ تشون» إلى بكين بصحبة «ليو وين» وقواته التي ضمنت عبوراً آمناً ورجال الدين الطاويين الذين أقاموا مراسم ترحيبه، حيث أحاطت به الحشود، متوسلين الزعيم الديني Master لينطق ببيت من الشعر من أجلهم أو يمنحهم لقباً دينياً، وتزايدت الضغوطات عليه من أجل تأجيل رحيله، إذ كان يتعين إقامة مراسم البدر وترسيم الكهنة، فجاءت رسالة تفيد بأن جنكيز قد انتقل إلى مكان أبعد باتجاه الغرب، وستكون الرحلة طويلة والطريق شاقة، وكان الزعيم الديني يكبر في السن، فرأى «تشانغ تشون» أنه من الأفضل أن يتم اللقاء عند عودة الخان، لكن ذلك لم يكن ممكناً، ومن ثم، وجد «تشانغ تشون» على نحو مفاجئ أن «ليو وين» كان يحضّر عدداً كبيراً من الفتيات للانضمام إلى حريم الخان.

فقال الرجل العجوز بتجهم «أنا مجرد رجل جبلي بدائي، ولكنني لا أعتقد أنكم تتوقعون مني أن أسافر مع فتيات الحريم».

فأُرسلت الرسائل وأُعيدت مراجعة الترتيبات، فسيسافرون ببطء وبوقار وبأمان، متّبعين منعطفاً ضخماً يمرّ بمقرات قيادة شقيق جنكيز الأصغر تيموج Temuge الواقعة في منغوليا الشرقية، وملتفين حول التانغوتيين Tanguts الذين لا يمكن الوثوق بهم وحول قلب صحراء غوبي القاحل، واستمرت الرحلة مع بعض التوقفات عند المعابد لاسترداد قواهم من حرارة الصيف، وتسبب مجرد وجود «تشانغ تشون» في حدوث بعض المعجزات، إذ انقشع الجفاف وأظلت سحابة على شكل مظلة حشداً من الناس من الشمس وامتلأ بئر مياه فارغ بالماء حتى حافته، وانقشع فصل الصيف مفسحاً المجال لفصل الخريف، وفي الجبال إلى الجنوب من صحراء غوبي وصلت رسالة قلقة من جنكيز شخصياً (ومرة أخرى ربما تكون قد كتبت من تشو تساي)وجاء في الرسالة «إنّ الطريق أمامكم طويلة، بالبر والبحر على حد سواء، لكنني على ثقة بأن المساعدين وراحة الأرجل (أي وسائل الراحة) التي سأوفرها لكم ستجعل الطريق تبدو غير طويلة»، وقُضي فصل الشتاء في معبد آخر، واستمرت الرحلة في شهر مارس من عام 1221، فرحل أتباع تشانغ تشون عنه «وسألوه وهم يذرفون الدموع عن الوقت الذي ربما يتوقعون فيه عودته من هذه الرحلة الطويلة»، فراوغ في الرد، مدعياً أنه لا يمكنه معرفة ما إذا كان مبدؤه الطاوي Tao الخاص سينسجم مع مبدأ المغول، لكنّه قال في نهاية الأمر بعد الإلحاح الشديد أنه سيلتقي بهم مجدداً في غضون ثلاثة أعوام، وبعد ذلك بقليل صادف «تشانغ تشون» والوفد المرافق له، أثناء مرورهم بممر فم الغُرير، أكوام العظام التي خلفها انتصار المغول الأول الكبير في الصين، ووعدوا بأن يقيموا عند عودتهم قداساً لأولئك الذين رحلوا.

وبعد ذلك وصلوا إلى المساحات الخالية من الأشجار للمراعي المنغولية الشرقية، وكان الزعيم الديني يمتطي حصاناً أو يتكئ في إحدى العربات وكان يقبل ضيافة الرعاة أو يقيم في خيامهم، حتى وصلوا بعد ستة أسابيع إلى معسكر تيموج Temuge الذي تحتشد فيه العربات والخيام، وبعد ثلاثة أسابيع من الراحة، انطلقوا مرة أخرى لكن باتجاه الغرب هذه المرّة، وتحولت بعثتهم إلى بعثة ضخمة نتيجة للهدايا التي منحهم إياها تيموج Temuge

التي تمثلت في عشر عربات وعدة مئات من الثيران والخيول.

وسارت البعثة بمحاذاة ضفة نهر الخيرلين Kherlen الجنوبية، ولدهشتهم المتزايدة، أصبح الهواء بارداً وخفتت الشمس واندفع ظل طوقهم جميعاً. لقد كان كسوفًا كليًّا للشمس، وهو حدث أعطى تجربتهم موعداً ومكاناً محددين، فقد كان ذلك في وقت متأخر من صبيحة يوم الثالث والعشرين من شهر مايو لعام 1221 بحسب تقويم اليوم، ولم يكونوا بعيدين عن أفراجا Avraga، التي تقع على بعد عشرة كيلومترات إلى الشمال من النهر، وعند هذه البقعة تداخلت رحلاتي تقريباً مع رحلات تشانغ تشون Ch'ang - ch'un، وأرى المشهد من خلال عيون لي Li حيث يتوقّف سائقو العربات والفرسان مذهولين وهم يشاهدون النهر وقد حُفّ بأشجار الصفصاف الخضراء الجديدة وبأمواج من العشب المنقط بالزهور الصفراء التي تشبه النجوم والتلال البعيدة التي تعلوها الثلوج وقد تلاشت جميعاً في ظل متجمّد، وفي الأعلى طُوق قرص القمر الأسود لفترة وجيزة بهالة الشمس المخفية، ووقف في السماء المحمرة التي ترصعت بالنجوم فجأةً.

وواصلت البعثة مسيرتها على طول نهر الخيرلين؛ ويوحي عدم عبورها النهر للبقاء في أفراجا Avraga بأن العاصمة القديمة كانت بالفعل تستبدل بالعاصمة الجديدة التي خُطّط لإقامتها في كاراكورم، وفي المكان الذي تحول فيه مجرى نهر الخيرلين نحو الشمال مؤدّياً إلى منبع النهر باتجاه جبل بورخان خالدون انحرفوا إلى الجنوب الغربي حيث أقيمت لهم احتفالات ترحيبية مبهجة عند كل معسكر خيام من المغول الذين نبأتهم فئران الأرض بجميع أسرار المراعي العشبية والذين كانوا في انتظار وصول تشانغ تشون منذ شهور، ثم شقوا طريقهم خلال فصل الصيف إلى الجنوب الغربي ومروا بالقرب من الموقع الذي ستقام فيه كاراكورم عما قريب - الأمر الذي لم يشر إليه لي Li - وواصلوا طريقهم على طول المسار المتعرج وصولاً إلى جبال «خانجاي» Khangay التي تغطيها أشجار الصنوبر والتنوب، وهنا - على المراعي العالية - وجدوا «المئات والآلاف» من العربات والخيام، «ومن المؤكد أن المِحَفّات والخيام الكبيرة والروائع الأخرى في هذا المعسكر قد أذهلت خانات الهونيين القدماء». لقد كان هذا هو المعسكر الصيفي لاثنتين من الأميرات، إحداهما كانت هبة تانغوتية Tangut وُهبت لجنكيز عندما استسلمت شي شيا في عام 1210، والأخرى

سلمها الصينيون عندما استسلمت بكين في عام 1214، وبينما كانوا في انتظار عودة الخان بدا أنهم ينسجمون بشكل جيد، وعاشوا حياة تليق بمكانتهم إذ كان يُقدم لهم الخبز المصنوع من الدقيق الذي أُحضر على ظهور الجمال من وراء جبال تين شان، التي تبعد مسافة سبعمئة كيلومتر، ثم واصلوا المسير على سلسلة من التلال ونزولاً عبر وادٍ حيث رأوا أول شخص مسلم كان يحفر قناة ليروي حقلاً من الشعير (الشعير ينمو بشكل جيد حتى في صحراء غوبي إذا ما توافرت المياه التي يمكن إحضارها من الينابيع الصغيرة الكثيرة الممتدة على طول قاع الجبل).

وفي مكان ما إلى الشمال كان مقر قائد يُدعى تشنجاي Chinqai، وهو مسلم من خوارزم كان قد ترك موطنه وانضم إلى الكريتيين والتحق بالخدمة العسكرية مع جنكيز في نهاية المطاف «ليشرب من مياه نهر بلجونا Baljuna» ومن ثم أصبح معاوناً محل ثقة، وكان تشنجاي نفسه قد وصل في اليوم التالي، فناشد الزعيم الديني تشنجاي بأن يسمح له بقضاء فصل الشتاء هنا وانتظار وصول جنكيز، فرد تشنجاي قائلاً بأن ذلك غير ممكن، إذ إن عمله لا يخوله القيام بذلك، فقال: «إذا بقي الزعيم الديني هنا، فمن المؤكد أنني سيقع اللوم عليّ»، لكن تشنجاي نفسه سيقود البعثة من الآن فصاعداً، إذ كان يعرف الطريق عبر جبال ألتاي شديدة الانحدار قدماً ووصولاً إلى الصحراء، عبر حقل العظام البيضاء Domain of White Bones، حيث انهار جيشٌ ومات بأكمله بكل بساطة، ومن ثم، عبر ثلوج جبال تين شان Tein Shan التي تتألق في الأفق، حول الحافة الشرقية لحوض جبال «دزونقاريان» Dzungarian الكبير، حيث كان التقدم على الكثبان الرملية «مثل تقدم سفينة فوق قمم الأمواج العاتية» وكانت الحرارة، حتى الآن في شهر سبتمبر، مميتة في النهار، لذا توجب السفر ليلاً، وكان رفقاء تشانغ تشون Ch'ang - ch'un يرتعدون من فكرة قفز العفاريت والجان عليهم في الظلام، حتى بدد «تشانغ تشون» بالضحك مخاوفهم: «ألا تعلمون أن الأشباح والأرواح الشريرة تفر من وجود الرجال الصادقين؟».

والآن وصلوا إلى بلاد اليوغور، وانضموا ثانيةً إلى طريق الحرير عند مدينة «بيشبلغ Beshbalig» وهي واحدة من مدن الواحات تقع شرق ما يسمى اليوم مدينة «أورومتشي»، وهنا آوى الحاكم المحلي الزعيم الديني في الطابق العلوي لمنزل كبير يطل على كروم العنب

وأرسل له النبيذ والفاكهة والعطور، وهذه ليست بالضبط الأشياء المناسبة لزاهد لم يتناول الفاكهة، لكنها لا بدّ أنها لاقت قبولاً بشكل جيد من مرافقيه العسكريين، وفي المساء، قدمت فرقة من الأقزام والموسيقيين الصينيين بعض الترفيه.

ثم التفّوا غرباً نحو كازاخستان واتجهوا يساراً نحو «بحيرة سيرام» وسحبوا العربات فوق وديان وسيول طريق ممر شجر الصنوبر Pine Tree Pass العسكري الجديد بجسوره الثمانية والأربعين الخشبية التي بناها الخان شيغيداي Chagadai قبيل الغزو المغولي في العام السابق، واتبعوا من هناك نهر «إيلي Ili» بمروجه وأشجار توته مارين بمدينة ألمالك Almalik التي سميت (مثل عاصمة كازاخستان في الوقت الحاضر ألماتي Almaty) بهذا الاسم نسبة إلى تفاح المنطقة الشهير (الذي يعني ألما alma باللغة الكزخية) وبالتالي، اجتازوا سفوح جبال تيان شان Tein Shan من الجهة الشمالية مارين بمدينة «بلاساغون»، العاصمة القديمة التي حكمها كوشلغ لفترة وجيزة حتى تمت هزيمته، كما مرّوا خلال طشقند، عبر مصب وادي «فرغانة» Fergana، وصولاً إلى سمرقند المدمرة.

وكان عدد سكان سمرقند السابق الذي بلغ أكثر من مئة ألف أسرة - لنقل ثلاثمئة وخمسين ألف شخص - قد انخفض بنسبة سبعة وخمسين بالمئة نتيجة لهجوم جنكيز (نجت هذه المدينة من غضب المغول بشكل كبير)، وكانت تحت إدارة دولية جديدة، إذ أدار الصينيون والخيتانيون والتانغوتيون الأراضي الزراعية وكان الحرفيون الصينيون منشغلين بإعادة البناء، وعاد ليو وين Liu Wen، الذي انطلق قدماً، ليعلن أن الجسر العائم فوق نهر السيرداريا Syrdar'ya دُمر على أيدي قطاع الطرق، وأصبح الشتاء على وشك المجيء، وكان جنكيز بعيداً يطهر البلاد من بقايا جيش العدو في أفغانستان، فتساءل الزعيم الديني: أليس من الأفضل ترتيب اللقاء بجنكيز في فصل الربيع؟ وعلى ذلك اتفق الزعيم الديني، فأنزل الحاكم، وهو خيتاني يتحدث بعدة لغات يدعى أهاي A - hai، تشانغ تشون في قصر الشاه محمد، الذي رفض أهاي A - hai أن يكون بمنزلة مقره في حال تمرَّدَ السكّان المحلّيون، وجعل هذا الأمر القادمين الجدد قلقين حتى أعاد الزعيم الديني طمأنتهم من جديد قائلاً: «إن رجل المبدأ Tao يدع القدر يقوده حيثما شاء بتفاؤله الطاهر. إن الخير والشر يشقان طريقهما دون أن يؤذي أحدهما الآخر»، وحث الحاكم الزعيم الديني على قبول النبيذ والقماش المُقصب

بالذهب والأرز ودقيق الذرة والفواكه والخضروات، التي رفضها جميعاً، ما عدا مئة رطل من العنب ليقدمه لزائريه، فمن الصعب أن يكون الواحد زاهداً عندما يعيش في قصر ويحيط به المعجبون من كل مكان ومع حرية الوصول إلى كل وسائل الراحة والرفاهية، لكن تشانغ تشون لم يدع مُثله تزل: «فقد كان من عادته أن يعطي ما يمكن توفيره من الحبوب إلى فقراء وجوعى المدينة...وبهذه الطريقة أنقذ عدداً كبيراً من الأرواح».

وكان من بين الزوار الكثيرين الذين زاروا الضيف اللامع عالم فلك صيني، وبما أنّ علم الفلك وعلم التنجيم وجهان لعملة واحدة، فقد قارن الرجلان الملاحظات ووضعا بعناية مسار الكسوف الكامل الذي شهداه قرب أفراجا Avraga. فعلى نهر الخيرلين، غطى القمرُ الشمسَ بشكل كامل، وإلى أقصى الجنوب، غطى سبعين بالمئة؛ وفي سمرقند، غطى ستين بالمئة، واستنتج الزعيم الديني أنه، «كان كما لو أن شخصاً غطى شمعة بمروحة، وفي الظل المباشر للمروحة لن يكون هناك ضوء، لكن إذا ما تحرك الواحد لمسافة أبعد على جانب واحد، فإن الضوء يصبح أكثر».

وجاء الربيع وأصلح الجسر وتبعثر قطاع الطرق، ووصل تشو تساي لمرافقة الزعيم الديني لمقابلة الخان. هل حانت لحظة اللقاء؟ لم يكن تشانغ تشون متيقناً من ذلك، فقد كان جنكيز على بعد خمسمئة كيلومتر إلى الجنوب، في أعماق جبال هندو كوش hindu Kush، حجزته الثلوج، وسمع الزعيم الديني أنه لم يكن هناك خضروات جنوب نهر الأموداريا، وأن عليه الانتظار حتى يتغلب على مشكلة غذائه، وهو قرار لم يمثل مشكلة لأتباعه، وبدلاً من مواجهة الثلوج الأفغانية، كان من الأفضل البقاء لعدة أسابيع قليلة أخرى برفقة المُعجب تشو تساي للاستمتاع بالربيع في سمرقند وتبادل قصائد الشعر والدردشة مع علماء الفلك المنجمين وإمعان النظر بأشجار اللوز المزهرة حديثاً والحدائق والبحيرات والمعابد والبساتين وحدائق الخضار والغابات، حيث يمكن للواحد مناقشة أسرار المبدأ Tao وهو متكئ على الأعشاب الناعمة ويحتسي النبيذ.

لكن في نهاية المطاف لن يكون هناك مزيد من المراوغة، إذ وصلت رسالة من الخان جاء فيها: «أيها البارع! لم تكلف نفسك أي عناء في المجيء إليّ عبر التلال والأنهار طيلة الطريق من البلد المشرقة بالشمس. إنني الآن في طريقي إلى موطني وأنتظر بفارغ الصبر

سماع تعاليمك». لقد زادت السنتان اللتان تخللتا ذلك حرصه على معرفة الأسرار ليس فقط المتعلقة بالحياة الطويلة بل وأسرار القوة الحقيقية، ذلك النوع من القوة التي بدا أنها تنبع من الاعتقادات الدينية، إذ رأى الطريقة التي قاتل بها الكثير من الخوارزميين، الذين لم يقاتلوا من أجل قادتهم ولا لمجرد الحفاظ على ثرواتهم، بل من أجل دينهم، وكان قد حدّق بنظره في رهبة في مئذنة كاليان الشاهقة في بوخارى وفي المساجد التي شرفت كل مدينة إسلامية وفي تمثالَي بوذا العظيمين اللذين صُنعا من الحجر الرملي (من المؤكد تقريباً، أنه قد مر بهما)، واللذين يبلغ ارتفاعهما أربعين أو خمسين متراً ويبرزان على نحو صارخ من منحدرات باميان Bamian، إلى الشمال الغربي من كابول مباشرة، حتى فُجّرا بالكامل على يد طالبان Taleban في عام 2001 (وهناك خطط لإعادتهما معاً مرة أخرى)، وسيحرص أي زعيم يمتلك ملكة الخيال على الالتزام والاحترام اللذين يكمنان وراء مثل هذه الإبداعات.

وكان على الزعيم الديني خوض غمار رحلة شاقة أخرى، إلى الجنوب عبر البوابات الحديدية Iron Gates - ممر بوزغالا Buzgala Defile، وهو مثل ثقب إبرة بين المنحدرات وضيق للغاية لدرجة أن الطريق كانت قد سُدت ذات مرة ببابين، الواقعة فوق نهر الاموداريا، حيث تمتد حدود اوزبكستان الآن، ثم إلى أعلى جبال شمال أفغانستان، حيث، كما قال الرسول: «كانت الثلوج عميقة جداً لدرجة أنني عندما أغطست سوطي فيها، لم أصل إلى قاعها»، لكن الثلوج بدأت في الذوبان، وكان بورتشو ينتظر بحامية تكونت من ألف رجل ليتقدمهم باتجاه الجنوب، عبر وادي الباميان Bamian وصولاً إلى مقاطعة بارفان Paravan (التي تسمى اليوم شاريكارCharikar، وتقع على بعد ثمانين كيلومتراً إلى الجنوب من كابول).

وفي الأسبوع الثاني من شهر مايو وبعد أن بدأت حرارة أوائل الصيف بتدفئة أفغانستان تقابل أخيراً الزعيم الديني والخان وتحدثا من خلال مترجم، وكان الرجلان العجوزان متساويين تقريباً، إذ كان كل واحد منهما بارزاً في مجاله الخاص، ويدرك كل واحد منهما نفوذ الآخر الذي اكتسبه بشق الأنفس، فكبار الرهبان لا يركعون للأباطرة، وبعد المزاح، إذ أعرب جنكيز عن سروره بأن مثل هذا الرجل الذي رفض دعوة إمبراطور آخر جاء من مسافة عشرة آلاف لي Li (وحدة صينية للمسافات وتساوي حوالي ثلث ميل) لمقابلته، فردّ

الزعيم الديني، ناسك الجبال المتواضع، بأن اللقاء كان إرادة السماء. دخل جنكيز في صلب الموضوع مباشرة:

«أيها البارع، ما دواء الحياة الطويلة الذي أحضرته لي من بعيد؟».

فلم يتردد الزعيم الديني في الرد قائلاً: «لدي وسائل حماية الحياة، لكن ليس لدي أي إكسير من شأنه إطالتها».

أحب جنكيز الحديث الصريح ولم يبدِ خيبة أمله، فنُصبت الخيام وطُرحت التساؤلات بشأن ما يجب تسمية ضيفه به (هل يسمونه الأب أم الزعيم الديني أم البارع؟ فاستقر جنكيز على لقب «الخالد المقدس Holy Immortal»)، وجاء الآن دور الغرض الرئيس من الرحلة، كما تصوره تشو تساي والزعيم الديني بنفسه، فالخالد المقدس الذي بلغ الآن من العمر الثالثة والسبعين سيعطي حاكم قلب أسيا (البالغ من العمر الثانية والستين) درساً حول المعيشة الجيدة والحكم الرشيد، لكن هذه المناطق لم تُروض بعد بالشكل الملائم، فمازال على جنكيز التعامل مع قطاع الطرق في الجبال، وهي مهمة ستستغرق شهراً من الزمن أو نحو ذلك، فقال الزعيم الديني إنه في تلك الحالة سيكون من الأفضل العودة إلى سمرقند، فسأل جنكيز: ألن يكون ذلك مرهقاً؟ فرد الزعيم الديني بأنه لن يكون كذلك، فالأمر لا يعدو كونه رحلة ستستغرق ثلاثة أسابيع هناك والعودة مرة أخرى، الأمر الذي لا يمثل مشكلة لشخص سافر بالفعل مسافة عشرة آلاف لي Li.

فعاد الزعيم الديني إلى سمرقند وعاش براحة إلى حد ما طيلة الصيف الذي برد من حرارته من خلال الرياح اللطيفة التي كانت تهب على شرفته والاستحمام في البحيرة، وزُوّد بالباذنجان والبطيخ - أطيب من أي شيء آخر يزرع في الصين - التي زُرعت في حقل أهداه إياه نائب الحاكم، وفي سبتمبر بدأت رحلة العودة إلى أفغانستان.

وكان جنكيز على وشك البدء برحلة العودة إلى الوطن، لكنه أوضح أنه يتعين على تشانغ تشون Ch'ang - ch'un والوفد المرافق له السفر معه، وفي الطريق، تبادل العجوزان أطراف الحديث، الأمر الذي أفضى إلى حديث مطول من تشانغ تشون حول «المبدأ Tao» المبدأ الذي يشكل أساس جميع الأشياء في السماء والأرض، فسجّل جنكيز كلمات الزعيم

الديني Master باللغتين المغولية والصينية، لقد كان هذا في العشرين من شهر نوفمبر لعام 1222، وأوضح الزعيم الديني Master، بوجود أهاي A - hai،حاكم سمرقند الذي كان يعمل كمترجم، قائلاً: «إن معظم الرجال يعرفون فقط عظمة السماء، لكنهم لا يفهمون عظمة المبدأ Tao»، فعندما ولد الإنسان في أول الأمر تألق بوهج مقدس وكانت خطوته رشيقة، لكن شهوته ورغبته الشديدة كانتا عارمتين لدرجة أن جسده أصبح ثقيلاً وبهت نوره المقدس، وانفعل الإنسان بالانغماس في الشهوات والارتباط العاطفي فأصبح جوهر حياته غير متوازن، ويسعى أولئك الذين يدرسون المبدأ Tao لاستعادة ذلك التوازن من خلال التصوف والزهد والتأمل، ويكمن في هذا أكسير الحياة الطويلة الحقيقي، تلك التركيبة الرمزية من المعادن، لذا ينبغي على الخان كبح شهواته والعيش بدون شهوة ورفض المذاقات الفاتنة وتناول الأطعمة الطازجة والخفيفة فقط والامتناع عن الشهوة، وذكرته هذه الأمور بليو وين Liu Wen وفتيات الحريم في بكين: «إن مجرد رؤية مثل هذه الأشياء يجعل من الصعب بالفعل ممارسة ضبط النفس، وأود أن تضع هذه الأمور نُصب عينيك»، فحاول أن تَنم بمفردك لمدة شهر، وأضاف قائلاً: «والأفضل من ذلك هو محاولة النوم بشكل أقل لطرد «أشباح الين Yin ghosts»، الدوافع الجنسية الدنيئة التي تسبب مثل هذه الفوضى في العقل النائم بلا حراسة، وستشعر بالدهشة للتحسن الذي سيطرأ على حيويتك، وكما قال القدماء: «إن الاضطجاع وحيداً لليلة واحدة فيه نفع أكبر من تناول الدواء لمدة ألف يوم».

وخلال رحلة العودة، وبصحبة الزعيم الديني المعتزل الذي ارتحل منفرداً قليلاً ليتجنب جلبة الجيش المسافر، تواصلت الدروس، مع بعض المزيد من النقد اللاذع، فقال الزعيم الديني لجنكيز: «ابدأ بنسيان المحرمات المغولية، مثل عدم الاستحمام في الأنهار في فصل الصيف وعدم غسل الملابس. إن هناك أموراً أكثر أهمية، ويقال إن سوء معاملة الأب والأم هو الأسوأ من بين الثلاثة آلاف خطيئة، والآن وفي هذا الصدد أعتقد أن رعاياك واقعون في خطأ بالغ، وستجري الأمور على ما يرام إذا ما استخدم جلالتكم سلطته لإصلاحهم».

لقد كان الخان مسروراً فقال: «أيها الخالد المقدس Holy Immortal، إن كلماتك صحيحة إلى أبعد الحدود، وهذا هو اعتقادي في الواقع». ثم قال لوزرائه وضباطه: «لقد أرسلت السماء هذا الخالد المقدس ليخبرني بهذه الأمور. انقشوها على قلوبكم». (لكنهم

لم يفعلوا ذلك: فلم يُذكر تشانغ تشون Ch'ang - ch'un في كتاب التاريخ السرّي The Secret History ولو لمرة واحدة).

وفي هذه اللحظة توسل الزعيم الديني للسماح له بالعودة إلى الصين، إذ وعد أتباعه بالعودة في غضون ثلاثة أعوام، وإذا كان عليه الوفاء بوعده فإن عليه الرحيل الآن، لكن جنكيز ألح عليه للبقاء بضعة أيام أخرى فقط وذلك لأن أبناءه سيصلون في وقت قريب، فكان التأخير جديراً بالاهتمام وذلك لأنه منح الناسك فرصة لتقديم نصيحة أخرى، إذ سقط الخان بينما كان خارجاً لصيد الخنازير البرية، وبقيت فريسته واقفة مكانها، بدلاً من الإسراع لطعنه بقرنها، فقال تشانغ تشون إن في هذا إشارة من السماء لتذكره بأنّ كلّ الكائنات عزيزة، يقصد حياة الخنزير البري في هذه الحالة. (من الواضح أن تشانغ تشون لم ينتهز الفرصة ليذكر أي شيء بشأن المليون أو أكثر من البشر الذين قُتلوا في الآونة الأخيرة، الأمر الذي كان الدليل عليه في كل مكان، فربما كانت تلك إرادة السماء، التي كان جنكيز فيها مجرد أداة بائسة.) وعلى أية حال، أصبح الخان طاعناً في السن وينبغي له ألا يخرج للصيد.

فرد الخان قائلاً: «أعرف تماماً أنك محقٌّ للغاية في نصيحتك هذه، لكننا للأسف نحن المغول تربّينا منذ طفولتنا على إطلاق السهام وركوب الخيل، وليس من السهل وضع مثل هذه العادة جانباً»، ومع ذلك، حاول وانقطع عن الصيد لمدة شهرين.

و في مقابلة أخيرة جاءت المكافأة التي لا بدّ أن الزعيم الديني Master وأتباعه كانوا يرجونها، إذ سأل جنكيز ليو وين Liu Wen عم إذا كان لدى الزعيم الديني Master الكثير من الأتباع في الصين، فرد ليو وين Liu Wen بأن هناك الكثير منهم، إذ رأى بنفسه الكثير من التابعين عندما كان يرافق الزعيم الديني Master. وفي تلك اللحظة كانت القوائم قد أُعدت من جامعي الضرائب الذين أرادوا نصيبهم من الدخل الذي جمعوه، وفيما يتعلق بهذه المسألة أمر جنكيز بإعفاء أتباع تشانغ تشون Ch'ang - ch'un من الضرائب - وفي الواقع، منظمته بأكملها - وهو مرسوم كُتب فيما بعد ومُنح الطابع الإمبراطوري، وكانت هذه خطوة ذكية، إذ كان تشو تساي Chu - tsai قد مهد الطريق لذلك، لكنه كان ينوي تطبيق القانون على جميع الرهبان، ولسبب ما لم يكن تشو تساي Chu - tsai هناك في تلك اللحظة، مما نتج عنه استفادة الطاويين Taoists فقط من هذا القانون، الأمر الذي لم يغفره تشو تساي

Chu - tsai للرجل العجوز الداهية.

وبهذا العمل الفذّ، أشعل جنكيز ثورة صغيرة من شأنها أن تخدمه ومستشاره الروحيّ على حد سواء، فبمجرد أن يصل تشانغ تشون Ch'ang - ch'un إلى الديار، ستتقهقر البوذية Buddhism أمام شكل جديد ومتمركز وشديد الطموح من الطاوية Taoism، فوصل تشانغ تشون Ch'ang - ch'un، الذي سافر بسرعة بمساعدة خيول البريد الإمبراطورية، عائداً إلى بكين في مطلع عام 1224 ليجد في استقباله حشوداً كبيرة من المعجبين، وكان الزعيم الديني Master حريصاً على وضع مرسوم جنكيز موضع التنفيذ، فحث أتباعه على قبول حكم المغول بصدر رحب، كما كان للإعفاء الضريبي تأثير رائع في التجنيد، فازدهرت الطاوية من كونها طائفة صغيرة تهيمن عليها البوذية الأم المنافسة، وشيدت جماعاتها المتزايدة من التابعين معابد جديدة - إذ منح حاكم بكين قطعة أرض لبناء معبد - واستولت على المعابد البوذية الخربة، وبالنسبة للطاويين Taoists، كان هذا زمن المعجزات والبشائر، إذ حلّقت طيور الغُرنوق فوق الرؤوس وتحول الماء المالح في إحدى الآبار إلى ماء عذب، كما دخل كوكب المريخ Mars برج العقرب Scorpio، مهدداً بوقوع كارثة تمكن الزعيم الديني Master من تفاديها بأداء الطقوس الصحيحة، وأنهى في حوادث عدة مجاعاتٍ بفعل قوة صلواته.

وفي عام 1227 عُين تشانغ تشون Ch'ang - ch'un رئيساً للحركة الطاوية الممتدة المعفاة من الضرائب، وفي الواقع أصبح مثل بابا طاوي، وجدد مقره البابوي Vatican ووسع المعبد الذي سُمي باسمه، لكنه كان يعرف أن لحظة موته قد اقتربت (كما يشعر أي شخص يبلغ التاسعة والسبعين من عمره ويعاني من مرض الديزنطاريا)، وعندما تسببت عاصفة عاتية في انهيار ضفة إحدى بحيرات القصر، تبسم الزعيم الديني Master قائلاً: «عندما تسقط التلال وتجف البحيرات، ألم يئْن الأوان لرحيلي؟».

وفي الثاني والعشرين من شهر أغسطس، بعد ستة أشهر من عيد ميلاده الثمانين بقليل مات الزعيم الديني، وبمصادفة غريبة، مات أيضاً تلميذ من أعظم تلاميذه في الشهر والسنة نفسها؛ وهي قصة سنذكرها في فصل آخر، وعبر لي تشي تشانغ Li Chih - ch'ang عن موته بكلمات بسيطة كضربات فرشاة الرسم، وفي ظهيرة ذلك اليوم، كتب الزعيم الديني

قصيدة حول الحياة العابرة وجوهرها الخالد، متطلعاً إلى اللحظة التي سيتخلص فيها من جسده ويصعد إلى الخلود المقدس». ثم ارتقت روحه إلى قاعة باوهسوان Pao - hsuan وعاد إلى الطهارة Purity، وملأ الغرفة عطر غريب الرائحة».

وينبغي القول إن الحالة النفسية التي أحاطت برحيله لم تنم عن حب عالمي وتقوى روحانية بالضبط. لقد كان تشانغ تشون Ch'ang - ch'un بارعاً في خدمة طائفته وأغاظ البوذيين الذين سادوا في ذلك الوقت، والذين سُروا لموته والظروف التي أحاطت به، إذ ذكروا أنه مات بمرض الدُزنطاريا بينما كان في المرحاض وسخروا بطريقة غير مهذبة بشأن طبيعة العطر الذي أحاط بموته.

لكن أتباعه كانوا كُثراً وكانت شهرته تتنامى، فعندما عُرضت جثته، أبدى عشرة آلاف شخص يومياً احترامهم، الأمراء والضباط والعلماء والعوام من الناس والرهبان والراهبات البوذيون وكذلك الطاويون، الذين كان عدد أنصارهم يتنامى يومياً، وأقام متطوعون معبداً تكريماً له في غضون أربعين يوماً فقط، وسيصبح وانغ المجنون وأتباعه مواضيع للمسرحيات والقصص، وستصبح تعاليم طائفة الكمال التام جزءاً رئيساً للطاوية الحديثة، وذلك تحقيقاً للقصيدة التي كتبها الزعيم الديني والبارع تشانغ تشون في ظهيرة اليوم الذي مات فيه:

الزبد العابر يجيء ويختفي

أما السيل فيمضي من غير تكدر

الفصل الحادي عشر

الحملة الأخيرة

بحلول عام 1224 أصبح لدي جنكيز الوقت أخيراً ليغير على شي شيا، المملكة التانغوتية التي رفضت إرسال تعزيزات له قبل خمس سنوات، وهو الأمر الذي اعتبره جنكيز صفعة في الوجه ممن هو أدنى منه منزلة، وإهانة غير مغتفرة وتهديداً للوجود الفعلي للإمبراطورية الجديدة. كما كانت شي شيا بمنزلة المفتاح لآسيا الداخلية، وبالتالي المفتاح للتوسع المستقبلي في الصين، لذا توجب تدمير شي شيا.

لكنه واجه كابوساً استراتيجياً، ففي هذه اللحظة كانت هناك أربع قوى تقاتل من أجل السيادة في آسيا الداخلية: المغول وشي شيا والجين في شمال الصين (الذين هُزموا بشكل جزئي على يد المغول) والسونغ في الجنوب، ووصلت المرحلة التالية في هذا الصراع ذروتها في عام 1227، وهو العام الذي شهد نقطتي تحول وقعتا تقريباً في وقت واحد، وهما موت جنكيز والحل النهائي لمعضلة شي شيا.

وفي ذلك الوقت كان يحكم شي شيا شاب جديد، يدعى «شيانسونغ» Xianzong، الذي لم يكن الرجل المناسب ليقود دولته مرة أخرى نحو الاستقرار السابق الذي كان قبل ظهور المغول، فوقّع معاهدة سلام مع منافسيه وجيرانه الجين، الذين كانوا بحاجة إلى فترة راحة من الحرب التي كانت تدور رحاها على ثلاث جبهات وذلك ربما لأنه توقع ما سيحدث، ولكسب الوقت، عرض المراوغ شيانسونغ عقد معاهدة سلام مع جنكيز أيضاً، مبدياً، برغم كل شيء، إمكانية الاعتراف بخطأ سلفه وتنفيذ ما سيملى عليه في المستقبل، فوافق جنكيز من حيث المبدأ، وذلك لأن عقد سلاماً مؤكداً مع التانغوتيين سيسمح بدوره له بمهاجمة بقية أجزاء الصين بأمان، لكن شيانسونغ كان عليه أن يثبت جديته من خلال إرسال ابنه كرهينة، وتبع ذلك فترة راحة وجيزة، مما سمح لجنكيز بإعادة جمع قواته وجعلها على أهبة الاستعداد لأي شيء يحدث بعد ذلك، لكن لم يصل الأمير إلى الرهينة، وعندما طلبه مبعوثو المغول، رفض الإمبراطور،الذي أعيدت طمأنته من خلال السلام الذي عقده مع الجين، تسليمه كليةً.

وفي هذه اللحظة حولت آلة حرب جنكيز عتادها، إذ واجه حليفين من الأعداء، وكان عليه التحرك بسرعة إذا ما أراد استباق قواتهم المتجمعة، فتقدم نحو الجنوب في خريف عام

1225 وكما حدث من قبل، كان طريقه يمر عبر صحراء غوبي وعبر سلاسل الجبال المعروفة باسم المحاسن الثلاث، حيث كانت تجوب قطعان الحمر البرية في أحواض الوديان المنتشرة بين السلاسل الجبلية، ولـم يكن جنكيز، الذي كان نشيطاً كعادته وقد بلغ منتصف الستينيات، ليفوت فرصةً لصيد ثمين، وفي لحظة ما، أحجم جواده الأحمر والرمادي اللون وسقط جنكيز عن ظهره، وتطلبت إصابته - خلع في الكتف، أو ربما رضوض في الضلع - فترة راحة.

وفي تلك الليلة تطورت حالة جنكيز وأصيب بالحمى، مما توجب تغيير الخطط، فاجتمع القادة وتباحثوا في الأمر، فخاطبهم تولون Tolun، ياور جنكيز Genghis's cherbi (مثل الياور الذي يعمل في البلاط الملكي) الذي رافق سيده خلال غزو الصين قبل ثلاثة عشر عاماً، بوضوحٍ قائلاً إن التانغوتيين سكان مدن وأنهم لم يذهبوا إلى أي مكان، فمن الأفضل أن ينسحبوا ويعطوا الخان فرصة للتعافي، ومن ثم يشنون الهجوم، لكن جنكيز لم يأخذ بهذا الاقتراح عندما نقل إليه قائلاً: «سيقول التانغوتيون إن قلوبنا قد خذلتنا»، وقال إنه من الأفضل أن يبقوا حيث كانوا ويحاولوا التأخير لكسب الوقت وإرسال رسالة للتانغوتيين تذكرهم بسبب الحرب، مشيرةً إلى أن الوقت لم يفت بعد بالنسبة لهم لصنع السلام إذا ما أرادوا ذلك.

وعندما سمع الإمبراطور بما توجب على سفير جنكيز قوله، كان حريصاً على العثور على مخرج لذلك، ومع ذلك، لم يكن شخصياً هو المسؤول عن رفض تقديم العون لجنكيز قبل خمسةً أعوام خلت.

فقطع القائد العام للقوات المسلحة، آشا Asha، الحديث قائلاً: «كلا، إن الذي تلفظ بالكلمات المهينة هو أنا!» وواصل كلامه بعنف في وجه المبعوثين في تحدٍ بلا هوادة قائلاً: «أنتم المغول يجب أن تعرفوا كيف تقاتلوا الآن، فإذا كنتم تريدون القتال، فعندي خيام مُشبكة وإبل محملة وشعب في وطني آلاشان. تعالوا إليّ في آلاشان! سنتقاتل هناك!».

وعندما وصل الرد سخط جنكيز، الذي كان لازال يتعافى من الحمى التي أصابته. لقد كان ذلك غطرسةً! وكان من المفترض أن يكون التانغوتيون تابعين لنا! والآن يحدث هذا، خيانة تلو خيانة وإهانة تلو إهانة، ولابد أن غضبه قد ازداد حدة عندما تذكر أنه قد عفا عن هؤلاء الناس فعلاً قبل عشرين عاماً، فلا مجال للخطأ هذه المرة، وذلك لأنه لا يمكن أن يكون له مثل

هذا الخصم في خاصرته عندما يحين الوقت لتصفية الجين ومهاجمة بقية الصين. لقد تعدى الخطر الاستراتيجيّة الإمبراطورية، وكان الأمر شخصياً بدرجة كبيرة، ويقتبس كتاب التاريخ السرّي كلمات جنكيز: «كيف لنا أن ننسحب إزاء هذه الكلمات القوية؟ لا يمكننا الرحيل بهذه البساطة، حتى لو كان ذلك يعني موتي، الله وحده يعلم،!».

لقد كان تحدي آشا Asha أكثر من مجرد استفزاز، إذ كشف عن مدى سطوته، كما حاكى ذلك التحدي تقليداً يعود لقرون عدة حسمت الدول المستقرة خلافاتها من خلاله، فإن كان من الضروري خوض المعارك، يتوجب على القادة معرفة المكان الذي يوجد فيه الخصم، كما يتوجب وجود قوانين للمعركة، وذلك لمعرفة النتائج، لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لجنكيز، إذ عرف الآن الااستراتيجيّة التي توقع آشا Asha المغول اتباعها، اندفاع قوي سريع من جهة الشمال عبر صحراء غوبي ومعركة لا خداع فيها في عقر دار آشا، حيث يمكن للتانغوتيين الاعتماد على مدينتيهم الرئيستين، مدينة ينتشوان ومدينة وو وي، للحصول على قوات احتياطية، وبالتالي سيفعل جنكيز العكس تماماً، فلن يكون هناك تسرع في خوض المعركة، فمن الضروري خوض هذه الحملة، كما هو الحال دائماً، بشروطه الخاصة، وعلى أية حال، اقترب فصل الشتاء، فانتشرت القوات في أودية سلاسل جبال المحاسن الثلاث، حيث قطّعوا المياه المتجمدة من جداول المياه واصطادوا الحمير البرية والأغنام الجبلية، وأبقوا اللحم مجمداً لحين الحاجة، وعلى الأرجح أن الكثير من القوات عادت إلى ديارهم لقضاء شهور الشتاء، تاركين معدات الحصار منتصبة بحبالها المتجمدة حتى عودتهم.

وفي الربيع، تجمعت القوات مرة أخرى بمجرد أن حرر الدفء البطيء مسرح الأحداث، وكان جنكيز، الذي رُعيَ حتى تعافى، بصحة جيدة بما يكفي لقيادة جيشه عبر المئة وستين كيلومتراً من الرمال والحصى التي تفصل المحاسن الثلاث عن الحدود الصينية اليوم، أعلى حدود شي شيا، وصولاً إلى حصن شي شيا الشمالي، المدينة التي عرفها المغول باسم خارا - خوتو Khara – Khoto، التي تعني المدينة السوداء Black City.

وكانت هذه المدينة عبارة عن حصن حدودي لما يزيد على ألف سنة، إذ حرس هذا الحصن أراضٍ كئيبة مفروشة بالحصى ساقت الرياح عبرها الكثبان الملتوية، لكنه كان حصناً حدودياً مزدهراً ربما ضم عدة آلاف من الناس وكان يقع على مفترق طرق حيث يمر طريق

فرعي من طريق الحرير من جهة الشرق يصل إلى منابع نهر يتسين Etsin، كما سمّاه المغول (كان اسمه الصيني جويان Juyan، ثم أطلق عليه اسم شو Shui اليوم) وهو النهر الذي تدفق عبر قفر صحراوي كالح إلى تلال جبال «غِلان شان» Qilian Shan السفحية الخضراء الناعمة، التي يطلق عليها الجبال الثلجية، على بعد ثلاثمئة كيلومتر إلى الجنوب، وكل ما تبقى اليوم من هذه المدينة هو مربع من الأسوار التي تسفعها الرمال يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار وتحيط بالحطام المنخفض والمتناثر للمباني المنهارة.

ولك أن تتخيل جيشاً من المحاربين البدو الذين أصبحوا الآن بارعين في حروب الحصار، بمقاليع قادرة على رمي قنابل ممتلئة بالبارود لحوالي مسافة مئتين إلى ثلاثمئة متر وقاذفات لهب وأقواس متعددة وربما الآن أول قنبلة انشطارية حقيقية، التي أطلق عليها «الرعد السماوي المزلزل» التي سُجل وجودها بعد سنوات قليلة فقط، وذلك في حصار كايفنغ في عام 1232، وتكوّنت هذه القنبلة من غلاف حديدي ممتلئ بالبارود الذي تفجر على نحو عنيف ويمكن سماع دويها من على بعد عدة كيلومترات؛ وكان أي جندي على بعد عشر أو اثني عشر متراً منها «يُنسف إلى قطع صغيرة، ولا يتبقى له أثر».

لم يكن لدى مدينة خارا - خوتا Khara - Khota أي خيار آخر، فقد كان حصارها هو أول خطوة في طريق غير مباشر لضمان عدم حصول شي شيا على قوات احتياطية عندما يحين الحسم؛ وإذا ما تجرأ آشا Asha على إرسال قوة من ينتشوان لتعبر خمسمئة كيلومتر من الصحراء، فإن قوّاته ستصل وهي منهكة، وذلك بسبب ضيق نطاق خطوط الإمداد التي كانت غير مناسبة بالكامل للمعركة، ففضل التانغوتيون، ورثة ثقافةٍ مهذبة ومتحضرة، أن يضعوا ثقتهم التامة في الأسوار المنيعة، فلم يندفع الجيش إلى الغرب لمواجهة المغول الذين لا يتمتعون بروح رياضية.

وكانت هذه السياسة تناسب المغول تماماً، فقد جمعوا قوّاتهم حيثما يكون لهم أكبر الأثر، في حين كان خصومهم منقسمين ولا يستطيعون التنقل، وبالإضافة إلى ذلك، سيكون المغول، إذا ما سقطت مدينة، كما جرت العادة، قادرين على الاستفادة من الأسرى والمنشقين والإمدادات والأسلحة للاستيلاء على المدينة التالية، بالتفاوض إن كان ذلك ممكناً، أو بالقوة إذا لزم الأمر، وكما حدث في خوارزم، لم تكن هذه حرباً خاطفة، إنما تقدم مطرد يدعم نفسه،

مصحوباً بزخم الانهيار بطيء الحركة.

وبعد مرور شهرين وعبور ثلاثمئة كيلومتر إلى أقصى الجنوب، حيث يتحول نهر يتسين Etsin شرقاً بسبب جبال غِلان Qilian، تمكن جنكيز من تقسيم جيشه، الذين عززوا الآن بالغذاء والأسلحة والحيوانات والأسرى والخائنين التانغوتيين، فتوجه سوبيداي Subedei نحو الغرب للإشراف على الهجوم على أكثر مدن شي شيا بعداً، بينما انطلقت القوة الرئيسة شرقاً صوب قلب الإقليم المتمرد.

وعلى بعد مئة وستين كيلومتراً إلى الشرق كانت تقع مدينة طريق الحرير المسماة كان تشو Kan Chou (قانتشو Ganzhou)، واليوم هي مدينة تشانغيه Zhangye الصناعية، لكنها كانت في عهد جنكيز مدينة واحة اشتهرت بمراعيها الخضراء وخيولها ومعبدها البوذي بتمثال بوذا المتكئ الذي يبلغ ارتفاعه أربعة وثلاثين متراً (وما زال المعبد وتمثال بوذا هناك) لقد كان جنكيز هنا من قبل، لفترة قصيرة، وذلك في الحملة التي خاضها عام 1205، وأُسر في ذلك الوقت صبي صغير وهو نجل القائد العسكري للمدينة، فتبنى الغلام أساليب المغول وحارب معهم وأثبت نفسه وحصل على لقب مغولي - تساغان Tsagaan (التي تعني الأبيض White) - وتقدم في حصوله على الرتب العسكرية وأصبح الآن قائد الحرس الشخصي لجنكيز، ومع ذلك، كان والد تساغان لايزال قائد المدينة العسكري، فأطلق تساغان على الأسوار سهماً يحمل رسالة لأبيه يطلب فيها عقد لقاء، فوافق الأب، وبينما كان ممثلو الطرفين يتحدثون عن بنود الاتفاق، اكتشف نائب القائد العسكري ما كان يحدث فرتب للبدء بانقلاب وقتل والد تساغان ورفض فكرة الخضوع بشكل كامل، فغضب جنكيز وهدّد - حسب ما ذكرته إحدى المصادر - بدفن السكان وهم أحياء. لكن في تلك الحالة وعندما سقطت المدينة، تدخل تساغان لإنقاذ سكان موطنه السابق، جميع السكان ماعدا الأشخاص الخمسة والثلاثين الذين شاركوا في الانقلاب الذي أسفر عن مقتل أبيه.

وفي أغسطس - بينما تجنب جنكيز الحرارة في الجبال الثلجية Snowy Mountains - كانت قواته على مداخل مدينة وو وي، ثاني أكبر المدن في شي شيا، وحيث إن منطقة غرب الصين اليوم كانت بأكملها تحت سيطرة المغول، فقد انتظر السكان قدوم المساعدة من العاصمة، لكن لم يأتِ أحد لمساعدتهم، وعندما رأى المواطنون أن الموت كان هو البديل

الوحيد للاستسلام، استسلموا وبقوا على قيد الحياة.

أما الآن فقد حل الخريف، فانضم جنكيز الذي عاد من عطلته الصيفية مرةً أخرى إلى صفوف جيشه عند النهر الأصفر وعبره.

ولا بدّ لي من المقاطعة هنا، فالمصادر لا تنصف تقدم المغول هنا، فالنهر الأصفر ليس عقبة يمكن القفز عنها في كلمتين، فهذا الامتداد، الذي يطوق جبال هيلان Helan قبل أن يتجه إلى الشمال ماراً بمدينة ينتشوان، يبلغ عرضه كيلومتراً من عصيدة الطمي، وهو ليس أصفر اللون على الإطلاق من وجهة نظري وإنما بلون بني عكر، وهو عريض جداً لدرجة لا تمكنه من شق طريقه إلى المياه البيضاء، لكنه يتدفق في سرعة مقبولة نوعاً ما في منتصف النهر، وبالرغم من أن الفرسان البدو تمكنوا - باستخدام عوّاماتهم الجلدية - من عبور النهر بخيولهم سباحةً، إلا إن النهر كان عميقاً جداً بالنسبة للعربات، وفضلاً عن ذلك، فإن مياه النهر كانت ضحلة بما فيه الكفاية لتملأ فاك بالأوساخ إذا ما غطست فيه، فقد سبحت فيه وفتحت عينيّ تحت الماء فلم أرَ شيئاً على الإطلاق، فخرجت وقد امتلأت بالأوساخ وخضْتُ خلال الوحل حتى فخذيّ. إن عبور هذا النهر يتطلب قوارب، وهي وسيلة من وسائل النقل لم تكن مطلوبة كثيراً في منغوليا، ومع ذلك ولحسن الحظ، كان لدى السكان المحليين وسيلة نقل نهرية، على شكل عوامات من جلود الأغنام أو الأبقار (وفي الواقع لا يزال لديهم مثل هذه الوسيلة: ففي نهر بلدة شابوتو Shapotou يمكن للسياح التمتع برحلات نهرية باستخدام منصات التجديف والاسترخاء على العوامات الجلدية) كما ذكرت مصادر القرن الرابع عشر كيف امتدت العوامات الجلدية فوق المنصات وزودت بالمجدفين وشكلت قوارب جيدة بما فيه الكفاية لشحن حمولات من الحبوب والملح عبر النهر المتدفق بسلاسة إلى مدينة ينتشوان، وما وراءها من مدن، ومن الواضح أن هذا لم يكن عرفاً جديداً، فهذه المنصّات العائمة لا بدّ أنها كانت معروفة لدى المغول من قبل، وعدلوها بسرعة لتصبح عبّارات تحمل العربات رباعية العجلات والعربات ثنائية العجلات والثيران والخيول المُحملة عبر النهر؛ كما استطاعوا من ناحية أخرى السير حاملين العوامات والمنصات معهم.

وبعد أن عبر المغول النهر، التفوا نحو الشمال واقتربوا من مدينة ينتشوان من جهة الجنوب الشرقي، وهو اتجاه معاكس تماماً للاتجاه الذي كان آشا Asha قد اقترحه عندما

أعلن تحديه.

لقد كان ذلك الأمر كافياً لملء أي حاكم بذعر مميت، وعلى مايبدو أن هذا ما حدث فعلاً، إذ مات الإمبراطور العاجز، شيانسونغ Xianzong، وانتقل كأس الملكية المسموم إلى أحد أقربائه، وهو شخص آخر من عشيرة وي مينغ Weiming ويُسمّى أيضا شيان Xian. لقد كانت فترة حكمه قصيرة للغاية وما تبع ذلك كان مهلكاً إذ إنه لنا لم يمثل شيئاً تقريباً وإنما مجرد طيف.

وفي نوفمبر، طوق المغول مدينة لينغ وو (لينغ تشو Ling - zhou كما كان يطلق عليها آنذاك، أو ترمغي Turemgi - التي تعني «المدينة العدوانية Aggressive City» - بالنسبة للمغول) وتقع على بعد ثلاثين كيلومتراً فقط جنوب ينتشوان، وفي هذه اللحظة، تحرك التانغوتيون أخيراً. لقد كانت مدينة لينغ وو، مثل ينتشوان، تروى عبر نظام ضخم من القنوات، وعملت هذه القنوات خلال معظم أوقات السنة كوسيلة حماية للمدينة، لكن الشتاء كان قد حل وتجمدت القنوات والنهر نفسه بصلابة، وعندما اقترب الجيش التانغوتي على طول الضفة المقابلة، أوقف المغول حصارهم، وعَدوا بخيولهم عبر النهر المتجمد وفرقوا التانغوتيين المرتبكين ثم عادوا إلى حصارهم، ولم يرد ذكر أية تفاصيل أخرى عن المعركة، لكن لا بدّ أنه كان واضحاً للطرفين أن التانغوتيين قد هُزموا.

لقد سقطت لينغ وو في شهر ديسمبر، والتفصيل الوحيد لدينا في هذه الحادثة هو أن القوات الجامحة ساء حالها لإصابتها بعدوى مرضٍ ما، ربما كان مرض التيفوس أو الدُزنطاريا، ونحن نعرف ذلك لأن تشو تساي Chu - tsai العالِم والمساعد الإمبراطوري الرحيم، الذي عاد من أسيا الوسطى، شهد مشاهد النهب والمعاناة وبذل قصارى جهده للحد من كليهما على حد سواء، وبينما «كان الضباط المغول يتنافسون مع بعضهم بعضًا للاستيلاء على الأطفال والنساء والأشياء الثمينة، لم يأخذ سعادته [تشو تساي Chu - tsai] سوى بعض الكتب وحمولة اثنين من الإبل من عشب الروَاند،» الذي استخدمه لمعالجة الجنود المصابين. إن هذا التفصيل شيء غريب، وأفترض أن عشب الروَاند قد ساعد الرجال الذين نفد منهم الطعام الطازج، لكننا ليس لدينا أي تفسير آخر.

ثم بعد ذلك، بينما حاصرت قوة مغولية مدينة ينتشوان، تقدمت قوة أخرى ليس فقط لتأمين المدن الأخرى الأصغر إلى الشرق والجنوب، لكن أيضاً للسعي وراء مخطط أوسع توقَعوا من خلاله تحييد قوات الجين، وبينما استمرت عمليات التطهير وحصار ينتشوان في شي شيا، اتجه جنكيز، الذي انضم إليه في هذه اللحظة سوبيداي Subedei مرة أخرى، صوب الجنوب والغرب، على بعد مئة كيلومتر فقط من حدود الجين، وكان الغرض من هذا التقدم هو اختراق لسانٍ ضيق من الحدود الغربية للجين بعرض مئة وخمسين كيلومتراً - التي تغطي بشكل رئيس مقاطعات نينغشيا وقانسو في الوقت الحاضر - وذلك لمنع قوات الجين القادمة من نجدة حلفائهم التانغوتيين وللتحضير للغزو النهائي لقلب الجين، ولتنفيذ هذا المخطط عبر سوبيداي الروافد الشمالية لجبال ليوبان Liupan، التي تغطي حوالي أربعمئة وخمسين كيلومتراً في خط مستقيم، وربما ضِعف ذلك على أرض الواقع، ونفّذ تقدمه المتعرج من بلدة إلى أخرى، وذلك في شهري فبراير ومارس: وهو إنجاز مدهش لجيشٍ كان في ساحة المعركة على مدار عام، واحتفل بنجاحه الذي حققه بإرسال خمسة آلاف من الخيول إلى سيده ومولاه كهدية.

وفي هذه الأثناء انطلق جنكيز صوب الجنوب، فصادف بالتالي، أو على الأقل اقترب من أثر تذكاري آخر غير عادي أوحى له بشأن عالم دنيوي آخر بدا الآن قريباً للغاية.

وسار الطريق الذي سلكته قوات جنكيز بمحاذاة نهر تشينغ شو Qing Shui، إذ يبدو الوادي للوهلة الأولى كطريق ملائم ومستوٍ، وفي الحقيقة، تتقاطع الحمولة الثقيلة من التربة الحمراء الداكنة مع الوديان الصغيرة التي يتغير مسارها بواسطة الجداول المتدفّقة من جبال ليوبان Liupan باتجاه الغرب ومن تلال شانغ Shang وتلال لوو Luo باتجاه الشرق، وعلى الأرجح أنه كان هناك جسور خشبية؛ ونظراً لأنه فصل الصيف، فإن نهر تشينغ شو Qing Shui نفسه كان مجرد مجرى هزيل بحوافٍ حجرتها الشمس تحت ضفافة شديدة الانحدار، وسواء أكان ذلك على الطريق أو على مجرى النهر الجاف، فإن تقدم العربات رباعية العجلات وآلات الحصار كان بطيئاً، وبطبيعة الحال، كانت وحدات من سلاح الفرسان حرة لتجول على نطاق واسع قُدماً وعلى كلا الجانبين، بحثاً عن أفضل الطرق لتوفير الغذاء ومواجهة الخصوم، وبالتالي لا بدّ أن جنكيز أخبر بما كان يقع على مسافة عشرين كيلومتراً

أعلى المسار المتعرج الذي احتضن الجوانب شديدة الانحدار لنهر سي كاو Si Kou («فم المعبد Temple Mouth») الذي يتصل بنهر تشينغ شو Qing Shui بمدينة سان يينغ San Ying المتربة لكونها موقفاً للشاحنات.

وبمجرد أن تنعطف في الطريق الذي يتقوس على طول الطبقات الملتوية من الحجر الرملي الأحمر، سترى واجهة جُرف غُطيّ بثقوب مثل أقراص العسل، وهناك أكثر من مئة جرف منها، وجميعها كانت عبارة عن صوامع للرهبان البوذيين يعود تاريخها إلى القرن السادس الميلادي، وكانت مرتبطة ببعضها بواسطة سلالم دورانية اقتُطعت من الصخور، ويسمى هذا المكان شومي شان، أي «جبل الكنز Treasure Mountain»، وفيما مضى، كان مكاناً رائعاً للسعي وراء التنوير، مكاناً بعيداً يخلو من الزينة لكنه جميل بمناظر تطل على وديان الرمل الحجري الحمراء ومرتفعات العشب المُبَثّر الخضراء، واليوم، ليس هناك رهبان، وإنما مجرد اثنين من الحراس كبار السن بأسنان ذهبية ونظارات أُمسكا بمشابك مفصلية ضخمة، وتلتمس أشجار الصنوبر كثيرة العقد طريقها بين الصخور بجذورها الملتوية كما يشوه أطفال المدارس الصخور الناعمة بالسكاكين، وإذا كان لدى روح شومي شان السلطة لمعاقبة كُتاب النقوش على الجدران، فإن وانغ يوجين Wang Yujin وجو يجينغ Gu Yijing وهما من شنغهاي Shanghai، من بين آخرين، سيصبحون خنافس في تجسيدهم التالي.

ويوجد في هذا المكان قوة تلوح حول حافة صخرية في شكل بوذا، استمدت قدسيتها من الصخرة التي اقتطعت منها، فتُظهر العيون نصف المغلقة والطيات الرسمية للرداء صورة تقليدية للصفاء والتنوير، وينبع الأثر الحقيقي من الحجم الكامل للتمثال، فعلى الرغم من كونه جالساً، إلا إن تمثال بوذا يبلغ طوله 20.7 متراً - سبعة وستين قدماً، فأذناه الضخمتان فقط يبلغ طولهما ثلاثة أمتار، وقد عَرّف جورج برنارد شو George Bernard Shaw ذات مرة المعجزة على أنها شيء ما يخلق الإيمان، وعلى مدار قرون من الزمان لا بدّ أن هذا العملاق المنحوت من الصخور كان بمنزلة معجزة بالنسبة للمترهبنين المُرَوعين، وربما لا يزال له التأثير نفسه، طالما أنه لا يزال يصل إليه المترهبنون، وذلك لأنه نجا إلى حدٍ ما مما هو أكثر من عوامل إتلاف الزمان والطقس، ففي الستينيات لعام ألف وتسعمئة، دمّر الحرس الأحمر Red Guards الذين كانوا عاقدي العزم على تدميره - أثناء الثورة الثقافية - ساقه السفلى قبل

أن يتوقفوا عن فعل ذلك. أمّا الآن فقد أصلح ويجلس بساقه التي ألصقت بالاسمنت، ناظراً بوجهه نحو الشرق عبر وادي النهر الضيق كما فعل على مدار السنوات الألف والأربعمئة السابقة.

وفي ظل وجود هذا الإظهار الضخم للإيمان، فإن الشك يتراجع ويبدو التواضع أمراً مناسباً، ومقابل «يوانين»، أشعل الخادم، الذي لم يكن بوذيّاً أكثر منا، ستة أعواد من البخور ووضع وعاءً فضياً به الكثير من الثقوب يرن بطرقة من مطرقة خشبية وتلا صلاةً من أجلنا، فحنيت أنا وجورجيت Jorigt رؤوسنا.

وأود أن أتخيل أن جنكيز قد شعر بشيء من هذا القبيل عندما مرّ بهذا الطريق في ربيع العام 1227، لكن بأجندة أكثر شخصيةً، إذ كان على وشك تدمير سلسلة من الملوك الذين ستصبح قريباً أضرحتهم الكبيرة فارغة وبلا أسقف، مذكرةً الأجيال القادمة بالفشل المطلق، وهنا خُلق شيء ما بواسطة الإيمان وبراعة الفنان وعُبد على مدار عدة قرون من الزمان، وسيكون بؤرةً للعبادة على مدار قرون قادمة، والآن، ومع وقوع حدثين من السقوط المروع، وهما الحمى التي أصابت الجيش والسنوات التي تمر مذكرة إياه بكونه عرضةً للموت والفناء، أُخمن أن جنكيز سيأخذ بعين الاعتبار سمعته بعد وفاته، أملاً أن يتم تذكره نوعاً ما ليس فقط من خلال الجثث والمدن المدمرة وحدها، لكن كيف سيحدث ذلك؟ فعلق جورجيت Jorigt على ترنيمات المزمار التي جاءت من دير شومي شان المهجور قائلاً إنه لن يهتم أي بدوي حقيقي بمجرد آثار، فالمعابد والأضرحة تختفي بسهولة بالغة في الرماد. لكن اجعل من نفسك شيئاً يُعبد، وستعيش في القلوب والعقول إلى الأبد.

وبعد أسابيع قليلة، خمن جنكيز، الذي كان يقود حصار منطقة لونغ ده Longde، أن مدينة ينتشوان،العاصمة، ينبغي أن تكون جاهزة للاستسلام، فأرسل ضابطه التانغوتي، تساغان Tsagaan، للتفاوض معهم، فوجد تساغان Tsagaan أن ستة شهور من الجوع والمرض كان لها بالفعل أكبر الأثر ما جعل الإمبراطور شيان Xian مستعداً للاستسلام، فقال الإمبراطو إن كل ما كان يلزمه هو منحه مهلة شهر ليُعد الهدايا المناسبة، ولابد أن شيان Xian، الذي كان قد تولى الحكم لبضعة أسابيع فقط، أمل في تلقي معاملة لينة وحكم طويل الأجل كتابع لجنكيز، لكن لم يكن لدى جنكيز أيّ نيّة في منحه أيّاً منهما. كما لم يُلمّح

أيضاً بغرضه الحقيقي، الذي كان، كما هو الحال دوماً مع أولئك الذين قاوموا، وبالذات مع هذا الشعب الذي غدر به مرتين، يتمثل في عدم الرحمة على الإطلاق، فلم يعد هناك أية أسس للثقة أو المصالحة، فالتانغوتيون أهانوه ونقضوا الوعود ورفضوا إمداده بالقوات وخذلوه في إخضاع المدن، ولا سيما عاصمتهم ينتشوان، وكما يذكر كتاب التاريخ السرّي The Secret History بتجهم أن جنكيز أصدر مرسوماً بشأنهم قائلاً: «بينما نتناول الطعام، دعونا نتحدث حول طريقة موتهم وتدميرهم. دعونا نقول: «لقد كانت هذه هي النهاية، فلم يعد لهم وجود بعد الآن». وكخطوة أولى في هذه العملية المريعة، كان يتوجب قتل الحاكم التانغوتي، وبالتالي وافق جنكيز على الاستسلام الرسمي وأرسل ياوره تولون Tolun للعب بدور الوصي على العرش واحتفظ بخططه الحقيقية لنفسه ولم يبدها.

وحل فصل الصيف الآن، وكان جنكيز قد أسس لنفسه قاعدة في جبال ليوبان Liupan، بالقرب مما يسمى اليوم مدينة قويوان، حيث واصل تلاعبه بأساليب الحرب والسياسة، فكان يشن الهجمات حيثما اقتضت الضرورة، مع بقائه منفتحاً دائماً لإمكانية نيل ما يريده بالتفاوض.

لقد انتهت شي شيا بشكل فعلي، وعلم حكام الجين بذلك، ففي الشهر نفسه الذي وافقت فيه شي شيا على الاستسلام، أرسل إمبراطور الجين، وفقاً لتاريخ أسرة يوان الرسمي، وفداً من أجل التوسل لإحلال السلام، ولا بدّ أن المقابلة كانت مناسبةً عظيمة ورسمية، عرض خلالها جنكيز على المبعوثَين كلاماً معسولاً، فذكر أنه قد كان هناك اقتران لخمسة كواكب قبل بضعة أشهر، وهو فأل ألهمه بأن يَعِد بإنهاء عمليات القتل والنهب. كما أخبر أتباعه قائلاً: «ولكني بسبب تسرعي لم أصدر مرسوماً بذلك، أما الآن فأعلنوا الأمر على نطاق واسع في الداخل والخارج وتأكدوا من أن يعلم هؤلاء السفراء بأمري الملكي!».

ومن الواضح أن إنهاء عمليات القتل والنهب لم يعنِ إحلال السلام بالضبط، وذلك لأن التقدم تواصل عبر أراضي الجين، بقيادة جنكيز بنفسه. لكن على بعد مئة كيلومتر إلى الجنوب من جبال ليوبان Liupan، بالقرب من الحدود الفاصلة بين الجين والسونغ، أصاب جنكيز المرض - إذ مرض مرضاً شديداً لدرجة أنه هرع إلى الشمال مرةً أخرى، الأمر الذي أدى إلى الأحداث الغريبة التي وضعت العمل الذي أفنى حياته لأجله في خطر محيق.

الجزء الثالث

الموت

الفصل الثاني عشر

وادي الموت

لا تُعد مدينة «قويوان»، جنوب «نينغشيا» مكاناً مناسباً للسياح، فهي مدينة فقيرة في أكثر المقاطعات الصينية فقراً، تقطنها أقلية مسلمة، يطلق عليها اسم «الهويthe Hui» وهم من أفقر الفقراء في تلك المنطقة، وإلى الجنوب من النهر الأصفر تحولت السهول الخصبة التي رويت بقنوات نهر «الينتشوان» إلى مناطق مشكلة، فالتربة هناك غنية بما فيه الكفاية - يصل سمكها أحياناً إلى خمسين متراً - ولكنها طبقة واحدة غير متمايزة من الأراضي الكئيبة المهملة على مدى آلاف السنين بسبب رياح صحراء غوبي، ولكنها غير مستقرة حتى يتسنى زراعتها، فالأمطار تجرفها، وحرارة الشمس تجعلها يابسة، وتلفها الرياح بسحب الغبار، وتجرف السيول الوديان الصغيرة غير المستقرة، ففي هذا المكان يمكن لحقل خُصب في عام كامل بفعل التوازن المبارك للمطر والشمس أن يُمسح ويُجرف إلى البرية لعشر سنوات قادمة، فلا يوجد شيء ثابت، لا المحاصيل ولا منازل الطين ذات اللون الأحمر الغامق، كما إن دائرة الفقر لم تُكسر بعد حتى مع وجود الحجارة والأسمنت، والقنوات والبحيرات والمباني الدائمة.

وبالرغم من أن التعليم هناك إلزامي، إلا إن القليل من عائلات «الهوي» تستطيع تحمّل الرسوم السنوية المطلوبة التي تُقدر بخمسة عشر جنيهاً إسترلينياً، ففي أحسن الأحوال، تتعاون أفراد العائلة معاً لإرسال طفل واحد إلى المدرسة، التي قد تبعد عن البيت مسافة ساعتين من المشي، وعلى الرغم من ذلك فإنه (عادة ما يكون صبياً) لا يحمل معه الكثير ليمده بأسباب الحياة سوى كسرة خبز، أو أقل من ذلك. هذا ما علمته من معلمة أجنبية في مدينة قويوان، وهي «مويرا ليدلوMoira Laidlaw»، ويبلغ عدد سكان البلدة التي أمضيت فيها ليلة واحدة مئة ألف نسمة، لكن الأجانب هناك كانوا ندرة غريبة، لذا التقينا حتماً كأحجار المغناطيس، وبادر أحد الطلاب بالحديث معي قائلاً: «أنت إنجليزي. يوجد هنا مُدرسة لغة إنجليزية. إنها صديقتي. اتبعني»، وبينما كنا نتناول الشاي والشعرية، التي طلبت باستخدام لغة الإشارة من قائمة طعام مزودة بالصور، أخبرتني «مويرا» عن عملها في هذه الظروف المزرية. لكن تلك الظروف لا تعدّ مدعاة لليأس، فالظروف معروفة لكلٍ من الحكومة ووكالات الإعانة الأجنبية (لهذا السبب توجد مويرا)؛ لكن التغيير سيستغرق سنوات - وربما عقوداً - وفي الوقت

نفسه، يتضور الطلاب، الذين يعون أن مستقبلهم يعتمد على التعليم، جوعاً، وخارج المدينة يبقى الكثير من الأطفال في البيوت للعمل في الأرض، فمن ذا الذي يستطيع أن يستثمر وقته وجهده في التعليم تطلعاً للمستقبل في حين أن الغذاء هو ما يحتاج إليه اليوم؟

لذا كان من المفاجئ أن نجد في مدينة قويوان متحفاً رائعاً، يعكس ماضياً ثرياً إلى حدٍ ما، ففي قديم الزمان لم تكن بلدة قويوان بلدة ريفية متخلفة على الإطلاق، إنما كانت مركزاً تجاريّاً على طريق الحرير، مع سور مزدوج بطول ثلاثة عشر كيلومتراً تقريباً وعشر بوابات، وجميعها معروضة في نموذج مصغر للمدينة بأكملها كما كانت عليه في أواخر العصور الوسطى، إذ كانت هذه البلدة غنية على مدار عدة قرون، وأظهر زعيم القرن السادس المحلي، قائد يدعى «لي شيان Li Shien» قيمة مقبرة تحت الأرض، يمكن الوصول إليها من خلال نفق منحدر بطول أربعين متراً، ويحرسها جيشه الخاص المكون من مئتين وسبعة وثلاثين جندياً طينياً، وربما أن «لي» نفسه اشترى أعظم كنز في المتحف، زهرية فضية أنيقة يعود تاريخها للقرن السادس، زُينت بمشاهد مستوحاة من أساطير «طروادة القديمةancient Troy»، وبدا لي غريباً جداً بأن «آلهة الحب والجمال والخصوبةA - Foo - Do - Te» - أفروديت Aphrodite - يجب أن ترقص هنا مع «مينليوسMenelaus»، و«هيلين Helen» و«باريس Paris» على زهرية فارسية صُنعت بعد ألفي عام من سقوط «طروادة Tory» في مدينة صينية، تبعد مسافة أربعة آلاف وخمسمئة كيلومتر عن بلاد فارس، وسبعة آلاف كيلومتر عن «طروادة» نفسها.

لقد سقطت «قويوان» في يد المغول عام 1227 دون تذمر، وبسهولة شديدة لدرجة أنه لم يذكرها أحد، فقد كان «جنكيز» يعي تماماً حاجت إلى ذلك المكان، وذلك لأنه وصل قبل ثماني سنوات فقط إلى أقصى الغرب إلى الطريق نفسه، في بخارى وسمرقند، وإذا سارت الأمور كما ينبغي، فإن المغول سيسيطرون على طريق التجارة بأكمله الذي يربط الصين عبر آسيا الوسطى إلى أوروبا.

وفي الجوار مباشرة كان هناك القاعدة العسكرية الأكثر مثالية، التي كان علينا أنا و«جورجتJorgit» أن نزورها برفقة نائب مدير المتحف، «يان شيشونغ»، إذ كانت وجهتنا متنزه غابة «ليوبان شان Luipan Shan» الحكومي، الذي يبدو أن «يان» وكل من هو موجود

هناك كان يعرف بأن «جنكيز» قد قضى فيه أيامه الأخيرة.

ولمسافة سبعين كيلومتراً، تمتد الطريق جنوب «قويوان» فوق تلال ناعمة، ويتبعثر رداؤها الصيفي من العشب والمحاصيل هنا وهناك حيث جرفت الأمطار الوديان بنية اللون، وعلى يميننا كان يعلو جبل «ليوبان Luipan» بلونه الأخضر كالزمردة والممتد كأنه ظهر سحلية، وقبل الوصول للطرف الجنوبي لمقاطعة «نينغشيا» يمكنك أن تلتف نحوهم وتتجه مباشرة نحو وادٍ شديد الانحدار من الناحيتين، وبعد عدة كيلومترات، يحيط صفان من المباني ببوابة المتنزه الغريبة، يلتوي تنّين أبيض حول مستطيل، ويمتد عموده الفقريّ الخراساني الشائك على جانبي الطريق.

وما بعد ذلك تمتد برية ذات جمال مدهش وعزلة مدهشة على حد سواء، بالرغم من كونها مألوفة للمتنزهين اليوميين، فهي مجهولة تماماً للأجانب، ولم يرد ذكرها في أي دليل سياحي، وذلك لكونها متنزهاً جديداً، يصعب الوصول إليه، مع طريق لا يزال قيد الإنشاء ولا يوجد مكان للإقامة سوى عشر غرف بسيطة عند مدخل التنين، لكن الزيارة تستحق كل هذا العناء، لكونه مجداً هائلاً لم يمسسه بشر، ستة آلاف وسبعمئة وتسعون كيلومتراً مربعاً، ما يعادل منطقتين إنجليزيتين ريفيتين، وأكبر من ولاية «ديلاوير Delaware»، هكذا يقاس مربعها على الخريطة. أما على أرض الواقع فهي تجاعيد ثلاثية الأبعاد، سلسلة تلو سلسلة من التلال المكسوة بالغابات والقمم والوديان الصغيرة المنجرفة من الجداول، التي يجب أن تضاعف تقريباً منطقتها السطحية، وداخل البوابة، ينحني الطريق الجديد إلى الأعلى حول منعطفات حادة، مع مناظر دوماً فخمة من المنخفضات المدرجة التي تتلاشى في الضباب خلفنا، وكنا في طريقنا إلى قلب الحديقة، وهي نهاية الطريق، الذي أقام فيه «جنكيز» معسكره الأخير، فتخيلت الخيام والمراعي، وهو منظر لم أستطع أن أُوفق بينه وبين هذه الغابات البارزة، وهنا بلغ الممر ذروته ومن ثم انخفض في وادٍ مليء بأشجار التنوب والصخور والمياه سريعة الجريان، ومن ثم صعد مرة أخرى، نحو مشهد أصابنا بالإحباط.

تكون معسكر «جنكيز خان» الأخير من ثلاث «خيام مغولية» صُنعت من خرسانة ناعمة ولطيفة وجديدة، وزُينت قبابها المدببة بشريط من أعلام ملونة صغيرة، وامتلأ موقف السيارات بست عربات وأنواع مختلفة من الدراجات النارية، وفي فضاء واسع خلف الخيام الخراسانية

وقف زوجان من الخيول وعربة مزرعة خشبية قديمة، كنسخة صينية قديمة ومزيفة من – لوحة هاي وين لكونستبلye olde mock - Constable haywain، وكم تمنيت لو أنها لوحة أصيلة، ولكني اكتشفت أنها من الفن الهابط.

لكن مهلاً، فحينما بدأ «جورجت Jorgit» والسيد «يان Yan» عالم الآثار من «قويوان» بالحديث مع مرشد المعسكر، أخذ بعض راكبي الدراجات النارية سريعة الحركة بالدوران حول الخيول، فتجولت للمشاهدة، ووجدت نفسي أحدق في شيء لا يتلاءم مع الخيام الخراسانية والسياح. لقد كانت منضدة مع ثمانية مقاعد، منضدة مصنوعة من حجر منقوش ضخم ودائري، والمقاعد كانت عبارة عن كراسٍ حجرية أسطوانية ذات حجم معين، وجميعها كانت قديمة بشكل واضح.

ومن ثم لحق بي الآخرون، لمناقشة السؤال الحيوي المتعلق بوجبة الغداء للاحتفاء بهذه الزيارة الفريدة من السيد «يان»، فأجبت؛ نعم، نعم، الغداء، بطبيعة الحال، لكن لأي زمن تعود تلك الحجارة القديمة الملقاة على الأرض؟

فأجاب الدليل الشاب، من قبيلة «الهوي» والبالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، والذي يدعى «ما Ma» أنها تعود «لأسرة يوان». ثم أضاف: «أترى تلك الحفرة في المنتصف؟ إنها دعامة العلم. لقد استعملها «جنكيز».

فتساءلت باستغرابٍ: «ماذا؟ كيف عرفت ذلك؟».

فروى «ما Ma» خريج كلية السياحة بمدينة ينتشوان، القصة بتأكيد مطلق، مشيراً إلى الدليل الرسمي السياحي كدليل على صحة روايته.

«في عام 1227، قضى «جنكيز» الصيف هنا، وكان ذلك مثيراً للغاية، فعندما هاجم شي شيا، سقط من على ظهر فرسه، وأصيب بجرح. لكن كان عليه واجب القتال، لذا جاء إلى هنا، حيث درب قواته، واصطاد واعتنى بجسده. لكن ذلك الاعتناء لم يكن ناجعاً، لذ مات هنا، وكان الطقس شديد الحرارة فبدأ جسده في التحلل، ولهذا السبب دُفن هنا، وكان سرجه وبعض التجهيزات الأخرى هي الأشياء الوحيدة التي نُقلت لتدفن في مكان آخر».

لقد كان ذلك ادعاءً مدهشاً، إذ لا يوجد أي مصدر آخر يشير إلى أن «جنكيز» بالفعل دُفن

هنا، في جبال «ليوبان شان Liupan Shan»، فروايته ستقوض القصة بأكملها، ليس فقط العنصر الأساسي في بحثي، ففي الحقيقة، لقد كانت رواية منافية للطبيعة والعقل لدرجة أنني في الحال بدأت أشك في كل ما قاله.

ما الذي ميز هذا الوادي الغامض المكسو بالأعشاب والصعب الوصول إليه، من منظور المفاهيم التاريخية؟

«الطقس معتدل البرودة في الصيف، كما أن المكان مناسب للتدريب، هذا هو رأيي. إنه موقع عسكري هام، ومركزي للقوات المغولية بدءاً من مقاطعة «قانسو» وحتى «شانشي»، فإذا ما احتل شخص هذا المكان - سيبسط يده على التلال المحيطة، «ولن تستطيع قوات العدو الوصول إليه، وبالتالي تستطيع أن تسيطر على كل المنطقة المحيطة».

لقد بين النظر إلى الخارطة أن الكثير من هذه الأمور كان صحيحاً، إذ كانت جبال «ليوبان Liupan» تبعد مسافة مائتي كيلومتر عن حدود شي شيا ومئة وخمسين كيلومترا عن حدود «السونغ» في وسط الجناح الغربي لدولة «الجين» تماماً.

فوجهت سؤالي للدليل الشاب مرة أخرى: «هل تعتقد أن «جنكيز خان» كان هنا فعلاً؟».

فأجاب الدليل بالقول: «أوه، نعم. نحن نعلم ذلك، ففي أعلى ذلك الطريق يوجد المكان الذي استدعى إليه قادته معاً لإطلاعهم على ما يجري، وهذا هو مركز التدريب، كما يوجد مكان آخر يدعى مركز القيادة».

فهمهمت متسائلاً: أكان من الممكن لجيش بأكمله - بآلات الحصار وكل ما يلزم - أن يشق طريقه فوق ممر شديد الانحدار؟ ومرة أخرى، كيف سيخيمون؟ وكيف سيتدربون؟ فالمكان كان برمّته عبارة عن غابة، ولا يوجد مرعى، وكان «ما Ma» لا يزال يواصل حديثه، ويثرثر بكلام غير مترابط حول قدوم إمبراطور شي شيا لمقابلة «جنكيز» هنا وكيف أن «قوبلاي خان Khubilai Khan» حفيد جنكيز، هو القائد الذي استطاع في النهاية تحطيم شي شيا، فقاطعته قائلاً: إن هذا مزيد من الهراء، أحتاج إلى دليل.

فأجاب بالقول: «الحجارة هي الدليل».

فسألت: «لكن هل تعني أن هذه الحجارة كانت موجودة هنا؟».

فرد: «لا، لكن في الجوار، في أعلى الطريق تماماً».

لقد كانت السماء صافية، ولم تكن الشمس حارة، ولا زال موعد الغداء بعيداً، ولا يزال لدينا الوقت لنتجول لمسافة أبعد، حيث تحولت الطريق إلى مسار يرتفع عبر غابة من أشجار التنوب، والتحقنا بمجموعة صغيرة من الزوار الصينيين اللطيفين الساعين خلف الأشياء الطبيعية، كما علق المغولي «جورجتJorgit» بشكل وقح قائلاً: إنهم يتحسسون الأرض غير الممهدة تحت أحذيتهم المنزلقة وكعوب أحذيتهم العالية، وفجأة توقف «ما» وأشار بشكل مبهم أسفل المنحدر المكسو بأشجار التنوب، وقال: «لقد وجدوا الحجارة هنا»، فسألت: «من الذي وجدها؟».

فأجاب قائلاً: «علماء الآثار. لكن عما قريب لن يعرف أحد أين وجدوها، وذلك لأن جميع هذه الأشجار ستنمو بشكل كبير».

وكان ينبغي أن ألاحظ أن هذه الأشجار كانت صغيرة، وكان ينبغي أن أخمن السبب، لأن «مويرا ليدلوMoira Laidlaw» معلمة اللغة الإنجليزية في «قويوان» أشارت إلى أحد تجاوزات الثورة الثقافية الحمقاء، وذلك عندما شرع قادة الصين العظام في حملة لاستئصال العصافير، ومن الواضح، أن العصافير ستموت إذا لم تجد أشجاراً تعشش عليها، لذا فإن الحملة ضد العصافير تحولت إلى حملة ضد الأشجار، وقد أثبت هذا، بطبيعة الحال، أنه عمل كارثي، أدى إلى تعرية المدن، وتجريد سفوح التلال، وشجع على تآكل التربة وبالقطع لم يكن له أي تأثير في العصافير، وفي نهاية المطاف تأرجح البندول، ونُسيت مكافحة العصافير وشرع بمبادرة جديدة، وكان على كل شخص، في كل مكان أن يزرع الأشجار، وهذا الإعلان الحديث عن إنشاء حديقة وطنية، أدى إلى خلق غابة فورية، لذا، خمنت أخيراً، السبب وراء النمو السريع للغطاء الكثيف من أشجار التنوب.

لقد كان هناك ثغرة واحدة صغيرة في تفسيرات سبب نمو الغابة: لو كانت هذه الغابة موجودة قبل الثورة الثقافية، كيف وجدت الحجارة هناك؟

فأجاب «ما» قائلاً: «لم تكن هنا أشجار من قبل».

فسألت: «ولم لا؟».

فأجاب «ما» الذي كان صبوراً جداً معي: «لأنها قطعت».

فقلت: «إذن كان هنا أُناس من قبل؟».

فقال: «الكثير من الناس، مزارعين وصيادين».

وفجأة فهمت المتنزه بشكل مختلف، إن هذا المكان لم يكن برية بدائية، وإنما وادٍ خفي حيث عاش ذات مرة مجتمع بأكمله، يقطع الأشجار لإشعال النار وليفسح المجال للحقول، وليزرع المحاصيل، ويربي الحيوانات، ويفتش الغابة بحثاً عن الخنازير والأرانب والغزلان، ويحافظ على الاتصال بالعالم الخارجي عن طريق الممر شديد الانحدار الذي عبرناه للتو، ليس طريقاً جديداً على الإطلاق، إنما ممر قديم، فُتح للخيول والعربات، وإذا كان هناك ناس في هذا الوادي الآمن والخصب حتى قبل بضع سنوات خلت، فبكل تأكيد كان هنا ناس دوماً، ولعدة قرون، وفي عام 1227 ربما كان هذا الوادي فضاءً ضخماً من المحاصيل والمراعي، وقاعدة رائعة تماماً لإخفاء جيش بدوي.

ولكني كنت بحاجة إلى شيء يوضح كل هذه الأمور، وربما يساعد الفولكلور في ذلك، وربما يوجد بعض كبار السن لأتحدث معهم.

لكن «ما» رد قائلاً: أوه، لا.. لا يوجد أحد هنا، لأن هذا المكان هو متنزه حُرجي حكومي، ورُحل الجميع من هنا، ورحل من تبقى منذ أربع سنوات خلت».

وحتى الآن تجولنا إلى مسافات أبعد نحو الأعلى، إلى ما وراء أشجار التنوب وإلى أحضان الغابة متساقطة الأوراق الباردة واللطيفة، وبالمصادفة البحتة لمحت من خلال فجوة في أخشاب البتولا الضئيلة ورأيت شيئاً ما يشبه البقع السوداء على بعد كيلومترين يوجد في نهايتها منحدر مغطى بالأعشاب.

فوجهت حديثي إلى «ما» قائلاً: «لكن انظر. أليست تلك منازل؟» المنازل التي كانت تقف في الريف المفتوح بشكل رائع، بلون أخضر ناعم باهت كما لو كانت ملفوفة بعباءة الحبوب الناضجة، وبدت كما لو أن الجبال عبرت عن مشاعر الترحاب. ثم سألت «ما»: «أليست تلك

حقولاً؟ ربما يوجد هناك ناس».

أجاب «ما» بإصرار: «كلا، لا يوجد ناس! جميع السكان رُحلوا!».

فقلت: «حسناً، ربما ما زال هناك شخصٌ يفلح تلك الحقول».

فأجاب: «كلا، على الإطلاق».

فقلت: «نعم يوجد. هذه حبوب جديدة، ومحاصيل جديدة».

فرد: «كلا، ليست جديدة. مستحيل. لم يأتِ أحد إلى هنا منذ أربع سنوات!».

لقد كان أمراً مؤلماً للغاية، إذا كان هناك محاصيل، فهذا يعني وجود ناس، ووجود الناس يعني وجود رواة وفولكلور، وربما دليل أكبر عما جرى هنا فعلاً.

وفجأة قلت «لما»: «انظر، يوجد هناك ممر ومسارات سيارات». مشيراً إلى فجوة في شجيرات على جانب الطريق»، فلو كانت فعلاً مسارات سيارات، فإنها تكونت جراء مرور سيارات صغيرة جداً عليها.

فأجاب «ما» الذي وجد صعوبة في مواصلة النقاش الآن: «كلا، إنها الشرطة على دراجات بخارية!».

أين نذهب، ولرؤية من أو ماذا؟ ساد الصمت، وكان «ما» مرغماً على كل هذا وبدا من الواضح أنه مضلل، تماماً مثل «جورجت» الذي كان يعمل كمترجم وحارس سلام، إذا قاد الممر إلى المنازل، ستستغرق رحلة الذهاب والإياب ساعة واحدة فقط، فالغداء في انتظارنا.

فانطلق ثلاثتنا، ووجدنا أنفسنا في غابة مبهجة وآمنة، مسار مفتوح يقودنا إلى جداول حلوة ونقية كزجاجات المياه المعدنية، تحت ظلة من الأشجار رشَّحت ضوء الشمس إلى نقط خضراء، ولم تكن المسارات، التي تكونت منذ بضعة أيام فقط، قد صُنعت جراء مرور سيارة أو دراجة بخارية، إنما تشكلت جراء مرور واحدة من الجرارات الزراعية الصغيرة ذات العجلتين بمقاود طويلة يدير دفتها من يجلس على المقطورة.

لكن عندما وصلنا، واجتزنا البركة والحقل اللذيْن رأيتهما عندما كنا على الطريق - لم

يكن الحقل مزروعاً بالحنطة، لكن بشيء يشبه الشعير، لكن أصغر حجماً - دخلنا إلى قرية أشباح، وكانت المنازل الحجرية الستة آيلة للسقوط ومغطاة بالنباتات، وشوّهت سقوفها المصنوعة من البلاط الرمادي المقوس بمرور الزمن، وكانت الممرات بين المنازل عبارة عن صفوف من الأعشاب.

فصرخ «جورجت» بالمنغولية «يو رين ما You ren ma ?» - «هل يوجد أحد هناك؟».

لم يأتِ أي صدى من وراء التلال، ولم يُجب أحد، ولم يكن هناك أية أصوات سوى أصوات الجنادب والطيور. لقد كان منظراً غريباً وغامضاً ومخيفاً، إذ أشارت المسارات والحقول إلى وجود إنساني، لكن لا يوجد هنا إلا السكون وأشياء متحللة ومنازل منهارة. فجال في خاطري سيناريوهات كثيرة ومثيرة، الكل فر من هنا. الجميع فارقوا الحياة، وكنا على وشك مقابلة شخص بقي على قيد الحياة، وهو صيني يدعى «بن غن» أصيب بالجنون جراء السنوات التي قضاها وحيداً في البرية.

وبعد ذلك، وعبر الساحة المكسوة بالأعشاب، رأيت شيئاً أضاف بُعداً آخر، لقد كان وعاءً حجرياً ضخماً، بعرض متر، نُقش بشكل جيد، مع علامات إزميل حجري شكّلت السطح الداخلي، ولا يمكن أن يكون فلاح عادي قد نقش ذلك، كما أنه ليس حديثاً أيضاً، فأومضت الترابطات في ذهني مثل أضواء عيد الميلاد. تلك المنضدة التي رأيتها في المعسكر..«.أسرة يوان»...والآن هذه، حوض للماشية، حوض للخيول المغولية. لا بدّ أنه كان كذلك. لقد طقطقت الخاتمة في المكان مثل القفل المُزيت بشكل جيد.

أعتقد الآن أنني كنت مُخطئاً، لكنّه كان إلهاماً آخر، يتعدى المنظر البهي المطل على الحقل في أسفل الوادي، الذي كان ذات مرّة عارياً من الأشجار من وجهة نظري، ثم تحوّل إلى مرعىً مثاليٍّ، بلغ حد الكمال بوجود النهر، وبكل تأكيد يوجد شخص ما يستطيع أن يخبرنا بما كان هنا فيما مضى. لا بدّ أن نعود ونجد الناس، لكن ليس لدي أية فكرة بشأن كيف ومتى سنعود؟ وكذلك من كانوا معي أيضاً؟

لقد عدنا أدراجنا في حالة من الصمت العميق، متجاوزين الحقل الغامض، أسفل الممر، باتجاه الجدول، وهناك، وبشكل مفاجئ، صادفنا امرأة في طريقنا مباشرة، امرأة محترمة

ومحافظة بقميص رمادي، وبنطال أسود وغطاء رأس أبيض اللون يشبه قبعة الطباخ، مميزاً إياها كمسلمة من «الهويHui»، وكانت تحمل طفلاً في الثالثة من عمره، بخدود حمراء تشبه لون ردائها الفضفاض، وكان من الواضح جداً أنها بنت، لأنها كانت ترتدي بنطالاً ينقسم بشكل مريح عند الفرج، وكانت تمسك بيد صبي يكبرها بعامين، يرتدي سترة رمادية بالية طُبع عليها بالكامل الاسم «المتطفلSnoopy»، وكانت تحمل حقيبة على كتفها، وكانت تجمع السرخس الصالح للأكل الذي يشبه الهليون والذي كانت تُطلق عليه اسم «كي سيqie cie» ولم يكن معروفاً لكلٍّ من «ما» و«جورجت»، وعلى الفور، حلت الكثير من الألغاز. لقد كانت تُسمى «لي بوشنجLi Bocheng» وكان زوجها وأشقاؤه هم من فلحوا الحقل الذي تركناه منذ لحظة. لقد عاشوا هنا، وحتى بعد أن أبعدتهم السلطات رفضوا ترك ممتلكاتهم الصغيرة، إذ كانوا يعودون كل صيف لفلاحة الحقل وحصاده، وقالت المرأة: «أوه، نعم، لقد سمعت عن «جنكيز خان» لكن إذا كنا نريد أن نعرف المزيد عنه فمن الأفضل التحدث مع الرجال، الذين سوف يعودون مع الأبقار لاحقاً».

عدنا بحلول منتصف النهار، لنجد ستة رجال، بصحبة المرأة وطفليها، وكان المنزل مفتوحاً، كاشفاً عن فرن حجري ومنصة حجرية للنوم نُثرت فوقها المفارش، بُنيت أعلى الموقد لتقدم تدفئة مركزية في الليل، وأمام المنزل كان يوجد لوح بلاستيكي مفروش بعناية بجذور طبية، يطلقون عليها اسم «شو - يو». جلسنا القرفصاء على قطع من الحجارة وقطعة قماش قديمة مصنوعة من وبر الإبل بينما أحضرت المرأة شاياً أخضر في مرطبانات مربى، وتولى زوج المرأة، رجل سلكي الشعر في الثلاثينيات من عمره يرتدي قميصاً مخططاً باللون الأبيض والأسود، دور الناطق، ليخبرنا عن «جنكيز» كما لو كان المالك السابق للبيت.

قال الرجل: كل هذا كان مِلكاً لجنكيز، ملوّحاً بذراعه باتجاه الوادي. لقد كان هذا مكان التدريب، حيث عاش حرسه الخاص، وهناك في الأعلى، حيث تقف الماشية، يوجد المكان الذي عاش فيه، مكان الاجتماع، وهناك في الأسفل، أسفل حقل الكتان (أوه، لقد كان كتّاناً، لم يكن حنطة ولا شعيراً) كان مقر القيادة. «هذا ما أخبرني به أبي، لأن ذلك ما أخبره به كبار السن، عندما جاء إلى هنا، منذ خمسين عاماً خلت، وما زلت أتذكر والدي وجدي وهم يتحدثون حول ذلك الموضوع، وهناك في الأعلى مباشرة، كان يوجد ما أطلقوا عليه «مكان

جلوس جنكيز خان «the Sitting Place of Genghis Khan».

فسألت قائلاً: «هل تعني الشرفة؟».

فأجاب: «كلا، كلا، هذا مكان الاجتماع Metting Place! أعني هناك بعيداً في الأعلى»، وأشار إلى الجبل الذي يطل على الوادي بأسرِه. «هناك في الأعلى - يوجد منصة - يمكنك مشاهدة كل شيء من فوقها».

تخيلت بناءً من نوع ما، يشبه منصة العرض.

ثم سألت: «إذا صعدت إلى هناك، هل ترى حجارة منذ زمن جنكيز خان؟».

فأجاب: «الكثير من الحجارة! وأحواض إطعام الماشية، وأشياء أخرى، فعندما كنت طفلاً، كنت أرى هذه الأشياء في كل مكان، لكن الآن الغالبية العظمى منها دُفن وغُطّي بالأعشاب».

وتخيلت أنني سأقوم باكتشاف أثري عظيم، هل يستطيع أن يُرينا ذلك المكان؟ بالتأكيد، يستطيع. لكن التسلق صعبٌ عبر الغطاء النباتي. كان ينبغي علينا أن نرتدي بناطيل طويلة ونأخذ حذرنا من الأعشاب السامة، فرفعت حاجبَي نحو حذاء «جورجت» المصنوع من الجلد، لكنه كان مستعداً لخوض التحدي. حيث قال: «أنا جورجت. أنا منغولي، أزدري أي تحدٍ طبيعي».

انطلقنا في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، من على الشرفة الموجودة أعلى المنزل، بصحبة اثنين من الأخوة، «يو وهي Yu Wuhe» و«يو وسي Yu Wuse» كمرشدين للطريق، وبينما كنا نسير عبر أشجار التنوب، روى أشقاء «يو Yu» قصصهم.

عندما جاءت العائلة إلى هنا، كان هذا المكان يؤوي ثلاثين عائلة، وقبل مئة سنة خلت، كان هنا معبد بوذي، إلا إنه ومع تدفق مسلمي «الهوي Hui» فكك واستخدامت حجارته كمواد بناء (إذن، عرفت، من أين جاءت الحجارة الصلبة لمنازل القرية). ثم و إِن الوادي كان قد كُسي بشكل مُتعمد بالأشجار وفقاً لسياسة أُطلق عليها «أوقفوا الزراعة – واغرسوا الأشجار Stop Farming – Grow Trees»، وفي تلك اللحظة رحل الآخرون، وكانت هذه العائلة آخر من رحل، ويأتون فقط في الصيف، يسيرون فوق الجبال مع بضع عشرات

من الخراف وبعض الماشية للاعتناء بالحقول وجمع الجذور الطبية من الغابة. قال أحد الأخوين: «لن نغادر حتى يعطونا تعويضنا، أو ربما يقدمون المحاصيل بدلاً من المال، لذا سنواصل الزراعة طالما نستطيع».

وصلنا إلى الغابة الكثيفة الآن، وأشار أحد الأخوين إلى كومة سوداء على الأرض، قائلاً: إنه روث دب. لقد كان هنا دببة، إضافة إلى العشب السام. أوه، لقد كان هنا الكثير، لقد كان هنا ست دببة حول المزرعة منذ أيام قليلة مضت، ثم واصل المسير، وقادنا على طول جدول تحت غابة ثانوية نامية متشابكة، ومن ثم عبرنا الجدول وتسلقنا منحدراً شبه عمودي ناعماً مغطى بالمِهاد، وفي أعلاه سوّيت الأرض، التي ظُللت بأشجار البتولا منزوعة اللحاء، بحالة من الفوضى من تلال صخرية صغيرة غريبة مستوية السطح منحدرة الجوانب.

قال «يو وهيYu Wuhe» بعفوية: «كانت الطريق تصعد إلى هنا»، فقد كان كثير الكلام، بينما لم ينطق شقيقه بكلمة. لقد كان من الصعب فهم التشوهات، والأرض المرقّطة، لكن نعم، استطعت أن أرى المكان الذي امتد فيه المسار، مارّاً بطبقة صخرية قديمة بارزة مكسوّة بالعشب يبلغ ارتفاعها حوالي خمسة أمتار، وربما تكون طبيعية أو غير طبيعية.

لقد سمعنا صرخة من على التلة البعيدة، وموجة من المحادثات، وشاهدنا رجلاً جالساً على ركبتيه ينبش بكلتا يديه في الأرض اللينة، ورجلاً آخر هناك في الظلال، وعدداً آخر من الرجال - يبلغ مجموعهم معاً عشرة رجال.

لقد كانوا يجمعون النباتات الطبيّة، وكانوا قد بدأوا المسير قبل الفجر منطلقين من قريتهم التي تبعد مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً، على طول واحدة من الممرات الكثيرة المنتشرة فوق الجبال، وسيعملون طيلة اليوم.

وهكذا كشفت البرية الكثير عن نفسها، وكأنها سمحت لي تدريجيّاً فهم ما الذي جعلها جذابة للغاية على مر القرون بالنسبة للمزارعين والصيادين، وربما كانت جذّابة أيضاً لسنوات قليلة للمحاربين البدو، فهذا المكان كان يشتهر بنباتاته الطبية، التي شاهدت قائمة منها لاحقاً، إذ كان يوجد منها تسعة وثلاثون صنفاً، وهذا النوع الموجود هنا على وجه الخصوص يسمى «تشانغ - بو»، وكانت الشركة الطبية المحلية تشتري الكيلو الواحد مقابل اثنين وعشرين

«يوان» (حوالي 2.75 دولار أو 1.70 جنيه إسترليني) وكل شخص من هذه المجموعة يمكنه جمع اثنين أو ثلاثة كيلو جرامات في اليوم. لكن لماذا كان يُجمع هذا النبات الذي يشبه جذور البصل وكيف كان يحضر؟ لا يوجد أحد لديه أدنى فكرة، فكل ما كانوا يفعلونه هو جمعه وبيعه.

ومن ثم أشار «يو وهيYu Wuhe» بذراعه قائلاً: «كان هذا المكان يسمى مكان العلاج الطبي لجنكيز خان».

ونبع من تشوهات الصخور المنقطة المكسوة بالأعشاب الماثلة أمامي بصيص أمل لفهم جزئي، لقد كان ذلك نظاماً بيئياً دائم التغيير، لهذه الأرض الرطبة ككل والشجيرات المتمايلة والمتناثرة، لذا كان من الصعب معرفة الطبيعي من الصناعي. لكن لو افترضنا وجود مسار، وأن القمة العالية هي نوع من أنواع أبراج الحراسة، فربما أن هذا المكان، تماماً هنا، كان نوعاً من أنواع مخازن الأدوية، حيث كان المرضى والجرحى يأتون لتلقي علاجٍ خاصٍ بالنباتات الطبية.

وبحلول منتصف الصباح غادرنا الغابة، وسرنا فوق بُسط من الأعشاب، والجوذان البصلي، وأزهار الجَنْطِانيا الزرقاء عبر سلسلة تلال شاسعة (على الرغم من الهوس الشديد بأشجار التنوب التي انتشرت حتى هنا في الأعلى؛ خلال سنوات قليلة، إلا إنه غطاء غير طبيعي تماماً)، وعلى القمة كان هناك بقايا سور، الذي أعتقد أنه كان في يوم من الأيام علامة على وجود نقطة مراقبة شاملة تشرف على تموجات الجبل المكسو بالأشجار، وهناك في الأعلى، لم أرَ أيّ دليل على وجود طبيعة بشرية - إذ لم يكن هناك طرق، ولا مبان ولا دخان نار - وكل ما رأيته فقط في الأسفل الوادي الذي جئنا منه، القرية المهجورة تقريباً، ولساناً من الكتان الأخضر الشاحب، يطل من خلف غطاء أخضر، والقباب الأسمنتية الثلاث الموجودة في معسكر السياح.

لكن لم تشكل نقطة المراقبة الموجودة أعلى التلة قاعدة يمكن من خلالها مراقبة مناورات الجيش، إذ كنت أرغب في العثور على «المنصة» الموعودة، وبعد ذلك هبطنا إلى أسفل، وصارعنا الشجيرات الشائكة، ولم تكن هذه الشجيرات عُلَّيْقات عادية، إنما عُليقات

كثيفة، كثيرة العقد، لأشجار يبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار، وتحتوي على أعداد كثيرة من الرؤوس الحادة، لقد كانت غابة فرعية قاسية وشائكة بما فيه الكفاية لحراسة «الجمال النائمSleeping Beauty»، وفي مكان ما بالقرب من هنا، تمتم «يو وهي Yu Wuhe» بينما كنا نقوم بجولة تفقدية قائلاً: ها هي المنصة، لقد كانت منصّة على أية حال، وكنت قد بدأت أفقد الثقة مرّة أخرى وخاصة عندما بدأت الأرض تستوي، وتجمع أربعتنا مرة أخرى، بعد أن كنّا متفرّقين بين المزيد من أشجار التنوب اللعينة.

فسألت «جورجت» بيأس: «هل يعرف أين نحن الآن؟».

فتبادلنا أطراف الحديث لبرهة من الزمن، تم قال «يو»: «هذا هو، مكان جلوس جنكيز خان، وكان يسميه أيضاً مكان الإله».

فأدركت أنه لم يكن هناك أي منصة صخرية، إنما منصة من العشب أو كانت كذلك، فقستها، لقد بلغ طول مكان جلوس جنكيز حوالي مائتين وخمسين متراً وعرضه خمسين متراً.

حسناً، بصراحة، لا أحد يكلف نفسه عناء الجلوس هنا الآن، فعندما كان أشقاء «يو» أطفالاً، كان المكان مفتوحاً، وكنت تستطيع رؤية المعدات الحجرية متناثرة على العشب، وكنت ترى منظراً رائعاً يطل على القرية. أما الآن فنحن محاطون بالزراعة أحادية النوع، كما أن الصخور دُفنت، وكان بعض صانعي السياسة الجهلة قد أصدروا أوامرهم لجماعات المزارعين الموجودين هنا على القمة، فدمّروا الموقع ذاته الذي لربما أنتج مصنوعات يدوية مثيرة والذي كان يمكن تحويله إلى موقع استعراض من شأنه أن يغوي ويكافئ ويخبر أي زائر شبه مغامر يرغب في الانسجام مع الطبيعة والتاريخ، ولكني لا أعتقد أن جنكيز نفسه قد استخدم هذا المكان، لكن ربما استخدمه قادته، لأنك لو سرت إلى حافة المساحة المستوية، سترى أسفل الوادي، ومن الممكن أن تتخيل ساحة استعراض ضخمة مليئة بالخيام وقطعان الماشية وتشكيلات القوات. كما أنه كان هناك أيضاً بضع صخور تبرز من بين الأعشاب لتُعطي تصوراً لمن، ربما وقف أو جلس فوقها، وما شاهدوه.

وبعد ذلك هبطنا عبر ممر حاد مليء بالأعشاب، وانتقل الحديث حول الدببة، لقد كانت كبيرة إلى حدٍ ما، ويقارب ارتفاع أكتافها ارتفاع أكتاف عائلة «يوYus» وظهرت بألوان متعددة

ومختلفة منها الأسود والأحمر والبني المصفر، ولكنها لم تكن خطرة. «فقبل يومين، هل جاءت تلك هي الدببة الست من أجل المحاصيل؟» - وفي الحقيقة، رأيت دباً يحك جروحه في الحقل الذي كنا نسير فيه - «وإذا نهرتها، فإنها تذهب بعيداً».

والآن اقتربنا من العودة للمنازل، وحاولت أن أفهم ما رأيته، إذ كان كل ما رأيته عبارة عن رًّواغ من مادة خام، ومصنوعات يدوية وفولكلور أعادني إلى الوراء لخمسين أو مئة أو ثمانمئة سنة خلت، لكن بلا شيء يؤكد الحديث عن تاريخ، إذ أفسح إحساسي الأول بالإثارة بشأن الدليل القوي - حاملي الأعلام المغولية، وأحواض الشراب - المجال لحكم أكثر واقعية للاحتمالات، فلم يكن المغول المشاركون في الحملات العسكرية بحاجة لصنع أحواض الشراب الحجرية، فربما أن هذه الأحواض الحجرية كانت مجرد طواحين حبوب وحجارة رحى وأوعية طحن تُركت منذ قرن أو قرنين خلت، وذلك عندما كان هناك معبد ومجتمع عامل كبير من المزارعين.

لكن ذلك ترك أيضاً الأساطير، والمكان نفسه، وادٍ سرّي بنباتاته الطبية، التي ربما اُعتبرت واحدة منها قوية بما يكفي لإنقاذ حياة فاتحٍ مريض.

لقد كنت محظوظاً، ولكنك عزيزي القارئ، لو ذهبت هناك، أخشى أن تكون متأخّراً جداً، فأولئك الذين يتذكرون ما كان قد رُوي عن هذا المكان سيكونون قد ذهبوا إلى قُرى ومُدن خارج الوادي، وفي نهاية المطاف، ومع تنامي الاقتصاد الصيني، لن تجد سوى القليل ممن لديهم الاستعداد للسير لمسافات طويلة فوق الجبال للبحث عن النباتات الطبيّة، وستكون الممرات مكسوة بالأعشاب، وستختفي الحقول تحت الشجيرات، وستنهار المنازل، وستقضي آفة أشجار التنوب على المساحات الشاسعة، وكل ما سيواجه الزوار سيكون الطريق المحاط بالسياج ومعسكر السياح حيث يُقدم المرشدون الادعاءات التي لا يمكن لأحد أن يُثبتها حول جبل بدون آثار. حتى لو جاء المؤرخون وعلماء الآثار، فمن ذا الذي سيتذكر، من ذا الذي سيريهم أين كان مكان التدريب، ومركز القيادة، ومكان العلاج الطبي وكذلك مكان الجلوس؟

الفصل الثالث عشر

نحو قبر سري

ندخل الآن على أيام قليلة من الصيف شديد الحرارة لعام 1227 عندما تعلق مصير أوراسيا في الميزان، إذ شهد ذلك العام مقتل أحد الأباطرة، وموت جنكيز نفسه، ودمار ثقافة بكاملها، ومقتل الآلاف المؤلفة من الناس حتى الآن، يوجد هنا ما يكفي لتبرير اهتمام المؤرخين، لو كانت التفاصيل دُونت بشكل مناسب. لكن «بشرط» أن تشير إلى أحد العناصر التي أعطت هذه الأحداث أهمية ذات ترتيب مختلف،، وهو عنصر السرية. إنها الحاجة إلى السرية التي تنبأ بها جنكيز، وفرضتها حاشيته، وسمحت بتحقيق أهدافه، فلو كانت أخبارهم قد تسربت، لضاع كل شيء - ولشعر الأعداء بالارتياح، وضاعت الفتوحات، ولخُنقت الإمبراطورية المغولية تقريباً في منتصف طريق نشأتها، ولتحول مسار التاريخ الأوراسي إلى اتجاه مختلف.

لكن كيف لإمبراطور على سرير الموت، أو لورثته وهم في حالة من الطاعة الكاملة لإرادته، أن يرتبوا كل هذه الأمور؟ بالطبع، لا أحد يعرف كيف، لأن حجاب السرية المُتعمد ألقى بظلاله على مسرح الأحداث. لكن العلماء وعلماء الآثار يتلاعبون بالصوت والإضاءة، وتدريجياً، وفي ظل خلفية من التلال والجبال، نرى أشباحاً تلعب الأدوار المطلوبة ويُعبرون بكلمات تعطي انطباعاً لما حدث بالقرب من «جبل ليوبان Liupan mountain» قبل ثمانمئة سنة خلت.

دعنا نستعرض المرحلة التي وصلت إليها الأحداث في الأسبوع الثالث من أغسطس لعام 1227:

لقد كان جنكيز على وشك القيام بالغزو النهائي لشي شيا بعد أن احتل مؤخراً دولة الجين الغربية، وذلك لكي تكون قاعدة ينطلق منها لاستكمال الغزو لشمال الصين بأكملها، مما يُتيح له فرصة تأسيس إمبراطورية تمتد من المحيط الهادئ تقريباً حتى بغداد، فالعمل الذي سعى له طوال حياته أوشك أن يؤتي ثماره، إذا ما سارت الأمور على ما يرام، إذ كان إمبراطور شي شيا على وشك الاستسلام، لكن في هذه اللحظة الحاسمة، مرض جنكيز، ولربما يكون قد أُصيب بحمى التيفوس التي جلبها الجُند معهم أثناء زحفهم نحو الجنوب، ويتفق المؤرخون بصورة عامة على أن هذا المرض انتشر على مسافة مئة كيلومتر جنوب جبال «ليوبان» في

مقاطعة «شون تشينغQing Shui» التي تعرف اليوم باسم مقاطعة «قانسو»؛ لكن يوجد هنا مجال للشك، وذلك لأن اسم المقاطعة هو نفسه اسم ذلك النهر الذي يتدفق شمالاً نحو النهر الأصفر، ويدعي البعض أن جنكيز قد مات فعلاً في مقاطعة «شون تشينغ» وهو اقتراح رفضه اثنان من العلماء اللذان غمرا نفسيهما في البحث عن الدليل، وهما العالم «شو تشنغXu Sheng» و«يو ين Yu Jun» من جامعة «نينغشيا»، وتُمثل طريقة تناولهم للموضوع، المبنية على مصادر تاريخية واكتشافات أثرية، حجر الأساس للذكريات الشعبية للمزارعين في جبال «ليوبان شان».

عموماً لقد كان ذلك المرض خطيراً حيثما انتشر، وكل من اقترب منه عرف مدى خطورته، ومن المستحيل إخفاء حقيقة أنّ الخان قد عانى من مرضٍ ما، لكن توجب عدم تسريب أية تلميحات بشأن خطورة المرض، وبالتالي، حُمل جنكيز، في اليوم الأول من الأسبوع الأخير من حياته، بسرعة في عربة مغلقة إلى الوادي الخفي في جبال «ليوبان» حيث يمكن ضمان السرية، وحيث توجد القوات لتتلقى أوامره، وإذا لزم الأمر انطلقوا مسرعين بخيولهم خارج طرق الجبال المخفية لمهاجمة «شي شيا» و»الجين» وهنا أيضاً يمكنه الحصول على العلاج الميئوس منه الذي يمكن استخراجه من نباتات الغابة الطبية.

لكن كل هذا لم يفد، واقتربت ساعة الموت.

ووفقاً لأحد المصادر الصينية، «يوان شياYuan - shi» بقي جنكيز لأيام قليلة الشخصية الاستراتيجيّة التي تخطط للمستقبل، وكانت تعليماته واضحة، وفي أحد الإصدارات التي تناولت هذه الأحداث، التي كتبها المؤرخ العربي رشيد الدين زنكي قبل جيلين سابقين، يقول جنكيز: «لا تفشوا سر موتي، لا أريد بكاءً أو رثاءً بأي شكل من الأشكال، حتى لا يعرف العدو شيئاً عن هذا الأمر. لكن عندما يغادر حاكم «التانغوتيينTanguts» والسكان المدينة في الساعة المحددة، اقضوا عليهم جميعاً».

وبعد ذلك، وكما سجلت المصادر الصينية، رسم جنكيز الإستراتجية التي ينبغي من خلالها هزيمة «الجين» كمقدمة لغزو الصين بأكملها. لكن الآن، وبشكل مفاجئ، شوّشت الرؤية بسبب اقتراب الموت، وأصبحت حاشيته وجهاً لوجه مع الكارثة المحتملة، وربما إن

إمبراطور «شي شيا» في طريقه من «ينتشوان» لن يجد في الواقع منتصراً لكي يستسلم له، وإذا سمع الخبر، سيغير وجهته في الحال، وسيفكر في كيفية إنقاذ نفسه ومملكته، وستكون أفضل فرصة لديه أن يتوجه على الفور إلى «الجين» والانضمام إلى القوات هناك للعمل ضد عدو مشترك، ويدمرون ما تحقق ويدمرون االستراتيجيّة جنكيز الكبرى فيما يتعلق بالغزو المستقبلي تدميراً كاملاً.

لذا لم يكن هناك سوى طريقة واحدة محتملة لمواصلة العمل، فكل شيء يجب أن يمضي قُدماً كما كان مقرراً، ولا ينبغي تسريب أية إشارة حول الحقيقة، لذا، كان من الأهمية بمكان أن يصل إمبراطور «شي شيا» ويستسلم، ومن ثم يصبح أول الخائنين من أفراد شعبه ليحكم عليه بالموت.

لكن المؤامرة تحتاج إلى معالجة متأنية، فهؤلاء الناس متدينون، ومهما كان دور «شيان Xian» السياسي، فإنه يحمل هالة من التقاليد الدينية العظيمة، وهي واحدة من الأمور التي يحترمها جنكيز وأتباعه، ففي كتاب التاريخ السرّي يسمي «شيان» حسب أحد الإصدارات المغولية بلقبه الديني، وهو «ألوهو بورخان» «القدوس الأعلىExalted Holy One» مقراً بدوره كقائد روحي ودنيوي على حدٍ سواء، وهذا لن يكون كقتل بوذا الحي، فهو ليس أكثر من قيام ملوك العصور الوسطى بقتل المطارنة بدون قصد، ومثل هذا العمل يحتاج إلى تنميق، إذ ادعى «هنري الثاني» أن مقتل «بيكيتBecket» نَجَم بأكمله عن سوء فهم مروع، كما كان «جنكيز» أيضاً قادراً على التلاعب بالألفاظ، ولتحويل «شيان» من أسقف محترم إلى شخصية سياسية مستهلكة، ادعى «جنكيز» أن «القدوس الأعلى» سيعرف من الآن فصاعداً بلقبه البوذي «سيدغروSidurgu» (المخلص)، وقد بدا هذا الأمر مغرياً، لأنه اعتراف مُحق بخضوعه، وفي الواقع، لقد كان حُكماً بالإعدام لكن مُبطن. أي تابع مخلص هذا؟ أي حاكم قاد شعبه للمقاومة لمدة ستة أشهر؟ ومقابل هذا الإخلاص، كان الموت هو المكافأة المناسبة.

لكن أين ستحدث المرحلة الأخيرة من هذه اللعبة؟ بالطبع لن تكون بالقرب من «ينتشوان» لأن جنكيز كان بعيداً في الجنوب، وبكل تأكيد لن تكون في القاعدة السرية المخفية في جبال «ليوبان» وصادف أنه كان هناك موقع مناسب في الأرض الشاسعة المجاورة، التي أعتقد أنها أُعدت لغرض مختلف تماماً.

وبين مدينة «قويوان» وجبال «ليوبان» يمر طريق فوق تلال منخفضة مدرجة عبر خط من المنازل المصنوعة من الطين الأحمر، وهو كل ما يوجد في «كايشنخKaicheng» فهي عبارة عن قرية تعتاش على القمح والشعير والكتان والخضار، وعلى السفوح القريبة، تسمع صوت جرّارات ذات عجلتين مارةً بأكوام التبن التي تبدو كأرغفة كبيرة من الخبز الأسمر.

ولم تكن تلك القرية دوماً في وضع منعزل، ولن تبقى كذلك، فقد بُني سدّ فوق التل مباشرة لتزويد المنطقة بأسرها بالطاقة ومياه الشرب النقية، لكن السدّ لم يكن هو الشيء الوحيد الذي سيعيد «كايشنخ» للشهرة والمجد.

وأشارت لافتة باللغتين الإنجليزية والصينية إلى مسار ناحية اليمين، كتب عليها: «أطلال كايشينخ القديمة» وللوهلة الأولى لم يكن هناك شيء سوى حقولِ القمح المزروعة على التلال المُدَرجة وحقلٍ للطماطم أُزيلت أعشابه من امرأة وحيدة من قبيلة «هويHui» تضع منديلاً أبيض على رأسها، مقابل جبال «ليوبان» التي تشحذ الأفق بخط متموج من العشب، وكانت أصوات زقزقة القبرة هي الأصوات الوحيدة المسموعة، وكذلك صوت جرار بعيد وصوت نبش المِعْزَقة للأرض.

ووضح السيد «يان Yan» ما كنت أنظر إليه، الأشكال المبهمة الراقدة تحت نباتات القمح الغزيرة التي كانت ذات يوم أسواراً، مكونة مربعاً يتراوح محيطه ما بين ثلاثة إلى أربعة كيلومترات، ففي القرن الثالث عشر بنى حفيد جنكيز «قوبلاي Khubilai» الخان الذي حققت غزواته أحلام جنكيز، هذه الأسوار كجزء من مقر القيادة الإقليمي الذي لا بدّ وأنه نافس «قويوان» التي تبعد مسافة عشرين كيلومتراً، التي جرى تطويرها على يد أحد أبناء «قوبلاي» الثلاثة عشر، الأمير «مانغالا Mangala» أمير «آنشايAn – xi» (في مقاطعة شانسي Shansi)، وابن «مانغالا» الذي بدوره أقيم له قاعدة هنا عام 1297، إذ كان مسؤولاً عن دفاعات المنطقة برفقة عشرة آلاف جندي. لكن لا يوجد أية تسجيلات تبين ما كانت عليه المدينة بالضبط، لأنّه في عام 1306 ضرب المدينة زلزال فدمرها بالكامل، وقتل خمسة آلاف شخص وفر الباقون، كما جرفت المنازل المصنوعة من الطين الأحمر، واختفت آثار «كايشينخ» عن الأنظار كما اختفت من الذاكرة أيضاً.

أمّا الآن فإن علماء الآثار على وشك إعادة الاكتشاف، فيما سيكون أعظم أعمال تنقيب في «ننغيشيا» إذ تعهدت الحكومة بتقديم مئة مليون يوان (ما يعادل 12.5 مليون دولار أو 7.8 مليون جنيه استرليني) لإتمام المشروع، وتساءلت عما إذا كانوا سيسعون للحصول على دعم دولي، متخيلاً المكان يعج بالعلماء اليابانيين والأمريكيين والأوروبيين، فأجاب السيد «يان Yan»: لكن الصين لديها ما يكفي من الخبراء، شكراً جزيلاً لكم. ثم أضاف: «هؤلاء أسلاف الصينيين» ولا يوجد أي أثر له علاقة بالمنغوليين، إنه من واجب الصينيين العمل لعشر سنوات قادمة للكشف عن جذور المدينة وليقيموا الأشياء الراقدة تحت التربة.

وكانت أمورهم هناك تسير على ما يرام، إذ توقفت المرأة «الهِويةThe Hui» عن العزق للإجابة عن سؤالي، وقالت: إنها لم تصادف أي شيء، «لكن منذ سنتين مضتا وجد رجل عجوز زهرية».

فسألتها» «أين وجدها؟».

فأجابت: «هنا تماماً، في حقل الطماطم هذا».

لم تكن الزهرية الغريبة هي الشيء الوحيد الذي عثر عليه، بل إن عمالاً آخرين وجدوا أيضاً الكثير من قطع البلاط المطلي باللون الأصفر، الذي كان بمنزلة اللون الإمبراطوري، التي يمتلك السيد «يان» بعضاً منها في متحفه في «قويوان» وكان متأكداً جداً أن الكثير من الأشياء ستكتشف فيما يتعلق بقلعة «قوبلاي».

والآن لندخل في صُلب الموضوع، لماذا بنى «قوبلاي» لنفسه مقراً في «كايشينغ» طالما أن مدينة «قويوان» كانت موجودة هناك على بعد عشرين كيلومتراً بأسوارها وقلاع الحراسة؟ لربما لأن «كايشنغ» كانت في الواقع موقعاً مقدساً، اختاره جده في ربيع عام 1227، كما أن هناك أسباباً منطقية لاختيار جنكيز لهذا المكان، إذ كان بمأمن عن سكان «قويوان» المتطفلين، وسهولة وصول القوات المنعزلة في جبال «ليوبان» من خلال السفر ليوم واحد، كما يمكنهم الإقامة في العراء، حيث يستطيع الجيش الضخم التجمع دون عوائق من المواطنين أو المباني أو الممرات الضيقة، وهنا أستطيع أن أُخمن بأن «جنكيز» أمر بإقامة قصر مؤقت حيث يستطيع المغول استقبال الرسل القادمة من دولة «الجين» سعياً للسلام، ومن ثم، وللمصادفة السعيدة،

إن هذا المقر بما فيه من قصور الخيام والحاميات العسكرية، ظهر له استخدام ثان، كقاعدة للاجتماع بإمبراطور «شي شيا» عندما وصل لإبرام اتفاقية الاستسلام النهائية، وواجه قدره المشؤوم.

ولابد أن هذه الخدعة بأكملها قد أُديرت بشكل مُتقن، إذ توافقت المصادر على أن خمسة أشياء حدثت في تتابع سريع:

- استسلام إمبراطور «شي شيا».
- مجيئه لمقابلة جنكيز.
- منحه لقباً جديداً.
- مقتله على يد جنكيز.
- موت جنكيز نفسه.

ومع ذلك لا تبيّن المصادر الترتيب الذي حدثت فيه هذه الأشياء بشكل واضح، وبالتالي ما هو آت هو أكثر السيناريوهات احتمالاً.

لقد وصل «شيان Xian» إمبراطور «شي شيا» إلى قصر الخيام في مدينة «كايشنغ» واسُتقبل في ظروف غامضة، أثناء لقائه بالخان أُجبر على البقاء خارج باب الخيمة، وأثناء الاجتماع، يبين كتاب التاريخ السرّي، أن جنكيز «شعر بالمرض»، وهذا أمر غريب جداً، فبكل تأكيد أن الخان، مؤسس ما هو بالفعل إمبراطورية أكبر من إمبراطورية روما، لم يكن على استعداد لمعاملة خصمه المهزوم بمثل هذه الطريقة، لأنه إن فعل ذلك سيثير الشك في عقل الإمبراطور وحاشيته. لكن لا يوجد هناك سوى استنتاج وحيد مقبول يمكن استخلاصه، وهو أن لا «جنكيز» ولا مساعديه ولا مستشاريه كان لديهم أي خيار آخر، وذلك لأن «جنكيز» بكل بساطة لم يكن بصحة جيّدة بما فيه الكفاية لعقد مثل هذا الاجتماع، وبكل تأكيد، إن إمبراطور «التانغوتيينTangut» كان سيقتل على أية حال، لكن كان من الضروري أن يعلن استسلامه ويقدم الهدايا، استكمالاً لطقوس الاستسلام الرسمية التي من خلالها سيسلم مملكته «لجنكيز» كما أن تلك المراسم كانت هامة لأنها تترك انطباعاً في أذهان أولئك الذين

نجوا بحياتهم - وكذلك في أذهان المغوليين العاديين - بأن جنكيز لا يزال يسيطر على مقاليد الحكم.

وفي الواقع، إن هذه الدراما غير العادية - الإمبراطور المنكوب بفرسانه وعرباته المحملة، الستار المحيط من القادة وأفراد العائلة، والخيمة الإمبراطورية الكبيرة براياتها المطوية - تصبح مفهومة فقط إذا افترضنا أنه خلف الستارة التي تحجب «جنكيز» يوجد موت قريب لا يمكن أن يُرى، أو أنه مات بالفعل، وهذا هو الاحتمال الذي استوقفني على الأرجح، إذ بقى «جنكيز» حياً لمدة أسبوع فقط بعد بداية مرضه، ويتطلب الأمر من إمبراطور «شي شيا» وحاشيته وعرباته المحملة حوالي أسبوعين لقطع مسافة الثلاثمئة كيلومتر من عاصمته وحتى «كايشنغ» وفي هذه الأثناء، سقط «جنكيز» صريع المرض ونُقل إلى قاعدة «ليوبان» للعلاج، وبكل تأكيد إن الموت فقط سيوقف علاجه. وفي ذلك الوادي الآمن فقط ستكون حاشيته الحزينة قادرة على اتخاذ التدبيرات اللازمة للحفاظ على سرية موته، ومن ثم ينقلون ملكهم «المريض» بطريق سرّية لحسم النزاع في «كايشينغ».

شعر «شيان» بالحيرة لكنّه كان مطيعاً، إذ قدم قرابينه، التي كان أوّلها مجموعة تماثيل ذهبية لبوذا، وتلاها بمجموعة وفيرة من الهدايا الأخرى، تتكون كل مجموعة منها من تسعة أشياء، وهو الرقم المبشر بالخير: تسع أوانٍ ذهبية، وتسع أوانٍ فضية، وتسعة غلمان، وتسع فتيات، وتسع خيول مخصيه، وتسعة جمال وأشياء أخرى كثيرة تكونت جميعها من العدد تسعة، كما رتُبت طبقاً «للنوع واللون».

ومن ثم أوكل «لتولان Tolun» مهمة تنفيذ حكم الإعدام، إذ إن قتل الحُكام مثل قتل النُبلاء، يتطلب مراعاة الطقوس التي عُرفت منذ زمن طويل عن المنغوليين، ينبغي ألا يُراق الدم، إنما يحدث الموت عن طريق عض الرقبة أو الخنق، أو (كما في هذه الحالة، إذا كنا سنصدق كتاب التاريخ السرّي) عن طريق الخنق. لكن على أية حال نفذ الحكم سراً، إذ لم تُسرب أية تفاصيل حول كيفية وأين قُتل حاكم «شي شيا» وكم عدد الذين قُتلوا معه؟

لكن في وقتٍ لاحق، وحسب المصادر الصينية الرسمية جداً، تم دونت بعض الحقائق، فعلى ما يبدو أن «جنكيز» توفي بعد أسبوع من مرضه، في عام الخنزير (1227) في اليوم

الثاني عشر من الشهر القمري السابع، الموافق الخامس والعشرين من أغسطس. لكن الشك المؤكد يكمن في تسلسل الأحداث، إذ تعود الروايات الصينية التي تبدو أكثر وثوقاً إلى عقد لاحق، في أحسن الأحوال، بعد أن أكتمل غزو المغوليين لدولة «الجين» ولم يوافق الآخرون على اليوم المحدد، وبطبيعة الحال، ولأن لا أحد يعلم متى ولد «جنكيز» تتفاوت تقديرات عمره من 62 إلى 72، لكن 65 هو العمر الأكثر قبولاً، محدداً العام 1162 كعام ميلاده. لكن كتاب التاريخ السرّي، المصدر الأكثر تفصيلاً والمصدر الذي كان يُتوقع منه أن يحدد مثل هذه الأحداث بالغة الأهمية ببيان خاص، لم يذكر شيئاً على الإطلاق حول هذا الموضوع، عدا تلك العبارة «صعدت روحه إلى السماء» - وهو دليل كاف - كما أعتقد - على أن موعد موت الخان وطريقته ستبقى سراً من أسرار الدولة.

أفسحت السرية المجال أمام تداول الشائعات، إذ انتشرت القصص التي تقول إن «جنكيز» مات وهو يحاصر مدينة ما أو أخرى، أو بقي حياً حتى استسلام «شي شيا»، وفيما بعد، بعد عدة عقود، وربما قرون، احتفى الشعراء بموت الرجل العظيم، محولين الشائعة والحكايات الشعبية إلى نثر، وبعد أربعمئة سنة نقل أمير «أوردوسي» «ساجانغ تسيتسن Sagang Tsetsen»، أو ساجان الحكيم، القصص إلى كتابه «التاريخ الذهبي، تاريخ المغول الشرقيين وأسرتهم الملكية». كما جُمع عمل آخر مجهول المصدر، يسمى «الملخص الذهبي Golden Summary» قبل بضعة عقود من الكتاب السابق ويتناول الكثير حول الموضوع نفسه. لكن كلا العملين لا يُعدّان تاريخاً بقدر ما يُعتبران «أساطير آرثرية Arthurian legends». لكن بعض الحقائق لا زالت مختبئة تحت كومة متشابكة من المعرفة التقليدية لمرحلة ما بعد جنكيز، والكثير منها بوذي.

ففي رواية «ساجانغ» على سبيل المثال، يكشف ملك «شي شيا» عن قوته محولاً نفسه إلى أفعى في الصباح، ونمراً في منتصف النهار وطفلاً في الليل. أما «جنكيز» فيحول عدوه ظاهرياً - ليصبح طائراً أو أسداً أو حاكماً سماويّاً - ومن ثم يأسره. لكن عندما يطُعن الملك «التانغوتيTangut» من أتباع «جنكيز» يتبين أنه يتعذر إيذاؤه، حيث يقول: «لن تستطيع إيذائي بسلاح تقليدي» ثم يواصل حديثه حول واحدة من تلك المُسلمات الغبية المثيرة للدهشة التي تعد السمة المميزة للحكايات الخيالية، «ولكني امتلك في أخمص حذائي سلاحاً يساوي

ثلاثة أضعاف الفولاذ المطروق والذي بواسطته يمكن أن أُقتل» وبهذه الكلمات، يستل سيفه ويتحدث مرة أخرى: «الآن يمكنك قتلي، وإذا انساب الحليب من جسدي، سوف يكون نذير شؤم بالنسبة لك، أما إذا نزفت دماً، فإنه نذير شؤم لأحفادك». ثم يضيف قائلاً: «هناك شيء آخر، إذا سبى جنكيز زوجتي، من الأفضل له «أن يفتش كامل جسدها بعناية».

لذا قتله «جنكيز» وسبى زوجته «غوربلشن Gurbelchin» التي تمتلك من الجمال ما يدهش الجميع، ولكنها تقول: إنها كانت في الماضي أكثر جمالاً، قبل أن تُلطخ بغبار جنود «جنكيز» لذا تستحم في النهر الأصفر، حيث يزورها طائر قادم من منزل أبيها، والذي تنبأت من خلاله بموتها غرقاً، وبعد الاستحمام تظهر «غوربلشن» جميلة كما كانت قبل لقائها المُترب مع جنود «جنكيز» وفي تلك الليلة، ولأنه على ما يبدو لم يفتش جسدها بشكل دقيق، «ألحقت الضرر بجسده، وأصبح ضعيفاً ودائخاً» ومن ثم أغرقت نفسها كما هو متوقع، وبعد ذلك يلقي جنكيز وأتباعه خطابات عظيمة، التي بعدها «يصعد جنكيز إلى أبيه في السماء».

وهناك الكثير من الروايات الأخرى، ومنها هذه التي رويت «لأوين لاتيمورOwen Lattimore»، الرحالة والمتخصص الرائع في الأدب المغولي، حيث ورد حديث مختصر هنا عن أسطورة «لاتيمور» الرجل الذي لا يوجد له نظير في تجربته وخبرته، المعروف بين المنغوليين الذين يطلقون عليه لقب «العدسة المنفردةSolitary Glass» لأنه كان يرتدي نظارة لعين واحدة، وقد قابلته مرتين فقط، المرة الأولى عندما خاطب في الستينيات من عام 1900 المجتمع الإنجليزي المغولي المؤسس حديثاً، الذي كان عبارة عن مجموعة صغيرة من العلماء والرحالة والطلاب، ولقد شعرت بالرعب منه، لأنني عرفت أنه قد اُقتيد من الولايات المتحدة، وعانى بطريقة وحشيّة من «جوزيف ماكارثيJoe McCarthy» بسبب انضمام «الصين الخاسرة Lost China» إلى الشيوعيين، فقد جاء من «ليدز» لمقابلتنا، حيث أسس قسم الدراسات المنغولية، ولا أتذكر أنه كان يضع نظارة بعين واحدة، ولكني أتذكر أنه رجل صغير الحجم، جاد، كريم نحو الشباب قليلي الخبرة، وهذا أفضل إلهام ممكن، وهذه هي القصة التي رُويت له من رفيقه المغولي «أراشArash» من «أوردوس»:

أين يوجد جنكيز خان؟ فهو لم يمت. هذا ما حدث بالضبط، فقد حلم جنكيز بالدم الأحمر على الثلج الأبيض، اللون الأشد احمراراً والأشد بياضاً، لذا استدعى رجاله الحكماء

وطلب منهم تفسير الحلم، فقالوا إنه يعني الأجمل من بين كل العذارى، ومن ثم دعا جميع الأمم التابعة له وسألهم، أين توجد الفتاة الأجمل من بين جميع العذارى؟ فأجابوه بالقول: نعم يوجد مثل هذه العذراء، إنها ابنة ملك مدينة السور الأحمر، في دولة «تانغوتTangut» فأرسل جنكيز على الفور رسوله إلى هناك طالباً يد العذراء، فقال ملك المدينة ذات السور الأحمر للرسول: بكل تأكيد إذا طلب جنكيز المقدس يد ابنتي، سوف أمنحه إياها، لكنّه قال لابنته سراً: إليكِ هذه السكين، إنها صغيرة لكن حادة، خبئيها بين ملابسك، وعندما يحين الوقت فإنك تعرفين ماذا ستفعلين، وبعد ذلك أحضروا الفتاة إلى جنكيز، وذهب للنوم معها، لكن بمجرد أن رقد إلى الفراش بجانبها استلت السكين و خصته، فصرخ جنكيز عندما أحس بالجرح، فدخل الناس على صراخه، لكنّه قال لهم: خذوا هذه الفتاة بعيداً، أريد أن أنام، فنام فعلاً لكنّه لم يصح من ذلك النوم قط، وكان ذلك قبل ستمئة أو سبعمئة سنة خلت، لكن ألم يعالج جنكيز المقدس نفسه؟ فعندما يشفى سوف يستيقظ وينقذ شعبه.

إن المعلومة الوحيدة الراسخة التي يجب إدراكها من هذا الوضع المربك للتقاليد التبتية والصينية والبوذية والمنغولية هي فداحة الخسارة، وعلى ما يبدو، ومع مرور الوقت، لم يكن الشعب على استعداد لتقبل موت ملكهم الإله بشكل طبيعي، فحولوها إلى قصة انتقام ومأساة لبطلهم الذي لم تحققه بعد، مثل قصة «شمشون Samson»امرأة أجنبية، وبالنسبة للمغول، كانت القصص تزودهم بحاجة نفسية، لا زال الإحساس بها ضعيفاً، لتفسير فقدان السلطة، فكل إنسان يعرف الحكاية التي زُينت الآن بطرق مختلفة وذلك حول كيفية عمل الملكة الشريرة شيئاً ما مروعاً لجنكيز ومن ثم ألقت بنفسها في النهر الأصفر الذي لا زال المغول حتى يومنا هذا يطلقون عليه «نهر الملكةQueen's River».

وهكذا مات واحد من أبرز القادة في التاريخ، إذ يختلف عن معظم القادة الآخرين فيما يلي: كلما اقتربت منه، كلما بدا لك أكثر إعجاباً.

وهناك طريقة واحدة لكي نفهمه وذلك من خلال النظر إلى التجارب التي خاضها في شبابه، إذ كان كحطام سفينة في محيط من العشب، أو كقملة على سفح جبل، واكتشف أن مفتاح البقاء على قيد الحياة يكمن فيما افتقر إليه، القوة، القوة التي تمكنه من إقامة علاقات صداقة والقيادة والقتال والفوز والحكم وإعادة بناء ما كان قد فقده، ومن ثم الاستمرار في

توطيد الأمن في هذا الكون المتقلب الذي لا يمكن أن يكون إلا مُهدداً.

لكن هذا حديث فات أوانه، ويتعلق هذا الأمر بعلم النفس الحديث، فالمعالج النفسي، الذي يتعامل مع حالته على أنه يتلقى أوامره من «السماء الخالدة Eternal Heaven» قد يفسر دوافعه بأنها جاءت برمتها من طفولته المحرومة، ولكنني أشك إذا ما كانت روح جنكيز توافق على ذلك، لأن في ذلك إنكاراً للقوة التي، من وجهة نظره، بسطها بنفسه على العالم الخارجي، كما أن شخصيته تأثرت بحقيقة كونه عُين من السماء لقيادة العالم، وبالرغم من أنه احتاج إلى مساعدة لتحديد الوسائل لتحقيق ذلك - وذلك من خلال قراءة ما كُتب على عظام كتف الأغنام المتصدعة، ومن خلال دراسة علم التنجيم البوذي، وكذلك الصلاة على الجبل المقدس الذي منحه البصيرة - إلا إن النهاية المقدرة كانت واضحة، الوصول إلى القوة بشكل لم يسبق له مثيل، قوة دنيوية من شأنها إنصاف شخص سماوي.

لقد كانت القوة هي المفتاح، فكان غرضه هو الفوز بالقوة، والسيطرة على زمام الأمور وزيادة النفوذ، فهو لم يكن أول ولا آخر شخص يَظفُر بمجموعة من الأنصار من خلال الجمع بين الهيبة والإيمان، قادراً على إلهام الآخرين بنفس الحقيقة المؤكدة بأن إرادة «خوخ تينغر» «السماء الزرقاء the Blue Heaven» - أو «السماء الخالدة the Eternal Heaven»، كما أصبحت فيما بعد - تتوافق مع إرادته، والأمر الاستثنائي هو البقاء الذي دام لأكثر من خمسين عاماً من التوازن بين الشخصية المتطورة والظروف المتغيرة والسلطة المتنامية، مبقياً على ثلاثة متغيرات في توتر دائم، ولم يمل أبداً إلى الفساد أو جنون العظمة، كما لم يفقد أبداً الإمساك بمقاليد السلطة ولم يسمح قط للأحداث بأن تُملي عليه جدول أعماله. لقد كان ذلك شيئاً جديداً، ولحسن الحظ أنه كان فريداً أيضاً في التاريخ الإنساني، فلنسمها قيادة السماء الخالدة، وما يلي هو وصف موجز لها.

القواعد العشر لقيادة السماء الخالدة

1. مكافأة الولاء:

لم ينس «جنكيز» قط التصرفات النبيلة في معاملته لشعبه، فعندما وصل للسلطة، أخبر الرجل الذي آواه عندما هرب من الأسر: «تذكرت في أحلامي في الليل حالك الظلمة

وفي قلبي في النهار المضيء، العمل النبيل الذي قُمت به لأجلي»، وكجزء من ثورته قام كرم الأشخاص الشجعان والمخلصين، مهما كانت منزلتهم. كما أن روابط الولاء لم تُشكل بسهولة، وكان ينبغي الحفاظ عليها بكل الوسائل الممكنة (بما في ذلك الابتزاز، إذ كان حراسه وأبناء ضباطه في الواقع رهائن). لكن إذا اقتنع بولاء أحد الرجال، يفوضه بشكل غاية في الروعة، تاركاً على سبيل المثال، حكم الأراضي المحتلة في شمالي الصين ومسؤولية ما تبقى من أراضٍ بحاجة إلى إخضاع إلى نائبه «موخالي»، وتحت قيادته ارتفعت الضرائب لدعم أتباعه الفقراء، ولم يكن في هذا أي نذير بالاندفاع نحو الاشتراكية أو الديمقراطية، أو حتى أية مشاعر إنسانية، بل على العكس لقد كان يُجسد التقاليد العليا، والواجبات الأساسية لقائد قبلي ناجح قاد إلى خاتمة منطقية.

2. كن صارماً:

لقد بقي «جنكيز» البدوي القاسي، مُحرماً الترف على نفسه، ومُحباً للبساطة، وقد قيل عنه إنه كان يهب ملابسه الخاصة لأي منغولي في حاجة إليها. لقد كان رجلاً صلباً طوال حياته، بقي قادراً على الصيد حتى فترة متقدمة في الستينيات من عمره، متجذراً في الجبال والمروج التي قضى فيها شبابه.

3. ممارسة ضبط النفس:

وكان من صفاته غير العادية قدرته على السيطرة على غضبه، والسماح للآخرينبالتعبير عن أرائهم، فعندما لجأ أحد أعمامه إلى قبيلة منافسة، أمر غاضباً بقتله، لكن عندما التحق أشقاؤه في الجيش «بورتشوBoorchu» و«موخالي» مع أخيه بالتبني «شيجاي» لتوبيخه - إن في قتل عمك إطفاء لنار غضبك، لكنّه التذكار الوحيد الباقي من والدك، لقد أخطأ، امنحه الفرصة، الواحدة تلو الأخرى - فقال جنكيز وهو يتنهد: «ليكن ذلك» ثم صمت عن الكلام.

4. البحث عن الموهبة أينما تستطيع والاستفادة منها:

أصبح الرعاة تحت حكم جنكيز قادة عسكريين، وأصبح الأعداء موظفين، وفيما يتعلق بغير المنغوليين الذين خدموه، كان كريماً معهم تماماً مثلما كان كريماً مع أبناء شعبه، لقد احترم وكافأ المواهب دون تحيز، بشرط أن تكون مصحوبة بالولاء، فقد كان أحد هؤلاء

الذين «شربوا المياه الموحلة مع جنكيز في «بالجونا Baljuna» تاجراً مسلماً، يدعى «جافار Jafar» والذي أصبح فيما بعد سفيراً ووصياً على العرش في شمالي الصين، وبالإضافة إلى المسلمين والصينيين («تشو - ساي Chu - tsai» بطبيعة الحال مثال حي على ذلك) كان النساطرة والبوذيون جميعاً في خدمته.

5. اقتل الأعداء دون ندم:

لقد كان جنكيز قاسياً تجاه أولئك الذين لم يكونوا من حلفائه أو كانوا يعارضونه، فعندما يقتنع بعدم ولاء شخص، حتى لو كان من الأقارب أو الأصدقاء السابقين، كان بغيضاً لا يرحم، وإن كان لا ينسى المعروف قط، فقد كان أيضاً لا يتسامح مع الإهانة، فالمقاومة لا تؤذيه هو فقط، إنما تؤذى «السماء Heaven» في الأعلى، «فالميركيتيون» الذين اختطفوا زوجته، «بورتي» «انقسموا على أنفسهم حتى تلاشوا» أما «التايشوتيون» الذين أسروه، فقد تطايروا في الريح مثل الرماد، وفيما يتعلق بالتتار، الذين أُعتبروا مسؤولين عن موت والده، فقد أصدر مرسوماً يقول فيه: «يجب أن نسعى للانتقام لأجدادنا. اقتلوهم جميعاً!» لقد كان الانتقام واجباً مرسلاً من السماء، وكلما ازدادت قوته، ازداد معها انتقامه، ضد «الجينيين» وضد المدن والقادة المسلمين الذين قاوموه، وكذلك ضد «التانغوتيينTanguts» في «شي شيا». كما لم يكن هناك أي عمل ينم عن الشهامة التي أظهرها القادة العسكريون في الثقافات المدنية تجاه خصومهم، حتى مع معرفتهم أنهم يشاركونهم التقاليد نفسها، وربما يصبحون في المستقبل حلفاء، وبالنسبة لجنكيز فإن العدو الذي لا يبدي الإذعان على الفور يعدّ غريباً، لا يستحق أن يُعامل كإنسان، ويستحق التدمير دون أدنى تفكير، وبطبيعة الحال، فإن أولئك الذين تلقوا حكماً بالإعدام يحكمون عليه وفق هذه الشروط بأنه إنسان بربري متعطش للدماء.

ويلخص المؤرخ الفارسي «رشيد الدين Rashid ad - Din» موقف جنكيز في حكاية مشهورة. ذات يوم عندما كان جنكيز خارجاً يمتطي صهوة فرسه مع «بورتشوBoorchu» ورفقاء آخرين، سألهم ما الذي يحقق أعظم سعادة للرجل من وجهة نظرهم، وبعد فترة من النقاش، أجابوا إنها تكمن في الصيد باستخدام الصقور - حيوان خصي قوي في وثبه، وصقر على المعصم، هل هناك أروع من ذلك؟ فرد جنكيز قائلاً: «أنتم مخطئون». أعظم نجاح يمكن أن يقابل الرجل هو أن يطارد عدوه ويهزمه، ويسيطر على كل ممتلكاته، تاركاً زوجته

تبكي وتنوح، ويمتطي فرسه الخصي، ويستخدم أجساد نسائه كقمصان نوم وكتابعات، محدقاً ومقّبلاً أثداءهن وردية اللون، ممتصاً شفاههن الحلوة كعناقيد التوت». كلمات مشهورة، لأنها لمست كبد الحقيقة...

6. لا تكن قاسياً:

..، ولكنها حقيقة جزئية. لقد كُتبت هذه الكلمات بعد موت جنكيز بخمسين عاماً، عندما عُكرت الأصالة من الفولكلور. كما أنها توحي بشيء آخر: هو التلذذ في معاناة الآخرين، لكن لم يتهمه أحد بالوحشية المفرطة، إذ كان الشاة محمد، شاة خوارزم، يُعذب الآخرين، تماماً كما كان يفعل ولده «جلال Jalal» بينما «جنكيز» لم يفعل ذلك، ففي الواقع، وفي مناسبات عديدة كان يأمر على وجه التحديد بضبط النفس، وربما لم يكن هناك أي أثر لتلك الفضائل التي نستقيها من المعاناة المسيحية – التسامح، الصفح، محبة الأعداء – لكن لم يكن هناك أثر أيضاً لسادية محاكم التفتيش.

7. التكيف، والانفتاح على طرق جديدة في الحكم:

لقد كان لدى «جنكيز» شخصية أكثر رقة بدلاً من الصورة التي تعكس مجرد الوحشية، فإذا حُكم على زعيم من خلال الرجال الذين يستخدمهم ومن خلال القرارات التي يتخذها، فإن «جنكيز» يستحق بعض الشرف لكونه رأى فوائد الكتابة والبيروقراطية، وإعطاء الرجال تعليمات أساسية بأنه بحاجة إلى تدوين السجلات وتنظيم الإدارة، وهي أمور جديرة بالملاحظة بالنسبة لراعي ماشية محارب أمي، وباختصار، لقد كان شخصاً ناضجاً، فمع كل قفزة إلى السلطة، من زعيم عشيرة، إلى زعيم قبيلة، إلى زعيم أمة، ومن ثم إلى زعيم إمبراطورية، كان يكبر في مكانته، هو التقدم الأكثر دهشة نظراً لأنه كان أول رجل في قومه يحقق هذه القفزة وبأن ناصحيه الوحيدين كانوا أعداءه.

8. اعلم أن لديك دعماً إلهياً:

في كل مرحلة من مراحل حياته لم يشك أبداً بدعم السماء له، إذ كانت كل مرحلة من مراحل تطوره، من الضآلة إلى الإمبراطورية، تمنحه دليلاً آخر على هذا الدعم، فأثناء الحملة العسكرية على خوارزم، وقبل الهجوم على المدينة، أرسل الرسل برسالة خطية مقتبساً كلماتها

من السماء: «دعوا الأمراء والعظماء وعامة الناس يعرفون هذا: أن وجه الأرض بكاملها من نقطة شروق الشمس لغروبها، قد منحته إياك (أي جنكيز)». إنها عقيدة مع فرضية بسيطة وراسخة: بأن كل الأمم كانت عرضة لحكم المغول وفقاً لإرادة السماء حتى قبل أن غزوهم، وعلى الحكام الأجانب أن يُقروا بهذه الحقيقة المجردة، وعندئذ سيكون جميعهم بخير.

9. اجعل أتباعك وورثتك يؤمنون بذلك أيضاً:

لقد انضم «يه لو تشو تساي Yeh - lu Chu - tsai» إلى «جنكيز» لأنه كان يعتقد بأن الخان امتلك «تفويضاً من السماء Mandate of Heaven». لقد أثبت النجاح ذلك: فغزو «الجين» كان مفخرة «لا يمكن لأية قوة بشرية أن تحققها» وبناءً على ذلك تحرر «تشو تساي» من التزاماته السابقة، وكتب «جيوك» ابن «أوقطاي» والوريث كخان، إلى البابا «انوسينت Innocent» الرابع قائلاً: لقد قتلت السماء الخالدة وسحقت تلك الأراضي والشعوب لأنهم لم يلتزموا مع «جنكيز خان» ولا مع «الخاقان الأعظم Khagan» [أي ملك الملوك، «جيوك» نفسه]، وكلاهما قد أُرسل لإقرار أوامر السماء... كيف يمكن لأي شخص أن يستولى على الأراضي ويقتل على نحو مخالف لأوامر السماء؟

10. احترام حرية العقيدة:

إن السبب في اختيار «جنكيز» كان بمنزلة لغز بالنسبة له، كطبيعة الإلوهية التي اختارته، فبدون طريق واضح لفهم السماء وفهم إرادة السماء، كان الاحترام مستحقاً لجميع أولئك الذين سعوا إلى هذا الفهم (ما لم يكن هذا يتعارض مع القواعد رقم ثمان وتسع سابقة الذكر، وهي القواعد التي تتعلق بالتأييد الإلهي، وفي هذه الحالة فإن القاعدة الخامسة، هي تطبيق للإبادة).

بدءاً من الإسكندر المقدوني وحتى ستالين، فإن أعظم القادة وأشنع الطغاة كان لديهم بضع من هذه الصفات، لكن هل امتلك أحد منهم جميع هذه الصفات؟ فلنختر عدداً قليلاً منهم، ولنفترض أن مملكة اليسوع لم تكن على هذه الأرض، فقد كان نابليون أكثر براعة من الناحية العسكرية والقيادة السياسية، لكنّه لم يدعِ الدعم الإلهي، وانتهى بهزيمة، بدون إمبراطورية. أما النبي «محمد» فقد وازن بين الدين والعبقرية العسكرية، لكن الإمبراطورية

الإسلامية الموحدة لفترة وجيزة كانت أقل إبداعاً من تلك التي أسسها ورثته. أما «الإسكندر» فإنه يقترب كثيراً من «جنكيز» بالرغم من أنه لم يجارِ «جنكيز» في قسوته، فربما أن أستاذه أرسطو قيده بمحاضراته عن الأخلاق، أو ربما، لأنه توفي في عمر يناهز نصف عمر جنكيز، وبالتالي لم تُعطَ له الفرصة المناسبة.

لقد وقع «التانغوتيونTanguts «فريسة سهلة لغزاتهم، لكونهم كانوا بلا قيادة ولكون وقوع معظم مدنهم تحت سيطرة المغول، إذ نُهبت مدينة «ينتشوان» وحُطم البلاط من على أسطح القبور الملكية، ونُبشت عظام ملوك «التانغوتيين» وتفرق الشعب، وتحققت إرادة «جنكيز» بدقة متناهية، وكانت المعلومات المتوافرة عن مستوى الدمار ضئيلة للغاية، ولم يذكر كتاب التاريخ السرّي سوى جملة مقتضبة: «لأن «التانغوتيين» فشلوا في الإيفاء بوعودهم، جاس «جنكيز» خلال ديارهم للمرة الثانية»، فالروايات الصينية لم تكن موجودة بشكل عملي، لأن لا المغول ولا أية سلالة صينية لاحقة ستنعى اختفاء إمبراطورية منافسة. لقد اختفى «التانغوتيون» تقريباً من التاريخ، جنباً إلى جنب مع سجلاتهم، تاركين فقط بعض الجيوب المعزولة التي فشلت في نهاية المطاف في الحفاظ على الكتابة واللغة، وبالرغم من أن هذه الثقافة بدأت في الظهور مرة أخرى، وذلك من خلال فك رموز أحد المخطوطات «التنغوتية» إلا إنه من غير المحتمل أن يكشف أي شخص عن سبب واضح للمجزرة، لأنه لم يتبق هناك أحد ليكتب عنها.

لكن ماذا عن جثة «جنكيز»؟ لن تجد إجابة حاسمة عن هذا السؤال، لأنه ببساطة لا يوجد قبر، وبدلاً من ذلك يوجد معتقدان منفصلان، يشكلان على التوالي ادعاءين متنافسين من الصين ومنغوليا، وكلاهما مصرٌ على أنه الوريث الشرعي لجنكيز، إذ يركز الاعتقاد في الصين بشكل أساسي على تجهيزات جنكيز، وهو على خلاف مباشر مع الاعتقاد الثاني، الذي يتعامل بشكل أساسي مع جثته، مدعياً بأن الجثة قد أُعيدت عبر صحراء «غوبي» إلى وطن المنغوليين ودُفنت في قبر سري.

لكن لا يوجد شيء مؤكد بشأن أي من هذا، فالصيف كان شديد الحرارة، والجثث تتحلل بسرعة في شهر أغسطس، وبغض النظر عن الحاجة إلى السرية، فإن العودة ستحتاج إلى إنجازها بأسرع وقت ممكن، وقد كان على الموكب الجنائزي أن يقطع مسافة 1600

كيلومتر، وستستغرق هذه المسافة لعربة مسافرة بقدر كاف من العناية والحرص ثلاثة أسابيع، وستُحفظ الجثة قدر المستطاع بالأعشاب، لكن المغول لا يعرفون شيئاً عن التحنيط، لذا لا بدّ أن تكون رحلة سريعة.

ولم يذكر كتاب التاريخ السرّي شيئاً عن الموكب الجنائزي أو الدفن، منتقلاً مباشرة إلى السنة التي تلت الموت إلى الاجتماع العظيم في «خيرلينKherlen «والذي أُقر فيه «أوقطاي» كوريث «لجنكيز»، ومن غير المتصور أن هذا الحدث العاطفي كنقل ودفن خانهم سيغيب إلى حدٍ ما عن ذاكرة أولئك الذين جمعوا كتاب التاريخ السرّي، والتفسير الوحيد المحتمل هو أن المسألة برمتها قد حُذفت بشكل مُتعمد، والتفسير الوحيد الممكن لهذا الشيء المحرم هو ذو شقين: الشق الأول، الحفاظ على ما كان في الأصل سراً من أسرار الدولة، وبالتحديد الموت وتقدم الموكب الجنائزي؛ والشق الثاني، إخفاء العلم بموقع الدفن عن الجميع باستثناء الدوائر الأكثر عمقاً في السلطة.

ومرة أخرى، سمحت هذه الاستراتيجيّة للأسطورة بالازدهار، وفي الحال، كما هو الحال مع الموت، بدأ الفولكلور بسد فجوة المعلومات بالقصص، التي ذكرت واحدة منها بأن طريق الموكب الجنائزي تميز بالذبح، وقد رويت هذه الحكاية من اثنين من المؤرخين، الكاتب العربي «رشيد الدين «والكاتب «ماركو بولو Marco Polo»، إذ يروي رشيد الدين بصراحة قائلاً: «لقد قتلوا في الطرق كل كائن حي قابلوه»، وإليكم ما كتبه «ماركو بولو» بأسلوبه المقنع الحميم:

دعوني أخبركم شيئاً غريباً جداً. عندما يحملون جثة أي إمبراطور للدفن مع الآخرين، فإن القافلة التي تسير مع الجثة تقتل كل من يقابلهم في الطريق، قائلين: «اذهب وانتظر ربك في العالم الآخر!». إن ما فعلوه لهو اعتقاد حقيقي بأن جميع من ذُبح بهذه الطريقة سيذهب لخدمة ربهم في العالم الآخر، وقد فعلوا الشيء نفسه بالخيول..، وما أقوله لكم هو حقيقة مؤكدة، فعندما مات «مناجو خان Mangou Kaan» [مونخي خان Monkhe Khan]، حفيد جنكيز خان، فإن أكثر من عشرين ألف شخص، ممن تصادف أن قابلوا الجثة في طريقها للدفن، قد ذُبحوا بالطريقة التي ذكرتها.

وتؤكد مكانة هذين الكاتبين وآراء قُرائهم المتحيزة منذ ذلك الحين بأن أحداثاً تاريخية لا تعد ولا تحصى، سواء أكانت شعبية أم أكاديمية، ستتناول القصة كحقيقة لا ريب فيها، دون أي تعليق إضافي. إنها رواية صحيحة للغاية، بطريقة أو أخرى، لأن الرحلة الأخيرة للزعيم البربري الذي ذبح مئات الألوف ينبغي أن تشمل المزيد من القتلى، وقد أضاف المؤلفون الذين قبلوا بالفكرة أمثال «رالف فوكس Ralph Fox» و«ليو دي هارتوك Leo de Hatog» و«بول راتشنيفسكي Paul Ratchnevsky» و«ميشيل براودن Michael Prawdin» إثارة أكبر إلى الصورة، إذ كتب «براودن» في كتابه الخيالي للغاية «الإمبراطورية المنغولية The Mongol Empire»: «جميع الكائنات الحية التي كانت سيئة الحظ جداً لأنها قد شُوهدت من أولئك الخيالة، سواء أكان إنساناً أم حيواناً، طائراً أم أفعى، قد قُتلوا وذُبحوا بقسوة».

وأنا شخصياً لا أصدق تلك الرواية، لأنها لم ترد لا في المصادر المنغولية ولا الصينية، كما أن الراهب «وليام من روبروك William of Rubrouck» الذي كان موجوداً في قصر «مونخ Monkhe» في «كاراكوروم» من عام 1253 إلى 1255، لم يذكر القصة، ولم يذكرها كذلك «جوفاني» الذي كان في «كاراكوروم» في الوقت نفسه الذي كان فيه الراهب «وليام»، وقد يكون دفن الكنز من العبيد والخلائل المقتولة وما إلى ذلك صحيحاً، وحتى دفن الأحياء قد يكون ممكناً، لكن هل من الممكن قتل كل كائن حي على طول طريق الموكب الجنائزي؟

ولننظر أولاً إلى أساس القصة التي كتبها «رشيد الدين» و«بولو» بعد خمسين عاماً أو يزيد من وقوع الحدث، فبالرغم من أن «رشيد الدين» قد وصل إلى المصادر المغولية، إلا إنه لا يتحدث اللغة المنغولية، واعتمد على مساعدة سيده «غازان Ghazan» (من عام 1295 إلى عام 1304، خمسة أجيال انتزعت من جنكيز)، وسفير القصر المنغولي في «بكين»، وربما يكون قد سمع القصة من أحدهم، التي رواها بمجرد عشر كلمات فقط (في الترجمة). كما أن «بولو» لم يَنْسب جرائم القتل إلى موكب جنكيز بالتحديد، إنما «لأي إمبراطور» وعلى وجه التحديد إلى «مونخي Monkhe» (الذي مات قبل وصول «بولو» إلى الصين بأربعة عشر عاماً، كما أنه لم يَشهد الجنازة). إن ما كتبه عنهم كان إشاعة، دون أي تزويق.

وهناك تبرير واحد لهذا التصرف المزعوم وهو الإبقاء على موت جنكيز سراً، لكن الحجة

لا معنى لها، فالسر كان بكل تأكيد يجب المحافظة عليه طي الكتمان، وذلك كما نستنتج من صمت المصادر بشأن هذا الموضوع، لكنّه يدحض الاعتقاد بأن قتل الناس، ناهيك عن «كل كائن حي» سيحافظ على السرية، وهل يُفترض أن ينطبق هذا الأمر على الصينيين و«التانغوتيين»؟ حسناً، ربما يكون كذلك، لأنهم يُعتبران أقل شأناً، وذلك إذا ما افترضت طريقاً منعزلاً بشكل مناسب. لكن ما الذي حدث في منغوليا؟ هل لنا أن نفترض أن الحراس قتلوا أفراد الشعب الذين كان سيدهم قلقاً عليهم؟ فالأخبار تنتقل بسرعة على السهل، والكل يعرف الآخر، وفي يومٍ صافٍ تستطيع أن ترى في أي وقت، ولا أعتقد أن هناك شيئاً يمكن أن يبدو أكثر وضوحاً من موكب جنائزي ضخم، ولا يوجد شيء يمكن أن يعلن بشكل أفضل عن حقيقة أن الموكب الجنائزي لديه شيء ليخفيه أكثر من القتل الجماعي، فمن ذا الذي يشهد عدواناً بمثل هذه الدرجة، ويبقى موجوداً في الجوار حتى يمسك به؟ كيف يمكن للحراس أن يضمنوا أسر وقتل كل من يشهد هذا الحدث؟ وفيما يتعلق بالجثث، لا يمكن أن تُترك لإرباك وإفزاع القادمين من المارة، وهل يمكن لموكب جنائزي ملكي أن يثقل كاهله بالجثث؟ لا أعتقد ذلك.

وأعتقد أن أفضل طريقة لإبقاء السر طي الكتمان هي أن يسافر الموكب بسرعة، وأن يسافر بمجموعة صغيرة وألا تُعلن عن حقيقة أنك تُخفي شيئاً. كما لم يكن هناك أية عربة حاملة لخيمة واسعة ويجرها اثنان وعشرون ثوراً (تذكر الوديان الصغيرة شديدة الانحدار التي تعبر «تشينغ شوي Qing Shui» والنهر الأصفر نفسه). كما أن الاحتمال الأكثر ترجيحاً هو أنه نُقل بعربة موتى ذات عجلتين تجرها الجمال التي ذُكرت في الفولكلور الشعبي الذي جمعه «الحكيم ساجانج Sagang the Wise» وورد في كتاب «الملخص الذهبي Golden Summary».

وبالطبع فإن طريق الموكب الجنائزي ليس معروفاً، لا بدّ أنه انطلق نحو «تشينغ شوي» باتجاه النهر الأصفر، ومن ثم إلى أين؟

إلا إن هناك مفتاحاً للغز في إحدى الحوادث التي يرويها «ساجانج» إذ غاصت العربة حتى محاورها في الطين، وغنى أحد القادة المنغوليين لسيده المقدس: أسدٌ بين الرجال، ولدَ بإرادة السماء الخالدة، وكل شيء عزيز كان يمتلكه سيجده أمامه، فالقصور والملكات

والأطفال والشعب والنبلاء والرعية والماء ورفقاء السلاح ومكان الميلاد - «كلها تنتظرك هناك، يا سيدي!» ويا للعجب - فهذا اللحن الحزين، الذي يُعد أحد أكثر القصائد المغولية عاطفيةً، يشبه التوراة في أسلوبه - فسمعه سيده ومنحه بركته وتحركت العربة التي كانت تئن في الطين وفرح الناس ورافقوا جثة الخان قدماً إلى الموطن العظيم.

وقعت هذه الحادثة، هذا إن وقعت بالفعل، في جبال «مونا Mona» أو «ميونا Muna»، وهذه هي سلسلتا الجبال اللتان تُعرفان اليوم باسم جبال «ين Yin» التي تُطوق المنعطف الحاد للنهر الأصفر إلى الشمال من«أوردوس»، وباتجاه الغرب، بين الجبال والصحراء، توجد منطقة منخفضة حيث تكون المستنقعات والجداول الجانبية المتعرجة نوعاً من دلتا وسط النهر، وهي الأرض نفسها التي علقت بها العربة المغطاة ذات العجلتين.

وإذا كانت الحادثة وقعت فعلاً، فإن الموكب الجنائزي سيكون قد اتجه نحو الشرق على الأرجح، ليصل إلى الطريق الذي سلكه «جنكيز» مرات عديدة في حملاته ضد «الجين»، إذ أصبح هذا الطريق الشرقي، الذي يمر عبر منطقة تفسح فيها سهول الحصى في صحراء غوبي الطريق للمراعي، طريقاً ملكياً، واليوم يمر خط السكة الحديدية بجزء من هذا الطريق الذي يمتد حتى «أولان باتور» من نقاط العبور الحدودية من «ارنهوت Erenhot» (إرليان باللغة الصينية Erlian in Chinese) و»زامين يود Zamyn Uud» (بوابة الطريق)، ولا تزال هذه الطريق طريقاً رئيسة، بالرغم من أنها ممهدة من على الجانب الصيني من الحدود فقط وإلى ما بعد عدة كيلومترات، وعندما تصل إلى «زامين يود «تنتهي الطريق المعبدة بالإسفلت والأسمنت وتنتشر المسارات عبر صحراء غوبي، فالعربات القادمة من الصين التي تجر مقطورات بأحمال لا يتخيلها عقل تخرج من طابور العربات الطويل عند نقاط الجمارك جارةً حمولاتها بخطى متثاقلة، باعثةً دخانها في الطريق الممتلئ بالدخان عبر صحراء غوبي المتموجة حتى «أولان باتور» و«اريكتسك» و«ألماتي» وما بعدها من المدن.

ولن يتجه أي موكب جنائزي يتبع هذا الطريق نحو «أولان باتور» إنما يمكن أن يسلك طريقاً ملتوياً نحو «كاراكوروم» التي بدأ تحويلها الآن إلى عاصمة إمبراطورية، وعلى الأرجح، ونظراً لالتزام السرية، انطلق الموكب فوق طريق معبد بالحصى، متجهاً نحو الشمال تقريباً لثلاثة أيام أخرى، حتى وصل إلى المراعى الآن، وعبر مياه نهر «خيرلين» الضحلة نحو

«أفراجا «القديمة، ومن ثم سار قدماً إلى الرحلة الأخيرة شمالاً على طول نهر «خيرلين» ملتفاً حول تلال «جزيرة الريف Countryside Island» إلى قلب جبل «خنتي» المقدس، حيث الغابات والمرتفعات الجرداء «لبرخان كالدونBurkhan Khaldun».

الفصل الرابع عشر

المراكز الخارجية المهمة للإمبراطورية

في وقت وفاته كان «جنكيز» قد بسط سلطته من المحيط الهادئ وحتى بحر قزوين، إمبراطورية تساوي في الحجم أربعة أضعاف إمبراطورية «الاسكندر» وضعفي حجم الإمبراطورية الرومانية، وأكبر من أية أمة اليوم باستثناء الأمة الروسية، بالرغم من أنها لم تكتمل بعد، ففي عام 1300 سيضاعف المغول غزوات «جنكيز» مضيفين ما تبقى الآن من الصين وكوريا والتبت وباكستان وإيران ومعظم أرجاء تركيا، وكذلك القوقاز (جورجيا وأرمينيا وأذربيجان) إضافة إلى معظم المناطق الصالحة للسكن من روسيا وأوكرانيا ونصف بولندا، وسوف تصل إلى ما هو أبعد من ذلك مع الحملات العسكرية نحو أوروبا الغربية، ومصر واليابان، ويمكن للمحارب المغولي الذي استكشف غابات «فينا» كشاب في عام 1241 أن يكون قد سافر نظرياً مئة ألف كيلومتر لكي ينجو من العواصف التي أنقذت اليابان من السفن المنغولية في أعوام 1274 و1281، وربما قد سمع حكايات عن نهب مدينة «بورما Burma» والإنزال على مدينة «جاوة Java» بعد عقد من الزمان.

لقد بلغت مساحة الإمبراطورية المغولية ثمانية وعشرين مليون كيلومتر مربع، وهذا يُشكل خمس مساحة اليابسة في العالم، ونظراً لأنه لا يوجد أحد في أوراسيا يعرف الأمريكيتين أو أستراليا، وبعض الأماكن القليلة في أفريقيا، بدا وكأن العالم المعروف بأكمله سيكون في الحال تحت نفوذ المغول، تماماً كما خطط «جنكيز» وكما أمرت السماء. كما تعدّ حقيقة أن رجلاً واحداً - حفيد جنكيز «قوبلاي» - كان سيداً اسمياً لهذه الملكية الشاسعة أكثر الحقائق التاريخية دهشةً.

تُعد كيفية نشأة الإمبراطورية وتضاؤلها موضوعاً شغل حياة الكثيرين وملأ المكتبات، ومن المنطقي بما فيه الكفاية أن يحذر أي شخص من ادعاء أنه منغولي، لأنه لكي يصل للمصادر الأولية بمفرده فإن هذا الشخص سيحتاج لقراءة تاريخ المغول الذي كُتب بحروف سريالية وعمودية، كما كتب باللغة الصينية والعربية والفارسية والكورية واليابانية والروسية والتبتية والجورجية، وكذلك اللاتينية، وبكل تأكيد، معظم التقارير التي كتبها الأوروبيون، لذا فإن هذا المسح لتراث جنكيز يُعد مسحاً سريعاً، ولابد من إبطاء الهرولة لإلقاء نظرة أكثر تفحصاً للنهايتين المتناقضتين للإمبراطورية التي أسسها.

لقد وزع جنكيز مُلكه على أبنائه، مانحاً ابنه الأكبر، جوتشي، الإقليم الأبعد عن الوطن، فيما وراء «بحر الآرال Aral Sea» وفقاً للعرف المعمول به. لكن في الوقت الذي آل فيه الإرث «لجوتشي» كان قد مات فعلاً، لذا تقسمت أملاكه البعيدة بين اثنين من أبنائه، «أوردا» و«باتو»، وذهبت ملكية آسيا الوسطى من بحر الآرال وحتى التبت إلى «جغتاي» ومرة أخرى وكما تمليه التقاليد مُنح «تولوى» الابن الأصغر، مراعي والده المحلية، وهي في هذه الحالة معظم منغوليا. كما بسط «أوقطاى» «الخاقانkhagan «الآن، ملك الملوك، سلطته على معظم شمال الصين و«شي شيا» المحتلة حديثاً باعتبارها ممتلكاته الشخصية، وسيتبع ذلك بالجزء الذي لم يخضع بعد من أراضي «الجين» ولحسن الحظ، سيسيطر على جنوب الصين.

وفي شمالي الصين، وكما توقع جنكيز، ستكون الإدارة هي مفتاح النجاح طالما اكتمل الغزو، وكانت الحملة قد أُجلت بالحرب على «خوارزم» وبموت القائد العظيم «موخالي» في عام 1223، وبموت جنكيز نفسه في عام 1227، كما فُقدت الكثير من الأراضي، وبعد الحملة الفاشلة في عامي 1230 و1231،اتبع «أوقطاي» نصيحة والده له وهو على فراش الموت، وتوصل إلى اتفاق مع أسرة «سونغ»، واجتاح «الجين» بمساعدة شقيقه الأصغر «تولاي» والقائد العظيم «سوبيديSubedei» كما بدأ بمحاصرة «كايفنغ»، وخيم الخانان الأشقاء لقضاء الصيف في التلال بالقرب من «بكينBijing» تاركين مهمة الحصار «لسوبيدي»، وهنا مات «تولاي» في ظروف غامضة، تاركاً حُكم منغوليا «لأوقطاي»، وفي عام 1234 سقطت مدينة «كايفنغ» وأُعدم جميع الذكور من «الجين» وأصبح المغول الأعلى منزلة في شمال الصين.

ما الذي ينبغي فعله مع هذه الإمبراطورية الجديدة؟ فقد بدأ القادة المنغوليون يتجادلون فيما بينهم منذ خلافة «أوقطاي»، ودُمر المكان بطرق مشابهة لتحطم «خوارزم» وبمعيار يَصعب فهمه اليوم، إذ انخفض عدد السكان من أربعين مليوناً أو نحو ذلك في أوائل القرن الثالث عشر، كما دُون من «الجين» إلى حوالي عشرة ملايين بحلول عام 1234، وذلك عندما وضع المغول سجلاتهم التفصيلية الأولى، إذ مزق أمراء المغول المجتمعات السكانية إرباً إلى عبيد، وازدحمت المعابد بالسجناء الفارين والهاربين من الخدمة العسكرية واللاجئين، واقترح العديد ممن كانوا في القصر الجديد في «كاراكوروم» بأن الحل الأسهل، في مثل

هذه الظروف الفوضوية، هو الإبادة الجماعية، متسائلين عن فائدة المزارعين، إذ اعتقدوا أن عملهم غير مُجدٍ ولا يمتلكون شيئاً ذا قيمة وشكلوا مصدراً للمعارضة. لقد كانوا أقل قيمة من الماشية والخيول، دعنا نستبدلهم بالماشية والخيول، فمن الأفضل قتلهم جميعاً، بالرغم من وجود الكثير من الملايين منهم، وتحويل الأراضي إلى مراعٍ، ولن يقتضي الأمر طويلاً من عشرة آلاف محارب بأن يذبح كل منهم ألف شخص، وبالتالي ستكون الدولة بأكملها فارغة منهم في وقت قصير.

لقد كان «يه - لو تشو - تساي Yeh – lu Chu – tsai» هو من أوقف هذا الحديث المجنون، إذ كان لبضع سنوات نائباً لأخ زوجة «جنكيز» في قسم الأمانة الأولية للخان في الجزء الصيني من البلاد، وعمل مع فريق من العلماء في صياغة المراسيم باللغة المغولية والصينية و»التانغوتيةTangut» في وقت لاحق، وكان يتقدم في حياته العملية - لمساعدة السماء قُدماً في اختيارها الغريب لحاكم بتحويل البربرية والجهل إلى فضيلة وحكمة، إذ كان حلمه ثورياً ومثالياً (يوطوبي) على حدٍ سواء، وكانت مادته الأولية هي شمال الصين الممزق، إذ سعى إلى تطبيق قواعد «الكونفوشيوسية» للوصول إلى الحكم الصالح بينما في الوقت نفسه كان يشجع البوذية لتهذيب العقل، وكان هدفه الأساسي خلق مجتمع يتفوق على «الكونفوشيوسية» وبالأحرى كما توقع الشيوعيون المثاليون، مجتمع سيتطور من خلال الاشتراكية إلى الشيوعية المثلى، وعموماً لقد حقق بداية جيدة، إذ أثبت شعبه الذي عمل ككُتاب ومترجمين ومبعوثين ومنجمين وخبراء ضرائب، حيوية متزايدة في حكم ما كسب. كما إنه كان دائم الحضور في مدن عدة - سمرقند وينغ وو وكايفنغ - من أجل المحافظة على المكتبات والكنوز والعلماء.

واقترح «تشو تساي» على «أوقطاي» خطة، مدركاً بشكل جيد بأن المغول لن يستفيدوا من الحضارة الصينية ما لم تقدم مكسباً مادياً، وأوضح أنه إذا ما حقق الفلاحون نجاحاً اقتصادياً، يمكن فرض الضريبة عليهم، وبالتالي سيساهمون في الاقتصاد الوطني، وتحقيقاً لهذه الغاية، رسم خطة بغرض التجديد وبناء نظام حكم مثل الصين، ناهيك عن أن منغوليا لم تشهد له مثيلاً من قبل، ففي المقام الأول، ينبغي فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية بما بها من أنانية وممارسات تعسفية ووحشية، وستقسم دولة «الجين» إلى عشر مناطق، لكلٍ منها مكتب

جمع ضريبة لإدارة ضريبة الأرض المفروضة على الفلاحين وضريبة الرؤوس المفروضة على السكان المدنيين، وجميعها تُدفع بالحرير والفضة أو الحبوب وتصب جميعها في صالح الحكومة. كما كُبح جماح الكهانة الطاوية، المتضخمة بالثروة والأعداد بسبب إعفاء جنكيز لهم من الضرائب الشخصية، بفرض ضرائب على أعمال المعبد التجارية وبفرض قوانين ضد المخصصات المالية الأخرى للمعابد البوذية.

ونتيجة لكل هذا، اعترض القادة العسكريون المغول بعنف، لكن «تشو - تساي- Chu tsai «وبدعم من «أوقطاي» لم يتراجع، وفي عام 1231 جاءت أول الأموال المجموعة من الضرائب، ودخلت مباشرة إلى الميزانية، لتصل قيمتها إلى عشرة آلاف سبيكة فضة، فعين «أوقطاي» على الفور كرئيس قسم الأمانة في الجزء الصيني من البلاد، ومسؤول بشكل مباشر عن رئيس الجزء «المغولي اليغوريMongol - Uighur» وهو «تشينجايChinqai «نفسه الذي كان قد دل الراهب «تشانغ تشونChang - chun «على «جنكيز».

كما تضمنت الضرائب السجلات التي كانت حيوية أيضاً لتخصيص الأراضي للنخبة من المنغوليين، لهذا السبب سُجل الإحصاء الرسمي للسكان من عام 1234 إلى عام 1236، في الكتاب الأزرق الذي أشرف عليه «شيجاي» شقيق جنكيز بالتبني، وهو الشخص الذي ربما أشرف على تحرير كتاب التاريخ السرّي، ونظراً لأن الإدارة تطلبت أشخاصاً متعلمين، أنقذ «تشو - تساي» في عام 1233 أعداد أكبيرة من العلماء والأشخاص البارزين الآخرين من الأسر، بما في ذلك أحد أحفاد «كونفوشيوس» الذي أُعيد للعمل في منصب قاضٍ في مسقط رأس «كونفوشيوس» في مدينة «شاندونغ». كما أسس دار نشر حكومية وكلية لأبناء المسؤولين الصينيين والمنغوليين لبناء الجيل القادم من العلماء والإداريين. كما أعاد ترتيب شؤون المسؤولين «الجين» السابقين الذين كانوا مستعدين لإجراء اختبارات تأهيلية، مع فرض عقوبات على مالكي العبيد الذين لم يمتثلوا للأوامر، فتقدم أربعة آلاف شخص منهم للامتحانات، واستعاد ألف شخص منهم حريته من خلال العمل.

لكن «تشو - تساي» لم يُدِرْ الأمور بطريقته الخاصة لفترة طويلة من الزمن، ففي أواخر الثلاثينيات من العام 1200، أصبح «أوقطاي» السكير سيئ السمعة، عاجزاً بشكل متزايد، وأصبحت السلطة تُدار من زوجته الثانية الطموحة والداهية، «توريجينToregene». كما

اعترضت فئات معادية للصينية موجودة داخل القصر على أساليب «تشو - تساي» الغريبة، ووعد التجار المسلمين بدفع فوائد أكبر من خلال تحولهم إلى مرابين، يعيشون بترف على حساب الصينيين التعساء، فارضين فوائد سنوية بنسبة ٪100 واتولوا على التركات في حالة عدم الدفع، وفي عام 1239، تولى رجل أعمال يدعى «عبد الرحمن» مسؤولية «تحصيل الضرائبtax farming «في جميع مناطق «الجين» السابقة، وفي السنة التالية نُحي «تشو - تساي» جانباً بشكل عملي، واحتفظ ببعض التأثير في القصر من خلال عمله كمنجم «لأوقطاي» لكن حتى هنا كانت نصيحته تلقى آذاناً صماء. ففي شهر ديسمبر من العام 1241، خطط الإمبراطور المريض لمطاردة كبيرة، متجاهلاً تحذير «تشو - تساي» بألا يشارك بها، وبعد انتهاء المطاردة، شرب طوال الليل، مفرطاً في الخمور مع صديقه المفضل الجديد «عبد الرحمن» وعند الفجر وافته المنية.

وبعد عامين، مات «تشو - تساي» نفسه، ويقول البعض إنه مات جراء نوبة قلبية، عن عمر يناهز الخمسة والأربعين، بعد ما يقرب من ثلاثين عاماً من الخدمة المكرسة لمثالية مستحيلة، لكنّه حقق الكثير، ومن المستحيل القول إذا ما كان المغول بالفعل أبادوا جميع سكان شمال الصين أم لا، لكن يعود الفضل «لتشو - تساي» الذي لولاه لما كنا قد عرفنا، وإذا كان «جنكيز» فعل شيئاً جيداً، فذلك يعود لتوظيفه لهذا الرجل القدير الرائع والمثالي.

لقد كُرم «تشو - تساي» في مماته حسب الأصول، بألقاب حصل عليها بعد وفاته وقبرٍ بجانب «بحيرة كونمينغ Kunming Lake «في بكين، وفيما بعد، نُقل القبر - مرتين، وانتهى به المطاف في حدائق قصر الصيف، وإذا ما تتبعت بحيرة «كونمينغ» بما بها من كتل من القش، واجتزت «قاعة موجات اليَشّمHall of Jade Billows»، ومن ثم تدخل من خلال سور عال أحمر اللون إلى باحة مظللة بأشجار السرو، ستجد نسخة تمثال أعيد صنعه في القرن الثامن عشر، لرجل «اللحية الطويلة، أي تشو تساي» طوله ستة أقدام وثماني بوصات، وبجانبه كُتبت قصيدة من الإمبراطور «تشين - لنغChien - lung» وهو أيضاً من أباطرة القرن الثامن عشر، قال في هذه القصيدة: بالرغم من أننا ولدنا من سلالتين مختلفتين، إلا إنني احترمه لأمانته مع إمبراطوره، وأنا نفسي كإمبراطور، أتمنى أن يأخذه وزرائي كمثال يُحتذى به.

وفي هذه الأثناء، بقي الغرب محتلاً بشكل جزئي، وفي الحقيقة، وبسبب انسحاب جنكيز وموته، فُقدت الفتوحات القديمة، ولا زال الخليفة يحكم في بغداد، ونداء المراعي الخضراء «المجريةHungarian «لا زال لم يُلبَّ بعد، إذ كانت تلك المراعي الخضراء البعيدة تمثل بشكل واضح جزءاً من مصير المغول الظاهر، وهي مكافئ مغولي لكاليفورنيا، وسيكون امتلاكهم لتلك المراعي لفترة وجيزة قد جاء بمحض المصادفة، لكن سيدوم مدة طويلة بما يكفي للتعبير عن طموحات جنكيز بشكلها الأكثر وحشية.

لقد قُسم نصيب «جوتشي» من الإمبراطورية الآن في الشمال والجنوب بين نجليه الكبار، «أوردا» و«باتو»، ففي عام 1235، وبمجرد سقوط إمبراطورية «الجين» استضاف «أوقطاي» حشداً وطنياً كبيراً من الزعماء في «كاراكوروم» العاصمة الجيدة التي علا شأنها حينما حكم الأتراك ذات مرة، على السهول في وادي نهر «الأورخون Orkhon» الذي كان حجمه يتجاوز حجم قرية بقليل، حوالي كيلومترين مربعين، لكنّه كان محاطاً بالأسوار بكامله، ملحقاً به مُجمع إضافي لقصر «أوقطاي» الذي كان عبارة عن بناء يشبه الكنيسة بطول ثمانين متراً تقريباً، وفي نهاية المطاف سيكون في البلدة اثنا عشر مزاراً شامانياً صغيراً، ومسجدان، وكنيسة مسيحية، والكثير من المنازل إضافة إلى عدد ضخم من الخيام. لكن المغول لم يكونوا بارعين في الهندسة المعمارية، فقد كان دوماً بها شيء اصطناعي إلى حدٍ ما، على غرار الهندسة المعمارية البرازيلة أو الكانبيرية وليس على غرار اللندنية أو الباريسية، إذ كتب الراهب «وليام من روبروكWilliam of Rubrouck «الذي شاهد هذا القصر في عام 1254 بازدراء قائلاً: «إن دير القديس دينس يساوي ذلك القصر بعشرة أضعاف»، ويعد هذا القصر اليوم موقع منغوليا السياحي الرئيس، لكن لا يوجد شيء من العاصمة القديمة لكي تشاهده، باستثناء حجر السلحفاة الضخم، الذي كان ذات يوم قاعدة لنصب تذكاري. أما حجارة «كاراكوروم «فقد دُفنت، أو أُعيد استخدامها في بناء دير القرن السابع عشر الذي يقف منتصباً في الجوار.

لقد كان اجتماع «أوقطاي» وقادته العسكريين في هذه العاصمة البدائية في العام 1235 لاتخاذ قرار بشأن استراتيجيّة المستقبل، يعني على وجه الخصوص إلزام الجيش بالاستيلاء على السهول الروسية والسهول المجرية، وفي الوقت المناسب السيطرة على ما خلفها من

مناطق غير معروفة ولكنها ثرية.

وفي عام 1236، وتحت قيادة «سوبيدي Subedei» العظيم وسيده، «باتو» ابن «جوتشي» انطلق مئة وخمسون ألف محارب غرباً، في زيارة ثانية للمناطق المألوفة منذ «الهجوم العظيم Great Raid «قبل عشر سنوات خلت، وقد أحدث هذا التقدم أصداءً وثبت قدوماً، كصرخة في وادٍ، إذ وصلت الأخبار إلى فرنسا وبريطانيا من مصدر غير متوقع، إذ أرادت طائفة الحشاشين، طائفة شيعية إسلامية مقرها بلاد فارس وسوريا، المساعدة، وهي طائفة سيئة السمعة كما تتخيل. لقد كانوا محصنين بالحشيش، الذي اشتقوا منه اسمهم، وكانوا أصوليي زمانهم، لتبنيهم الإرهاب (لكن ليس الانتحار) كواجب مقدس في مواجهة أي مسلم، وفي الوقت المناسب أي مسيحي يرفض الاعتراف بهم، والآن وصل رُسل الحشاشين لعامة الشعب في «لندن» و»باريس» متوسلين لتشكيل ائتلاف مسلم - مسيحي ضد العدو الجديد المخيف، ولكنهم لقوا اهتماماً قليلاً، وكما قال أسقف «وينشستر Winchester»، «دعنا نترك هؤلاء الكلاب يلتهمون بعضهم البعض».

لقد كان «البلغار Bulgars» الذين أجبروا «سوبيدي» على التراجع في المواجهة الأولى سيئي الحظ، وكذلك كانت قبائل «البولوفتسي Polovtsy»، التي فرت غرباً، وكذلك الحال بالنسبة لمجموعة من المدن الروسية، ففي أواخر عام 1237، عبر المغول نهر «الفولغا Volga»، ولم يتعلم الأمراء الروس شيئاً من «معركة نهر الكلكا Battle of Kalka River «التي دارت رحاها قبل أربعة عشر عاماً، إذ كانت الغابات كثيفة جداً لا تسمح حتى لثعبان باختراقها، لكن وكما أوضحت أحد المصادر، لم يكن هناك دفاعات، إذ شق المغول طرقاً واسعة بما يكفي لمرور ثلاث عربات معاً، وزحفوا إلى الأمام بمجانيقهم، وبعد انتصار واحد غير محدد، أحصى المغول القتلى بقطع الأذن اليمنى للموتى، منتجين حصاداً بلغ مائتين وسبعين ألف أُذن، ومن ثم قسموا المدن المنهارة بشكل مفاجئ كأنها لعبة دومينو: ريازان Riazan، موسكو Moscow، سوزدال Suzdal، فلاديمير Valdimir، ياروسلاف Yaroslav، وتفير Tver، وفي أوائل عام 1238 هزم أحد الجيوش المغولية «الدوق العظيم فلاديمير Grand Duke Vladimir «على بعد مائتي كيلومتر شمال موسكو، بينما توجه جيش آخر مباشرة نحو «نوفغورود».

لقد كان لدى أوروبا تحذيرٌ كافٍ بالكارثة الوشيكة، إذ رحل راهب مجري يدعى «جوليان Julian» إلى معسكر «باتو» «في جنوب روسيا في أواخر الثلاثينيات من العام 1200 وعاد حاملاً رسالة من «باتو» إلى البابا مطالباً إياه بالاستسلام الفوري. قال «باتو» في هذه الرسالة: «أعرف أنك ملك قوي وغني... لكن سيكون من الأفضل لك شخصياً إذا ما أذعنت لي بإرادتك الخاصة»، وفي انجلترا، سجل المؤرخ «ماثيو باريسMatthew Paris «من «سانت ألبانزSt Albans «كيف «أن شعب الشيطان المقيت، وبالتحديد، عدد لا حصر له من التتار... هبط عليهم مثل الشياطين الهاربة من النار، أو «الجحيمTartarus «« - عاكساً الخلط الدائم في أوروبا بين كلمتي «تتارزTatars» و«تارتارزTartars». كما أثر زحف المغول نحو «نوفغورود» في بعض الإنجليز، وبالتحديد في جماعة الصيادين في «نورفولك Norfolk»، ففي كل ربيع، كان تجار «نوفغورود» يبحرون في الجزء المخصص لهم من «الطريق النهري» الذي ربط «بحر البلطيق Baltic» «بيزنطة Byzantium» ومن ثم يذهبون إلى «يارموثYarmouth «لشراء رنجة بحر الشمال. لكن في عام 1238، مكثوا في وطنهم لحماية مدينتهم، تاركين أسماك الرنجة لإتخام أرصفة «يارموث» أو تُباع داخل البلاد بثمن زهيد، ولا يمكن لزعيم أوروبي ادعاء تجاهل الخطر.

وفي خضم الأحداث، حول ذوبان الربيع الأراضي المستوية حول «نوفغورود» إلى مستنقعات، فتقهقر المغول جنوباً لثمانية عشر شهراً من الهدوء، وفي عام 1240، اتجهوا إلى مدينة «كييفKiev «بدلاً من «نوفغورود»، وهي العاصمة الروسية، والمدينة الأم للشعوب السلافية والمقر للأرثوذكسية، تجمعت كنائسها الأربعمئة مثل هالة حول البهاء الذي يكتنف كاتدرائية سانت صوفيا، وقد وصف مؤرخ روسي الهجوم بالقول: «دفع التتار أنفسهم قدماً نحو «كييف» مثل الغيوم الكثيفة، مطوقين المدينة من جميع الجوانب، وكانت قعقعة عرباتهم التي لا حصر لها، وخوار جمالهم وماشيتهم - الجمال! التي أذهلت رؤيتها المواطنين - وكان صهيل الخيول وصرخات المعركة غامرة كمن يلقي حديثاً غير مسموع داخل المدينة»، وفي نهاية المطاف تم أحرقت مدينة «كييف» وفر أمراؤها إلى، موسكو، التي بدأ يعلو شأنها منذ ذلك الوقت بسبب انهيار «كييف».

والآن، وأخيراً، أصبحت المراعي الخضراء في «أوكرانياUkraine «مفتوحة مع ما

بعدها من مراعي «المجر»، وفي الغرب، وبالرغم من أن الخطر كان جلياً وحاضراً، إلا إنه ببساطة لم يؤخذ على محمل الجد، إذ كان أولئك برابرة بدائيين يقاتلون في مناطق مجهولة، أليس كذلك؟ أما أوروبا أرض الفرسان والمدن فتعرف كيف تدافع عن أرضها. لكن الأمر لم يكن كذلك، فالمغول كانوا على دراية بما وضعه أمامهم الجواسيس والهاربون، الريف، والمدن، والمسافات، والأنهار، وحتى الفوضى المطلقة من المعارضة في كلٍ من «المجر» وجارتها «بولندا».

ولتأمين «المجر» سيتم تحييد «بولندا» أولاً، خلال فصل الشتاء، عندما تصبح الأنهار طرقاً رئيسة من الجليد، وتصبح الأراضي المنخفضة صلبة كالخرسانة، فانقسم الجيش في شمالي «أوكرانيا» إذ انطلقت فرقة من الجيش نحو «بولندا» وتوجهت الأخرى نحو «المجر»، وفي أوائل عام 1241 تلاشت مدن «لوبلين Lublin» و«ساندومير Sandomir» و«كراكو Krakow «بفعل النيران، ففي مدينة «كراكو» كما قيل، كان حارس في برج كنيسة «مارياكي Mariacki «الجديدة، كنيسة سانت ماريا، يدق ناقوس الخطر من خلال قرنه عندما اخترق سهم مغولي حنجرته، واليوم، يصدح تسجيل نداء البوق الحزين المعروف باسم «هيجنا hejna» كل ساعة في كنيسة سانت ماريا، متوقفاً عند النداء نفسه الذي يفترض أن الحارس قد مات وهو يطلقه، وقد أُخبر السائحون بأن هذه القصة حقيقية وأن موته أنقذ المدينة، ولكنها ليست حقيقية ولم ينقذ موته المدينة، ففي عيد «أحد الشعانين Palm Sunday»، في الرابع والعشرين من مارس، ووفقاً للسجلات المحلية، أشعل المغول النار في المدينة و«وسحبوا بعيداً عدداً لا حصر له من الناس».

وبعد ذلك واصلوا المسير نحو نهر «الأودر Oder»، حيث أشعل مواطنو «روكلاو Wroclaw «النار في مدينتهم وتراجعوا إلى جزيرة في النهر، ومن هذا الانتصار السريع والسهل، انطلق المغول لمسافة أربعين كيلومتراً نحو مدينة «ليجنيتسا Liegnitz « (المعروفة باسم «ليجنكا Legnica» اليوم، لكن المؤرخين ما زالوا يفضلون المصطلح الألماني)، وهنا، أخيراً، على حدود الإمبراطورية الرومانية المقدسة، واجههم «الدوق هنري Duke Henry «الذي كان يسمى تقي «سليسيا Silesia» بجيشٍ يتكون من مئة ألف محارب (لكن جميع هذه الأرقام غير موثوق بها). لكن هذه البلدة الحدودية المنتمية للمسيحية حديثاً كانت

خليطاً من البولنديين والألمان والتشيك، حيث دخلت أسماء الأماكن (وما زالت) ضمن المُركبات اللغوية، وكان المدافعون عبارة عن خليط من الوجهاء المحليين، فرسان المشفى Hospitallers وفرسان الهيكلTemplars وفرسان الجرمان Teutonic، المتحمسين للدفاع عن ممتلكاتهم على بحر البلطيق، إضافة إلى وحدات قاسية وجاهزة من المستوطنين الألمان والتشيك، وحتى عمال مناجم الذهب في «سيلسيان Silesian». كما كان في الطريق جيش تشيكي تألف من خمسين ألف محارب، لكنّه احتاج إلى عدة أيام أخرى من المسير في الوقت الذي اتجه فيه الدوق «هنري» جنوباً للالتحاق بهم.

لكن في التاسع من أبريل لعام 1241، وعلى بعد عشرة كيلومترات من مدينة «ليجنيتسا» قابل الدوق «هنري» الجيش المغولي بدلاً من الجيش التشيكي، ومن العدل أن نقول أنه لم يكن لديه أدنى فكرة عن الجيش الذي يواجهه، إذ كانت قواته متفوقة في العدد فقط، أما فيما يتعلق بجميع النواحي الأخرى - الأسلحة، التكتيكات الحربية، الاستراتيجيات، المعنويات، الوحشية - فقد تفوق المغول تماماً على الفرسان الغربيين، بدروعهم الثقيلة وبخيولهم المزعجة وزعمائهم المتنازعين، فنَّفذ المغول حيلتهم القديمة، فكونوا ستارة من الدخان من خلال حرق عيدان القصب، وتحركوا بشكل دائري وكأنهم بحالة من الارتباك ومن ثم تظاهروا بالهرب، وهنا انطلق سلاح الفرسان البولندي لمطاردتهم، حتى اختفى الفرسان قليلو العدد وبدأت السهام في الأزيز من كلا الجانبين فجأةً، ففر الدوق «هنري» هارباً، لكنّه سقط مترنحاً إلى الأمام في درعه، فباغتوه وجردوه من ملابسه ومن ثم قطعوا رأسه وألقوا بها جانباً، وبعد ذلك رفع المغول رأسه على رمح واستعرضوها حول أسوار «ليجنيتسا» لإرهاب السكان، وطبقاً للرسالة التي كتبها سيد فرسان الهيكل للملك لويس التاسع، فإن فرسان الهيكل وحدهم فقدوا خمسمئة من فرسانهم، وقُتل ما يقرب من أربعين ألفاً، وتحول الملك «وينسيسلاسWenceslas» وجنوده التشيك المقدر عددهم بخمسين ألفاً - الذين ما زالوا على بعد يوم من المسير - لضمان السلامة إلى جبال «الكارباتCarpathians» تاركاً جنوب بولندا بأكملها للمغول.

وبعد ذلك بيومين، تعرف على جثة الدوق «هنري» العارية مقطوعة الرأس زوجته، «يادفيغا Jadwiga» التي عرفته لأنه كان يمتلك ستة أصابع في قدمه اليسرى، وقد جاء الدليل على

هذا التفصيل الغريب بعد ستمئة عام، إذ حُملت جثة «هنري» جنباً إلى جنب مع عدة جثث أخرى إلى «روكلاوWroclaw «ودُفنت في الكنيسة التي أسسها، المعروفة بكاتدرائية «سان فنسنتSt Vincent «اليوم، وعندما فُتح القبر في عام 1832، وجد الباحثون هيكلاً عظمياً مقطوع الرأس مع قدم يسرى بستة أصابع. (وأتساءل بشأن القدم اليمنى، فتعدد الأصابع عادة لا يكون انتقائياً).

وخلال شهر واحد فقط، هيمن المغول على ستمئة وخمسين كيلومتراً، واستولوا على أربعة مدن كبيرة وهزموا أمة، إذ كانت معركة «ليجنيتساLiegnitz «كارثة مزقت روح أوروبا الغربية، وقد أُقيمت كنيسة في المكان الذي عُثر فيه على جثة الدوق «هنري» التي حصلت في القرن الثامن عشر على وسام «دير البنديكيتينBenedictine monastery»، وتلعب الكنيسة اليوم دور إضافياً كمتحف للمعركة، إذ أُعيد إصلاحها في عام 1991 لإحياء الذكرى السبعمئة والخمسين للكارثة، وأصبحت اليوم مكان جذبٍ مشهوراً للزوار.

وإلى الجنوب، كانت «المجر» في انتظار هزيمتها المحتومة. لكن هذه البلد كانت تعمها الفوضى، إذ تطلبت حشود «الكومانيينKumans « (قبائل بولوفتسيPolovtsy) التي شُردت من على السهول الروسية بسبب الهجوم المغولي، توفير الإقامة لهم، وكانت البارونات المجرية - التي تفضل الموت على التنازل عن استقلالهم المكتسب بشق الأنفس - على خلاف مع ملكهم «بيلا Bela» الرابع، الذي رحب بحشود «الكومانيين» كجيش خاص محتمل، بينما كان البارونات يكرهونهم، فانتهز المغول الفرصة، وانقسم الجيش الجنوبي - الموجود الآن في«غاليسيا Galicia» - إلى ثلاثة أرتال، إذ التف رتلان عبر جبال «الكاربات Carpathians «في حركة كماشة تطويقية، بينما أرجأ «سوبيدايSubedei «نفسه قبل أن ينطلق من الوسط، لذا ستتقابل الأرتال الثلاثة بالقرب من نهر «الدانوبDanube» ولم يستغرق الأمر من طليعة الجند سوى ثلاثة أيام فقط ليقطعوا مسافة مائتين وثمانين كيلومتراً عبر أراضي العدو المغطاة بالثلج، وفي مطلع أبريل، أطبقت الأرتال الثلاثة معاً على نهر «الدانوب» وكانوا جاهزين لمهاجمة العاصمة المجرية، «ازترغوم Esztergom» (غران باللغة الألمانية).

تمكن الملك «بيلا Bela» أخيراً من حشد جيش في مدينة «بيستPest» على الضفة

الشرقية لنهر «الداونوب» (التي لم ترتبط بمدينة «بودا Buda» على الضفة المقابلة للنهر بعد)، وكانت الفرصة الاعتيادية التي يمنحها المغول لأعدائهم بالاستسلام قد قُدمت، ولكنها رُفضت (والشيء الغريب، أن المبعوث المنغولي كان رجلاً إنجليزياً ناطقاً باللغة الهنغارية، والذي سيظهر بعد فترة قصيرة)، وتراجع «باتو» و«سوبيدايSubedei» لأنهما واجها جيشاً قوياً مدعوماً بنهر «الدانوب» ومدينة كبيرة بكل ما بها من تعزيزات، إضافة إلى أنه لم تردهم أية معلومات من بولندا بعد. لكن «سوبيداي» كان عبقرياً، ويكمن جزء من عبقريته في أنه لا يقاتل إلا إذا كان متيقناً من النصر، لذا قام بسحب جيشيه بالكامل شرقاً لكن ببطء، وتراجع مناوشاً عبر المراعي لمدة ستة أيام، مغرياً «بيلا Bela» على الابتعاد عن نهر «الدانوب» وعن أية مساعدة.

وفي العاشر من أبريل تراجع المغول عبر نهر «الساجوSajo «نحو منحدرات «توكاي Tokaj «اللطيفة الغنية بكروم العنب، فوق ملتقى نهر «الساجو» مع نهر «تيسا Tisza» تماماً، وتعد هذه بقعة جيدة، لأنها أعلى من السهل المحيط بها نوعاً ما، ومحمية من الأمام بجدول، واستقر «المجريون» على الناحية المقابلة بالقرب من قرية «محيMohi» صانعين حصناً من خلال تكبيل عرباتهم بشكل دائري، واثقين من أعدادهم المتفوقة.

فقَيّمَ القادة العسكريون الموقف، وأمر «باتو» قواته بالتمركز في القلب، لأن المجريين كانوا «محتشدين جنباً إلى جنب ومحتجزين كما لو كانوا في حظيرة». وفي الليلة نفسها، بدأ «باتو» و«سوبيدايSubedei» تحركهم.

لقد كان ذلك بعد مرور يوم واحد على تحطم البولنديين في «ليجينتسيا». هل كان هذا مصادفة؟ لا أعتقد ذلك، فالمغول لا يتركون النصر للمصادفة، ومن الإنصاف أن نفترض أن كلا الجيشين عرفا تماماً ما كان يفعله الآخر وأين كان يوجد طوال الوقت، ولابد أن كليهما كانا وبشكل يومي على تواصل عبر أربعمئة وخمسين كيلومتراً من الأراضي العدائية، كانت مائتا متر منها عبر جبال «تاترا Tatra» في سلوفاكيا اليوم، في الوقت الذي لا زال فيه الثلج يغطي المنحدرات، وهذا يدل على صف منتظم من الرسل، بخيول إضافية، رابطاً بين القوتين المنفصلتين، مغامرة مدهشة للغاية لبضع عشرات من الرسل الخيالة لدرجة أنها تُفقر الخيال، لكن وبالرغم من أنها كانت واضحة وروتينية إلا إن أحداً من المغول لم يفكر في تسجيلها،

وبقيت سرية للغاية لدرجة أن المصادر الأوروبية لم تشر إليها على الإطلاق. ولتوضيح توقيت تحرك «سوبيداي» علينا أن نتخيل بأن الرسالة من «ليجنتسيا» قطعت الأربعمئة والخمسين كيلومتراً الفاصلة في ست وثلاثين ساعة.

وفي تلك الليلة، عرف «سوبيداي» بأنه لن تكون هناك تعزيزات لعدوه بينما سيكون له الكثير إن أراد، وأن الأخطار طويلة المدى قد اختفت بشكل عملي، فأمر القوات بالعودة لعبور نهر «الساجو» والاستيلاء على الجسر الوحيد مستخدمين المجانيق والبارود، وهذا أول استخدام مُسجل لهذا السلاح المدمر في أوروبا، إذ عبر المغول بوسائل أصبحت معروفة في الحرب العالمية الأولى بسد النيران المتدحرجة، وذلك بإلقاء قذائف المدفعية فوق القوات المتقدمة.

وفي هذه الأثناء، وعلى بُعد عشرة كيلومترات أسفل النهر، قاد «سوبيداي» بنفسه الرتل الثاني الذي بنى طوافات من جذوع الأشجار، وهي عملية لربما يتم سيكتشفها في أية لحظة الكشافة المجرين، لكن لم يكن هناك أي منهم، لأن جميع المجريين وضعوا جل تركيزهم في المعركة الصاخبة التي تدور رحاها على الجسر، وعند الفجر كان كلا المعبرين آمنيْن، وبحلول الساعة السابعة صباحاً، أُجبر المجريون على التقهقر إلى معسكرهم، الذي لم يعُد حصناً بقدر ما كان مصيدة، وطوالِ الصباح، سببت السهام والصخور والنيران خسائر فادحة، وعند منتصف النهار، تراجع المغول الذين كانوا يطوقون المعسكر إلى الخلف، سامحين لفجوة مغرية بالظهور التي يمكن من خلالها أن يفر الباقون على قيد الحياة، محولين أنفسهم من مدافعين مستميتين إلى صيدٍ سهل، غائصين عبر المستنقعات الربيعية إلى موت أكثر تأكيداً، ولجأ البعض منهم إلى كنيسة قريبة ليلقوا حتفهم عندما انهار السقف الملتهب فوقهم، وقد لقي ثلاثة رؤساء أساقفة وأربعة أساقفة آخرين إضافة إلى اثنين من رؤساء الشامانية، الأشخاص المهمين والنشيطين في المسيحية المحلية، حتفهم جميعاً، لأنهم كانوا واثقين من أن الرب سيمنحهم النصر على البرابرة الوثنيين، ومات معهم مواطنون مجريون عاديون وألمان وحتى فرنسيون، بعشرات الآلاف - حوالي خمسة وستين ألفاً وفقاً لما كتبه رئيس كنيسة «مارينبرغMarienberg «في غرب المجر في يناير التالي.

وهرب «بيلا Bela» شمالاً، إلى الغابات الجبلية، ومن ثم حول مساره بشكل دائري

أوصله إلى «النمسا Austria» ومن ثم اتجه جنوباً عبر «كرواتيا Croatia» حيث وجد ملاذاً في سلسلة من الجزر البعيدة عن الشاطئ، وبدأ «كاندان Kandan «في مطاردته، أحد أبطال معركة «ليجنتسيا» الذين جلبوا المغول إلى شواطئ البحر الأدرياتيكي، وهنا إما أنه فقد المسار أو الاهتمام بمواصلة مطاردة فريسته، فواصل مسيره جنوباً نحو «ألبانيا Albania» قبل أن يتحول إلى داخل البلاد مرة أخرى، واختفى «بيلا» في جزيرة «كرك - فيغليا- Krk Veglia»، كما يطلق عليها أصحاب البندقية، منتظراً وقتاً أفضل.

وفي غضون ذلك، انطلقت فرقة مغولية أخرى غرباً، لتحرق وتدمر وتغتصب وتقتل في حملة إرهابية متعمدة تجاري أفعالهم التي مارسوها في أراضي المسلمين، وكان حجتهم في ذلك هي الحجة نفسها بالضبط، هؤلاء المسيحيون مثلهم مثل المسلمين، تجرؤوا على المقاومة، وبالتالي حكموا على أنفسهم بانتقام السماء الخالدة، وفي ميناء الدانوب في مدينة «بيستPest» التي استولى عليها في غضون ثلاثة أيام، أحرقوا «الدير الدومينيكية Dominican monastery» وذبحوا الأشخاص العشرة آلاف الذين لجؤوا إليها، و«وكوموا جثث الأعداد الكبيرة المذبوحة على ضفاف النهر» لكي يروعوا أولئك الذين كانوا على الشاطئ المقابل، وكان كاتب هذا المشهد الحي هو «توماسThomas «من مدينة سبليت (سبولاتو Spolato)، أحد المصادر الرئيسة التي وصفت هذا الغزو. كتب «توماس» قائلاً: «سيّخَ بعض المغول الأطفال الصغار على رماحهم وحملوهم على ظهورهم مثل الأسماك المتقلبة على أسياخ الشواء فوق الأرصفة».

لقد نجح الإرهاب، وكذلك إظهار الاستحقاق، لأنه في صيف 1242 أسس المغول إدارة أولية، وحتى سَكبوا بعض العملات النقدية، وشجعوا الفلاحين على زراعة المحاصيل ورعايتها، لكن بعد الحصاد ذُبح الفلاحون أنفسهم لأنه لم يعد لهم فائدة أخرى، ولم يكن هناك شخص مثل «تشو - تساي Chu - tsai «ليقترح الضرائب، ولم يكن هناك أحدٌ يستطيع مواجهة وجهة نظر المغول التقليدية المتمثلة في أن عمال المزارع سيكونون فقط استنزافاً لاقتصاد يمكن الإفادة منه بالشكل الأفضل من خلال الخيول والمراعي، الذي كان الاستيلاء عليها عنصراً أساسياً في سياستهم منذ أن سمع جنكيز لأول مرة بأخبار المراعي المجرية قبل عشرين سنة.

وما بعد «المجر» كان هناك بطبيعة الحال عالم آخر غني كالصين، وكان «باتو» قد أمر بتنفيذ غارات استكشافية على «النمسا Austria» وقد توغلت واحدة من هذه الغارات في غابات «فينا Vienna» حتى أصبحت المدينة تقريباً على مرمى البصر، حيث طاردتهم القوات النمساوية، التي لحقت بهم بالقرب من «فاينر وينر Wiener Neustadt» («مدينة فينا الجديدة») على بعد أربعين كيلومتراً جنوب «فينا» وأسر النمساويون ثمانية من المغيرين - واكتُشف أن أحدهم، الأمر الذي أذهل الجميع - كان إنجليزياً.

وقد سجل قصة الرجل الإنجليزي كاهن فرنسي منشق، يدعى «يوفوYvo» من «ناربون Narboone» والذي كان موجوداً في «فاينر وينر» ليغيب عن أنظار المحققين البابويين، فقد كان الرجل الإنجليزي هو الرجل نفسه الذي كان قد أُرسل من «باتو» لعرض اتفاق سلام مع الملك «بيلا» مقابل الاستسلام، وقد كانت حكايته غريبة، فمن المؤكد تقريباً أن اسمه كان «روبرتRobert»، حيث كان كاهن اللورد «روبرت فيتزوالترRobert Fitzwalter» زعيم حركة تمرد البارونات ضد الملك «جونJohn «في عام 1215، التمرد الذي انتهى بتوقيع وثيقة «ماجانا كارتا Magna Carta»، ولكون «روبرت» طُرد من إنجلترا، ففر إلى الأرض المقدسة، ولعب القمار، فخسر كل شيء وأصبح متسولاً، لكنّه أبقى على حياته عندما شق طريقه من خلال استقبال الضيوف الغرباء، وذلك لأنه تحت وطء الحاجة اكتشف أنه يمتلك موهبة من اللغات، وكانت هذه المهارة هي التي جذبت انتباه التجار المسلمين الذين عملوا كرجال استخبارات لصالح المغول في العشرينيات من العام 1200، أثناء تقدم «جنكيز» نحو الغرب، فقد كان المغول بحاجة إلى مترجمين، فعرضوا على «روبرت» - ناهيك عن كونه مُعدماً ككاهن سابق، عرضاً سيكون من الغباء رفضه، ونقل شرقاً - على طول طرق القوافل التي أصبحت الآن آمنة بواسطة القوات المغولية - إلى مركز قيادة «باتو» على نهر «الفولجا Volga» وربما إلى أبعد من ذلك، ومنذ ذلك الحين خدم خانه بشكل جيد لحوالي عشرين عاماً، والآن كان تواقاً للإدلاء بكل ما لديه من معلومات لإنقاذ نفسه من المحاكمة باعتباره خائناً. لكن، وفي هذه المرة، لم يفده لا فن الخطابة ولا الطلاقة في اللغة، وانتهى به المطاف في قبر مجهول.

وخلال أربعة أشهر فقط، استطاع المغول إلحاق الهزيمة بقوات أوروبا الوسطى، وارتعدت

جميع المعالم المسيحية، لذ كتب «لانغرافLandgrave «من «تورنغن Thuringia» إلى دوق «بولونيBoulogne» ليحثه على انتقام موحد قائلاً: «اسمعي أيتها الجزر، ويا كل الشعوب المسيحية، التي أعلنت ولاءها لصليب الرب، إنه يصرخ في الرماد وقماش الخيش، وفي دموع وحداد الصائمين». لكن لم يكن هناك أي دليل واضح على الوحدة، إذ اكتشفت أوروبا، إن لم يكن هذا العدو أسوأ أعدائها، فهو على الأقل ثاني أسوأ عدو، فالبندقية التي تحالف تجارها مع المغول في شبه جزيرة القرم، رفضوا إرسال المساعدة، فانتهز إمبراطور روما المقدس، «فريدريك Frederick» فرصة انهيار الملك «بيلا» لينتزع منه أجزاء من غرب «المجر» أثناء هروبه إلى «النمسا»، ولم يكن المغول هم العدو الرئيس للبابا لكن أيضاً «فريدريك» نفسه، فاستجدى الإمبراطور بيأس «هنري الثالثHenry III «ملك إنجلترا طلباً للمساعدة، وأرسل نسخاً من استغاثته لملوك فرنسا وأسبانيا والدنمرك وإيطاليا واليونان وايرلندا واسكتلندا وكذلك النرويج، لكن لم يولِ أحدٌ بالاً لندائه، مفترضين أن ما أراده فعلاً هو تشكيل جبهة موحدة ضد البابا، وقد ذهبت اقتراحات الحملات الصليبية من كل من البابا «جروجريGregory» والإمبراطور «فريدريكFrederick «أدراج الرياح. لكن على أية حال، توفي البابا «جروجري» في أغسطس من العام 1241.

لذا أصبح من حكم المؤكد أن أوروبا الغربية، أو أجزاء منها ستسقط فريسة للمغول إذا ما تابعوا نجاحهم المخيف في المجر وبولندا، ومع ذلك، وعلى ما يبدو أنهم لن يحاولوا ذلك، إذ إنِ المجر كانت هي الهدف، أما بولندا فلم يسيطر عليها لذاتها، لكن لحراسة أجنحة القوات الغازية في المجر، والغرض الاستراتيجي الوحيد لدعم الغزو بشكل أكبر سيكون لتأمين الحدود الألمانية أيضاً، وبطبيعة الحال، من المستحيل التنبؤ بالقوة السياسية التي ستفرض إرادتها، ولن يمتثل البابا ولا أي ملك أوروبي غربي للطلب المغولي الذي لا مفر منه، وهو الركوع، ولربما هذا هو السبب المعقول الذي جلب تدفق الجيوش نحو روما وباريس، تماماً مثلما فعلت جيوش «أتيلا الهونيAttila Hunnish «قبل سبعة قرون، متحدين الغابات والمدن المحمية بشدة التي كانت هناك، ومع ذلك، لم تكن أكثر صلابة من الدفاعات الصينية.

وفي الواقع، وبحلول عام 1242 كانت أوروبا آمنة، دون أن تعرف ذلك، إذ أن «أوقطاي» توفي في ديسمبر الماضي، وستستغرق الأخبار ستة أسابيع حتى تصل إلى أوروبا، لكن

النزاعات حول الخلافة قد أخرت وصولها، ولم يسمع «باتو» بأخبار وفاة عمه وأخبار النزاعات التي وضعت مصير الإمبراطورية في الميزان إلا في شهر يونيو، وكحفيد لجنكيز، وكحاكم لجزئه الخاص من الإمبراطورية، ولأنه يمتلك جيشاً ضخماً، فإن عودته لمعاقل المغول ستكون حاسمة، لذا انسحب، في الوقت الذي ربما كان فيه على وشك غزو أوروبا الغربية، وهو في خضم تأمين أملاكه الجديدة، وفي ذلك الصيف، وعندما عاد الملك «بيلا» من الجزيرة التي كان يختبئ بها في البحر الأدرياتيكي، وجد أعداداً هائلة من البلدات المحروقة والجثث المتحللة، وسكاناً أجبروا على أكل لحوم البشر، ولم يجد أي منغولي على مرمى البصر. لقد اختفى التهديد بكل بساطة، تاركاً أوروبا مذهولة من خلاصها الغامض.

ولمدة عشر سنوات من موت «أوقطاي» هددت النزاعات العائلية أهداف وطموحات «جنكيز»، إذ تنافست الأرامل على ميراثه، وقاتل الأحفاد بعضهم البعض، ولم تستقر الإمبراطورية إلا في عام 1251 تحت حكم «مونخيMonkhe» ابن «تولاي» الذي تمت ساعده بكفاءة شقيقاه، «هولاكوHulegu» و«قوبلايKhubilai»، وكان هذان الاثنان هما من انطلقا بالإمبراطورية إلى أقصى مدى لها، إذ دمر «هولاكو» طائفة الحشاشين، واستولى على بغداد وانطلق نحو القاهرة، حيث حدث أخيراً صد المغول، وتحطمت الأسطورة التي لا تقهر، وقد كان «قوبلايKhubilai «هو من تولى غزو جنوب الصين بعد موت «مونخي Monkhe «في عام 1260.

وكانت هذه هي نقطة التحول التي بدأت الإمبراطورية المغولية عندها في النمو بعيداً عن جذورها، إذ رافق الخان الجديد، «قوبلاي» جنكيز في حملته العسكرية الأخيرة، لكنّه نقل العاصمة من «كاركوروم» إلى «بكين» خالقاً مجداً جديداً يدين قليلاً للمغول السابقين بينما حافظ على أصوله في قصره الصيفي في «دو شانغShang - du» في قلب المراعي المنغولية، وعندما سقطت جنوب الصين بكاملها وبشكل نهائي في عام 1279، أعلن بداية سلالة جديدة، وهي «يوان» التي أصبح جده من خلالها هو المؤسس التالي، وكان «قوبلاي» عملاقاً بين الحكام، وكان إلى حد بعيد أقوى رجل في العالم في عصره، لكن لم يكن قوياً بما في الكلمة من معنى، إذ حاول السيطرة على اليابان لكنّه فشل، وتبعثر أسطوله مرتين بسبب العواصف، كما أن حكمه على عموم الإمبراطورية الأوروبية - الأسيوية كان اسمياً، فقد

سعت الأقسام الفرعية المختلفة لإنشاء حدود خاصة بها، وتطورت لتصبح كيانات مستقلة.

وفي جنوب روسيا، حكم «باتو» «ما سيسمى فيما بعد «بالقبيلة الذهبيةGolden Horde»، وهو اسم مستوحى من «القصر المغولي Mongol ordon» قصر الخيام (وبالتالي حكمت عن طريق تمدد الحشود، التي أصبح معناها معروفاً عندما تبنت اللغة الأوروبية المصطلح في القرن السادس عشر)، ويتذكر الروس فترة حكم القبيلة الذهبية التي دامت لقرنين من الزمان بوصفها «عبودية الترتار (أو التتار)»، وفي الواقع، كانت أقل من عبودية، وأكثر من إقامة، تحققت عندما قرر «ألكسندر نيفسكيAlexander Nevsky» أمير «نوفغراد» قتال «الليثوانيينLithuanians» والألمان و»السويديينSwedes «بدلاً من المغول، وعلاوة على ذلك، فقد كانوا في وقت قريب، مغولاً سابقين – تحولوا إلى الإسلام، وعملوا بشكل وثيق مع حكام مصر، وتبادلوا الدبلوماسيين الذين اشتملت مراسلاتهم على الحروف الذهبية والتحيات المتقنة، وجميعها كُتبت باللغة التركية، وكان من المفترض أن يكون كل خان واحداً من ذوي القربى الذهبي، أحد أحفاد جنكيز، لكن قريباً جداً تقريباً يمكن لأي حاكم قادم أن يدعى ذلك، فعندما هاجم جيش البدو نصف مناطق الخانات المنفصلة في القرن الخامس عشر، ادعى الجميع أنهم أسلاف جنكيز، وعندما ضمت روسيا المنبعثة من جديد شبه جزيرة القرم Crimea» في عام 1783 وذلك تحت حكم «كاترين العظمى Catherine the Great»، أصر حاكمها بشكل بائس بأنه من سلالة جنكيز.

وفي بلاد فارس، امتص الحكام المغول الدم من الحجارة، فقد استعبد (الخانات الثانويون)، كما أطلقوا على أنفسهم، ونهبوا وفرضوا الضرائب إلى أقصى حد، منتزعين ضريبة الأرض، ضريبة العُشر، ضريبة الرأس والضريبة المفروضة على كل المعاملات التجارية، بما في ذلك الدعارة، وعلاوة على الريف المنهوب وفلاحيها الموجعين، فضلت التجارة المدن، سامحاً للمغول بتكديس ثروة كافية للحفاظ على سلطة محفوفة بالمخاطر، في الوقت الذي فقدوا فيه الاتصال مع جذورهم. كما أن تحول ابن حفيد «هولاكو» إلى الإسلام، وفشله في دفع المماليك المصريين خارج سوريا في عام 1304 أشار إلى نهاية التوسع، وأصبح الوصول إلى مصر وإلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط حلماً بعيد المنال إلى الأبد، وفي عام 1307 وصل سفير مغولي إلى الملك «إدوارد الثانيEdward II «في

إنجلترا، لكنّه كان بمنزلة المسعى الأخير ليروج لنفسه، وبعد ذلك بثلاثين عاماً، مات آخر المنغوليين دون وريث، وبذلك انتهى حكم المغول.

وفي آسيا الوسطى، بسط ورثة «جغتاي» سيطرتهم على منطقة مبهمة مزقتها الفتن الدينية والحروب بشكل مستمر، ففر بعضهم مع أفراد من عائلاتهم إلى الغرب أو الشرق، وهنا لا تزال التقاليد البدوية قوية، كذلك الدافع للغزو، ولكونهم كانوا مقيدين من المغول المنافسين شرقاً وغرباً، اتجه ورثة «تشوغتاي» جنوباً إلى أفغانستان والهند، وقاموا بالعديد من الغزوات، وشجعوا على تقليد دام حتى سقط حكم المغول في أيدي الأتراك بعد معركة «تيمورلانك Tamerlane» الدموية.

وفي الصين، فعل «قوبلاي» ما فعله الرومان لشمال أوروبا: شقوا الطرق والقنوات وشجعوا التجارة وأسسوا نظاماً ضريبياً كفؤاً ونظام إرسال واستقبال بريدي لا نظير له في الكفاءة حتى مجيء التلغراف، كما شكلت العملات الورقية جزءاً من الاقتصاد المزدهر، ووصلت التوابل من جنوب شرق آسيا، وملأ الحرير الصيني والخزف المخازن في الخليج الفارسي، وباختصار، لقد حَموا وجنوا جميع ثمار الوحدة والوضع الحالي الذي سعى إليه الحكام الصينيون دوماً، واستطاعوا فعل ذلك عن طريق التخلي عن جذورهم المغولية، ولو كان «وهو - لي تشو - سايYeh - lu Chu - tsai» حياً، لشعر بالارتياح.

وعلى مدار مئة وخمسين عاماً بعد موت «جنكيز» ربطت ذريته المبعثرة الشرق بالغرب، وشاركوا في تدفق التجارة الحرة، وفي تبادل الدبلوماسيين والخبراء، وفي الثمانينيات من العام 1200، زار الراهب النسطوري الصيني، «رابان بار ساوما Rabban bar Sauma»، البابا، وقابل ملك إنجلترا في «جاسكونيGascony»، وفي المقابل أرسل البابا العديد من الرهبان إلى منغوليا والصين، وأشرف المهندسون الصينيون على مشاريع الري في العراق، كما كان هناك مجتمعات صينية في «نفوغراد» و«موسكو» وكذلك كان هناك تجار صينيون في «كمبوديا Cambodia». وانتشر استخدام الورق في صناعة الكتب والأموال غرباً، أولاً في «سمرقند Samarkand» ومن ثم إلى أوروبا، حيث عولجت بالطريقة المثلى، وأصبحت واحدة من التحسينات التقنية التي قام عليها اختراع الطباعة.

لكن المغول ما كانوا أبداً محبوبين، ولم يعودوا بدواً، ولم يصبحوا صينيين حقيقيين قط، إذ احتقر وأرعب الحكام الجدد رعاياهم، ومنعوهم من حمل السلاح، واستثنوا من حكوماتهم، واستخدموا الأجانب في إدارتهم، إذ كان «ماركو بولوMarco Polo «حاكماً لإحدى المدن، وكان وزير المالية من «طشقندTashkent» كما حكم أب مسلم وابنه مدينة «يانان Yenan»، واعتمد الحكام المغول على القوة، لكن القوة تسربت بعيداً، وتملق الكثير من زعماء المغول بطريقة مجاملة، وقبلوا العملات النقدية الملكية، متناسين بساطة وصلابة مؤسس أمتهم، بينما تذكر الآخرون، فنمت الشكوك المتبادلة. كما أثارت الكراهية من ناحية والفساد من ناحية أخرى المتمردين الذين استطاع أحدهم النجاح في نهاية المطاف، ففي عام 1368، صد راهب سابق، يدعى «تشو يوان تشانغZhu Yuanzhang» آخر الأباطرة المغول، «توغان تيمورToghon Temur» إلى سهول منغوليا، جاعلاً من نفسه الإمبراطور المؤسس لسلالة «مينغ».

ولا تزال هناك ذكريات العصر الذهبي من المجد الذي تأسس بفعل العمالقة الذين عاشوا هناك في تلك الأيام، واستمر السحر، وساقته الرياح عبر أوراسيا على مدى القرون، إذ أراد كل حاكم أن يملأ قبضة يده من غبار «جنكيز» السحري، وبعد فترة طويلة من انتصار الروس على القبيلة الذهبية في عام 1480، نال أعضاء من ذوي القربى الذهبيين مكانة نبيلة، حتى القرن التاسع عشر، وادعى «تيمورلنكTamerlane « - تيمور - أي - لينغ، الطاغية من أوزباكستان - أنه من أحفاد جنكيز، لكنّه لم يكن كذلك (بالرغم من أن زوجته كانت كذلك)، لهذا السبب أطلق سليل «تيمور» «بابرBabur «على نفسه لقب «موغالMughal «عندما فرض سيطرته على الهند في أوائل القرن السادس عشر، مؤسساً سلالة انتهت فقط عندما أزاحت بريطانيا «الموغال الأخيرlast Mughal «عن العرش في عام 1857، وبالمناسبة، لقد كان اسمه «بهادرBahadur» وهي محاكاة بعيدة لاسم «باتورBaatar «المغول، البطل والعنصر الثاني من اسم العاصمة المغولية «أولان باتور» (التي تعني البطل الأحمرRed Hero) وهو اللقب الذي شُرف به والد جنكيز، وحتى اليوم، علينا أن نتذكر، أن «موغول mogul» هو الآن ملك من ملوك الإعلام، وفي الأصل كان ثرياً هندياً ومن ثم أصبح ثرياً «هندياً - بريطانياً»، وبالنسبة لعالم لغة المتخصص، فإن» روبرت موردخRupert

Murdoch «يعدّ «جنكيز خان» الصحف.

وهكذا، وفي مقابل التبدد البطيء لكن الثابت، أبقت خيوط الدخان المُنساقة بعيداً من الانفجار العظيم على دليل أصولهم، إذ بقي «جنكيز خان» بطلاً بالنسبة للحكام الذين حكموا باسمه، ووحشاً بالنسبة لضحاياه - المسلمين، والمسيحيين، والروس وأخيراً السوفيت، فالروس لا زالوا يتذكرون «عبودية الترتار» كأسوأ الأزمان، ويلقون باللوم على المغول في الكثير من المحن، بما في ذلك الجوانب القاتمة من شخصيتهم الوطنية - اخدش روسياً فستجد بداخله ترتارياً. أما أوروبا فتنفست الصعداء، وعادت إلى مرحلة ما بعد الوطنية، بعد مرحلة العراك الروماني، ما عدا المجر، حيث ما زال الغزو الوحشي الذي دام لفترة وجيزة يُذكر الأفراد الذين كانوا ذات مرة بدواً رحلاً بفوائد أسلوب الحياة المستقرة، ولا زال أطفال المدارس المجرية يسمعون عن معركة «محيMohi «باعتبارها لحظة حاسمة في تاريخهم، متذكرين أخيراً وعن طريق نُصب تذكاري أقيم هناك لإحياء الذكرى السنوية السبعمئة والخمسين للمعركة في عام 1992، وهذا النصب عبارة عن رابية ارتفاعها عشرة أمتار غُطت بالصلبان التي وضعت في كل اتجاه، مثل جثة ضخمة عالقة في السيوف، وستشكل في الحال علامة ترقيم غريبة بجوار جزء جديد من طريق سريع عبر السهل العظيم.

الجزء الرابع

الانبعاث

الفصل الخامس عشر

صناعة نصف الإله

قدنا عربتنا شرق «ينتشوان» والنهر الأصفر، نحو مدينة «اردوس» عبر قفار من المصانع والشاحنات الزرقاء، وضباب المواد الكيميائية، والصخور الموحشة، والرمال وكتل الأعشاب النامية. لقد كنت أنا و«جورجتJorigt» في أيدٍ أمينة، إذ كان السائق «تشوغ Chog «قوي البنية كمصارع، بعضلات رقبة تبدو كأفعى الأناكوندا، مشهد غير لطيف عُدل من خلال ارتداء السراويل القصيرة الأنيقة والأحذية الخفيفة، التي كانت تعطي الطمأنينة. لكن هذه الأحذية الخفيفة لن تكون ذات معنى إذا ما تعطلت عربتنا في وسط الضباب السام أو على المرتفعات في قلب مدينة «أردوس» القاحلة والمهجورة، لكن السائق الواثق من ذاته «تشوغ» كان لديه ثقة كاملة في قدراته وفي عربته بشكل واضح، وكان لديه عقل ناضج. حتى عندما انتهت الطريق ووجدنا أنفسنا نترنح بين الشاحنات الضخمة المليئة بالفحم التي تطل علينا من خلال عواصف الغبار التي كانت تسببها، وتمر بجانبنا كوحش صريع ألقى بأحشائه الكبيرة عبر الصحراء مثل ديناصور ميت، وبالرغم من ذلك لم يكن لدي أدنى شك بأن السائق «تشوغ» بحذائه الخفيف وعضلات رقبته التي تشبه الأناكوندا، سينجح في عبورنا لهذا الطريق.

لقد كنا نتجه إلى منطقة حيث - وفقاً لبعض الأساطير - دُفن حقاً «جنكيز خان»، أو ربما يكون ذلك حقاً، اعتماداً على الشخص الذي تتحدث معه، بالرغم من أنه لا يوجد أحدٌ يمكن أن يقول على وجه الدقة أين دُفن بالتحديد. لكن وعلى أية حال، ضع جبال منغوليا خارج التصور في هذا الفصل، فنحن نتعامل الآن مع تقليد منفصل كلياً والذي عد قصة علق «عربة روح جنكيز» في الوحل كنقطة بداية، ففي إحدى الروايات، ذكرت حاشيته حادثة سابقة، وذلك عندما أُعجب «جنكيز» بهذه البقعة المحددة وأعلن عنها «كاستراحة مرغوب بها لرجلٍ عجوز»، وربما لهذا السبب علقت العربة، لأنه اختار هذه البقعة كمكان لدفنه. لقد تجذرت هذه الفكرة، وانبثقت عنها روايات أخرى بخلفيات مختلفة، وجميعها تصور مشهداً رومانسياً لرجلٍ عجوز أُعجب بجمال مرعى صالح لرعي غزال ذهبي اللون وللهداهد لكي تبني أعشاشها وللأشخاص المسنين لوصول إلى راحة أبدية.

وهنا يوجد اختلاف آخر حول الموضوع نفسه، موضحاً لماذا لا يعرف أحدٌ على وجه الدقة أين يوجد الموقع الذي دُفن فيه «جنكيز»، ذات مرة جاء الرب إلى المراعي الجميلة في

منطقة «أردوس» جنوب المنعطف الكبير للنهر الأصفر، لقد كانت منطقة جميلة لدرجة أنه قال، «هذا هو المكان الذي أود أن أُدفن به عندما أموت»، لذا تحققت رغبته، وتمنى أولئك الذين دفنوه هناك أن تَخلد جثته براحة وسكينة، ولكنهم أيضاً أرادوا أن يتذكروا المكان، كيف يمكن لهم ذلك؟ كانوا يعرفون أن إناث الجمال تتمتع بذاكرة ممتازة، لذا وجدوا ناقة مع وليدها الرضيع، فذبحوا الرضيع ودفنوه بجانب قبر الرب، وبعد ذلك، وفي كل ربيع، كانوا يطلقون الناقة الأم، وكانت تعود إلى المكان الذي دُفن فيه رضيعها. لقد كان يحدث هذا كل عام، وبهذه الطريقة كان الناس قادرين على تكريم خانهم كل عام، حتى كَبُرت الناقة في العمر وماتت، وبالتالي فُقدت كل معرفة بالمكان الذي دُفن فيه الرب.

لكن مدينة «أردوس» المرتفعة كانت نجْداً من الوديان والمراعي الفقيرة، وبكل تأكيد لم يكن هذا المكان جميلاً من وجهة نظر المغول، فقال جورجت: إن «الظروف والأحوال تتغير، فعندما تستقل الأتوبيس من مدينة «هوهيهوت» إلى الحدود المنغولية اليوم، فإنك تمر من خلال الرمال، لكن قبل عشر سنوات، كانت الطريق في حالة جيدة للغاية، وهي الآن أسوأ من هذا،» وواصل «جورجت» حديثه مشيراً بيده إلى البيئة المحيطة المتجهمة. «وعلاوة على ذلك، هذه هي مدينة «أردوس» المرتفعة، ولم يقل أحدٌ أن «جنكيز» دُفن هنا في الأعلى».

وبفضل السائق «تشوغ» كنا قادرين على الاحتفال ببقائنا على قيد الحياة بحساء مصنوع من أرجل الخراف في خيمة أسمنتية سخيفة، تذكار واهن بأن هذا ما كان موجوداً في جميع أرجاء منغوليا، حتى جاء المستوطنون الصينيون، وبعد ذلك انتقلنا من المنطقة شبه الصحراوية إلى «دونغ شينغDongsheng» عاصمة «اردوس» واتجهنا جنوباً عبر سهل عشبي من أشجار ومراعٍ متفرقة، وبعد مرور ساعة من الوقت، وصلنا إلى سور يمتد أعلى تلة يحيط بأشجار التنوبِ، ولمحنا من خلاله ثلاث قباب مزركشة بالألوان الحمراء والزرقاء، تعلوها أعمدة صغيرة، مثل الحلمات التي تشم الصدور بغرابة، وكانت الطريق تمر عبر بلدة صغيرة، التي في نهايتها اتجهنا يساراً عبر بوابة إلى فناء شاسع تصطف بداخله بنايات ذات طابق واحد، وقادتنا خطوات طويلة عبر ممر ثلاثي إلى أعلى التلة، حيث القمة التي ترقد فوقها القباب متعددة الألوان.

لقد وصلنا إلى ضريح «جنكيز خان» - «ادسين خورو Edsen Khoroo» كما يطلق

عليه باللغة المنغولية، حظيرة الرب، حيث اجتاز «جنكيز» الجزء النهائي والأغرب من تحوله من زعيم بربري إلى الألوهية. هذه هي قصة تطور طائفة دينية من جذور تاريخية من خلال الأسطورة، إلى طقوس دينية أعادت تغذية صنع أساطير جديدة، خالقةً على طول الطريق كياناً مسانداً لنفسه - مع مجتمع، ومعبد، وطقوس، ونظام إيمان - الذي يعد بداية لإظهار علامات تطور لاهوت عالمي. إنه مثال مدهش لكيفية انبثاق دين جديد من آخر قديم، ليتفرع ويزدهر.

وبالرغم من أن الدفن تم بشكل غامض في جبال منغوليا، إلا إن «جنكيز» كان ينبغي أن يُكرم، كما كان ينبغي الحفاظ على ممتلكاته، وتوفير الوسائل اللازمة للعبادة، ففي الغرب وفي الصين، لا بدّ أنه كان هناك معبدٌ في الجوار، لكن في أوائل القرن الثالث عشر لم يبنِ المغول الكثير ما عدا مدينة «أفراجا» القديمة. أما عاصمة الإمبراطورية الجديدة، «كاركورام» فكان بناؤها قد بدأ للتو، وكان «أوقطاي» وريث عرش «جنكيز» قد قضى بحلٍ مبتكر وملائم للبدو، وعلى حد قول «ساجانج تيستسن Sagan Tstsen» في القرن السابع عشر، «أقيمت ثماني خيام بيضاء بغرض التبجيل»، ولحماية الخيام، أُعفيت بعض الأسر المنغولية من جميع الواجبات الأخرى وذلك لكي يعمل أعضاؤها كحراس إلى الأبد، ورعاية الممتلكات الربانية - قوسه وسرجه وملابسه وذيول الياك التقليدية الخاصة به - والإشراف على الطقوس التي يُبجل من خلالها، وبهذه الطريقة، سيراقب «جنكيز» شعبه إلى الأبد.

في بادئ الأمر، كانت بطبيعة الحال النقطة المركزية من التبجيل، هو مكان القبر المحتمل على جبل «بورخان كالدون» وكان محيط «المنطقة المحرمة Forbidden Precinct» كما كانت تُسمى، محمية بشكل جيد وتقدم له الخدمات بالقرابين والطقوس، لكن لم يكن هناك نوع من الثبات بشأن هذه الترتيبات، المتعلقة بوطء الموقع المركزي السرّي المكسو بالعشب، وبعد سبعين عاماً أو نحو ذلك، شعر أحد أحفاد «جنكيز» بالحاجة لمنح المنطقة، إن لم يكن الموقع المحدد، شيئاً ما يتصف بالدوام، وذلك كما روى «رشيد الدين» في روايته لما حدث بعد موت «قوبلاي» في عام 1294.

أعلنت الدعوة لعقد اجتماع لتقرير من سيرث العرش من حفيدي «قوبلاي» «كامالا Kamala» أم «تيمور Temur» (الوريث المعين، ابن «قولاي» «تشن - شين- Chen chin» مات قبل عشر سنوات)، فحدث هناك صراعٌ، واقترحت رئيسة الأسرة حلاً، لقد قال

«قوبلاي»: من عرف أقوال جنكيز بشكل أفضل سيكون أكثر ملاءمة للحكم، واتُفق على أن يتنافس المدعيان، ولكون «تيمور» الأصغر سناً، كان أكثر فصاحةً وراوياً جيداً، تحدث بطريقة خطابية سليمة، بينما لم يستطع «كامالا» الذي تلعثم وعجز عن مجاراته، فصاح الجميع: «إن «تيمور» يعرفها بشكل أفضل!... إنه من يستحق العرش!» وعلى ذلك انتهى الأمر.

لقد تعومل مع «كامالا» (1263 - 1302) بسخاء بعد هزيمته، وذلك بمنحه قيادة قصور جنكيز، قصور خيامه، بمعنى آخر، ممتلكات الوطن، وفي فقرة هامة من كتابه يقول «رشيد»: إن الممتلكات تضمنت «تنجير الكبرى the great Khorig» [المنطقة المحظورة] من قبر جنكيز خان، التي يسمونها «بورخان كالدون» حيث لا تزال القصور الكبرى لجنكيز خان قائمة. كل هذه المواقع الأخيرة كانت تحت حراسة «كامالا». لقد كان هناك أربعة قصور كبيرة إضافة إلى خمسة أخريات، تسعة إجمالاً، لكن لم يكن يُسمح لأحد بدخولها. لقد صنعوا لهم تماثيل [العائلة] هناك وكانوا بشكل مستمر يحرقون العطور والبخور، كما صنع «كامالا» لنفسه معبداً هناك أيضاً».

وفي مرحلة ما، ربما خلال فترة الاضطرابات بعد انهيار أسرة «يوان» حوّلتْ بؤرة التبجيل جنوباً، وربما كان هناك دوماً تركيز مزدوج، مع مقام منفصل في مقر قيادة «قوبلاي» الصيفي، «شانغ دو Shang - du (اكساندو)، وربما إن حرّاس ذاكرة جنكيز كانوا ينطلقون برحلات يومية بين الموقعين، وربما إلى مواقع أخرى، حاملين معهم خيامهم وآثارهم، وعلى أية حال، لم يعد المزار الرئيس أياً من هذه الأماكن، إنما الخيام نفسها.

ولم تكن هذه الخيام بنفس شكل الخيام المنغولية العادية، لكن كان لها سقفٌ مدعوم بعمود كان يبرز من على قمة الخيمة كبرج مدبب صغير، «خيمة برقبة» هكذا يطلق عليها المغول، وفي أوقات العبادة، كانت الخيمة الرئيسة، التي كانت تحتوي على أثار جنكيز، تغطى بقماش القنّب الأصفر، صانعةً منها «قصراً ذهبياً»، وبعد انهيار أسرة «يوان» في عام 1368 عادت الخيام التي كانت قد لحقت بالمغول خارج الصين، إلى مراعي السلف، متجولة مع حراسها، وبطبيعة الحال، كُرم جنكيز في مزارات أخرى، مثل المعبد السلفي الإمبراطوري في «بكين» الذي اكتمل بناؤه في عام 1266، كما كُرم في «معبد كامالا» الذي أقيم على جبل «بورخان كالدون» نفسه، إضافة إلى ثلاثة أضرحة أخرى أقيمت عبر أرجاء الإمبراطورية

المغولية. لكن «الخيام البيضاءWhite Tents «كانت تشكل قلب ما أصبح على الفور طائفة حوّلتْ جنكيز من بطل وقائد مفقود إلى إله.

جثة غير مرئية وقبر سري ومنطقة محرمة وضريح من الخيام المتنقلة، لقد كان كل هذا دليلاً على أن ما حدث لجثة جنكيز كان مخادعاً منذ البداية، وفي الحال - ربما لأن بؤرة العبادة الرئيسة أصبحت الآن مزودة بالخيام البيضاء ولأن معبد «كامالا» هجر - ظهرت القصص التي تقول بأن جنكيز لم يكن على جبل «بورخان كالدون» على الإطلاق، ولم يُنقل إلى هناك في المقام الأول، ولأن القصور، خيام القصور الذهبية، منحت اسمها للمنطقة بأكملها جنوبي النهر الأصفر، ظهرت الأساطير لتدعي بأنه قد دُفن هناك بالفعل، في «أوردوس».

ومرت السنون، وتنقلت الخيام البيضاء من مكان إلى آخر كمزار مُتنقل، متجولة ذهاباً وإياباً عبر صحراء غوبي، وإلى جبال «ألتاي» في الغرب، وإلى المراعي الشرقية، وإلى المنطقة شبه الصحراوية من «أوردوس» حتى استقر بعض منها وأصبح موقعاً لطقوس خاصة من العبادة، وكان الموقع منطقة مروية بشكل جيد على الناحية الشرقية من «أوردوس» مكاناً من المراعي الرائعة، بأيائل ترعى بين الأشجار المتناثرة، ومن ثم ارتجل نسل أولئك الذين عينوا لحراسة الخيام البيضاء الحكايات وعدلوا في الأسماء حتى، مع تعاقب الأجيال، بدا لهم بأن هذا هو المكان الذي علقت فيه عربة روح جنكيز وحيث تمنى أن يُدفن، حيث دُفن، لكن لا أحد يعرف البقعة المحددة. كما غُلفت المعتقدات والطقوس بالمعرفة «التيبتية Tibetan «والصينية التقليدية، وفي نهاية المطاف، وعندما جيء بما تبقى من الخيام البيضاء إلى موضعها في القرن السابع عشر، التي حددت رسمياً بالعدد ثمانية، اكتسبت اسمها الحالي، اديسن خورو Edsen khoroo، حظيرة الرب.

وعندئذ، وبالرجوع لقراءة روايات القرن التاسع عشر، نجد أنه تخمين مناسب، بأن كل خيمة كان لها غرض خاص بها، إذ كان هناك خيمة لجنكيز ولزوجته الأولى، «بورتي» مع منضدة ضريح سوداء وصندوق ومشغولات يدوية متعددة، حامل مصباح زبدة ووعاء صغير به بعض المجوهرات والحبوب ليرمز للثروة ومرآة للملاحظة وأشرطة ملونة لتزيين المناطق وشعب الإمبراطورية وسهام كربونية من ثلاثة عشر مفصلاً (أصبح جنكيز، الجيل الثالث عشر في عائلته، بطلاً في سن الثلاثين)، والخيمة الأخرى كانت لزوجته الثانية، والثالثة

للحصان البيض المقدس، وهو تجسيد اختير لكي يربط كل عام «بالعمود الذهبي [موقع عربات] في المراسم الرئيسة للعبادة. أما الخيمة الرابعة فقد كانت غريبة إلى حد ما، لأنها كانت «لغوربلتشين Gurbelchin» الملكة التي في إحدى روايات الأحداث طعنت جنكيز بجرح قاتل وألقت بنفسها في النهر الأصفر، بالرغم من أنه في رواية أخرى قيل إنهما أحبا بعضهما بعضاً، وأنها أغرقت نفسها حزناً عليه. أما الخيمة الخامسة فقد كانت لدلو حليب الفرس المصنوع من خشب الصندل الأحمر، الذي جمع جنكيز في النموذج الأصلي منه حليب تسعة وتسعين فرساً مقدساً قبل البدء في أية حملة عسكرية، وكانت الخيام من السادسة وحتى الثامنة معدة لأقواسه ولسرجه وللذهب والأواني الفضية والمجوهرات.

وكان المعبد وطقوسه، وما زال حتى اليوم، تسيطر عليه طائفة خاصة، معروفة باسم «الدارخاتيين»، والذين يدعون نسبهم للعائلات الخمسمئة عائلة التي عُينت كحراس للخيام البيضاء بعد موت جنكيز. لكن الادعاء الذي كان تقليداً شعبياً أكثر منه تاريخاً، عاش جنباً إلى جنب مع تقاليد أخرى، وهي أن جميع العائلات تنحدر من سلالة قادة جنكيز العسكريين، وأحيانا ذكرت عائلتان، وفي أحيان أخرى تسع، وعلى حد تعبير أحد «الدارخاتيين» «سوريهو Surihu «الذي قال:

«عندما كان جنكيز يحتضر، كان سلفنا «بورتشو» واقفاً إلى جانبه، وقال وهو يبكي بحزن شديد: «ماذا سيحدث بعد موت الخان العظيم؟ ماذا سيحدث لأحفادنا؟ وأخيراً، قال جنكيز: «بعد موتي، سيعيش أحفادك معي، جيلاً بعد جيل،» لذا أسندت هذه المهمة «لبورتشو»، وبعد موت جنكيز خان، انخرطنا نحن أحفاد «بورتشو» في تقديم القرابين وحراسة الضريح، ولم نتوقف عن أداء تلك الواجبات أبداً، وأنا من الجيل التاسع والثلاثين لعائلة «بورتشو»».

وبغض النظر عن حقيقة أصولهم، أصبح «الدارخاتيون» نخبة، معفية من الضرائب والواجبات العسكرية، وأحراراً في جمع الأموال من جميع الأراضي المغولية، التي كانوا ينفذونها بمزيج من الابتزاز العاطفي والصدق، تماماً مثل مبشري وبائعي صكوك الغفران في القرون الوسطى، لذا بقيت هذه الأشياء لحوالي سبعمئة عام.

وعلى مدار القرون انقسم هؤلاء الموظفون، متبعين القانون الذي كانت المجموعات

البيروقراطية دوماً توجهه نحو التعقيد، إلى مجموعات فرعية وطوروا مهمات متخصصة سرية ومبتذلة ودافعوا عنها بغرابة شديدة مثل نقابات العصور الوسطى، أو النقابات التجارية المخلصة، مع الفارق في أن هذه المهمات كانت أكثر قِدماً وأكثر قداسةً، وبالطبع، كان كل هؤلاء الرجال، وكل هذه الأعمال تورث من الأب إلى الابن الأكبر، ومن الصعب تخيل ما يعادلها، ولنتخيل عائلة من الطراز القديم من الطباعين المستولدين، بغض النظر عن تفكيرهم في قرون سابقة، وهم يكتبون بسرعة وبدون توقف سلاسل نسب حوفظ عليها مشافهةً، وأنهم يدركون من أعماقهم أنهم يؤدون واجباً فرضه عليهم سلف الملك الإله.

وهناك قسمان رئيسان، ينحدران من عائلتين من عائلات اثنين من قادة جنكيز، وهما «بورتشو» و«موخالي» (من الأفضل ألا نستقصي بشكل دقيق عن كيفية تطابق هذا الادعاء مع القادة التسعة والعائلات الخمسمئة)، وطبقاً لهذا التفسير، كان أحفاد «بورتشو» من بين أولئك الذين اعتنوا بالضريح ومراسيمه، وكانت المجموعة الثانية هم أحفاد «موخالي» وكانت مهمتهم الاعتناء برايات الحرب - رماح بحلي دائرية خشنة من ذيول الياك مربوطة مباشرة أسفل رأس الرمح - وبالمراسم التي تُكرم تلك الرايات، وكانت كل من المجموعات الفرعية الوليدة والأفراد مسؤولين عن أدق تفاصيل الطقوس، مثل الاعتناء بأجراس رؤوس الخيل والآداب العامة والهتافات وتلاوة المراسيم والترتيب لتقديم القرابين والإشراف على مشروب المراسيم وطبخ الخراف وحمل الفوانيس وذبح الخيول والإشراف على عمليات المراقبة.

وابتداءً من القرن السادس عشر، فسحت الطقوس الشامانية الأصلية المجال للطقوس البوذية، وأصبح جنكيز تجسيداً جديداً «لحارس البوديساتفا» (أو لتكن بوذا) «حامل الصاعقة Thunderbolt - Bearer» الذي يحارب الشياطين لحماية بوذا، حسب الأساطير التبتية، واستقرت الطقوس في سلسلة من ثلاثين احتفالاً سنوياً، مع أربعة طقوس موسمية كبيرة، التي يحدث أعظمها على الإطلاق في فصل الربيع، ولكل منها أغانيها الخاصة، وصلواتها وتعاويذها، وتبدأ الكثير منها بكلمات، لو غيرنا فيها الأسماء، يمكن أن يستخدمها أيضاً كاهن يتضرع للسيد المسيح:

مولود السماء جنكيز خان

يا من ولد من إرادة السماء السامية

يا من زود جسمك بمرتبة واسم سماوي

أنت يا من ألقي على عاتقك رعاية شعوب العالم...

الصفات والممتلكات والأفعال والمظاهر والزوجات والأطفال والخيول والمراعي، جميعها تتضرع كوسيلة لضمان نعمة الرب في التغلب على العقبات والشياطين والأمراض والأخطاء والنزاع.

ولنأخذ واحدة من بين هذه المراسم الكثيرة على سبيل المثال، يحدث هذا الاحتفال مرة واحدة سنوياً أمام كومة الركام الشامانية الموجودة أمام المعبد الرئيس، وهي كومة من الحجارة المقدسة التي تميز قمة التل، ويقام هذا الاحتفال إحياءً لذكرى العمود الذهبي الذي ربط جنكيز به حصانه، الحصان ذا اللون الأبيض الخالص، مثل الخيول التي يسمح لها بالتجوال حول المعبد اليوم، ويقال بأن أحد اللصوص سرق الحصان وكعقاب له على فعلته الشنيعة أجبر على تمثيل دور العمود الذهبي، إذ يقف طوال الليل ممسكاً بالحصان وقدماه مدفونتان في الأرض، وبعد ذلك أصبحت المهمة ملقاة على عاتق رجل بعينه لمثل بدور العمود الذهبي لليلة واحدة، ويأتي الناس ويلقون بالمال أمامه، ومن ثم يجلب الحليب من المعبد ويرش تسعاً وتسعين مرة على الأرض، مستخدمين ملعقة خاصة بها ثقوب، ويراقب الكهنة عملية در الحليب - وهو تقليد يعرف باسم «زهرة الآلهةFlower of the God's» - ينبئ بمدى جودة المراعي، وبمدى صحة الماشية، وبعد الحفل يطلق سراح الرجل الذي مثل دور العمود الذهبي، ويُسلم الحصان، ويجمع المال بسرعة ويهرب، وسط صرخات الجمهور «أوقفوا اللص!» في شكل من أشكال طقوس الاحتجاج.

وقد استمدت أجزاء من هذه الممارسات مباشرة من خلال التقليد الذي سجله «ماركو بولوMarco Plol «في زمن «قوبلاي»:

يجب أن تعرف بأن الإله يحتفظ بأعداد هائلة من جياد الاستيلاد البيضاء والمهور، وفي الواقع إنه يمتلك أكثر من عشرة آلاف منها، وجميعها من ذوات اللون الأبيض الخالص، دون أية شائبة... حسناً، عندما بدأ الإله رحلته من المتنزه [في شانغ - دو] Sahng - du في الثامن

والعشرين من أغسطس، كما أخبرتك، يؤخذ حليب كل هذه المهور ويُرش على الأرض، ويحصل ذلك بناءً على أمر من عابدي الأوثان وكهنة الأوثان، الذين قالوا إنه أمرٌ ممتاز بأن ترش ذلك الحليب على الأرض في اليوم الموافق للثامن والعشرين من أغسطس من كل عام، حتى يتسنى للأرض وللهواء وللآلهة الزائفة أن تأخذ نصيبها منه، وكذلك الأرواح التي تسكن الهواء والأرض، وبالتالي فإن تلك الكائنات ستحمي وتبارك الإله وأطفاله وزوجاته ورعيته وملابسه وماشيته وخيوله وحنطته وكل ما يملك.

وقد تغيرت هذه الشعيرة، مثل جميع الشعائر الأخرى، مع مرور الوقت، فلم يعد هناك رجل يقف طوال الليل وقدماه نصف مدفونتين، إذ حل محله عمود حقيقي منذ خمسين عاماً خلت، وبالتالي لا يوجد رمي للعملات النقدية، ولا يوجد صراخ: «أوقفوا اللص!»، ففي الوقت الحاضر يركض البالغون والصغار على حد سواء ذهاباً وإياباً بين العمود والكومة، يرشون الحليب على العمود، تذكيراً بالطقوس القديمة لزمن ما قبل بوذا.

لقد بقي الضريح بما فيه من نسج من الممارسات الشعائرية بالنسبة للمغول كنوع من «كوسا نوسترا» التي استثني منها الصينيون وغيرهم من الأجانب، ويعد هذا نوعاً من الخصوصية حيث إن حراسه كانوا على استعداد للموت دفاعاً عنه، ففي إحدى القصص التي ذكرها اثنان من مؤرخي الضريح، عندما توفي الإمبراطور «المانشو شوان» في عام 1661، رفض المغول مرسوماً رسمياً بإعلان الحداد، فتم استدعوا إلي «بكين» لتوضيح سبب عصيانهم، فقالت مجموعة من «الدرخاتيين» بأنهم أُمروا بأن يبقوا في حالة حداد على إمبراطور واحد فقط، جنكيز خان، طوال حياتهم: «إذا كنا في حالة حداد مزدوج سنرتكب خطأً فادحاً في حق روح الإله المقدسة الشجاعة..، ونحن نفضل الموت مطيعين أوامر إمبراطورنا الراحل على العيش منتهكين لحرمته»، ففهم مسؤولو المانشو الرسالة عندما صدوا، ومنحوا المغول حرية اتباع عاداتهم الخاصة في ممارسة شعائرهم، إلى حد كبير دون مضايقة، للسنوات الثلاثمئة المقبلة.

لقد كان الكاتب الأمريكي «أوين لاتيمورOwen Lattimore «أحد الأجانب القليلين جداً الذين راقبوا مباشرة حظيرة الرب والمراسيم التي أقيمت بها حتى وقت قريب، وبالتأكيد كان أول من ألقى نظرة نقدية عليهم، إذ وصل إلى «إدسين خورو Edsen Khoroo» في أبريل من عام 1935، في وقت مهرجان الربيع، وعند وصوله «لمقابلة مع جنكيز خان كما

يسميه في روايته الحية، وجد خمس خيام (ليس ثمانياً) يحيط بها أربع وعشرون خيمة منغولية وعربات تجرها ثيران، وخيول مربوطة ومجموعة من الخيام الأكثر بساطة التي تعود للتجار والخدم، مع عرض للأقمشة والدلاء والمعازق والمعاول والسياط والسروج «وكل أنواع التبذير المثير للشفقة، وهو وهم الترف لشعب بائس».

بدأت المراسم بإلقاء نظرة متواضعة على خيمة جنكيز من على بعد ثلاثين خطوة، التي كانت تتعرض لضربات رياح ثلجية وتلفحها الرمال المتطايرة، وكان يوجد بداخل الخيمة منضدة صغيرة مطلية بالفضة، التي كانت مذبحاً، وصندوقاً خشبياً مطلي بالفضة، يمثل «التابوت» الذي يفترض أنه يحتوي على عظام جنكيز ورفاته نفسه، لكن لاحظ «لاتيمور» بلغته المنغولية الممتازة، نقشاً على الفضة يشير إلى أنه تابوت «المانشو» الذي لا يزيد عمره على ثلاثمئة سنة، وكان لديه شكوكه بشأن المواد الأخرى أيضاً، نظراً لتكرار ثورات التمرد وهجمات قطاع الطرق.

تلا ذلك عرض للأوشحة الحريرية، والسجود لتسع مرات، ومن ثم التراجع للخلف للخطوات الثلاثين، وشرب نبيذ الحليب في أكواب من الفضة، ثم تلا ذلك ستة تقدمات وتراجعات أخرى تلاها تقديم قرابين من الخراف، والمزيد من السجود، وتقديم هدية من وشاح حريري آخر، واستلام وشاح أصغر بدلاً منه، مُسح التابوت به، وجاء بعد ذلك دور الطواف حول الخيام الأربع المتبقية التي خصصت ثلاث منها على التوالي للإمبراطورة، الإمبراطورة الشرقية (التي أسرت أثناء غزو منشوريا) تصحبها الانحناءات والرعشات لجنكيز عند الخيمة الأخيرة البيضاء المخصصة لأداء الصلوات، وقد عد «لاتيمور» هذا العمل المغولي كبيراً، بينما كان الكهنة البوذيون يؤدون دوراً ضئيلاً، إذ كان دورهم الرئيس مقتصراً على نفخ الأبواق التبتية المقدسة، منتجين صوتاً يشبه «انشقاق السراويل العملاقة»، وفي نهاية المراسيم في اليوم التالي، رفعت جميع الخيام الخمس في مجملها على عربات يجرها جملان أبيضان مقدسان، وأعيدت إلى المضمار المحاط بالأسوار.

وأصبح واضحاً «للاتيمور» بأن أصول العبادة كانت مقلوبة، ففي العادة، كانت الطقوس تصمم لتقديس معتقدات تقليدية، وتتوقع وجود جثة، وضريح، ومن ثم الطقوس. لكن لم يكن هناك جثة، إذن هذا ليس بالضريح الحقيقي، والآثار مشكوك في أصالتها، و«بالنسبة

للتقليد الذي يدعي بأن جثة جنكيز موجودة في وادي «ايجن هوروsic [Ejen Horo]» أو على الأقل رفاته، فإن هذا الادعاء ليس واضحاً ولا محدداً»، وعلى نحو ما تأتي الطقوس أولاً، ومن ثم تتبعها المعتقدات بعد فترة طويلة فقط كمبرر لهذه الطقوس، وعلى ما يبدو أن الممارسات كانت مستندة على مجموعة من احتفالات قصر القرن الثالث عشر وحتى عبادة السلف القديم، وذات مرة، في هذه الأراضي المحتلة حديثاً، جلبت الرعية الإمبراطورية والمبعوثون والتابعون هدية للخان في قصره، وبعد موته، كرمت روحه بالطريقة نفسها، من خلال الهدايا، وبعد ذلك، ولأن الروح السلفية تشاركه الإلوهية، حصلت الطقوس على محتواها الديني، وربما عندها فقط ظهرت «الآثار» لتعطي تجسيداً مادياً للعبادة.

لقد غيرت الحرب التي تمكن «لاتيمور» من تجنبها كل شيء، وحتى الآن التنافس الوحيد للفوز بروح «جنكيز» كان بين الشامان والبوذيين، واختفى التنافس بطبيعة الحركة البطيئة للسيطرة البوذية، والآن تتسارع القصة في وتيرتها، لأنه منذ مطلع القرن شجع المسؤولون الصينيون الفلاحين الصينيين على استعمار الأراضي المغولية التقليدية، وتحويل المراعي إلى أراضٍ زراعية، ودفع أجور مرتفعة للمتميزين، وفي الثلاثينيات من العام 1900 كان المغول قد أخرجوا عملياً من وادي النهر الأصفر إلى المراعي الهامشية، وفي هذه المرحلة فرضت ثلاثة عناصر جديدة نفسها، دخلت اليابان، التي توسعت في آسيا الوسطى من خلال مستعمرتها في منشوريا، في تحدٍ مع منافسَين صينيين، الوطنيين تحت قيادة «تشيانغ كاي شيك Chiang Kai - shek» والشيوعيين بقيادة «ماوMao».

لقد برزت اليابان إلى حيز الوجود على حساب الصين تماماً كما فعل جنكيز، لكن من الجهة المقابلة، ففي الأعوام 1931 - 1932 أصبحت منشوريا ألعوبة في يد اليابان، تمهيداً للغزو المخطط لمنغوليا والصين وسيبيريا، فكانت الخطوة الأولى تتمثل في السيطرة على شرق ووسط منغوليا الداخلية، التي حصلت على «نظام الدمية» الخاص بها، حكومة منغوليا ذاتية الحكم، يكتمل بتقويم ثوري حدد تاريخ تأسيسها بسنة ميلاد جنكيز. لكن الغزو أُعيق لفترة وجيزة من الجيش الوطني، «الكومينتانغGuomindang» ومن ثم تقدمت القوات اليابانية نحو النهر الأصفر في عام 1937، وبقيت مسيطرة عليه للسنوات الثماني القادمة.

وفي خريف عام 1937 وصل ضيف غير متوقع إلى حظيرة الرب، وأعلن عن نفسه

كممثل للجيش الياباني الملكي المتمركز في مدينة «باوتوBaotou» على بعد مئة كيلومتر إلى الشمال، فاجتمع بالمسؤولين الرسميين، وقدم لهم الطلبات، التي تمثلت في إعلان المسؤولين وقوفهم ضد الحزبين الصينيين لصالح اليابان، وأن ينقلوا الخيام الثماني البيضاء ومحتوياتها لتكون تحت الرعاية اليابانية، إذ أدرك اليابانيون أن من يسيطر على حظيرة الرب سيحكم منغوليا وهذا الجزء من الصين، وأن من يسيطر على الأراضي المنغولية سيمتلك قاعدة ممتازة يمكن من خلالها تأمين بقية الصين وسيبيريا. لقد أصبحت آثار جنكيز، وروح جنكيز ذاته، مفتاحاً للوصل إلى الإمبراطورية في آسيا.

لقد كان ذلك موقفاً صعباً للزعيم الإقليمي، «شاغيShakhe»، فالآثار موجودة هناك منذ سبعمئة عام، أقل أو أكثر من ذلك، وكان المنغوليون المحليون يحرسونها «كما لو كانوا يحرسون عيونهم»، وعلاوة على ذلك، عسكرت القوات الوطنية في الجوار على المحاور الثلاثة الأخرى، فأوضح «شاغي» للضيف بأنه في حال نقل الضريح إلى اليابان ستعم الاضطرابات، التي لن تكون في صالح القضية اليابانية، فأدرك الغزاة المسألة، وتراجعوا عن طلبهم.

لكن الضرر وقع، ورجع الكثير من المنغوليين إلى حركاتهم الاستقلالية الذاتية، بينما آخرون اقتربوا من الوطنيين للمساعدة في نقل الآثار إلى مكان آمن، بعيداً عن متناول العدو، ووافقت حكومة «الكومينتانغGuomindang «على ذلك، مخططةً لنقل كل شيء بالشاحنات والجمال إلى الجبال جنوب «لانتشوLanzhou «على النهر الأصفر، على بعد ستمئة كيلومتر إلى الجنوب الغربي. واختيرت تلك المنطقة لأنها كانت آمنة، بالرغم من أن النزاع لم يجعلها بعيدة بما يكفي (حسناً، 150 كيلومتراً فقط) خلف جبال «ليوبان Liupan» حيث أمضى جنكيز صيفه الأخير.

وفي السابع عشر من مايو من عام 1939، وصل مائتا جندي وطني دون سابق إنذار إلى الضريح، مما أثار دهشة السكان المحليين المضطربين، الذين كانوا قد أوصدوا الطريق، وأوضح مسؤول وطني ضرورة حماية المكان من «شياطين محيط الشرقEast Ocean Devils'». لكن الرعب فسح المجال لإجراء المفاوضات، ووعد الوطنيون بتحمل جميع تكاليف نقل الضريح، كما سمحوا لبعض «الدارخاتيين» بالانتقال مع الضريح، ووعدوا

بالسماح لجميع المراسيم بالاستمرار، فانتشرت الأخبار بسرعة، وجاء المئات وتبعهم الآلاف وقضوا الليل في مراسيم إضاءة الفوانيس، والبكاء والصلاة بينما كانت الخيام تُنقل والعربات تُحمل، وعند الفجر، تحرك قطار العربات، مع توقف لفترة وجيزة حينما ألقى رجلٌ عجوزٌ بنفسه أرضاً أمام إحداها، وتمتم أحد الجنود الوطنيين تعليقاً على ما يحدث قائلاً لجندي آخر: «بالنظر إلى مثل هذا الولاء، فلا عجب أن جنكيز خان كسب جميع الحروب»، وعبر «بحر من الدموع» على حد تعبير أحد الصحفيين، انسلت العربات ببطء، متجهة جنوباً بسرعة المشي نحو «يانان Yenan» على بعد أربعمئة كيلومتر تقريباً.

كانت «يانان» (يانان طبقاً للنظام الرسمي لكتابة الأحرف الصينيةYanan in pinyin) مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وقد سمح الشيوعيون بدخول القافلة مع فرقتها الوطنية إلى أراضيهم بعد مفاوضات غير مسجلة، وذلك لأن جنكيز كان بالطبع إمبراطوراً صينياً والضريح بأكمله آثار صينية، وسيخوض كلا الجانبين قريباً حرباً أهلية قاسية داخلين في تنافس لتمجيد جنكيز باعتباره رمزاً للمقاومة الصينية للغزاة، عادّين إياه ليس كمؤسس للأمة المغولية وللإمبراطورية، بل كمؤسس لأسرة «يوان»، وبالتالي، كان هناك على ما يبدو دافعٌ سياسي خفي لهذه اللمحة الإيثارية، فمن الأفضل للمغول ألا ينسوا بأن فتوحات جنكيز لم تكن فتوحات على الإطلاق، إنما مجرد نزاع بسيط أدى إلى وقوع غالبية الصينيين، لفترة قصيرة من الزمان، تحت حكم أقلية صينية، وليس تحت حكم أجنبي، وباختصار، من الأفضل لهم أن يتذكروا بأن منغوليا كانت فعلاً جزءاً من الصين.

لذا، في منتصف يونيو، صنع الشيوعيون من جنكيز شخصاً فخوراً بنفسه، إذ فسحت عربات الجمال المجال لقافلة من ثماني عربات، عربة لكل خيمة، وكانت العربة الرئيسة التي تجر التابوت ملفوفة بقماش الساتان الأصفر، وعلى جانب الطريق في بلدة «شيليبو Shilipu» على بعد ثمانية كيلومترات إلى الشرق من «يانان Yenan» راقب حشد من عشرين ألف شخص القافلة وهي تُجر إلى داخل غرفة خصصت كقاعة جنائزية، ويوجد هنا لَفيفْة ضخمة تعلن عن جنكيز «كعملاق العالم» وكانت مُحاطة ببيتين من الشعر:

إن الأمتين المغولية والصينية متحدتان بشكل وثيق للغاية

ما زالت تستمد قوتها من روح جنكيز خان لتواصل القتال حتى النهاية.

وقاد قوس معلق بلافتة كتب عليها - » أهلاً وسهلاً بكم في تابوت جنكيز خان!» - إلى ضريح مكسو بأكاليل الزهور، التي وضع»ماوMao «شخصياً واحدة منها. كما كان هناك مجموعة من اثني عشر شخصاً من الحزب الرئيس إضافةً إلى موظفين رسميين من الجيش يؤدون التحية للقافلة في احتفال دام لأربع ساعات، وكان الجزء الأكثر إثارةً في هذا الحفل هو الخطاب الجنائزي «العاطفي والحماسي» الذي ألقاه الأمين العام للحزب «تساو ليوCao Liru»، وفي هذا الخطاب «أشاد «بيوان تسوYuan Taizu «[أول إمبراطور من أسرة يوان] كبطل عالمي» وربطه بشكل مباشر بسبب وجود الحزب الشيوعي، دافعاً «الشعبين المغولي والصيني للاتحاد والمقاومة حتى النهاية!»، وفي اليوم التالي، تحركت القافلة جنوباً، مارةً بحشد ضخم آخر من المشاهدين. (ولم تكن تلك نهاية المسألة بالنسبة «ليانان Yenan»، ففي الربيع التالي، افتتحت المدينة قاعة تذكارية خاصة بها لجنكيز، وأكملتها بتمثال لتنين راقص ولوحات جدارية.) لقد كانت هذه هي طريقة التعامل مع الفاتح البربري، بمنحه تغييراً ذا أثر رجعي في الجنسية وتحويله كرمز للثقافة الصينية، وللثبات والوحدة.

وبعد ثلاثة أيام، انتقلت القافلة إلى أيدي الوطنيين مرة أخرى، وفي مدينة «شيان Xian» أقام الوطنيون حفلاً فاق حفل منافسيهم، إذ ملأ هنا مئتا ألف شخص الشوارع لتحية القافلة، ورحب بها من خلال ذبح بقرة وسبع وعشرين شاة. لقد كان عرضاً مدهشاً، بالرغم من أن هذا العرض كان في قلب الصين، مع وجود واضح لعدد قليل من المغول، وبالرغم من أن جنكيز دمر المنطقة، إلا إن الناس العاديين فتنوا بسحره، وذلك لأنه أصبح إمبراطوراً صينياً، وإن كان ذلك بعد وفاته، وكانوا أيضاً أسلافاً عابدين، وكان جنكيز بكل تأكيد الجد الأعظم، حتى لو لم يكن جدهم، لذا ركعوا وسجدوا حاملين عيدان البخور في أيديهم أثناء مرور القافلة.

وفي الأول من يوليو، وعلى بعد خمسمئة متر أخرى إلى الغرب، في منطقة آمنة في جبال «شينغلونغXinglong «إلى الجنوب من مدينة «لانشوLanzhou» وصلت القافلة إلى «معبد بوذا العظيم في دونغشان Dongshan Dafo Dian» المعبد الذي أصبح فيما بعد موطن الضريح للسنوات العشر القادمة.

وفي عام 1949، وعندما اقتربت القوات الشيوعية من حسم الحرب الأهلية، نقل الوطنيون الضريح بعيداً مرة أخرى، على بعد مئتي كيلومتر أقصى الغرب إلى دير القرن السادس عشر الكبير في «تاي تشيTaer Shi» حيث استقبله الرهبان بالأناشيد والصلوات، لكن دون جدوى: «على أية حال، كسب الشيوعيون الحرب بعد شهر، وفر الوطنيون إلى «تيوان Taiwan»، واختفى اليابانيون، وأنظمتهم الدُمية التي كانت في «منشوريا» و«منغوليا»، ويبدو أن السماء قد منحت ولاية جديدة «لماوMao».

وعلى مدار السنوات الخمس المقبلة، بسط الحزب الشيوعي سيطرته بالكامل من خلال الإصلاح الزراعي والمسائل الثورية الأخرى، وكانت منغوليا الداخلية واقعة تحت سيطرة أحد أمراء حربها الشيوعيين، «ولانهوUlanhu»، وذات مرة، قبل الحرب، وافق الشيوعيون على انفصال مناطق الأقليات عن الصين إذا رغبوا في ذلك، ولم يسمحوا بأكثر من ذلك، وخاصة في الصين الجديدة. لكن الشيوعيين أدركوا الحق في الحصول على نوع من الحكم الذاتي المحلي، لذا دفع «ولانهو» المغول للمطالبة بحقوقهم إلى أقصى حد، بالرغم من أن المغول كانوا يشكلون 15٪ من تعداد السكان فقط - في منطقة كانت فيما مضى ملكهم وحدهم! - من منطقة الحكم الذاتي المغولي الجديدة، إلا إنهم هيمنوا على إدارتها، وقد خفف ذلك من حدة الحماسة الثورية لاستئصال المتعاونين وأسياد القطيع والكهنة والنبلاء، وكان هناك بعض أحكام الإعدام، وذبح بعض رعاة الماشية الخائفون ماشيتهم بدلاً من مصادرتها من الحكومة وإعادة توزيعها، لكن عموماً جلبت سياسات «ولانهو «شديدة النعومة - «كانت مقبولة لدى رعاة القطيع المُستأجَرين! ومقبولة لدى مالكي القطيع أنفسهم!» - عودة بطيئة للحياة الطبيعية، وكانت هذه خطوة مدروسة نحو اشتراكية أكثر تقدماً.

ومع قيادة موالية للمغول ومع الحاجة إلى تهيئة الشعب للتغيير، تحول المسؤولون المحليون والوطنيون أخيراً إلى الضريح، فبالنسبة للمغول والصينيين على حد سواء، استحق جنكيز إحياءً رفيعاً ودائماً لذكراه، شيئاً ما أفضل من بضعة خيام قليلة، فكلف بإقامة نوع جديد من الأضرحة بتكلفة 1.2 مليون يوان، لكي يُبنى على الموقع الأصلي.

وفي ربيع عام 1945، وبواسطة الشاحنات والقطارات، عاد تابوت البطل وآثاره إلى حظيرة الرب، في العشرين من أبريل في الوقت الذي وضع فيه حجر الأساس، وقاد «ولانهو»

نفسه مراسم التكريم، وفي الخامس عشر من مايو، اليوم الممنون، يوم الاحتفال الأكثر أهميةً، وبخيام ملأت المراعي المحيطة وخراف قربانية تكدست على التلال، أشارت شعيرة تذكارية إلى نهضة الضريح، ووجّه أحد المسؤولين إدانة إلى «الكومنتانغيينGuomindang «الرجعيين الذين أزالوا الآثار من المكان الأول، وأعلن عن شرف إعادتها مرة أخرى، وفي عام 1956 اكتمل بناء المعبد الجديد.

وبدا، للوهلة الأولى، أنه من الصواب لكي تدخل كأي شخص غريب إلى أي مكان عبادة، يتوجب عليك دخوله بتواضع لجهلك به، وقد عرف «جورجيتJorigt «نمط الدخول، إذ يجب أن نكون على استعداد لتقديم شيءٍ ما لروح «جنكيز»، فاشترينا قطعة قماش من الحرير الأزرق - خاتاج - وقنينة فودكا وقالباً من الشاي من أحد محلات بيع الهدايا التي اصطفت على مدخل الفناء، ومروراً بتمثالٍ ضخم لجنكيز ممتطياً حصاناً، صعدنا الدرجات التسع والتسعين الميمونة - وذلك لكون الرقم تسعة وتسعين يمثل عدد الأرواح الثانوية الخاضعة للإله الأعظم - مارين خلال أشجار الصنوبر والسرو حتى وصلنا إلى بوابة المعبد، وهي ستار واقٍ تألف من غرف عرض مزودة بمتاريس بيضاء، وخلفها كان يوجد ساحة ضخمة معبدة تبلغ مساحتها مئة متر مربع، تمتد حتى المعبد نفسه، كما كان هناك قبة مركزية محاطة بجناحين على شكل قبة.

وأدركنا مؤخراً، أنه كان من السهل حجب الإعجاب به. نعم، فتلك القباب المكسوة بالقرميد، بهيئتها الزرقاء التي تشبه المرساة مقارنةً باللون الذهبي، كان من الواضح أنها مستوحاة من شكل الخيمة المنغولية. لكن المغول لم يكن لديهم هندسة معمارية أصلية لكي نتحدث عنها، فجميعها مستوحاة من البوذية التبتية، التي خلقت تقاليد من الهندسة المعمارية الخاصة بها في الصين، إذن فهذه كانت مجرد محاولة في الخمسينيات من العام 1900 للتوفيق بين العناصر الثلاثة، فالقباب كانت تبرز من الأسقف المبنية على «الطريقة الباغودية» بأفاريز ملتوية، مثل تنانير راقصات الباليه، وكانت ثلاثتها متصلة بممرات لا تلفت الانتباه وكأن من صمموها نفدت منهم الأفكار.

آنذاك، لم يكن التصميم يستحق التقدير، وكل ما حصل عليه رجال «ولانهو» هو الموقع، المقاس، والإمكانيات الهائلة لهذا الموقع الكبير، إذ كان المعبد كجوهرة في وسط النباتات

الخضراء، يقف على قمة تلة كقربان مقدم للسماء الزرقاء، وبعد كل تلك الدرجات التي جعلتنا نتصبب عرقاً، وبوابة المدخل، التي تعمل مثل «الحاجز الأيقوني» في إحدى الكنائس الشرقية، مخفياً ثم كاشفاً اللغز الكامن بداخلها، إضافة إلى الفناء الضخم، شعرت بنفسي أُجذب نحو شيء أكبر بكثير من مجرد شيء متعلق بالفَناء.

وبداخل المعبد كان يقف اللاهوت نفسه، كتمثال ضخم ومعتم من الرخام، شكل بوذي بارتفاع أربعة أمتار، أسفل إفريز مزركش برسومات التنين، وكان المغول «الدرخاتيون Darkhat» يصطفون مرتدين البزات والقبعات البنية يراقبون بصرامة ككلاب الحراسة، كما كان هناك لافتة تحذر من التصوير، وإذا جرأت على مخالفة التعليمات، فإنهم سيمزقون فيلم الكاميرا الخاصة بك (هذا ما رأيتهم يفعلونه مع سائح مغولي سيء الحظ)، وشعرت بآخر شكوكي تتراجع في وجه صرامتهم، وربما هذا هو نوع من إظهار الثقة في الآخرين، وليس الحقيقة الحرفية من تلك الثقة، التي تسبب إحساساً مقدساً.

وقادنا شاب من «الدارخاتيين» يدعى «بولاغBulag» مارين بطيف من الرخام يلوح في الأفق، والآن وبعد أن أصبحت عيناي معتادتين على الظلمة، رأيته وكأنّه خارطة ضخمة تبين مدى الإمبراطورية المغولية، ومن ثم احتشدنا بتواضع في غرفة خلفية، حيث انتصبت ثلاث خيام أسفل مجموعة من الرايات، مثل زينة عيد الميلاد الرثة إلى حد ما. لقد كانت هذه قاعة الحداد، وخصصت الخيام الثلاث لجنكيز نفسه، وزوجته الأكبر سناً «بورتي» و«الجوربلتشين Gurbelchin» الأميرة التانغوتيةTangut، التي لُعنت في مكان آخر كقاتلة ولكنها عُشقت هنا لولائها، ووضعنا قطعة قماش الحرير الأزرق وزجاجة الفودكا في الأسفل، ومن ثم انحنينا وأشعلنا عيدان البخور، وتمتم «بولاغ» في صلاته باللغة المنغولية قائلاً: «أيها المقدس جنكيز خان، جاءك هنا اليوم «جون» و«جورجيت» للصلاة على ضريحك، ونتوسل إليك لتمنحهم حظاً موفقاً في مهمتهم».

وبعد ذلك، وبفضل استجابة روح جنكيز لصلواتنا، استعدت شكي، وبالرغم من كل شيء، لقد كان ذلك ما احتجت إليه لكي أكمل هذا العمل. لقد كنت وسط مجموعة من الآثار السخيفة كشظية من «الصليب الحقيقيTrue Cross». كما كان هناك القوس المقدس والجعبة، وغرفة لدلو الحليب المعجزة، إضافة إلى السرج المقدس، وكان من بين السرجين

المعروضين، سرجٌ مرصعٌ بالفضة من جزئه العلوي، وقال «بولاغ»:، السرج الموجود على ناحية اليمين يعود إلى جنكيز، أما السرج الموجود على الناحية اليسرى فقد قدم كهدية من آخر أباطرة المغول في القرن السابع عشر، «ليغدان خان Ligdan Khan»، وبدا كلاهما بحالة جيدة بشكل مثير للريبة.

ويستحق سرج «ليغدان خان» لفتة صغيرة في قصتنا، فلكونه كان توأماً لجنكيز، فإن هذا يوضح استحقاقه كوريث للإمبراطورية. لقد بدأ «ليغدان» بمحاولة فاشلة لاستعادة استقلال المغول ووحدتهم في مواجهة غزو «المانشوManchu «الوشيك. لكن في ذلك الوقت كان الاستقلال المغولي قد تعرض لتسوية قاتلة بسبب الصراع الداخلي وارتباطات البوذية مع الصين، وحاول «ليغدان» فهم جميع التعقيدات الموجودة وذلك من خلال ادعائه بأنه يمكن أن يكون قليلاً من كل شيء: إمبراطورٍ صيني، ووريثٍ لأسرة يوان (المغولية) وحفيدٍ لجنكيز وقديسٍ بوذي، مع قليل من الشامانية المنغولية التي زرعت بداخله، وكان سرجه بمنزلة رمزٍ لمحاولته لمجاراة جنكيز، شيء مقابل شيء وسبب مقابل سبب، وفي الوقت نفسه ليوفق الدين والسياسة في شكل كلي جديد. لكن محاولته لم تنجح، لأنه نشر نفسه بطريقة واهنة، مدمراً خططه الخاصة بسبب الطمع والغطرسة، ومات جراء إصابته بمرض الجدري في عام 1634، وبعد ذلك بعامين سقطت منغوليا في يد قوات «المانشو».

لقد عرضت الجداريات أمجاد حكم جنكيز بأشكال ذكرتني بطريقة عرض أطباق الثلاثينيات من العام 1900، إذ صقلت جميعها بأناقة وشكلت الأقمشة بطيات أنيقة، ولا يوجد بها شيء يمكن أن يفسد كمال الأزياء ووسامة الرجال والنساء، فهنا يتزعم جنكيز إمبراطوريته الموحدة، وهناك يمنح «قوبلاي» لقب مؤسس السلالة لجده، الذي يحوم ويحيط به التنين في السماء الزرقاء، ولم يكن الموسيقيون أكثر سعادة من هذه اللحظة لكي يغنون، ولم تكن العذارى أكثر فخراً لكي تقدم الأوشحة الحريرية، وكان الأجانب متلهفين ليقدموا التحيات والمنتجات، وذلك لأن جنكيز كان الرجل الذي جسر الهوة بين الشرق والغرب، وشجع نقل الفن، والمنح الدراسية والتجارة، وأكد رفاهية الجميع.

إلا إنه لم يكن هناك أثر لجثث الموتى.

لقد بقي المعبد لعقد من الزمان يخدم الغرض الذي أُقيم لأجله بنجاح متزايد، ووصل إلى مكانة سامية في الستينيات من العام 1900، وفي عام 1962، أعلنت منغوليا عن الذكرى السنوية الثمانمئة لميلاد جنكيز، واقترحت إقامة احتفال كبير، وفي منغوليا نفسها، أثبت هذا أنه كارثة، وذلك لأن منغوليا كانت تابعة لروسيا، وبالنسبة للروس، فإن جنكيز يعدّ رجعياً، ومدمراً للثقافة، فتوقفت الاحتفالات بشكل مفاجئ، وأبعد الشخص الذي حرض على القيام بها. لكن الصين عرفت تماماً الفوائد التي يمكن أن تجنيها من عبادة جنكيز، وفي العام نفسه استضافت مراسم حظيرة الرب أكبر عدد لها على الإطلاق، ثلاثين ألف شخص، معظمهم من المغول، شاركوا في انغماس في العبادة التي تلائم الخط الرسمي بشكل مثالي، وبسبب وقوف المغول بحزم خلف الحزب، ستكون منغوليا الداخلية حصناً مستقراً ضد التهديد السوفيتي الذي كان يشق طريقه عبر صحراء غوبي.

لكن عندما أطلق «ماو» الثورة الثقافية في عام 1967، فقد جنكيز فجأة الثقة والاحترام التي كان يتمتع بها، ولا يمكن أن يكون هناك تحدٍ من الماضي للحاكم الجديد الذي كان على وشك أن يكون فاتحة لعصر سيتفوق على جنكيز، وكتب «ماو» في قصيدة ساخرة قائلاً: «البطل! الذي تفخر به السماء لجيل واحد! لا يعرف سوى صيد النسور»، وبسبب الثورة الثقافية، أطلق «ماو» موجة من الكراهية ضد الأجانب، وفي الأراضي المنغولية أصبح المغول ضحايا، إذ كان الهدف السياسي الرئيس هو ما يسمى بالحزب الثوري الشعبي لمنغوليا الداخلية، الذي أراد كما ادعى، نيل استقلال تام لمنغوليا الداخلية، بهدف طويل المدى لأجل توحيد منغوليا نفسها وتأسيس - كما هو مفترض، إمبراطورية المغول الجديدة، والآن يجب أن تتوحد الجماهير ضد الخطر الذي يهدد المغولية برمتها.

المادة الحقيقية للطراز المغولي

فرسان صغار السن بالقرب من خط النهاية لسباق العشرين كيلومتراً في يوم السباق الوطني، إذ تؤكد مثل هذه السباقات أن منغوليا تبقى أمة فرسان، كما كانت في عهد جنكيز خان، وسينال الفرسان الفائزون جوائز وسيكرموا على نطاق واسع، بينما ستصبح الخيول

الفائزة كنوزاً لمربي الماشية.

لقد كان هذا الوقت صعباً بالنسبة للمغول، كما ذكر «جورجيت»، إذ كان والده يعمل كموظف رسمي في بلدة صغيرة، وهي الوظيفة التي نقلت العائلة من السكن في خيمة المراعي إلى السكن في منزل، وهناك جاء الوقت الذي ألقي فيه القبض عليه، فتساءلت: «هل ألقي القبض عليه لأنه موظف رسمي؟» فأجاب «جورجيت» قائلاً: «كلا، بل لأنه منغولي!». ثم سألت: «هل عومل بشكل سيء؟» فرد بالقول: «بالطبع لقي معاملة سيئة! لقد كان قادراً على المشي، لكن كُسرت كلتا يديه، ووسم بكلمات على جلده تقول: «إنه «كلب» لأنه متعلم»، ولو كنت قد تكلمت حول هذا الأمر لكانوا قد أطلقوا علي لقب «الكلب الصغير»، وكان علينا أن نكون من ذوات الجنس «الأحمر» وليس من ذوات الجنس «الأبيض» التي كانت تعني المتعلمين. ثم توقف للحظة، غارقاً في الذاكرة، وقال: «إنها قصة طويلة، أشياء كثيرة وخطيرة حدثت، فسألته: «ما هو الحدث الذي لا يزل عالقاً في ذاكرتك بشكل قوي؟» فأجاب بالقول: «أحداث كثيرة لا زالت عالقة في الذاكرة بشكل قوي! دعنا لا نتحدث عن هذه الأشياء».

ومن الطبيعي أن يكون الضريح رمزاً أساسياً للوطنية المغولية والشعور الديني، لكن من وجهة نظر الثورة الثقافية كان رمزاً للحماسة الرجعية، والقلب المتوهج من الخيانة، ومقر تجمع لعموم المنغوليين المتآمرين، وفي عام 1968، مزق الحرس الأحمر المكان إرباً، مدمرين كل شيء له قيمة تقريباً - القوس والجعبة ودلو الحليب المعجزة والأعلام والخيام، كل شيء دُمر.

لقد كان لجميع هذه الأشياء فضيلة معينة، لكونها على الأقل تعود لقرن من الزمان، وربما بعض منها يعود إلى عدة قرون خلت، لكن تدميرها يتركنا لفكرة شائقة بأن شيئاً ما من بين تلك الأشياء ربما فعلاً يعود إلى جنكيز نفسه، ويعتقد «ناتشوجNachug «بشكل جازم، رئيس معهد الدراسات لضريح جنكيز خان، بأن هذه الأشياء فعلاً تعود لجنكيز خان، إذ تساءل: فعلى سبيل المثال، ماذا بشأن المحتويات الفضية التي كانت موجودة في التابوت التي قال «لاتيمور» أنه عثر عليها في جثة الرب أو رفاته؟ حسناً، لكن «ناتشوج» لم يعرف شيئاً بشأن الجثة؟ كيف يمكن أن يكون هناك جثة إذا ما كانت قد دُفنت خارجاً في السهل، في مكان لا تتذكره إلا الناقة الأم؟ فكل ما يعرفه أن هذا المكان من المفترض أن يحتفظ «بالنفس الأخير

من الرب».

وهنا تجادلت في الحديث مع «ناتشوج» وقلت: «هل تقصد، أنه لا يوجد داخل التابوت سوى فقط...فقط هواء؟».

فأجاب: «كلا، كلا، كان يوجد داخل التابوت كتلة وبر من جمل أبيض، وتلك الكتلة هي من احتفظت بالنفس الأخير من جنكيز خان».

فقلت: «لا أفهمك. لا زال يبدو لى أنه لا يوجد شيء سوى الهواء».

فأجاب: «يحتفظ الوبر بالقليل من الدم في ثناياه».

وكما نرى أنه بطريقة ما في الستينيات من العام 1900 اختفت الأسطورة المتعلقة بالجثة، تاركةً مجرد أثر، بقعة من سعال دموي في ثنايا وبر جمل استخدمت كالقطن الطبي لتنظيف الشفاه الملكية.

ثم استطرد «ناتشوج» قائلاً: «كما يوجد هناك أيضاً الحبل السرّي. هذا ما كان يوجد في التابوت الذي نعبده هنا».

فسألت: «هل كانت حقاً موجودة هناك؟».

فأجاب: «حسناً، الصندوق لم يُفتح قط. عُبِدَ فقط».

ها نحن نعود مرة أخرى للإشاعة والأسطورة والأقاويل، وبالتأكيد تقريباً الخرافة. لكن يوجد هنا شيء ما يمكن التحقق منه، تخيل لو فتحنا هذا التابوت، لا بأس إذا ما كان عمره قرنين أو ثلاثة قرون، ولم نجد شيئاً على الإطلاق سوى خصلة صغيرة بيضاء من وبر جمل مع بقعة صدئة ضئيلة ونفاية ذابلة من لحم جاف، ما الاختبارات الطبية التي يمكن إجراؤها، وما النظريات التي قدمت المعلومات. لكّن الآن، ونتيجة للحماسة الثورية، لا يوجد فرصة لإجراء تحليل الحمض النووي واختبارات الكربون المشع، ولا يوجد طريقة للتحقق من صحة كلمات «ناتشوج»، ومن المؤكد تقريباً أن كلماته لم تكن صحيحة، لكن الإنسان لا يستطيع أن يمنع نفسه من التساؤل.

إذن المعبد نفسه يرجع تاريخه إلى منتصف الخمسينيات من العام 1900، والآثار أعيد

صنعها في السبعينيات من العام 1900، وانتهى العمل بتمثال الرخام الكبير في العام 1989 (كما هو مُثبت من توقيع الفنان، «جيانج هونJiang Hun »)، وبدا أن العناصر «الحقيقة» كانت فقط هي الصلوات والأناشيد وطقوس المراسيم نفسها، وحتى هذه كان يمكن أن تُفقد لولا جهود قلة من الرجال المخلصين أمثال حارس الضريح «جوريلجاب Gurilijab» الذي كرس جل حياته في جمع الأناشيد المرتبطة بطقوس جنكيز خان، وقد ذكر «لريهو سو Rihu Su «كيف بقي عمله حياً:

في العام 1968، سُجنت لأكثر من سبعين يوماً، وبعض الرجال سجنوا لفترة أطول دامت لأربعة أو خمسة أشهر، وكنت قد انتهيت تقريباً من جمع الأناشيد، وفجأة في يوم من الأيام، جاء بعض الحراس الحمر لتفتيش منزلي، وأخذوني أنا وكتاباتي إلى مقر قيادتهم، وكنت قلقاً للغاية لأن سجلي المكتوب من الأناشيد كان أيضاً من ضمنها، وعندما غادروا لتناول طعامهم وأغلقوا الغرفة التي كنت موجوداً بداخلها أنا وجميع كتاباتي، أسرعت وتناولت سجل الأناشيد من بين بقية الكتابات ووضعته في جيبي، ولأنهم كانوا قد فتشوني من قبل، اعتقدت أنهم لن يفتشوني مرة أخرى، ولحسن الحظ، أنهم لم يفعلوا ذلك، وبعد مرور ثلاثة أيام على سجني، جاءت زوجتي لإحضار بعض الطعام لي، وفي نهاية المطاف سمحوا لها بدخول الغرفة، لكن لم يُسمح لنا بالتحدث اللغة المنغولية، إنما اللغة الصينية، إذ كانوا يخشون أن نتبادل معلومات باللغة المنغولية، وبمجرد أن شاهدت الحراس الحمر يقفون بالخارج ولا يعيروننا اهتماماً، وضعت بسرعة سجل أناشيدي في حقيبتها وطلبت منها أن تحفظه في مكان ليس ذا أهمية، مثل كوخ التخزين، الذي قد يغفل هؤلاء الناس عن النظر إليه في حالة التفتيش لمرة ثانية، وفي مكان جاف..، وما أن رجعت إلى المنزل حتى سألت زوجتي عن المكان الذي خبأت فيه السجل، فأخبرتني أنها خبأته بين العوارض الخشبية وسقف الكوخ، وأنها لفته في قطعة من القماش وحشرته في فجوة، وبعد أن أخرجته من مكانه، كان ينبغي أن أكتب نسخة أخرى منه مباشرة...وهكذا حفظت الأناشيد، وإلا لكانت قد اختفت إلى الأبد.

وسألت «ناتشوج»: «هل تبقى أي شيء آخر؟».

فأجاب: «لقد كان السرج حقيقياً، لقد حفظ بمفرده».

لكنّه لا يعرف بالضبط كيف حفظ، إذ كان يبلغ من العمر فقط أربعين عاماً وكان حديث العهد نسبياً في المنطقة، والأحداث التي وقعت حصلت منذ زمن بعيد جداً، وإذا كنت أريد أن أعرف المزيد من المعلومات، ينبغي أن أتحدث مع «سينجيرجال Sainjirgal» الذي كان ذات يوم الباحث الرئيس في المعبد، وقد تقاعد الآن.

كان «سينجيرجال» يعيش في مدينة مجاورة، في منزل صغير وأنيق محاط بفناء صغير جداً في نهاية شارع فرعي، وكان يضفي سحراً مناقضاً «للدارخاتيين «المتجهمين دوماً في المعبد بعيون متلألئة وابتسامة حاضرة تحت القبعة التي كان يرتديها بشكل دائم، حتى وهو داخل البيت، وبالرغم من أنه في منتصف السبعينيات من عمره، إلا إنه لديه قوة ومظهر رجل أصغر مني بعشرين عاماً. كما أنه لم يكن من سكان هذه المنطقة على الإطلاق، بل جاء من بلدة «شلينغولShilingol «وكان قد جاء للعمل كمدرس، لكن أصبح مفتوناً بعبادة جنكيز خان – وكان يقول: «أنا لست «دارخاتياً» ولكني منغوليٌ، وكان جنكيز خان جدي الأكبر» - وقد كرس جل حياته للعمل كمؤرخ محلي.

فأومأت برأسي وقلت: «مؤرخ للخيام الثماني البيضاء».

لكنّه صوب كلماتي قائلاً: «ليست ثماني بالضرورة! تقليدياً نحن نذهب للصيد بثمانية كلاب صفراء، لكن هذا يعني أنها يمكن أن تكون ستة أو عشرة كلاب، فأرقامنا غالباً ما تكون عرضة للزيادة أو النقصان، وهي تحمل مغزى أكثر عمقاً، فإذا ذكرنا رقماً، فهذا يعني أننا نضفي على الموضوع خصائص ذلك العدد، كما أن الخيام أصبحت فقط ثماني تحت سيطرة قوات «المانشو» (في القرن السابع عشر)، إذن من ذا الذي يمكنه تحديد عدد الخيام التي كانت هناك منذ البداية؟».

لقد بدا وكأن «سينجيرجال» يبعث الفضائل التي تدين قليلاً إلى جنكيز أو إلى الضريح، وكل شيء يعود إلى كرمه، وكرامته، وذكائه وصرامته الفكرية. كما أن عالمه لم يكن مجرد عالم من الطقوس والبخور، لكنّه عالم من المعلومات جُمعت في الكتب التي اصطفت على رفوف مكتبته، وجعلت صراحته ووضوحه المعبد يبدو كعقيدة عامة تغث الذات الصالحة. لكن كانت تلك العقيدة على وجه التحديد هي التي اختارها لكي يغمر نفسه بها، مكرساً حياته

المهنية لجمع تفاصيل الطقوس والصلوات والأناشيد والمعتقدات.

لكن هذه العقيدة لم تحجب موضوعيته، إذ يقول: «معظم الناس هنا تنظر إلى جنكيز كإله، ولا ينظرون إليه كرجل. أنا أحترمه فقط كرجل وحد شعبه. نعم، أنا أشارك في المراسيم، وأعبده، ولكني أستخدم العبادة كشكل من أشكال الاحترام لإنسان، كما يصلي الأطفال المغول لآبائهم وأمهاتهم ولأسلافهم».

لقد كان عمل «سينجيرجال» يسير على قدم الوثاق حتى أطلق «ماو» الحرس الأحمر. لقد شاهد الأطفال - والمغول الصغار، من جميع الأعمار - يهاجمون المعبد، محطمين كل ما تصل إليه أيديهم، فدمروا جميع المشغولات اليدوية والخيام والآثار والمنطقة بأسرها ما عدا السروج. آه، نعم، السروج. كيف أنقذت؟

أجاب «سينجيرجال» قائلاً: «أعتقد أن شخصاً ما قد خبأها في أعلى القبة»، ولكني لم أكن هناك في ذلك الوقت.

فسألت: «ما الذي حدث لك؟».

فقال «لقد ألقي القبض عليّ أثناء الثورة الثقافية» لقد قال هذا كأنه يصف إجازة، مومضاً بعينيه ومبتسماً. «لقد رقدت في السجن لأكثر من عام، ومن ثم أرسلت لإنجاز أعمال يدوية، وقد كانت تلك الأعمال أحياناً أسوء من السجن نفسه. لقد قيدوني وذراعاي ممدودتان، وضربوني بخيزرانة. كما أجبروني على الوقوف قريباً جداً من النار وحرقوني».

«لكن لماذا كل هذا؟».

«لأني كنت أعبد جنكيز خان، إذ أصبح ذلك جريمة! كما قالوا أيضاً إنني جاسوس للمقاتلين المغول الساعين وراء الاستقلال، وللروس، وذلك عندما كانت علاقتهم سيئة جداً مع روسيا».

وهنا أضاف «جورجيت» بمرارة قائلاً: «في ذلك الوقت كان أي شخص يمكن أن يُتهم بأي شيء!».

ثم تابع «سينجيرجال» حديثه قائلاً: «لقد قال الصينيون إن كل مغولي عدو، لكنّه كان

مجرد مبرر لأعمالهم».

فسألته: «ولكنك تبدو مرتاحاً لذلك. ألا تشعر بأية مرارة؟».

فضحك قائلاً: «لقد كانت تجربتي أثناء الثورة الثقافية مفيدة لي»، فانتابني حس داخلي مفاجئ بأنني أسأت فهمه بأنه كان على وشك ترك نهج حزب قديم سعياً وراء كسب الفوائد من خلال إعادة التأهيل. لكن ذلك لم يحدث مطلقاً، فعندما أطلق أخيراً سراحه في عام 1974، بعد ست سنوات كئيبة، لم يُكسر، إنما بُثت فيه روحٌ جديدة، إذ قال: «في الماضي كنا نؤمن بأن الأقليات ستتمتع بنفس الحقوق التي يتمتع بها أي شخص آخر، والآن رأيت الحقيقة، ويالها من حقيقة؟ فالأمم الكبيرة يمكنها أن تضطهد الأمم الأصغر منها، وشجعني ذلك، لأنني كنت أعلم أنه يتوجب عليّ القتال من أجل ثقافتنا، وكان يتوجب عليّ أن أنشر تاريخ أسلافي».

لقد كان ذلك التزاماً استثنائياً، وذلك بالرغم من الحالة السيئة للضريح في السبعينيات من العام 1900، إذ حول إلى مخزن ملح. رأى «سينجيرجال» نظرتي المرتابة فقال: «نعم مكان لحفظ الملح! للسنوات العشر القادمة! لقد كان ذلك استعداداً للحرب».

«للحرب» كررت الكلمة بشكل قاطع. لم أفهم ماذا كان يريد أن يقول.

فأجاب قائلاً: «ملح للحرب! لكي نخزن الملح في حالة الحرب مع روسيا!».

لقد نسيت جنون ذلك الوقت، ومرارة الانقسام الصيني - السوفيتي، والاشتباكات الحدودية بين الجيشين على نهر «الأوسوريUssuri» وإرث الخوف الذي عززته الدعاية الحكومية، والآن تذكرت أصداء بعيدة من ذلك الخوف في الغرب، تذكرت شراء كتاب الكاتب الأمريكي «هاريسون ساليسبريHarrison Salisbury» - الحرب القادمة بين روسيا والصين - لتهيئة نفسي لرؤية ما لم يأتِ بعد.

لكن عندما ظهر أخيراً كتاب «سينجيرجال» عبادة الغرفة الذهبية، كان قد أقر بالفعل بأنه أنجز موضوعه بقليل من الإنصاف، لذا تخلص منه وبدأ من جديد، جامعاً المزيد من المواد حتى الآن، التي نُشرت في الكتاب الذي أنزله الآن عن الرف ووقعه وقدمه لي، ويُعد كتاب «العبادة المغولية» من أعظم أعماله، إذ استقطره بين طيات كتاب ذي غطاء ذهبي مكون من

ستمئة صفحة، وطُبع بشكل جميل بأحرف اللغة المنغولية العمودية القديمة التي ما زالت تستخدم في منغوليا الداخلية، وكان فخوراً جداً بكتابه، وبعمقه، وبالجهد الذي بذله على مدار ثلاثين عاماً، إضافة إلى أمانته. «وبعد عام 1949، رحب الكُتاب بالماركسية، ونُظر إلى كل شيء له علاقة بالبوذية والعادات القديمة على أنه سيء. لكن لكي تدرس العبادة المغولية والعادات، ينبغي أن تدرس الوثائق المغولية التي كانت موجودة قبل تأسيس جمهورية الصين الشعبية، وهذا ما فعلته في كتابي هذا».

ويعد كتاب العبادة المغولية دليلاً آخر على الطريقة التي اجتُث بها جنكيز اليوم، الذي بجل في الصلاة والطقوس، من جنكيز التاريخي الذي نفذ الغزو والإبادة الجماعية، لكنّه يتعدى ذلك بكثير، فهو إشادة بتصميم رجل واحد على الحفاظ وتأكيد المكون الرئيس لهوية شعبه، كما إنها أيضاً رمزٌ للأمل، ففي تلك الثقافة الساحقة كثقافة الصين يمكن نشر مثل هذه الرواية من ثقافة ثانوية متوازنة بشكل محفوف بالمخاطر والمجازفات مثل ثقافة المغول، فقبل أربعين عاماً، سيكون «سينجيرجال» محظوظاً إذا بقي على قيد الحياة إذا ما حاول نشر هذا الكتاب، لكن بعض الأمور تتحسن مع مرور الوقت.

كان معظم العُباد قانعين بتقديم القرابين والصلاة لجنكيز المقدس كما لو كان نفسه إلهاً. لكن علم اللاهوت الجنكيزي ليس بهذه السهولة، كما كشف «ناتشوج» أثناء عودتنا إلى الضريح، وأثناء السير حول الفناء الشاسع أمام المعبد، وصلنا إلى منصة رفرفت فوقها رايات ذيول الياك الحربية، التي تمثل رمزاً للبسالة العسكرية المغولية، وذكر «ناتشوج» قصة مجيء جنكيز بها، مضيفاً عنصراً جديداً تماماً لهذه المجموعة الغريبة من المعتقدات:

«ذات يوم، عندما كان جنكيز المقدس يقاتل لتوحيد قبائل المغول، شعر باليأس، فخاطب السماء قائلاً: «الناس يطلقون علي لقب ابن الرب، ولكني فشلت حتى الآن في توحيدهم! أتوسل إليك «يا إلهي» أيتها السماء الزرقاء، أن تمنحيني القوة للفوز!» وفي الحال، رعدت السماء، وسقط شيءٌ ما بين الأشجار، لكنّه لم يستطع الوصول لذلك الشيء، لذا أمر قادته بقطع الأشجار والحصول على ذلك الشيء، والذي اتضح فيما بعد أنها راية ذيل الياك، وكنوع من أنوع الشكر، ضحى جنكيز بواحد وثمانين خروفاً، تاركاً البقايا «لكلاب السماء sky dogs» [الذئاب]، لذا أصبحت الراية – العلم the sult – مثل علم، علامة من السماء

الزرقاء لتوحيد المغول، تسير أمامهم في المعركة. لهذا السبب نعبد الراية اليوم».

ثم أضاف استنتاجاً وضع الضريح بكامله ومراسيمه في ضوء جديد: «هذا شكل من أشكال العبادة أكثر سمواً من عبادة جنكيز خان نفسه، ولطالما أن جنكيز خان نفسه عبد الراية، إذن لا بدّ أنها أكثر منه سمواً. إنها رمزٌ للسماء نفسها»، وهكذا، إنها تمثل قوة في حد ذاتها، إذ يقول البعض إِن الطيور التي تطير فوقها تقع صريعة الموت.

كنت أعتقد حتى هذه اللحظة أن جنكيز كان إلهاً، ولكني رأيت الآن في مدفن عظماء الأمة الذي يستقر فيه أنه لم يكن على القمة، إنما على مقربة منها فقط، نصف إله، ليس كالإله «زيوسZeus «إنما مثل «ألكساندرAlexander» الذي كان تعبده بعض «الطوائف الهندوسيةHindu sects»، وربما مع الإشارة لشيء أكثر من الروحانية، نوع من الثالوث المغولي، مع الرب الأب، والابن والروح القدس التي تتجلى في السماء الزرقاء، وجنكيز والراية، والآن أصبحنا جميعاً عاجزين عن الاستيعاب، وكان هذا الموضوع من تخصص عالِم اللاهوت المقيم في المعبد، «شارالديSharaldai» الذي سيكون قادراً على توضيح المرحلة التالية من التعقيد. لقد كان يقيم «شارالدي» في «أولان باتور»، وربما، ولحسن حظي، أنني استطعت أن أتعقبه هناك وأسأله عن موضوع الثالوث المغولي.

يُعد الضريح، كالكاتدرائية، أكثر من مجرد بؤرة للطقوس والأساطير، وهو أيضاً مصدر جذب للسياح، كواحد من أجمل المعالم السياحية الصينية وفقاً للنشرات والدعايات السياحية، وبالرغم من أنه بعيد جداً عن المسار المعتاد للجماهير، إلا إن المجموع السنوي لمئتي ألف زائر يزودها بشريان الحياة المالي، وذلك لأن الصين تبنت الرأسمالية والخصخصة. كما كان معظم الزائرين من الصينيين، وكذلك الاستثمارات، لكن المستفيدين كانوا جميعهم من المغول، وكان هذا مكوناً آخر في المسألة الصعبة من الهوية الوطنية المغولية.

وتوجد على بُعد ميل من الضريح، أسفل المسار وبعيداً في المرعى الشاسع، قرية من الخيام حيث يستطيع السياح الإقامة والأكل وركوب الخيل، وبعد مأدبة غداء طويلة وبعد أن تناولنا الكثير من الخبز المحمص، تحدث «ناتشوج» عن التوترات والتغيرات التي واجهها الضريح، فالضريح يتلقى ثلاثة ملايين يوان في السنة من الهبات وبيع التذاكر، وهذا المبلغ

بالكاد يكفي لدعم أعمال الصيانة وسكان البلدة البالغ عددهم ثلاثة آلاف نسمة، وخصوصاً الدارخاتيين البالغ عددهم خمسمئة أو نحو ذلك الذين لا يزالون يعتمدون على المعبد والخدمة فيه، ولا تزال هناك خططٌ جارية، فخلال سنوات قليلة، سيكون هناك فندق كبير، سيكلف مئتي مليون يوان، ستجمع من تمويلات الحكومة ومستثمرين من القطاع الخاص.

لكن التطوير يحتاج إلى فضاء، والفضاء الوحيد المتاح هو المرعى، والمرعى يعود إلى الرعاة، لذا، ولضمان الاستقرار والازدهار لأعظم هذه المواقع المغولية على الإطلاق، سيُحصل على المرعى من الرعاة والمال من الصين، وبعد ذلك، كيف سيوازن بين الأغراض الروحانية للمكان وتداعيات غزو السياح الصينيين؟ وإذا ما واصلنا بهذه الخطة، ينبغي أن يُبنى على الطراز المغولي. سيكون لدينا سباق خيول، وعرض للأناشيد والرقصات المغولية، وسيكون لدينا مدينة مغولية، بمبانٍ على الطراز المغولي وبشوارع بأسماء مغولية».

لقد رأى «ناتشوج» التناقض بوضوح كاف، لكن بالنسبة له بدا من المناسب المجازفة، وبالرغم من ذلك، فإن هذا المكان أثر تأثيراً كبيراً بجنكيز، وأن جنكيز نفسه اتجه نحو الشعب ذاته الذي هاجمه، من خلال توظيف المسؤولين الصينيين. لقد جسر بنفسه الهوة بين الثقافات، ومع قليل من الحظ والقيادة الحكيمة، استطاع هذا المجتمع أن يظهر كانعكاس حقيقي لبطله، بدون جثث الموتى.

هل لا زالت روح جنكيز تمتلك القوة؟ حسناً، هذا ليس مكان المعجزات، حيث يمكن جعل المكفوفين يبصرون والكساحى يمشون، وحتى الناس يصلون وهم غير متأكدين إذا ما كانت صلواتهم ستُجاب. لكن معظم الناس لديهم شكٌ فطن بأن جنكيز يمثل حلقة وصل بين الأرض والسماء، وفي بعض الأحيان، سيتدخل إذا ما طلب منه بالشكل الأمثل.

وسألت «ناتشوج» مباشرة إذا ما كان الناس يعتقدون بأن روح جنكيز يمكن أن تمد لهم يد العون، فأجاب قائلاً باللغة المغولية: «باين، باين، باين!» [هي كذلك، هي كذلك، هي كذلك!]، ويعتقد الناس بأن روح جنكيز سوف تباركهم، فهذا المكان ليس بالغني، لكن كل عائلة تضحي، ويستفيدون من خلال عبادتهم لجنكيز خان».

وإذا ما حدث تقصير في ولاءاتهم، فإنهم يعانون، وذكر «الدرخاتي جورليجابDarkhat

Guriljab «في عام 1993: «كل أولئك الذين أساءوا لجنكيز خان وكانوا نشيطين في تدمير الضريح أثناء الثورة الثقافية هم الآن في عداد الأموات، وجميعهم في مثل سني تقريباً. لقد رأيتهم يموتون الواحد تلو الآخر، وجميعهم ماتوا بطرق غير طبيعية، فأحدهم أصيب بجلطة دماغية، ولم يستطع التحرك لثمان أو عشر سنوات قبل موته، وشخص آخر، تورمت رأسه ثلاثة أضعاف حجم الرأس الطبيعية، ومات بعد ذلك. نعم، هذا هو القصاص، لقد كان قاضي رايتنا السابق زعيم هذا الفريق من المتمردين، وفيما بعد اتهم بأنه عضو الحزب الثوري الشعبي لمنغوليا الداخلية، وضرب وقتل بمسمار طويل نفذ في رأسه، وماتت زوجته وابنته، وأصيب ولده بالجنون، وشخص آخر... سقط في حفرة سماد وغرق.

لقد كان لدى كل شخص حكاياته الخاصة التي تثبت قوة جنكيز، إذ قيل إن مجموعة من الجنود انتهكت أحد المحرمات بقتل اثنين من الثعابين في الضريح، فتحطمت عربتهم، مما أدى إلى مقتل ستة منهم، وقيل أيضاً إن شاباً سكر في حفل لشرب الخمور، فتبول بجوار السور، فماتت زوجته في تلك الليلة. كما قيل إنه بعد الثورة الثقافية أُهملت إحدى المراسم بطريق الخطأ، فمرضت الخراف وماتت، وكانت مثل هذه القصص تحمل رسالة، مفادها: كن محترماً! كن حذراً! إن جنكيز قوي في مماته كما كان في حياته!

وفي نهاية الأمر فإن جنكيز لم يكن كذلك، إذ لم يكن منتقماً، كما كان في حياته، إنما مَثَّل قوة من أجل الخير، وعلى حد تعبير «جوريلجاب»: «بالنسبة لنا نحن المغول الدرخاتيين، إذا ما واجهنا أية مشكلة أو أزمة أو ما شابه ذلك، فإن روح جنكيز تبقى فعالة لدرجة أن كل شيء يصبح صحيحاً، طالما أن روحه تمنح القرابين».

الفصل السادس عشر

صائدو القبور

فيما يتعلق بمسألة ضريح جنكيز، بات من حكم المؤكد أن حقائق قليلة فقط هي المؤكدة.

إذ يسجل «يوان - شيYuan - shi» في كتابه تاريخ أسرة «يوان» كيف كانت تتحدث مراسم الدفن الإمبراطورية، فعندما كان يصل الموكب إلى مكان الدفن، «كان التراب الذي يُزال لحفر الحفرة يُكتل حتى يتسنى ترتيبه بنظام، وحينما كان ينزل التابوت، كانت [الحفرة] تملأ بالتراب وتُغطى بنظام [من كتل الطين]، وإذا زاد شيء من التراب، فإنه كان يُنقل بعيداً إلى أماكن أخرى»، وكتب المراقب الأوروبي الراهب «جون دي بلانو كاربينيJohn Plano Carpini» الذي زار «كاراكوروم» في الأربعينيات من العام 1200 : «كانوا يملأون الحفرة..، ويضعون فوقها العشب كما كان في السابق، وذلك لكي يكون من المستحيل اكتشاف المكان بعد ذلك».

وبطبيعة الحال، فإن السؤال الذي يطرح نفسه، أين ربما حدث هذا في حالة جنكيز؟ فمن المحتمل أن الدفن حدث على أو بالقرب من المعبد الطبيعي للإله الذي أنقذ جنكيز من أعدائه، وهو«بورخان كالدون» الجبل الذي يتفق الجميع الآن على أنه «خان ختني» ملك «ختني»، وبالرغم من إن كتاب التاريخ السرّي لم يقل بأن «بورخان كالدون» هو موقع الدفن، إلا إن مصادر أخرى عديدة أشارت إلى ذلك. لكن السجل الوحيد شبه المعاصر الذي تناول هذه المسألة غامض بشكل يدعو إلى الغضب، ففي عامي 1235 و1236 أرسل بلاط «السونغ» وفداً إلى وريث جنكيز، وادعى الرسولان، «بينج تاه يو P'eng Tah - ya» و«شو تانغXu T'ing» أنهما شاهدا المكان الذي دُفن فيه الفاتح، إذ كتب «بينج» قائلاً: «إن القبور المغولية لم يكن عليها ركام فوق القبور، وكان يسمح للخيول بالدوس على المنطقة حتى تصبح مستوية تماماً مثل الأرض المحيطة بها». ما عدا موقع قبر «تيموجن» الذي انتصبت فيه أعمدة [أو سهام] على شكل دائرة من ثلاثين «لي16) » Li كيلومتر، ولا ندري إذا كان هذا يمثل محيط الدائرة أم قطرها، فالأمر غير واضح) كما وضع الفرسان لحراسة القبر» وأضاف زميله قائلاً: «شاهدت قبر تيموجن على أحد ضفاف نهر «لو - كوLu - kou» محاطاً بالجبال والأنهار، ووفقاً للتقاليد، فإن «تيموجن» وُلِدَ في هذا المكان ولهذا السبب أيضاً دُفن هنا، ولكني لا أعرف إذا ما كان هذا صحيحاً».

إذن لدينا اثنان من شهود العيان، بعد الدفن بتسع سنوات فقط، لكن ما الذي رأوه فعلاً؟ هل كل ما رأوه هو حظيرة رمزية ومجموعة من الحراس؟ هل وضح الاثنان معاً الدائرة البالغة ستة عشر كيلومتراً؟ وكيف يمكن لدائرة يبلغ مداها ستة عشر كيلومتراً ولخيول تدوس المكان وللماء أن ينسجموا مع مقبرة جبلية؟ والأكثر إثارة من كل هذا، ماذا كان نهر «لو - كو»؟ بعض الأنهار الرئيسة لها أسماء صينية تماماً مثل المغولية، وهذا النهر قريب جداً من نهر» لو - تشوLu - chu» وهو إحدى الترجمات لما كان يسميه الصينيون نهر» خيرلين». لكن، وكما يعرف جميع المغول، أن جنكيز ولد على نهر «الأونون» وليس على نهر «خيرلين» لذا فإن الزائرين لا يمكن أن يكونوا دقيقين تماماً في بحثهم.

وأغلب ظني أن هؤلاء الدبلوماسييَن طلبوا رؤية قبر جنكيز، دون أن يدركوا بأنهم يطلبون شيئاً من غير الممكن منحه، فموقع الضريح كان لا بدّ أن يبقى سرياً، وتحت حراسة مشددة حتى يحين ذلك الوقت الذي لن يستطيع أي شخص تحديد موضعه، ومن ناحية أخرى، سيكون من غير اللائق تجاهل طلب هؤلاء المسؤولين الرسميين بشكل كلي، لذا، سافروا لبضعة أيام من العاصمة «كاراكوروم» حتى وصلوا إلى جبال «خنتي»، ونقلوا إلى المنطقة الصحيحة تقريباً، وحصلوا على اسم النهر بشكل غير صحيح إلى حد ما، كما حصلوا على معلومات مشوهة - معلومات مشوهة بشكل رسمي، تقريباً - ورأوا بضعة حراس من على بُعد ويقال لهم إن دخول الموقع المقدس يُعد من المحرمات، وبأنه لا يوجد شيء ذو قيمة يمكن أن يروه على أية حال، لأن كل شيء سوي بالأرض وغطي الآن بالشجيرات.

لكن حتى مثل هذه المعلومات الواهنة بدأت تتسرب لتتحول إلى شائعات وأقاويل، إذ ذكر، «مارك بولو» الذي كتب بعد خمسين عاماً لاحقاً، بأن: «جميع الملوك العظام الذين ينحدرون من سلالة جنكيز خان نُقلوا من القبور إلى جبل كبير يدعى «آلتاي». وظهر الاسم نفسه مرة أخرى بعد أربعة قرون لاحقة تقريباً في تاريخ «ساجانجSagang» إذ كتب أن الجثة دُفنت بين الجانب المُظلل لجبل «آلتاي» والجانب المشمس من جبل «خنتي» ويعد هذا وصفاً مبهماً لا يقدم شيئاً ذا جدوى تقريباً، وكان على مؤرخي العصر الحديث أن يبدأوا بحثهم من نقطة الصفر تقريباً.

وربما تعد مسألة مكان وجود القبر إحدى المعضلات، لكن المعضلة الأخرى هي ماذا

كان يحتوي، هذا إذا كان يحتوي على شيء أصلاً، ومرة أخرى لم يكن الدليل واضحاً، إذ يقول، «جوفاني» الذي بدأ بكتابة تاريخه في العاصمة المغولية الجديدة «كاراكروم» فقط بعد موت جنكيز بخمسة وعشرين عاماً أنه بناءً على انتخابه من الأمراء المغول، أمر ابن جنكيز ووريثه «أوقطاي» بأنه: «ينبغي عليهم اختيار، من بين العذارى التي تشبه القمر في جمالها، والمبهجة في مظهرها والجميلة في شخصيتها، والجذابة في جمالها والجميلة في نظراتها... أربعين عذراء... لكي تزين بالجواهر، والحلي والثياب الجميلة، ويرتدين الثياب الثمينة ويُرسلن معاً مع الخيول المنتقاة للانضمام إلى روحه».

وهذا الأمر لا يُعد مستحيلاً تماماً، لأنها كانت عادة قديمة في الصين وعبر آسيا الوسطى قبل انتشار الديانة البوذية بأن يقتل الجنود العاديون والخدم والزوجات والموظفون والحيوانات ليرافقوا الحاكم في الحياة الآخرة، ففي مدينة «أنيانغAnyang» عاصمة أسرة «شانغShang «في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، يستطيع السياح أن يشاهدوا ضريحاً بأكمله من القبور مليئاً بهياكل عظمية للعبيد والخيول وبقايا العربات، وفي بعض الأحيان كانت الضحايا تُدفن أحياء، وهي عادة لم تكن ممنوعة بشكل رسمي حتى أواخر القرن السابع عشر، وذُكر بالتأكيد كما كان يُعتقد على نطاق واسع بأنه قبل وصول البوذية كان خانات المغول يدفنون مع دروعهم، وقطع من ملابسهم، وخليلاتهم وممتلكات أخرى.

لكن هذا الدليل غير صادق، فهذه الممارسات لم يسبق أن لوحظت عالمياً، مع حياة بُدلت دوماً بالآثار (مثل «جيش الطين» في «شيانXian «والنسخة المصغرة التي نشاهدها في متحف قويوان)، إذ إنه لم يُعثر على أي قبر مغولي يحتوي على ضحايا الفداء والكنوز، كما أن «ساجانجSagang «لم يدعِ أن العذراوات الأربعين اللاتي تشبهن القمر في جمالهن قد دُفنّ فعلاً مع خانهن، الأمر الذي سيعني نبش التابوت المدفون على الأقل قبل عام، مع كل المخاطر المتعلقة بالسرية التي اكتنفته.

وبالرغم من نقص التقليد والدليل، تبقى عقيدة لدى صائدي القبور بأن جنكيز لا بدّ أنه دُفن مع درع كاملة من الأسلحة والنساء والعبيد والخيول إضافةً إلى ثروات نصف «أوراسيا»، وأصبح القبر «كالكأس المقدسةHoly Grail «للباحثين عن الكنوز والمؤرخين، وبالتأكيد، ويفترض على نطاق واسع، أن ينافس قبر حاكم نصف «أوراسيا» قبر «توت عنخ آمون

Tutankhamun»، وفي الحقيقة، أن البحث لم يقتصر فقط على قبر واحد، بل على جميع المقابر الموجودة في وادي الملوك المغول، حيث دُفنت عائلة جنكيز وورثته، بما فيهم «قوبلاي» جنباً إلى جنب مع زوجاتهم وخليلاتهم وعبيدهم وخيولهم، كما أن السماء الخالدة تعرف ماذا يوجد هناك من ذهب وحلي وملابس وأسلحة يمكن للخيال استحضارها، ففي منغوليا، يعدّ جنكيز عملاً جيداً، ففي كل عام، تُسوق جولات المغامرة التي تعد الزائرين بإلقاء الضوء على حياة جنكيز من خلال رحلات إلى مسقط رأسه وحتى بامتطاء الخيول للذهاب إلى الموقع الذي دُفن فيه، بصرف النظر عن أنه لا يعرف أي شخص أو ما يمكن أن يكون بداخله.

إنه بحث ذو دلالة احتمالية كبيرة، فإذا كان القبر موجوداً فعلاً، وإذا ماعثر عليه، فإنه سيخلق ثورة في علم الآثار والثقافة والتدفق النقدي - وبما أن الصين تدعى بأن جنكيز يخصها - فإن هذا سيؤدى إلى ثورة في العلاقات الدولية أيضاً، إذ يوجد فعلاً جامعة باسم جنكيز خان ومركز للدراسات باسمه أيضاً. كما أن اكتشاف القبر سيكون علامة على بدء نهم شديد، جاذباً لأموال، سيكون معظمها على الأرجح بالدولار، التي ستسعد كل من المؤسسات الموجودة فعلاً، والمؤسسات الأخرى الكثيرة التي ستظهر بين عشية وضحاها، وستتنافس الجامعات وشركات السياحة من أجل الحصول على حق الانتفاع بالمكان، مع وجود الحكومة بوصفها الحَكم، في محاولة للاستيلاء على حصة من المال المتدفق لصالح الأمة، وقد تفشل في ذلك، نظراً للشغف الحالي بالتوجه نحو الخصخصة وانتشار الرشوة، وحتى الآن، لا تزال بعض الجهود العرضية تبذلها الحكومة المغولية لتؤكد سيطرتها على البحث، وهي مهمة بالغة الصعوبة، نظراً لأن تنظيم عمليات البحث سيعني إنفاق المال والحد من السياحة. كما أن الجهود المبذولة ستعاق أكثر من أي وقت مضى من أولئك الذين يدعون أن البحث نفسه هو تدنيس للمقدسات، إذ ما خطط له أن يكون سرّياً ينبغي أن يبقى سرّياً، وأنه على أية حال، ينبغي استبعاد الأجانب عن أمر مرتبط بجذور الأمة بشكل وثيق للغاية.

وتلتف جميع هذه العواطف حول موقع الوجود ذاته الذي، ناهيك عن موقعه، لازال محل خلاف. حللت المصادر التي تحدثت عن مكان الدفن من الكثير من العلماء البارزين، والذين اتفق معظمهم على أن الموقع الأصلي يقع في «الجانب المشمس» - الجانب الميمون

الجنوبي – من «سورخان كالدون Surkhan Khaldun» المعروف اليوم باسم «خان خنتي Khan Khenti » كما لمح إلى ذلك «ساسانج» لكنّه لم يقل ذلك بصراحة. لكن بعض الباحثين المغول المحترمين جداً لا زالوا يشككون تماماً في أن «بورخان كالدون» هو في الواقع ما يسمى اليوم بجبل «خان خنتي»، وحتى لو افترضنا أنه هو، فإن الجبل في الحقيقة هو سلسلة بقمتين (يبلغ ارتفاع إحداهما 2،362 والأخرى 2،452 متراً) ارتبطتا بنتوء ضخم بطول عشرين كيلومتراً. كما أن بوصلتنا دوماً تفترض وجوده، ويمكن أن يكون موجوداً في أي مكان على المنحدرات الجنوبية من كومة القش هذه، منطقة من شيء ما تقدر مساحتها بمئة كيلومتر مربع من ال[illegible]بلية المكسوة بالأشجار والهضاب الخثية وأودية ذات جوانب حادة ومرتفعات جرداء، وجميعها لا يوجد بها مسارات، ويصعب الوصول إليها، كما يصعب مغادرتها، وأقرب الطرق المعبدة موجودة في أقرب مدينة على بعد سبعين كيلومتراً وهي مدينة «مونغونمورتMongonmort».

وبالرغم من أن عدداً قليلاً من الأجانب ذهبوا إلى منغوليا قبل أن تصبح ثاني دولة شيوعية في العالم في عام 1924، ومن أنها أُغلقت بعد ذلك إلى حد كبير حتى الثورة القادمة في 1992، ومن تلك الظروف المروعة إلى حد ما، الشتاء المثلج، والصيف المليء بالمستنقعات، وبالرغم من كل ذلك، فإنه ليس من المستغرب أن ينجز القليل من العمل بشأن مسألة قبر جنكيز حتى فترة قريبة جداً.

وجاءت أول علامة من ألمانيا الشرقية من، «يوهانز شوبرتJohannes Schubert» من جامعة كارل ماركس ليبزيغLeipzig's Karl Marx University، الذي استكشف الجبل في رحلة استكشافية دامت لمدة أسبوع مع زميل مغولي يدعى، «بيرليPerlee»، وكان أول أوروبي يتسلق ذلك الجبل، ووصفه في رواية كشفت مدى صعوبة الوصول إليه ومدى صعوبة الرحلة، وكان ذلك في عام 1961، ولكنها تبدو كشيء من العصور الوسطى.

بدأ «شوبرت» رحلته من مدينة «مونغونمورت» كما يجب أن تبدأ الرحلات الاستكشافية، مع أربعة مغوليين محليين لقيادة قافلة من ثلاثة عشر حصاناً، شاقين طريقهم في طابور منفرد من خلال أشجار الصفصاف والشجيرات أثناء عبور جبل «خيرلين» والعودة منه – وهي رحلة قاسية بالنسبة لرجل يقترب من عامه الخامس والستين، وفي مساء اليوم الثاني، وبينما

كانوا يطاردون أحد الغزلان، سقط أحد الرجال ويدعى «دامبا Damba» وترنح عائداً إلى المعسكر بعد عدة ساعات في الظلام بذراع مصابة، وفي اليوم التالي، صادفوا ربوة مكسوة بالنباتات ومنهارة، بطول خمسة وتسعين خطوة وعرض خمسة وستين وارتفاع ثمانية أمتار، مما جعل «شوبرت» يتساءل: جبال وماء وغابة كثيفة، بالقرب من «بورخان كالدون» - هل يمكن أن يكون هذا هو قبر جنكيز؟ إلا إنه جزم أمره بأنه لا يمكن أن يكون، وذلك لأن هذا المكان بات من شبه المؤكد مقبرة «للهونيين» تذكيراً بأن المنطقة كانت مكاناً للدفن لعدة قرون قبل ظهور جنكيز.

ثم واصلوا التقدم نحو سلسلة من التلال الواقعة فوق نهر «البوغدBogd » (المقدس) وكان المرشدون يتعجبون من روث الدببة والمشاهد البعيدة لحيوانات المُوْظ (الأيائل كما هي معروفة في أوروبا)، وعند سفح جبل «خان ختني» كان هناك كومة مقدسة من جذوع وأغصان الأشجار، حيث وضع السكان المحليون أشرطة من الأقمشة، وقطعاً من الخبز، والسكر والروائب، وعلى ما يبدو أن الرفض الشيوعي، لم يؤثر إلى حد كبير على تقديس جنكيز. لقد خيموا هنا لليلة الثالثة، وأصر «دامبا» المصاب على الخروج للصيد، فسقط مرة أخرى وفي هذه المرة كُسر كتفه، فانطلق رجل آخر ممتطياً أحد الخيول عائداً لمسافة سبعين كيلومتراً إلى مدينة «مونغونمورت» بحثاً عن طبيب (وصل الفارس، والطبيب، والمساعد بعد ثلاثة أيام)، وفي هذه الأثناء، كان أحد الصيادين قد اصطاد أيلاً، ووصل جارّاً بعض القطع منه خلف حصانه، فقاموا بتقطيع اللحم وتسييخه على عيدان صانعين كباباً شهياً، مانحاً الجميع القوة اللازمة لتسلق اليوم التالي.

لقد كانت رحلة صعبة: غابة كثيفة وشجيرات كثيفة وأشجار متساقطة وحجارة متزعزة، وخلال كل هذا لا يوجد إلا ممرات للأيائل فقط، وبعد ذلك وصلوا إلى أرض مستوية مكسوّة بالنباتات، بها كومة مقدّسة أخرى، وقدران حديديّان كبيران بثلاثة أرجل وحاوية برونزية. كما كان هناك بلاط نصف دائري مبعثر في كل مكان، وقطع من أوانٍ فخارية، وقطع من السلطانيات الخشبية المطلية، ومسامير ومشابك، واعتقد «شوبرت» إنها بقايا المعبد الذي بناه الخان «كامالا Kamala» حفيد «قوبلاى» في أواخر القرن الثالث عشر.

وعلى منطقة أكثر ارتفاعاً، حيث أصبحت الأشجار أقل كثافة، وصلوا إلى منطقة مستوية

«مليئة بالحفر المبعثرة، الممتلئة بالصخور الضخمة التي نمت بينها الطحالب الهزيلة». (يرجى الانتباه لهذه الحفر، ستلعب دوراً هاماً لاحقاً)، وهنا ترجل المغول المرافقون «لشوبرت» لأداء طقوس التبجيل، وفي نهاية المطاف، وعلى القمة، صادفوا حقلاً مليئاً بالركام المقدس، الذي كان من بينه كومة رئيسة حيث وضع حولها قطع من الدروع ورؤوس السهام إضافة إلى أدوات متعدّدة لها علاقة بالديانة البوذية التبتية، وبدون أدنى شك، استنتج «شوبرت» بأن هذا المكان لا بدّ أن يكون جبل «بورخان كالدون» التاريخي، لذا، فإن قبر جنكيز لا بدّ أن يكون في مكان ما على هذه المنحدرات.

وهكذا نجد أن البحث ليس من اختصاص الهواة، لكن المغول أنفسهم لم يكونوا هواة على الإطلاق في البحث داخل بلدهم، إنما كانوا يفتقرون إلى مصادر التقنيات الحديثة المستخدمة في علم الآثار، وأصبح من الممكن الوصول إلى هذه المصادر فقط عندما فتح سقوط الشيوعية في عام 1990 البلاد للأجانب.

وكانت اليابان أول من اغتنمت الفرصة، وذلك من خلال إطلاق مشروع الأنهار الثلاثة، وهو المشروع الذي كلف بالمسح الراداري لعاصمة المغول القديمة «أفراجا»، ومنذ أن أرادت صحيفة «يوميوري شيمبن Yomiuri Shimbun» الداعمة للمشروع الذي سيستغرق أربعة سنوات (1990 – 1993) استعادة استثماراتها فيما يتعلق بالدعاية والإعلان، لم يكن هناك أي نقص في الدعاية، ووفقاً لمقدمة التقرير الذي كتبه عالم الآثار الياباني البارز، «ناميو إجامي Namio Egami» فإن الغرض المعلن للمشروع – العثور على قبر جنكيز – كان «هاماً للغاية وذلك لأنه ربما يشكل بداية لتاريخ جديد من العالم». لقد كان المشروع الذي سمي باسم الأنهار الثلاثة التي تنبع من أرض سلالة جنكيز – وهي نهر «الخيرلين» و«الأونون» ونهر «التول» – مهمة ضخمة مع ما يقرب من خمسين عضواً، إضافة إلى المجسات الأرضية، وآلات التصوير الرائعة، وأجهزة تحديد المواقع العالمية، والكثير من السيارات، وطائرة مروحية، ولمواجهة مثل هذا الالتزام المالي، عرضت الأكاديمية المغولية لمعهد العلوم الجغرافية دعمها.

وبدأ العمل في المشروع في ربيع عام 1990، منطلقاً منذ البداية بطريقة غير متقنة بشكل غريب، وبالطبع، كانت الزيارة الأولى لجبل «بورخان كالدون / خان ختني، وعند

الوصول إلى سفح الجبل، أعاد الفريق اكتشاف بقايا معبد «كامالا» وبعد أن هبطوا على قمة الجبل باستخدام المروحية لمدة ساعة، سجلوا وجود مئتين إلى ثلاثمئة كومة من الحجارة التي تستخدم كنصب تذكارية التي وصفها «شوبرت» (يبدو أنه لم يقرأ أحد من أفراد البعثة روايته). لم يجد الباحثون هناك أي أثر لقبر قديم هناك في الأعلى، ولا في أي مكان آخر في الحقيقة، الأمر الذي لم يكن مفاجئاً، نظراً لأن الدراسة كانت سطحية جداً، ولم يغامر أحدٌ منهم بالهبوط من القمة إلى أسفل الجبل أو بالصعود من الأسفل إلى القمة، لذا لم يشاهد أي منهم «الحفر» التي وصفها «شوبرت» الموجودة على مستوى متوسط من الجبل.

ومضى المشروع قدماً وعثر على مجموعة مدهشة من القبور والأدوات في مواقع أخرى خلاف «بورخان كالدون» دون أن تكشف ولو عن قدر ضئيل من قبور أوائل القرن الثالث عشر، ومن وجهة نظر جميع علماء الآثار، قدمت أربع سنوات من الأبحاث خدمة حيوية وذلك من خلال إظهار إلى أي مدى بقيت الطبيعة في منغوليا بعيدة عن تأثير الإنسان، ومع ذلك، لو حكمنا على المشروع من خلال الهدف الأصلي الذي انطلق لأجله، فإنه يعدّ مشروعاً فاشلاً تماماً، وبالكاد يمكن تبرير النفقات الضخمة من خلال تقديم مئات التقارير عن القبور التركية غير ذات الأهمية وتقديم وصف تفصيلي لكن ليس له صلة بالموضوع حول الريف كما لوحظ من خلال الأقمار الصناعية، وآلات التصوير الجوية والرادار، واحتاج فريق الأنهار الثلاثة لأن يُبْرِز «الآثار المدفونة تحت الأرض» التي كانت أشبه «بكنوز للعالم»، ولحسن الحظ، أثبتت منطقتان أنهما مجزيتين على نحو محتمل، وكانت إحداهما هي مدينة «أفراجا» العاصمة السابقة لظهور جنكيز، موقع هام، مجده تقرير مشروع الأنهار الثلاثة بخاتمة غير مدعومة وغير واضحة تماماً: «من المؤكد تقريباً أن قبر جنكيز خان موجود في هذه المنطقة». أما المصدر الثاني المحتمل «للكنز» فهو حقاً عجيب، سور حجري ضخم يحيط بجزء من سلسلة بطول ثلاثة كيلومترات في التلال المجاورة، وهو السور المعروف محلياً باسم «سور أليسغيفر Almsgiver's wall» ومن المؤكد تقريباً أنه لا علاقة له بجنكيز. لكن تقرير مشروع الأنهار الثلاثة قال بلا مبالاة بأنه من خلال الملاحظات الجغرافية والمقابلات (غير المفصلة) «يبدو أن جنكيز خان قد دُفن في مكان ما في [سور أليسغيفر]». كما أن هناك علامات أخرى من البحث غير المُتقن، ظهر اسم «يوهانس شوبيرتJohannes Shubert

««كواي. شوبيرتY. Shubert» وتحول اسم «جزيرة الريفCountryside Island «من كتلة من الأرض إلى اسم أمير كتب «كتاب التاريخ السرّي» و«نظم جنازة جنكيز خان»، وبالرغم من كل الأموال التي أنفقها المشروع، إلا إن موقعين مختلفين ادعيا أنهما يضمان القبر بنفس الحماسة، وتجاهل الموقع الأصلي، ولم يقدم أي دليل على الإطلاق على مكان دفن جنكيز، وبدون الإقلال من شأن النتائج الأخرى، فإنني أعتقد أن التقرير لم يكن سوى كلام هواة مرتجل، يصعب فهمه.

الإغفال الأكثر غرابة في التقرير هو الفشل في التحقق من موقع القبر المرجح، وهو مكان «الحُفر» الموجودة في جبل «بوركان كالدون» نفسه، ومر إغفال ذكر المعلومات المتعلقة بموقع القبر المرجح دون تعليق في تقرير المشروع، وكان ذلك أمراً محيراً، لأنه لا ينبغي لأفضل مشروع بحثي ممول أكثر من أي مشروع آخر على الإطلاق أن يتجاهل البحث في أكثر المواقع أهمية في تاريخ المغول بشكل يبدو غير مبرر، وينم عن عدم كفاءة أو تعمد، وفي الحقيقة، أخبرني العديد من الخبراء أن الإغفال كان متعمداً بأوامر من الحكومة، وعلى حد قول «باداماشBadamash» العالم اللغوي كبير السن الذي التقينا به في طريقنا إلى مدينة «أفراجا»: «قررت السلطات ألا يعثر فريق مشروع الأنهار الثلاثة على أي من القبور»، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الأوامر تعكس «نبوءة» مشهورة بأنه في حالة العثور على قبر جنكيز، فإن الأمة ستنهار، وقد أخذ البعض هذه النبوءة على محمل الجد، إذ قيل لي بأن أحد أعضاء المشروع المغوليين هُدد بشكل فعلي بالموت إذا ما بحث الفريق في منحدرات «خان خنتي» الجنوبية، وبطبيعة الحال، لا يوجد أي دليل على ذلك، وبالتأكيد لم يصدر أي اعتراف رسمي بذلك. لكن يمكن لكلمة هنا ولإشاعة هناك أن تكونا كافيتين، فالأمر برمته محكوم عليه بالفشل منذ البداية، وزرع شكوكاً دامت طويلاً بأن اليابانيين كان لديهم أجندة خفية، وبالتحديد إجراء دراسة مسحية سرية عن المعادن باستخدام الأقمار الاصطناعية، فالإشاعة والفولكلور والنقد الأجنبي والاعتزاز الوطني، كل هذا وصفة لخمر مظلم يدفع بأولئك الذين يشربونه إلى الجنون.

وهكذا انحل فريق الأنهار الثلاثة، تاركاً الطريق ممهداً لصائد القبور الأكثر حداثةً وتصميماً وربما الذي حظي بأكبر تغطية إعلامية، «موري كرافيزMaury Kravitrz» الخبير

المالي من شيكاغو. لقد كان «كرافيز» مولعاً بجنكيز ومنغوليا منذ أن قرأ السيرة الكلاسيكية لجنكيز التي كتبها «هارولد لامب» منذ أربعين عاماً خلت، ولديه الآن واحدة من أكبر مكتبات العالم حول هذا الموضوع. لقد خصص 5.5 مليون دولار، وأنشأ مجلساً استشارياً ووقع عقداً مع معهد الجغرافيا - المؤسسة نفسها التي دعمت مشروع الأنهار الثلاثة - للحصول على الحقوق الحصرية للبحث عن القبر، وأعلن عن هذا العقد بموجة إعلامية مثيرة في أغسطس من العام 2001.

وكان المكان الذي اختاره للتنقيب، «سور ألميسغيفر Almsgiver wall» أعجوبة في حد ذاته. لقد كان الموقع الذي اختير بشكل رائع، يطل على واد فرعي على جانب السهل الذي يمتد شمالاً من العاصمة القديمة «أفراجا» حتى قلب منغوليا، ويضم الكتلة الرئيسة من جبال «خنتي» من الغرب، وعندما وصلت أنا و»كيشيج» و«باتور» و«غويو» وجدنا موقعاً نقب فيه باحترافية عالية للغاية وبسرعة ونشاط كامل، حيث كانوا يعملون في رقعة محاطة بالسياج بها خمسة منازل خشبية أنيقة ذات غرفة أو غرفتين، وأربعة خيام وعدد كبير من العربات.

وخلف تلك الرقعة المحاطة بالسياج كان هناك سلسلة من التلال بارتفاع مئتي متر مكسوة بأشجار التنوب المبعثرة على نحو طليق، مع أنقاض من الصخور المنتشرة على ظهر الأجنحة الأكثر علواً والأشد انحداراً، وأهم ما يميز الموقع السور الضخم الذي يحيط بسلسلة من التلال على شكل نصف دائرة بطول ثلاثة كيلومترات، وسرت نحو قمة السلسلة وشعرت بالعجب، إنه مثال رائع من الحجارة الجافة التي بني منها السور، بارتفاع ثلاثة أو أربعة أمتار، ينحدر نحو الخارج، ويميل للخلف بضع درجات لغرض الصلابة مستنداً على كومة منحدرة من حجارة أقل حجماً، صانعاً حصناً مثلث الشكل تقريباً في مقطع عرضي، وفي الجزء الذي مشيت فيه، كانت الحجارة التي شكلت الحافة الخارجية قد قُطعت بشكل حاد، كما لو كانت قد رُفعت مباشرة من صخور صلبة، وكان بعض من هذه الصخور يمكن حملها من رجل واحد، بينما الغالبية العظمى تحتاج إلى رجلين أو ثلاثة رجال لرفعها، والقليل منها احتاج إلى فريق كامل، وفي تقدير أولي، ضمت الحافة الخارجية للسور الرئيس بضع مئات الآلاف من الكتل الكبيرة، مع عشرة آلاف متر مكعب من الحجارة الصغيرة كدعامات، وفي الحقيقة أن جودة البناء لم تستمر، فعلى القمة، لم يكن السور سوى كومة من الحطام تملأ الفجوات بين

كتل الصخور الضخمة والأعمدة، وبالرغم من ذلك، فإن هذا البناء العملاق بأكمله، الذي استغرق بناءه عدة سنوات، تطلب جيشاً صغيراً بما فيهم بعض الخبراء في بناء أسوار الحجارة الجافة.

ولكت ما السبب وراء وجود هذا السور؟ فهو لا يُعد حصناً، وذلك لعدم وجود بوابات أو دفاعات مناسبة، كما أنه سيكون من السهل على المهاجمين سحب حجارته المفككة، فالأحوال الجوية بمفردها أسقطت أجزاء منه على مر القرون، ولعدم وجود بوابة، من الصعب عدّه سور مدينة، لكن على أية حال، لقد كان مكاناً خاطئاً، لقد كان هناك الكثير من البلدات التي بنتها الثقافات المتعاقبة في منغوليا، لكنها بُنيت على السهول، حيث يستطيع السكان أن يشاهدوا ما حولهم، وهنا، في هذا المكان، غُلقت الآفاق بسبب القمم والأشجار، ووفقاً لأحد الاقتراحات الغريبة، يمكن أن يكون محمية طبيعية للحيوانات، لكن وجود سور ذي قمة مستوية يدعمه من الداخل منحدر مليء بالحطام سيكون من الصعب الاحتفاظ بداخله ببقرة معمرة.

وكان كبير المسؤولين في الموقع يدعى «جون وودزJohn Woods «أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة شيكاغو، وكان «وودز» بجسده الضخم كمصارعي الوزن الثقيل الخفيف، والقوي البنية بشكل كامل مع ستة من زملائه وعدد لا يحصى من العمال، جميعهم يحفرون ويجرفون ويرفعون ويزيلون الغبار من أربع حفر سطحية، وخطا «وودز» جانباً بعيداً عن «المِزْواة» ليخبرني عن سبب أهمية هذا المكان، «هناك مقابر في جميع أرجاء هذا البلد، مقابر من جميع العصور، منها ما هو مربع الشكل، ومنها ما هو دائري الشكل، ومنها ما يعود إلى «السكيثيين» ومنها ما يعود للعصر البرونزي، فهذا المكان يُعد جنة أثرية. لم يمسها بشر، ولم تُمس على الإطلاق، وبشكل خاص في فترة العصور الوسطى، إذ اهتم السوفييت بمواقع فترة ما قبل التاريخ، ولكنهم لم يجروا أبحاثاً حول القرون الوسطى لأنها كانت تُعد بالنسبة لهم فترة تراجعية في تاريخ البشرية، وحتى لو لم نجد شيئاً هنا، يكفي أننا أثرنا الاهتمام بهذا المكان ومنحنا الناس فرص عمل، وهذا مهم للغاية».

وكانوا قد عثروا بالفعل على أشياء لا بأس بها، بعض الفحم، وربما قطع من جمجمة. كما عثروا أيضاً على شيء ما أسود اللون، ربما يكون بقايا إنسان، لكن ينبغي أن يخضع للفحص

بالكربون المشع، وبدت الحفر الأربع وكأنها كُسيت بالحجارة، لكن من الصعب القول إذا ما كانت هذه الحجارة تشكل الأرضيات لأن كل شيء يميل إلى الانجراف نحو أسفل التل، وتبدو الصخور المتساقطة كبيرة كما لو كانت حجارة أساس.

وبالرغم من عدم وجود إجابات حتى الآن، إلا إن «وودز» كان لديه فرضية عمل، «هدفي الأساسي هو إثبات بأن هذا المكان هو مقبرة».

وتحمل كلمة مقبرة إشارات ضمنية لقبور ملكية، لكن لمن؟ تشير بعض المؤشرات حتى الآن إلى أن السور ربما يعود إلى عصر ما قبل المغول، وربما يعود إلى أسرة «لياوLiao » (التي يعود تاريخها إلى مملكة «خيطان»، من العام 947 وحتى العام 1125) بالرغم من أنه لا يعرف أحد مفتاح لغز وجود مقبرة أسرة «لياو» في هذا المكان الذي يشكل فيه المغول الأكثرية أكثر من أي مكان آخر. كما أنه من المستحيل عملياً تأريخ سور من الحجارة الجافة يقف بمفرده، ويمكن أن يكون قد بنته إحدى الثقافات الست التي يعود تاريخها إلى عصور «الهونيين» عدة قرون قبل الميلاد.

الأمر الذي ينقلنا إلى لب الموضوع، والخلافات المحيطة بالمشروع، ومن الواضح أن «كرافيز» الذي استخدم جنكيز كأيقونة لإثارة الاهتمام وجمع المال، تمنى أن يحفر في جبل «بورخان كالدون» لكنّه مُنع من فعل ذلك، وبالرغم من أن موقع سور «الميسغيفر» هو الخيار الوحيد، إلا إنه بذل أقصى ما في وسعه للاستفادة منه، ممنياً نفسه بآمال كبيرة بأن يكون جنكيز نفسه قد دُفن هنا، وعلاوة على ذلك، فهو يبعد فقط مسافة مئة وثلاثين كيلومتراً عن مدينة «أفراجا» وثلاثين كيلومتراً عن مسقط رأس جنكيز المحتمل، وتسعين كيلومتراً عن جبل «بورخان كالدون» على الحدود بين مخابئ الجبل والمراعي الغنية مباشرةً. لكن هناك العديد من الاعتراضات، لقد استغرق هذا البناء الضخم سنوات، هل لنا أن نفترض أن جنكيز خطط لبنائه سلفاً قبل سنوات كمكان لراحته الأبدية؟ وهل يمكن أن يُترك قبر سري في مثل هذا المكان الواضح؟ وكيف يمكن أن يتساوى تل صخري مع قبر في مرعى سُوّي بالأرض من جراء عدو الخيول؟

وحتى الآن، لا يوجد أي دليل على أن المكان به أو كان به شيء ذو علاقة بجنكيز على

الإطلاق. لكن لأن جنكيز كان ضمن جدول الأعمال الذي حُشدت لأجله الأموال وأُنتجت كل هذه الدعاية، كان وإلى حد ما لا بدّ أن يكون جزءاً من العملية، وبالتأكيد أن هذا الأمر توافق مع أحد أعضاء البعثة المغولية المدعو، «بازاغورBazagur» الذي أسس نوعاً من المهن لتسويق المواقع المرتبطة بجنكيز، والمشكوك في صحة الكثير منها، إذ أعلنت إحدى اللافتات الخشبية بأن هذا المكان هو «مكان العظماء كما حدد في كتاب التاريخ السرّي، [توقيع] بعثة جنكيز خان». لقد كانت هذه دعاية صارخة، لأن العبارة «مكان العظماء» في حد ذاتها مزورة، وهي موجودة فقط نتيجة لخطأ ارتكبه مترجم روسي في عام 1941 لكتاب التاريخ السرّي، الذي ترجم عبارة غامضة تشير إلى التضحية إلى مقبرة الأجداد، وأُعيد دمج سوء الفهم هذا في نسخة منغولية شعبية في عام 1947، وجرى ذلك في الوقت الذي هيمنت فيه الثقافة واللغة الروسية على الدراسات المغولية. لكن هذا الخطأ لم يصحّح أبداً، وكانت النتيجة أن موقع دفن جنكيز – على جبل «بورخان كالدون» هنا في سور «ألميسغفير» أو أي مكان آخر – يسمى عادة «مكان العظماء» من الأشخاص الذين من المفترض أن يكون لديهم معرفة أفضل، وكثيراً ما يعملون. لكن لا يوجد أي دليل على أن قادة المغول كان لديهم موقع دفن واحد لأسلافهم، ناهيك عن أن جنكيز قد دُفن هناك.

لقد تحولت حالة عدم الوضوح والجدل إلى عداء صريح، فأصبح العالم اللغوي «باداماش» غاضباً بشدة بسبب ما يقوم به فريق «كرافيز» إذ قال: «إنه مخطئ مئة بالمئة! مخطئ في كل تقديراته، نظرياً وأخلاقياً، من السابق لأوانه حفر قبر جنكيز، ولن يعثر عليه على أية حال، لأنه لا يزال سراً من أسرار الدولة، وبالتأكيد ليس موجوداً داخل سور «ألميسغيفر» الذي يعود إلى عصر مملكة «خيطان» التي سبقت جنكيز بفترة طويلة».

ومن سخرية القدر، أن الدعاية على وجه التحديد التي بدت حول جنكيز هي التي أوصلت تنقيب «كرافيز» إلى نهاية مفاجئة بعد أن وصلت إلى هناك في صيف عام 2002 مباشرة، إذ شعر كبار المسؤولين بسخط شديد لأن الأجانب أصبحوا يتدخلون في أكثر المناطق قدسية في منغوليا، بالرغم من عدم وجود دليل على أن سور«ألميسغيفر» كان مقدساً بالنسبة لأي شخص أو أي شيء له علاقة بجنكيز، وفي نهاية المطاف تلقى فريق «كرافيز» أمراً بالمغادرة، على الأقل، هكذا ذكرت الصحافة، ببعض الغبطة. «دعونا نحترم أسلافنا!» هكذا أعلنت

الصحيفة المغولية اليومية «يونين Unen» (أي صحيفة الحقيقة) في مقابلة أجرتها في السابع عشر من أغسطس مع «وودز» الذي كان آنذاك في طرق عودة إلى أرض الوطن، وتضمنت المقابلة وجود بعض المعارضة السياسية الحقيقية، وإن كانت غير واضحة:

المراسل: من أوقفك؟

وودز: لا أعرف من بالتحديد، ولكني أعتقد أن الحاكم الإقليمي تقدم بطلب إلى الحاكم المحلي في الثاني والعشرين من يوليو.

لكن فلنستمع إلى «كرافيز» بالرغم من أن الحقيقة مغايرة تماماً. ماذا عن الحظر المفروض على الحفر في «بورخان كالدون»؟ أجاب بالقول: هذا هراء. لقد كان لديهم كامل الحقوق للحفر في أي مكان يريدون، بما في ذلك «بورخان كالدون» وقد اختاروا سور «ألميسغيقر» لأنه أفضل مكان للبحث، والحفر توقف بسبب نهاية الموسم، هذا هو السبب بكل بساطة، وكل حديث عن جدل سياسي أو معارضة محلية إما أنه غير صحيح، أو تعومل معه، أو ليس ذا أهمية، وبغض النظر عن دافع «كرافيز» والدعم المالي، وبصرف النظر عن أهمية الموقع التي لا يمكن نكرانها، وعن التزام الفريق بإشراك علماء الآثار والمؤسسات المغولية، إلا إنني لدي شعور بأن أية معارضة ستتلاشى، وأن فريق «كرافيز» سيعود، بأهمية، ومفاجآت مذهلة جديرة بالمتابعة فعلاً.

لكن هذه المفاجآت ستأتي من سور «ألميسغيفر» وليس من «بورخان كالدون»، ولكنني لن أراهن حول قبر «جنكيز خان».

الفصل السابع عشر

فوق الجبل المقدس

لقد بدا جبل بورخان كالدون - خان خينتي - من بعيد مكاناً يمكن الوصول إليه فعلاً، فهو ليس بالجبل الشاهق جداً ويبعد عن أولان باتور مسافة مئتي كيلومتر فقط، وهي مسافة يمكن قطعها بالسيارة في يوم واحد، ولكنني عندما ناقشت فكرة تسلقه مع الأشخاص الذين كانوا يعرفونه، بدأت الرؤوس تهتز والشفاه تُزم، فقد كان هناك طريق للوصول إليه يبلغ طوله ثلاثين كيلومتراً، فوق طبقات الجليد الدائم، التي ذابت في فصل الربيع محولةً الطريق إلى مسارٍ موحل، وفي الصيف، خلقت الأمطار الدائمة منه طريقاً يستحيل عبوره، فأقلعت عن التفكير في هذه الفكرة.

لكن لاح لي بصيص من الأمل تمثل بالرحيل إلى أفراجا، إلى مسقط رأس جنكيز المحتمل والى البحيرة الزرقاء حيث من المحتمل أنه توج هناك إذ تبقى لنا يوم أو يومان لإنجاز المهمة. فعندما كنا نخوض نهر «الخيرلين Kherlen» لمسافة مئة وخمسين متراً من المياه الضحلة سريعة الجريان، رأيت كم كنت قريباً من تحقيق الحلم، وكانت عربة «الأوز» في منتصف النهر، حيث كانت المياه تجري على عمق مترٍ واحد، وشقت المياه طريقها إلى المحرك فأوقفته، فتعامل «كشيغ Khishig» السائق ذو الرقبة والأذرع التي كان بهما ندبات جراء انفجار موقد لحام، مع هذه الحادثة الريفية العادية بأعصاب باردة، فإمّا أن يجف المحرك أو لا يجفّ، وإن لم يجف المحرك، ستظهر عربة أخرى أو فارس، أو سيذهب «كشيغ» لطلب المساعدة، أو شيء من هذا القبيل، وعلى أية حال، سيحلّ السكون في الدقائق القليلة القادمة، ولن يكون هناك أي صوت سوى صوت المياه المرتطمة أسفل أرضية العربة مباشرة.

وهنا لاحت لنا فرصة لمعرفة أين كنا بالضبط، بكل طريقة ممكنة، فبينما فسّرت «غويو Goyo» قراءات جهاز الماسح الضوئي لتحديد المواقع العالمية GPS، فتحت الخارطة، وبالفعل أخبرتنا الإحداثيات في أي جزء من النهر كنا نقف بالضبط، فتتبعت مجرى نهر الخيرلين على الخارطة، فهناك، كان يقبع جبل بورخان كالدون، على بعد ستين كيلومتراً إلى الشمال، على بعد وثبة وقفزة فقط من نهر الخيرلين نفسه، وهي مسافة لا تُعد بعيدةً على الإطلاق، إضافةً إلى أن الأيام القليلة السابقة كانت جافة، وسيكون عدم رؤيته خطأً كبيراً أو

على الأقل الاقتراب منه بقدر ما أمكن.

وبعد مرور خمس دقائق بدأ المحرك في الدوران مرة أخرى، وعلى الجانب الآخر لنهر الخيرلين، عند منبع النهر، كانت وجهتنا لهذه الليلة، وهي معسكر خيام، وهنا أمكنني الحصول على مشورة مفصلة من مالك المعسكر، غانسوخ Gansukh، الذي كان يُوسع عمله السياحي في الريف، وعلى الفور، أصبح العائق الرئيس واضحاً، وهو الذباب، ففي جبل خنتي كان الصيف الرطب سبباً في تكاثر الذباب، وكان هذا الصيف رطباً جداً، خالقاً مراعي خصبة للذباب الصغير المزعج ولذباب الخيل المفترس الذي يمتص الدم من الخيول ويجبر الناس على البحث عن حماية داخل الخيام الممتلئة بدخان روث الحيوانات، وفي الخارج كانت الأيادي تلوح باستمرار لطرد الذباب، وربما كنت أنا وغانسوخ Gansukh نتواصل بالإشارة أيضاً، فإن لم يوقفني الوحل، سيوقفني الذباب.

وعلاوة على ذلك، فالمسافة التي تبدو ليست ببعيدة لطائر العقاب تبدو مسافة لامتناهية بالنسبة لأجنبي ليس لديه خبرة وفي عجلة من أمره، فالمسار، إذا كان سالكاً، سيؤدي إلى مستنقع، يقودنا مباشرة إلى نتوء يربط بين تلتين ويفضي من خلال مستنقع آخر إلى أحد الأنهار، ومن ثم كان هناك عشرون كيلومتراً يجب قطعها قبل الوصول إلى قاع الجبل، فردَدْت محاججاً بأنّ الناس بالرغم من ذلك يذهبون إلى هناك كل عام تكريماً لجنكيز. نعم إنهم يقومون بذلك، لكن المغول يذهبون على ظهور الخيل ويسيرون ببطء في جماعات، وبالنسبة لي، سيكون ذلك كابوساً منطقياً. لقد كان ذلك كله داخل حديقة خان خينتي الوطنية Khan Khenti National Park المهجورة، فلم يكن هناك في الجوار أيّ رعاة ليوفّروا الغذاء والمأوى، ولا يوجد أي ضمان لوصول سيارة إلى هناك، وإذا اخترت السفر بالخيل، فيجب استئجارها من بلدة «مونغونمورت Mongonmort» التي تقع على بعد سبعين كيلومتراً من الجبل، الأمر الذي يعني أن الوصول إليها وحده سيستغرق يومين، والذي بدوره كان يعني أن الأمر برمّته كان يتوجب تنظيمه قبل أسابيع، كما سأحتاج إلى مرشد وشخص آخر للاعتناء بالخيول إضافةً إلى الطعام والخيام، التي ستستلزم جواداً رابعاً لحملها، وستكون هذه العملية كبيرة وبطيئة بما فيه الكفاية ليعرف المجتمع بأَسْره بشأنها، وبما أن بورخان كالدون كان جزءاً من حديقة وطنية، فإنني بحاجة للحصول على تصريح رسمي، وإذا ما حاولت ورفقائي

الثلاثة الاقتراب بعربة «الأوز» فسأنتهك قدسية محرم محلي، كما أن النتوء المرتفع الذي توجب السفر عبره كان يحرس أرضاً قُدست منذ أمدٍ بَعيد قبل وصول الديانة البوذية، وكان من المفترض ألا يعبره أي راهب بوذي، ولا النساء أيضاً، وفي هذه الحالة ستضطر «غويو» إلى البقاء على التلال، فمن الأفضل ترك الفكرة برمتها.

ولكنني لم أستطع فعل ذلك، وكان عليَّ محاولة إلقاء نظرة من بعيد على جبل جنكيز المقدس، وسنفعل بذلك ببساطة وبشكل مباشر وسريع، آملين أن يحالفنا الحظ.

وفي صبيحة اليوم التالي، انطلقنا صوب الشمال عبر مسارات سيارات مرقّعة ومنازل وأسوار «مونغونمورت» ذات اللون البنّي الداكن، وبدت هذه البلدة مثل الغرب القديم قبل إنشاء الطرق والأسوار، وأطلق عليها اسم يناسبها: نحو الحصان الفضي، وبعد ذلك بساعات قليلة، كان هناك فرحة فاقت فرحة السفر على ظهور الخيل: إذ طردت الرياح التي هبت عبر النوافذ الذباب بعيداً وانطلقت عربة «الأوز» بسهولة ويُسر عبر الأراضي المُعْشَوشبة الواسعة، وشق نهر الخيرلين طريقه الملتوي بشكل جميل بين أشجار الحَوْر وأشجار البتولا لمسافة كيلومتر واحد، وكانت الجبال تزداد قرباً منا.

ثم توقفنا لتناول الشاي عند إحدى الخيام، آخر موطن مأهول بالسكان قبل الوصول إلى حديقة خان ختني الوطنية، وعندها تلقينا تحذيراً بسيطاً بأن هناك معضلة بانتظارنا، فجلسنا على مقعدٍ على الجانب الأيسر من الموقد الرئيس، المكان المعد للضيوف، ولاحظت وجود صورتين وسط الصور التي تحتل اليوم مكان الآلهة المنزلية في عائلات الخيام، وكانت إحداها صورة «لستالين» في هيئة «العم جو» اللطيف، وكان الروس قد تخلوا عن منغوليا بسرعة وبشكل وحشي في أوائل التسعينيات لعام 1900، إذ رفضوا الشيوعية بالكامل لدرجة أنه كان من المستغرب رؤية أي أثر لما كان محترماً في القِدم، وكانت الصورة الأخرى لجنكيز خان رسمها طفلٌ بلغ الثانية عشر من عمره عندما كان في المدرسة. هل كان هناك رابطٌ بين هاتين الشخصيتين ذوات النفوذ والسلطة؟ لكن الفكرة ماتت في مهدها وتبدّدت جراء سماعنا لصوت عَدْو الحوافر وصرخة تحذير:

«ذئب! ذئب يهاجم الخراف!».

وفي ثوانٍ معدودة، التقط شخصٌ بندقية وهرع أربعتنا ورجلان آخران إلى داخل العربة، وبلا شك أن هذه كانت مشكلتنا أيضاً، وذلك لأنه لم يكن لدينا سوى العربة لنقدمها مقابل الضيافة. ثم وصلنا إلى القطيع، بضع عشرات من الأغنام والخراف تناثرت في مسافة حذرة - جميعها باستثناء كومة صغيرة ملقاة على الأرض، ولم يكن هناك بالطبع أي علامة على وجود الذئب، وكانت الكومة التي تئن من الألم عبارة عن حمل صغير، وكانت الدماء تتدفق من جرح في بطنه، وتفحّصه الرجلان، فوجدا أن الجرح كان بالغاً وكانت أحشاؤه ملقاة على العشب، وكان شبه مأكول، ومن الواضح أنه سيموت في القريب العاجل.

وأوضح أحد الرجلين قائلاً: «سنتركه هنا، فالذئاب تعود إلى فريستها، وعندئذ ربما يمكننا قتله».

لذا كنت أعتقد أنه ربما يستخدمون البندقية، لكن بدلاً من ذلك أخرج أحد الرجال مطواة، وشق تجويف الصدر بالنصل ببطء وثبات، وأدخل يده في تجويف الصدر وانتزع قلب الضحية، لكن الحمل الصغير لم يبدِ أية شكوى، وعلى ما يبدو أنه لم يكن يشعر بأية آلام أخرى، وانتهت العملية في بضع ثوان بهدوء غريب وتأثير مدهش بالنسبة لشخص غريب مثلي.

بعد عشر دقائق من عبور الأمواج العشبية، ميز برج مراقبة خشبي المدخل لألف ومائتي كيلومتر مربع من البرية، وكانت الجبال ترتفع لحوالي ألفين وخمسمئة متر فقط، مبرزةً القمم الجرداء أعلى الغابة مثل رؤوس الرهبان المحلوقة، لكن المسارات كانت قليلة والزوار أقل ولا وجود للسكان، وكانت هذه المنطقة موطن الغزلان وحيوانات الموظ والدببة والذئاب، وهي الأنواع نفسها التي تسكن غابات الصنوبر الممتدة شمال سيبيريا، ولم تكن بالطبع فارغة دوماً، وذلك لأنها جزء من قلب منغوليا ومنبع الأنهار الثلاثة التي كانت جزءاً من الهوية المغولية، فقد كانت الوديان التي يصعب الوصول إليها - حيث تنمو أزهار الصفصاف وبقع المراعي الهزيلة بسرعة في غابات التنوب والصخور الجرداء - ملاذاً لعائلة جنكيز عندما كان صغيراً وبقيت منذ ذلك الحين كمراعٍ مؤقتة وأراضٍ خصبة للصيد، وأعلنت المنطقة أخيراً حديقةً عامة فقط في عام 1992 وتُركَت الطبيعة لتأخذ مجراها. لقد جعلتني المواجهة الأخيرة أتساءل ماذا سيكون مصيرنا لو تعطلت عربتنا في هذه المنطقة الخالية من السكان؟

أخذت الجبال تتعاظم، مجبرةً المسار عبور نهر الخرلين من فوق جسر خشبي متين بشكل ملحوظ، فكان حجمه الضخم مؤشراً على أهمية الطريق، إذ كان الطريق الوحيد المؤدي إلى جبل بورخان كالدون والطريق الوحيد للمسؤولين الحكوميين لزياراتهم إلى السفوح المقدسة من حين لآخر، وحالفنا الحظ، فالأمطار الأخيرة هطلت وتوقفت قبل بضعة أيام من وصولنا، وكان المسار المتفرع من الجسر جافاً تقريباً، إذ قادنا عبر أزهار شجيرات الصفصاف التي تنحدر بلطف باتجاه النهر، التي تتخللها أشجار الصنوبر المحترقة، وهي بقايا سوداء وشائكة نتيجةً لحرائق الغابات التي اندلعت قبل ثلاثة أعوام، وصدح «باتور» بأغنية بصوته العالي والدقيق، مغنياً لجبال الخنتي، ووثب ظبي خلال أشجار الصفصاف المرنة، كما لو كان يرد على أنشودة شاماني. لقد كنا بمفردنا في برية محضة، وكان المسار هو الإشارة الوحيدة على وجود الإنسان، إذ كانت السيارات تمر به مرة أو مرتين في الأسبوع، كما يتبيّن من الأعشاب المسحوقة. ما الذي جاؤوا من أجله؟ هل جاؤوا لمجرد تقديم القرابين لجنكيز؟

وكان المسار يتقدم باتجاه سلسلة تلال منخفضة.

فقال باتور: «إنه المكان الذي يطلقون عليه اسم «العتبة Threshold» لكن هذا ليس اسمه الحقيقي».

فسألت: «ما اسمه الحقيقي؟».

فقالت غويو بصوت خافت: «إننا لا نذكر اسمه، وحتى أننا لا نشير إليه أيضاً»، وذلك لأن الكثير من الأماكن المقدسة، وفي العادة الجبال، لها أسماء محرم عليهم ذكرها.

فقلت لغويو ببلادة: «يمكنك إخباري به، فأنا كاتب».

فترددت غويو ثم تمتمت بالاسم، وهي ثقة من الوقاحة انتهاكها، وبعد ذلك استوى المسار لمسافة وجيزة ثم انتهى، كما لو كان يعاقبنا على جرأتنا، بعلامات عجلات مشوشة حيث غاصت السيارات ودارت بسرعة حول محور عجلاتها بعمق، وكنا على حافة مستنقع صغير تكون من المياه الذائبة من المنحدر التي شقت طريقها قدماً، فغاص كيشغ وباتور في الوحل ليقدّرا إذا ما كان بإمكاننا عبور المستنقع والوصول إلى مسارات العجلات التي عادت من جديد بعد مسافة عشرين مترًا، ومن على يسارنا، شق نهر الخيرلين طريقه بين تلتين

منحدرتين. كما غزا الذباب السيارة وارتفعت درجة الحرارة.

فقالت غويو: «إنهم يقولون إنه ليس هناك مخرج من هذا».

فأثار عدم استعداد كيشغ للمغامرة غضبي وقلت: «لكن من الذين صنعوا هذه العلامات؟» لقد وصلوا إلى هناك واجتازوا هذا المستنقع».

فقال باتور: «لقد كانوا أفراداً من الحكومة وذلك قبل شهرين، فهم يأتون مرة كل ثلاث أو أربع سنوات وبصحبتهم الكثير من السيارات والحبال والرافعات وربما الجرارات» وفي الواقع، يمكن أن يكون قام بها «كرافيتز» وفريقه، الذين سلكوا هذا الطريق أيضاً في وقت سابق من الصيف، قبل بدء التنقيب في «سور ألميسغيفير Almsgiver's Wall».

وأضاف كيشيغ قائلاً: «إن علقنا في الوحل، فسنبقى هنا لعدة أيام. الطيور فقط يمكنها عبور هذا المستنقع».

لقد كان كيشيغ محقاً، إذ رأيت المكان الذي كانت العربات قد استدارت فيه وانسحبت، وكان إلقاء نظرة على هدفي المستحيل من على قمة المنحدر هو أقصى ما تمنيته.

وقادنا مسير سهل إلى سلسلة التلال وإلى مزار مقدس، وهو كومة مقدسة صنعت من جذوع أشجار الصنوبر يستند بعضها على بعض مثل خيمة مخروطية الشكل، غطيت جميعها بشكل متناثر بقطع بالية من الحرير الأزرق وزجاجات الفودكا، وقمنا بطوافنا الشعائري الثلاثي، وكان ذلك طريق الدخول - الطريق الوحيد - الذي لا بد أن جنكيز فر من خلاله إلى بر الأمان، والطريق الذي وصل من خلاله تابوته، إلى أسفل الوادي الفسيح وتم الاحتفاء به بشمس منتصف النهار. كما تدفق هناك نهر الخيرلين صانعاً منعطفاً حاداً حول تلة مغطاة بركام الحجارة عرفت محلياً باسم أنف جنكيز، وهناك، إلى الخلف، برزت الجبال التي أردت كثيراً استكشافها، وبالتأكيد كان إحداها، جبل بورخان كالدون، الذي لم أستطع تحديده، إذ كانت الجبال مثيرة وبعيدة كالسراب، وذلك لأن الأرض انحدرت من تحت أقدامنا بشدة في فوضى مروعة سببها نسيج النبات المتفحم الذي مزقته عجلات العربات، وحتى بدون غويو التي كانت هلعة بشكل واضح بشأن انتهاك حرمة مواصلة النساء بعد هذا المكان، وحتى إن سلكنا الطريق الصاعد البعيد الذي يستحيل عبوره، فإن الهبوط شديد الانحدار لمسافة مائتي

متر من الخُث المخدد إلى الوادي الذي يقع خلفه سيكون درباً من الجنون، فماذا سنفعل بعد ذلك؟ فلن يكون هناك مخرج من ذلك، وعلاوة على ذلك، كانت عاصفة تقترب وتدور فوق الجبال المقابلة لنا، وبمجرد أن عدنا فارين إلى العربة، اختفى الوادي والجبال مع آمالي تحت ستارة من الغيوم والأمطار الغزيرة.

فعدنا إلى أولان باتور، وانتابني الغضب لحظي السيئ وذلك لأنني كنت قريباً جداً ومع ذلك أصبحت بعيداً جداً! ولم يتبقَ لي سوى ثلاثة أيام لإنجاز المهمة، وهنا وثبت فكرة مستوحاة من الإحباط في ذهني، وكانت فكرة مجنونة نوعاً ما، لكنها تستحق المحاولة، فقد علمت أن السيارة بإمكانها الوصول إلى ما يسمى بالعتبة، ومن هناك، يتبقى فقط ثمانية عشر أو عشرون كيلومتراً للوصول إلى جبل بورخان كالدون، ولن يكن هناك حاجة للخيول، فبإمكاني عبور هذه المسافة سيراً على الأقدام، وكل ما كنت بحاجة إليه هو رفيق وخيمة وبعض الطعام. مسيرة طويلة لمسافة عشرين كيلومتراً، وليلة على سفح جبل بورخان كالدون، ثم العودة لمسافة عشرين كيلومتراً - لمَ لا، إذ يمكن القيام بها في يومين أو ثلاثة أيام على أقصى تقدير، فطرحت الفكرة على «غراهام تايلور» الأسترالي الذي نظم الرحلة حتى الآن، وقدّرت كلاً من نصيحته - فهو رحالة بحد ذاته وأهل لذلك وذو خبرة وطموح وصراحة - ومعارفه الذين أصبح واحد منهم مصدر إلهام على نحو غير متوقع.

عمل «إيغور دي راشيولتس» في قسم المحيط الهادئ والتاريخ الآسيوي في الجامعة الوطنية الأسترالية في «كانبيرا» وكان رائداً في هذا المجال، وبما أنه كان نائب رئيس الجمعية الدولية للدراسات المغولية، كان له وجهة نظر ناقدة بشأن كل من مشروع الأنهار الثلاثة ومغامرة «موري كرافيتز» وعلاوة على ذلك، فقد تسلق جبل بورخان كالدون بنفسه، وفي هذه اللحظة رد على الفور على طلبي، مرسلاً إليَّ عبر البريد الإلكتروني بحثين غير منشورين حول ضريح جنكيز وزيارته التي قام بها للجبل قبل خمسة أعوام، وبقراءة سريعة لهذين البحثين بدا أن تسلق الجبل نفسه ليس بالأمر الصعب، هذا في حالة وصولي إلى نقطة الانطلاق فقط.

واتضح لي أن المرشد «غراهام» لم يكن على الجبل مطلقاً، لكنه كان قائداً سابقاً في سلاح الدبابات بروح لا يمكن مجاراتها، وأضفى عليه قميص «تان تان في التبت» وقبعة جندي أسترالي - أهداها إياه سائح أسترالي - جوّاً من التفاؤل المرح، إذ كان اسمه وحده

كفيلاً بخلق الثقة: «تومين» الذي يعني «عشرة آلاف» وهو لقب أكبر الوحدات العسكرية في جيش جنكيز، وقابلته مرة واحدة تقريباً مصادفة من تلك المصادفات التي تميز الحياة في منغوليا، فعندما ترك الجيش عمل في شركة للنفط في حقل زونبايان Zunnbayan في جنوب صحراء غوبي، في إحدى آبار النفط التي أدارها الروس ذات مرة ثم استولت عليه شركة أمريكية صغيرة، تدعى نسكور Nescor، التي استضافتني في رحلة سابقة، وكنا نعرف الأشخاص أنفسهم وكنا قد افتقدنا بعضنا بعضًا منذ بضعة أشهر فقط، وكان قد تعلم اللغة الإنجليزية في زونبايان إذ تم تعيينه كمترجم هناك وفقاً للترتيب التالي: العمل أولاً ثم اللغة، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنه لم يشرع في تعلم اللغة الإنجليزية حتى بلغ من العمر أكثر من ثلاثين عاماً، فإنه امتلك براعة مذهلة، وكان العضو الثالث في فريقنا هو سائق عربتنا رباعية الدفع، إردنباتور Erdenebaatar («البطل الجوهرة»): نحيلًا مثل حيوان ابن عِرْس، وخبيرا بسيارة الجِيب الروسية الخاصة به كخبرة المقاتل بفرسه، واستمع كلاهما لخطتي المريبة - بشدة - التي تقتضي أربعين كيلومتراً من المسير الذي سيستغرق يومين دون إبداء ما كان يدور في خلدهم، واشترينا بعض علب المعكرونة والسلامي (نوع من السُجق) من متجر كوري وخيمة من محلات غراهام ثم انطلقنا معًا.

وبمجرد وصولنا إلى العتبة ومستنقعها المسدود، أظهر إردن Erdene خبرته، فتفحص المستنقع وركب سيارة الجيب مرة أخرى وانطلق بها بسرعة في عملية تمشيط واسعة ونشطة عبر شجيرات الصفصاف حديثة النمو، وبسبب وجود الفروع المرنة التي عملت كحصيرة فوق الأرض المهتزة، تحولت العقبة التي كان يتعذر اجتيازها فجأة إلى عائق صغير.

على القمة - وبعد أن أدينا الاحترام الواجب للكومة المقدسة - استكشفنا المنحدر، وهو مزيج حاد ووعر من أخاديد تصلبت بفعل الشمس وطبقة من الأرض يكسوها الخُث، فوافق إردن وتومين على عبوره، وسيكون العبور مثل عبور حقل ألغام الدبابات في مستنقع مُحدب، واستكشفنا أنا وتومين مناطق أكثر بعداً حتى وصلنا إلى نهر الخيرلين، ومن ثَم عدنا لتحميل أغراضنا استعداداً لمسيرتنا الماراثونية، وذلك عندما أشار تومين بصمت مدهش، فهناك - بعيداً على طول ظهر العتبة - كانت سيارة الجيب تتخبط فوق شجيرات الصفصاف، ثم هبطت باتجاهنا، سالكةً المنحدر في تعرجات كما لو كانت تمر في ممر شاهق.

ثم توقف إردن بجوارنا على سهل فيضاني وأوضح الأمر قائلاً: إنه عندما جاء الفريق الحكومي إلى هنا قبل شهرين، سلكت بعض العربات هذا الطريق، وكان إردن قد تبع مساراتهم، فقال إردن: «كان الأمر سهلاً، لكنه مليء بالمستنقعات، وهناك مكانان لم يمكنني عبورهما أثناء رحلة العودة».

وبصعوبة فهمت ما ورطنا فيه إردن والسبب وراء ذلك، فمن الواضح أننا لن نستطيع أن نسلك الطريق المباشر المنحدر عند العودة، أعلى العتبة مباشرة، والآن اكتشف أنه لم يكن هناك أيضاً أي مخرج خلال الطريق غير المباشر الأكثر اعتدالاً. لقد علقنا في ذلك المكان.

وثبّط هذا الأمر من عزيمة الرجلين على حد سواء، لامبالاة متناهية، فما حدث قد حدث، وما سيحدث سيحدث، ولم يكن بمقدورنا فعل أي شيء حيال ذلك سوى مواصلة ما كنا قد بدأناه، مع كون ذلك في صالحي وصالح تومين، إذ لم يعد هناك حاجة لقطع الكيلومترات العشرين التالية سيراً على الأقدام.

فنظرت إلى خارطتي متسائلاً: أين نحن الآن؟ فجبل بورخان كالدون يقبع أمامنا في مكانٍ ما، يحجبه نتوء فاصل من التلال، وقطع نهر الخيرلين الممر الذي كنا نسير فيه متدفقاً من جهة اليمين إلى اليسار ومن الشرق إلى الغرب، ووراء ذلك، مهّدت ثلاثة روافد السبيل للوديان باتجاه المرتفعات، فحدّقت بنظري في الأسماء التي طُبعت على الخارطة بأحرف صغيرة يصعب قراءتها، وأشارت رواية إيغور إلى أن علينا التوجه مباشرة نحو أعلى نهر «البوغد» النهر المقدس، وفعلاً، بدا أن النهر الذي كان على جهة اليمين هو نهر البوغد، واستطعت قراءة الحرف الأول «B» وحرف «O».

لكن في اللحظة التي عبرنا فيها نهر الخيرلين، أصبحت مشوش التفكير، فإن كان هناك جبال أمامنا، فستكون بأعداد كبيرة، وكان المسار لا يزال تظهر عليه آثار العربات الحكومية بوضوح، وكانت هناك لافتة تشير إلى الأمام مباشرة فوق السهل باتجاه نهر البوغد. لكن هذا النهر نفسه كان مشاراً إليه بوضوح على الخارطة باسم نهر الخيرلين، فكلاهما انحدرا من الحافة الكبرى لسلسلة جبال خان خينتي، لكن تلك السلسلة كانت تعلوها قمتان، وتعلو إحداهما الأخرى بتسعين متراً، وعلى الخارطة أدى النهر المسمى بنهر البوغد، النهر الذي

لم تشر إليه اللافتة، مباشرة إلى هذا المكان المرتفع، وبالتأكيد يتوجب علينا اتباع الخارطة والتقدم لأعلى نهر البوغد لنصل إلى القمة الأكثر ارتفاعاً من بين القمتين، التي يجب أن تكون جبل خان ختني نفسه.

وفجأة وبنوبة من جنون العظمة، فهمت الأمر بوضوح. ألم نكن نتجه صوب الموقع الذي أمر جنكيز نفسه بأن يبقى طي الكتمان، المكان الذي تم الحفاظ عليه بعناية من أعين المتطفلين على مدار الأعوام الثمانمئة الماضية؟ ألم يكن هناك تشوش دائم بشأن أي الجبال كان جبل بورخان كالدون؟ وما السبب وراء وجود المسارات واللافتات، إن كان هناك سر كبير وإرباك تاريخي؟ لقد كان الأمر برمته في غاية البساطة. لقد تم خداعنا بشكل متعمد ومريع، وكنا ضحايا مكيدة تضليل حكومية.

فناديت «تومين، نحن لسنا في الوادي الصحيح. أين ينبغي أن نكون؟» لقد كان تومين المسكين شديد الثقة بي لدرجة أنه لم يسبق له وأن طلب التحقق من قراءتي للخارطة.

فرد تومين «هناك في الأعلى، ليس الوادي التالي، إنما الوادي الذي يليه».

فسألت «وماذا علينا أن نفعل الآن؟».

لقد كان واضحاً تمام الوضوح لي ما ينبغي علينا فعله، فعلينا المسير عبر عدة أميال من شجيرات الصفصاف وخلال جزء من الغابة، ثم التحول في نهاية المطاف جهة اليسار والتوجه صوب أعلى التلة إلى القمة الأكثر ارتفاعاً، التي كانت تنبغي أن تكون جبل بورخان كالدون نفسه، واكتشفت بفخر من جديد صفات للقيادة في نفسي خُبئت منذ زمن طويل، فقلت: «سنتناول الطعام ثم نسير حتى حلول الظلام ومن ثم نُعسكر، وسنتبع نهر البوغد بقدر ما نستطيع وسنتسلق جبل بورخان كالدون إن أمكن، لكن سنعود بأية حال من الأحوال بحلول منتصف نهار الأربعاء، أليس كذلك؟

تركنا إردن بتعليمات مشددة، فكان عليه الانتظار هناك، إلا إذا أمطرت، وفي تلك الحالة فعليه التوجه بسرعة إلى العتبة وعبورها بأي شكل وانتظارنا على الناحية الأخرى، وإذا ما علق - كما تنبأ بذلك - فسنجده بسهولة كبيرة ونفكر فيما سنفعله مرة أخرى، وعلى أية حال، سنقابله في غضون يومٍ أو يومين.

فحملنا أنا وتومين أمتعتنا ومشينا بخطى واسعة على أفضل نحو ممكن، متعرجين خلال الشجيرات التي وصلت لخواصرنا، وخضنا عبر جداول مياه جانبية قالت خارطتي إنها كانت نهر الخيرلين وقالت اللافتة أنها كانت نهر البوغد، وبدأنا نتصبب عرقاً وغاصت قدماي في حذاء الجري الخفيف المرزز الذي امتلأ بالماء وحام الذباب فوق رؤوسنا وحاولت الهروب منه بالصعود لأعلى التلة عبر ألسنة غابة من أشجار التنوب، لكن الذباب كان بالقدر نفسه من السوء، وكانت الغابة عبارة عن كومة مبعثرة من الجذوع التي سقطت بفعل الحرائق التي اندلعت قبل ثلاثة أعوام، وبدأ تومين، الذي كان يحمل صرته وبطناً منتفخاً جراء الإسراف في شرب البيرة، بالتخلف عنا، وكلما استدرت ناحيته، كنت أراه غارقاً حتى خاصرته في شجيرات الصفصاف وكان الذباب يحوم حول رأسه مثل هالة تطوق الشمس الغاربة. لقد كان جحيماً بالفعل.

وبعد مرور ثلاث ساعات وصلنا إلى النهر الذي كنت أهدف إليه، وتجادلنا، في حالة من الكآبة والسخط، بشأن المكان الذي سنقيم فيه معسكرنا بين شجيرات الصفصاف وأفضل السبل لنصب خيمة منتفخة على نحو مرن وبأشكال غريبة، ثم بعد ذلك توجب إشعال النار، فقلت: أوه، نعم، لكن ماذا نشعل بالضبط؟ فرد تومين قائلاً: نشعل الروث، وكان هناك بالفعل الكثير من الروث الجاف مبعثراً بين الشجيرات، روث الغزلان كما افترضت، لكن أغصان الصفصاف الصغيرة التي استخدمناها لإشعال النار كانت مبللة ولن تشتعل.

فتمتم تومين، بينما تناوبنا على إشعال النار بعلبة الثقاب الوحيدة التي كانت معنا، قائلاً: «إنني أحمق، لقد نسيت البنزين».

فلم أخبره بما نسيت إحضاره (البوصلة) وهكذا سنكون في ورطة كبيرة، وذلك إذا ما استيقظنا وكانت السماء ملبدة بالغيوم، وتبقى حتى الآن عشرة من أعواد الثقاب، وأصبحنا نتنافس بشأن إشعال النار، وقمنا بطحن الأغصان الصغيرة اللعينة إلى صوفان (مادة سريعة الاشتعال) أصغر حجماً، حتى أنقذنا أخيراً الدخان المنبعث من الروث والظلام من الذباب.

فأخرجت طعامنا، علبة المعكرونة التي كنت قد اشتريتها من متجر كوري كبير في أولان باتور.

فسخر تومين من هذا الطعام قائلاً: «ما طعام النساء هذا؟ من اشتراه؟».

فكذبت قائلاً: «إن من اشترته هي غويو».

فقال تومين «ولماذا لم تسألني عن ذلك؟ أنا مغولي! وأريد أن أتناول اللحم!».

وفي نهاية المطاف، أصلحت بيننا المحنة المشتركة التي كنا نمر بها وطعام النساء، ثم خلدنا إلى النوم.

وفي الساعة السادسة والنصف من صبيحة اليوم التالي، تسللت إلى خارج الخيمة إلى التعقل والوضوح، وكان هناك شريط من الضباب الرقيق في الأسفل على طول الوادي، لكن الذباب لم يستيقظ بعد، وغمرت الشمس أشجار التنوب من الأعلى، وإذا كان هناك جبل في أعلى الوادي، فلن أتمكن من رؤيته بسبب أشجار الغابة العالية، فاستخرجت خارطتي وشرعت في التحقق بالمقابلة مع رواية إيغور، فقد توجه صوب خان خينتي، الأمر الذي كان يعني صعود النهر المسمى على خارطته بنهر البوغد، لكن خان خينتي كان بعيداً إلى جهة اليسار، بالقرب مما أسمته خارطتي الخيرلين، وفي هذه اللحظة كنت على ضفاف نهر البوغد، وبالتالي لا بدّ أن تكون القمة التي أمامي هي القمة الصحيحة.

لكنها لا يمكن أن تكون كذلك، إذ كانت بقعة جرداء خالية من الممرات، وليس هناك أية آثار تدل على مرور عربات أو خيول على الإطلاق، فرفعت الخارطة نحو الشمس المشرقة وحدقت بالنظر عن قرب وتذكرت وجود عدسة مكبرة في قعر صرتي، فنظرت إلى خارطتي بالعدسة المكبرة وصرخت أوه، يا إلهي، فلم يكن النهر في الأسفل مشاراً إليه باسم نهر البوغد على الإطلاق، فالحروف الصغيرة المطبوعة باللون الأزرق لم تكن ب - وo - B..، لكنها كانت ب - ا a - B... باغا وكلمة ما... باغا آر، التي كانت تعني «الحوض الصغير».

لا بد من القول إن تومين تفهّم الأمر بشكل جيد عندما بادرت بنقل الخبر السيئ إليه وهو أننا لسنا في الوادي الصحيح وأنه من الأفضل أن نعود إلى السيارة، وتناولنا كل الخبز الذي بلله الندى وحزمنا الخيمة التي انتقعت بالندى وانطلقنا هابطين إلى أسفل التل، وأفترض أنه كان نوعاً من الفرج أن نعلم بأننا سنعود إلى السيارة في القريب العاجل متجهين صوب الوادي الصحيح باتجاه الجبل الصحيح.

وكنا نتبع أرضاً منخفضة، حيث فسحت شجيرات الصفصاف الطريق للعشب الخشن، وعندها عثرت مصادفة على مجموعة غريبة من الحجارة، كلها تقريباً بحجم قبضة اليد، مُشَكلةً بقعة لا شكل لها بعرض متر ونصف، فربما أن شخصاً ما قد دُفن هنا، لكنّه بدا كمكان غريب ليكون قبراً، فهو بعيد عن الجبل وفي وسط سهل مليء بالمستنقعات، حيث ليس لأي شخص - الأمر الذي أصبح واضحاً للغاية الآن - مبرر ليأتي إلى هنا، كما كان شكله غريباً أيضاً، حتى إن افترضنا تأثيرات الأحوال الجوية على مدى القرون، ألا ينبغي لقبر أن يكون مكسواً بالأعشاب؟ فالحجارة كانت خالية من الأعشاب بشكل مثير للريبة، وبدا لي أنه من المرجح أنها قد غُسلت معاً بعملية طبيعية ما، فالتقطت صورة في مخيلتي، وتوقفت عن التفكير في ذلك اللغز، حيث بقيت حتى كان هناك داعٍ لاستردادها في وقت لاحق.

بعيداً عن الأشجار، تبعنا النهر الرئيس، الذي كان من الواضح أنه نهر الخيرلين نفسه، بغض النظر عما قالته خارطتي، متجهين نحو الغرب، وكانت الشمس تُجفف ظهورنا، وسيكون بإمكاننا في أية لحظة رؤية العربة حول جانبي المنحدرات الحرجية التي كنا قد عبرناها الليلة الماضية.

فجأة - وبعدما عدنا من التلال السفحية الغامضة وزرنا الوادي - رأيت أمامي مباشرةً هدفنا الصحيح والواضح، إنه جبل بورخان كالدون، جبل ملك الملوك، وهو عبارة عن نتوء رمادي اللون من الصخور البارزة بوضوح فوق الغابات المحيطة به، بارزةً مثل العضلات المفتولة، وكان من سوء الحظ الشديد أن غيمة أو تلة أو غابة قد أبقته مخفياً حتى الآن، وكونه قد كُشف النقاب عنه فإن هذا يعد أفضل مصادفة وقعت حتى الآن، ولمع بجانب القمة بقعة بيضاء وحيدة جعلتني - من على بعد خمسة عشر كيلومتراً - أتساءل عما إذا كان شخص ما قد أقام خيمة هناك أو أنها كانت نوعاً من الأكوام المقدسة.

لو أن الأحوال والظروف كانت مناسبة، لتقدمنا على نحو جيد في طريقنا. لكن الظروف والأحوال لم تكن كذلك، إذ كونت جبال الخينتي شيئاً ما بغيضاً للغاية، فبالرغم من أننا كنا في ضوء الشمس الساطع، وكذلك كان جبل بورخان كالدون، كانت السماء من الناحية الغربية تغمرها طبقة من الغيوم القاتمة بلون أرجواني داكن، انتشرت فوق التلال واندفعت باتجاهنا في قعقعة حلقية، مثل قعقة دراجات «هارلي ديفيدسون» البخارية التي تنتظر في ضوء الإشارة

الحمراء، ولا عجب في أننا لم نرَ السيارة، فلا بدّ أن إردن قد رأى وسمع ذلك وفر إلى العتبة، ومن الأفضل أن نحذو حذوه.

وعندما غابت الشمس كنا على بعد مسيرة عشر دقائق من العتبة، وتحول هدير الدراجة النارية ليصبح مثل مدفعية الجبهة الغربية وتفتحت السماء، وتقلّص عالَمي ليصبح عالماً من الضبابية، وسحبت بسرعة معطف المطر والكاميرا وجهاز التسجيل ودفتر الملحوظات من الصُرة وألقيت نظرة على تومين، فلم يكن يرتدي أي شيء يحميه فوق قميصه المُطبع برسومات «تان تان في التبت» ولباسه الرياضي سوى قبعته الأسترالية، التي تدفّقت منها مياه المطر كسقف بلا مزاريب.

في الممر، لم يكن هناك أية علامة على وجود إردن أو السيارة، ولا بدّ أنه نقلها إلى الجانب الآخر بطريقة ما، ومثل هذا الأمر خبر سار في كوننا خرجنا من هنا، لكنه في الوقت نفسه خبر سيئ تمثل في كونه نهاية محبطة لطموحاتي، بالرغم من أنه مازال علينا عبور هذا المخرج الموحل، هذا إن كان الطريق سالكاً.

فتسلقنا العتبة، بينما دوّت العاصفة خلفنا في أعلى الوادي، ثم هبطنا من الناحية الأخرى حتى وصلنا إلى المستنقع، وحتى هذه اللحظة لم يكن هناك أية إشارة على وجود السيارة، ودققت مرة أخرى بالسؤال عما اتفق عليه تومين مع إردن.

فصاح تومين قائلاً «قلت لك ألف مرة! إما سيبقى حيث تركنا، أو سيكون هنا!».

ربما نكون قد أضعناه، فرجعنا ومشينا بخطى متثاقلة للأعلى ولفوق وللأسفل وعلى طول الطريق حتى وصلنا إلى النقطة التي هبطنا منها، ومن ثم بحثنا عن أية مسارات، لكنها مُحيت جميعاً بفعل الطين والبِرَك الصغيرة.

حامت أمامنا سيناريوهات مروعة بينما أعدنا عبور العتبة للمرة التاسعة، فربما تعطلت السيارة، وربما غادر إردن المكان لإصلاحها، وربما نال منه دُبٌ (لكن أين السيارة؟) وربما تخلى عنا (لكن لماذا؟) وعلى أية حال، أصبحنا لوحدنا، ويتعيّن علينا المشي بخطى واسعة على طول المسار الذي يبلغ طوله ثلاثين كيلومتراً، ثم بعض الكيلومترات لنصل إلى أول خيمة تصادفنا، مفترضين أن الأسرة التي وقعت في مشكلة الذئب ما زالت هناك، وكان الطعام

قد نفد منا تقريباً.

كان الليل على وشك الحلول، وكانت عاصفة أخرى على وشك الهبوب كذلك، فنصبنا الخيمة في وسط المسار مباشرة، بجوار المستنقع، وذلك في اللحظة الأخيرة لنتجنب قطرات الأمطار الغزيرة الأولى، وفي ثوان معدودة، حوّل شلال مياه الخيمة إلى طبلة صغيرة مطوقة بأوتار، وكان الحديث - تحت قماش الخيمة الرقيقة التي كانت تهتز تحت وطأة العاصفة - غير ممكن، وغرقت في مستنقع من الحيرة والاكتئاب، محاولاً التفكير بشكل منطقي في محنتنا، فما كنا لنسير على الأقدام هذه المسافة الطويلة في هذه الحالة الجويّة على الإطلاق. كما أفسحت قيادة إردن المتهورة الطريق، لي وحدي لأضيعها بخطأ أحمق، ومن الناحية الأخرى، لولا وقوع ذلك الخطأ، لكنّا في هذه اللحظة في منتصف الطريق لجبل بورخان كالدون، ولما كنا هنا، وبلا بوصلة. بدا كأن الحظ السيىء والتقدير السيىء قد أفسدا أمرنا أو أنقذانا بطريقة ما، وربما الأمران معاً. الأمر الذي لم أستطع فهمه،

فصاح تومين تحت وقع المطر قائلاً: «من الجيد أنك صبور».

فصرخت رداً عليه: «ليس هناك خيار آخر».

فقال تومين «سيلومني ويضربني ضرباً موجعاً أناس آخرون».

فرددت عليه قائلاً «لا تكن سخيفاً». فلم أكن أتخيل وجود شخص لا يحب تفاؤله الشديد، وعلاوة على ذلك، كان الخطأ خطئي.

فهز رأسه كأنه تذكر شيئاً قائلاً» لست سخيفاً، إنهم يضربونني».

فسألت «من الذين يضربونك؟».

فأجاب «الـ... الإيطاليون! ألا تعرف أول شيء يخرج من أفواههم؟ «لكننا دفعنا لهم! دفعنا لهم!»«ونهق بالكلمة بصوت فاق صوت المطر، كما لو كان الإيطاليون الذين قصدهم هم حمير معتقداً أن دفع المال يضمن أي شيء في هذا العالم الغامض.

لم يكن هناك وقت للسؤال عما حدث، إذ كنت أفكر فيما تبقى لنا من الطعام: قطعتين من السجق وعلبة لبنة ونصف قالب من الشوكولاتة. طعام نساء فقط، فلم يعد هناك لحم لمسيرة

الكيلومترات الثلاثين التي قد تواجهنا في اليوم التالي، سواء أمطرت أم لم تمطر.

لذا سأضطر إلى الاعتماد على روايات تجارب الآخرين المكتوبة، وبصفة أساسية روايات «شوبرت» و»دي راشيولتس» الذي حذا حذو «شوبرت» بعد مضي ستة وثلاثين عاماً، وعندما هطل المطر من السماء القاتمة كنت قد قرأت كلماته مرة أخرى بعناية واهتمام أكبر.

مع ذلك، لم تكن حملة «دي راشيولتس» ميسرة تماماً، إذ تكون فريقه من عشرة أشخاص كانوا جميعاً في رحلة لمدة أسبوعين إلى العديد من المواقع التاريخية، كما اشتمل الفريق على امرأة، وبما أن النساء منعن من الذهاب إلى بورخان كالدون، توجب أن يكون هناك تصريح خاص قدمه كاهن شاماني تم استئجاره لهذا الغرض، وسافروا في ثلاث عربات وكان معهم العديد من الخيول التي استُئجرت من بلدة «مونغونمورت» تتبعهم في الخلف من أجل الصعود الأخير، ومع وجود هذا الدعم الكبير تمكنوا من عبور العتبة - وكتب دي لاحقاً أن عبور العتبة كان «رحلة رهيبة، وتعثرنا عدة مرات في المستنقعات وأمضينا ساعات في تخليص أنفسنا منها».

والشيء الذي كان يصعب تحمله تقريباً هو حقيقة أنني أضعت فرصة تسلق بسيط نسبياً لن يستغرق سوى ساعتين لمقبرة ربما تحوي قبر جنكيز، فأطفأت مصباحي ورقدت في ظلام بائس، وكانت السماء لا زالت تمطر، والأسوأ من ذلك، لم يكن لديّ فرشة أسفنجية أو وسادة، وكنت مرهقاً من الكآبة وخيبة الأمل فغرقت في نوم طويل.

استيقظت بعد حالة من التوهان دامت عشر ساعات، وكانت العواصف قد انقضت. لقد كان صباحاً رائعاً، بسماء ذات لون أزرق باهت، بينما اكتنف ضباب ناعم رقيق جميع شجيرات الصفصاف، مغطياً المنحدرات السفلية والمسار الذي سنسلكه عما قريب.

كنت خارج الخيمة لبضع دقائق فقط وعندئذ سمعت صوتاً جاء من عمق الضباب، وللحظة، أنكر عقلي ما سمعته أذناي، فحدقت النظر، وكنت مشوشاً مثل الضباب نفسه الذي خرجت من خلاله سيارة الجيب، كشيء يتجلى من عالم الأرواح، إذ وقف إردن اللامبالي بجانب عجلة السيارة.

فتمتم تومين بتحية رقيقة من داخل الخيمة وبدأ بإخراج نفسه من كيس النوم، بينما روى

إردن قصة من الدراما والصدف، فبعد أن أنزلنا من سيارة الجيب، تنبأ بهطول المطر وبدأ بالرجوع من نفس الطريق الذي جاء منه، صاعداً المسار المتعرج بسهولة، وكما خمّن، لم يستطع فعل ذلك، فدار بسرعة في سيارة الجيب وعلق في خندق، ثم لم يكن لديه خيار سوى الانتظار حتى نصل إليه ونخرجه منها. لذلك خلد إلى النوم إلى أن أيقظه سبعة رجال في صبيحة اليوم التالي، تقريباً في الوقت نفسه الذي أدركت فيه أنني أخطأت في قراءة الخارطة. لقد كان هؤلاء الرجال صيادين وكانوا خارجين لصيد حيوان الموظ في الحديقة الوطنية (وبالتالي كان الصيادون هم من أبقوا مسار الوصول مفتوحاً وليس العباد المنعزلون) وساروا على الأقدام لأن سيارتهم علقت في المستنقع على طريق الوصول، سبعة أو ثمانية كيلومترات إلى الخلف، في الأمطار التي هطلت في اليوم السابق، وبالنسبة لهم، كان وجود إردن في مستنقعه معجزة صغيرة، مثلما كان وصولهم له، فسحبوه خارج المستنقع، وأقلّوه عائدين في سيارتهم، واصطحبوه إلى معسكرهم، حيث نام الليلة الثانية، وكنوع من الترحيب تم الاحتفاء به بوجبة من حيوان المرموط طُبخ في جلده ورُبط في سلك ووضُع على موقد صغير شديد الحرارة بطريقة مناسبة، وهكذا كان في هذا المكان، في الموعد المحدد، إضافةً إلى اللحم أيضاً. لقد تم إنقاذنا، وكان الضباب الرقيق ينقشع، كاشفاً السماء الزرقاء الحقيقية، وسيكون هذا يوماً صافياً وغير موحل لنهرع بالعودة إلى أولان باتور.

كنا نشق طريقنا بسعادة في لحم المرموط، ونرتشف عصارته الدسمة، ونزيل اللحم الخشن من بين أسناننا، وذلك عندما قال تومين، الذي كان يتبادل التعليقات المتقطعة مع إردن: إن هذا أغرب شيء سمعته عن رحلة مليئة بالغرائب.

فسألت تومين «إذن ما رأيك؟ هل نذهب إلى بورخان كالدون الآن؟».

فرد تومين مستغرباً «ماذا!؟».

فقلت «ألا تسمع؟» لقد أخبره الصيادون أنه ليس بالأمر الهام الذي يستحق العناء، فالأمر يتطلب فقط الذهاب إلى نهاية الطريق حيث أوقفنا السيارة، ومن ثم نتسلق الجبل.

وأصابني هذا الأمر بذهول كامل، فلم يكن لدي أدنى شك في أننا نستطيع الوصول إلى هناك، لكن المغادرة كانت هي المعضلة، وذلك لوجود مخرج واحد شديد الانحدار بالنسبة

لسيارة الجيب، وكان المخرج الآخر هو مستنقع يصعب عبوره، وعلم كلاهما أنه لا يمكننا الخروج مرة أخرى بدون عون، وراقب تومين البهجة وعدم اليقين والخوف وهي تلاحق بعضها بعضًا عبر ملامح وجهي.

فهز تومين كتفه قائلاً «بما أننا وصلنا إلى هنا، فإنه يتوجب إنجاز العمل».

حسناً، عندما كنا بحاجة إلى العون، جاء العون، ومن الواضح، أنهم توقعوا بالطريقة الأكثر غموضاً والأقل تديناً الممكنة، أن تمد السماء الأبدية يد العون لنا، فمن أكون أنا لأتنكر لهم، وهم الذين صليت صلاة لجنكيز نفسه نيابة عنهم؟

فقلت «حسناً، فلنذهب».

اضطررت إلى الابتعاد لفترة قصيرة لأواري ردة فعلي، وذلك لأني وجدت أن إيماءتهم كانت مؤثرة للغاية بالنسبة لكلماتي، ولم أفهم السبب الذي يجعلهم يريدون فعل مثل هذا الشيء الأهوج والنبيل، فمن الواضح أن ما تقاسمناه معاً قد خلق التزاماً يفوق أي شيء يمكن شراؤه بالمال.

ثم أعدنا حزم أمتعتنا وشحنها وتسلقنا العتبة من جديد، ولم يتوقف إردن، وكان هبوط خلال المنحدر الشديد والمخدد بعجلات السيارات عبارة عن فوضى اندفاعية من الابتهاج والخوف، وانتهى في غضون نصف دقيقة، وبالرغم من أننا كنا ملتزمين بحالة عدم الاكتراث التامة التي أبداها إردن، الذي عاد في هذه اللحظة إلى المسار الذي كان قد قطعه قبل يومين، إلا إننا كنا في الحقيقة عالقين، وكان هذا الرجل يُحاسبنا بالكيلومتر، دون التفكير في أن بعض الكيلومترات كانت أسوأ من غيرها، والله وحده يعلم كم كان الكيلومتر الأخير يساوي في السوق الحرة، وعلى أية حال، فإن رحلة العودة ستكلفنا أقل من ذلك بكثير.

وبعد مرور أربعين دقيقة، ومع وجود قمة جبل بوركان كالدون المشمسة التي أغرتنا، أصبح الوادي على مقربة منا، وظهر المسار من خلال الأشجار ووصلنا إلى نهايته، عن طريق لافتة كتب عليها «احموا أماكننا الطبيعية!» وانتصبت أسفل أشجار التنوب الكومة المقدسة الكبيرة المصنوعة من زند الأشجار التي ذكرها «شوبيرت» و»إيغور» وغُطيت بقطع من الحرير الأزرق والرايات المتشابكة. إذاً، كان هناك كومة مقدسة كبيرة في العتبة، والآن هذه

الكومة المقدسة، وسيكون هناك المزيد منها: كنا في طريق الحجاج الذي ميزته الأضرحة المقدسة، وتمثل نوع من «طريق الآلام المغوليMonglian Stations of the Cross»، وقمنا بالطواف بروية ثلاث مرات، موجهين ضرباتنا نحو الذباب، وسرنا في ممر يؤدي إلى الأعلى عبر الأشجار.

وأوصلنا تسلق دام عشرين دقيقة عبر أشجار التنوب الناعمة ذات الرائحة الذكية لمنطقة مستوية من الروابي المليئة بالطحالب، وبدت هذه الروابي مستوية بشكل مريب ومصطنع أيضاً، وكان من الواضح أن هذه هي البقعة التي أُقيم عليه معبد كامالا ذات مرة، وكانت لا تزال تبدو مثل معبد، وذلك لأنه كان هناك بين أشجار التنوب الهزيلة كومة مقدسة أخرى صُنعت من زند أشجار التنوب، انتصب أمامها وعاءان معدنيان كبيران لتقديم قرابين الفداء ومذبح أيضاً صُنع من زند الأشجار أيضاً، مغطى بزجاجات فارغة وصحون لإشعال البخور فيها، وتدلت رايات الصلاة التبتية من زند الأشجار المكون للكومة المقدسة التي كانت تشبه الكوخ المستدير، وتجولت فوق الروابي متسائلاً عما تخفيه هذه الروابي، فماذا حل بالمعبد؟ هل كانت أسواره من الحجارة أم من الخشب؟ هل انهار أو تمت إزالته؟ وأين ذهبت كل الأنقاض التي كان «إيغور» قد رآها؟ هل سرقت؟ أم نهبت من أجل تشييد مبانٍ أخرى؟ أم دُفنت؟

وعلى حافة الأرض المستوية مباشرة - حيث تركت آثار الأقدام أثراً في التربة اللينة - كانت هناك قطع من القرميد، وفي حالة من الإثارة الشديدة، التقطت قطعتين منها، وما زلت أمسك بهاتين القطعتين من الفخار ذاتيْ اللون البني الرمادي اللتين لم يميزهما أي شيء خاص، وصنعتا بشكل رديء، وكانتا ناعمتين من إحدى الجوانب، وغير مصقولتين، وكما كتبت، كانتا لا يزال تفوح منهما رائحة خفيفة من الخُث الخانق، وشكلت كل منهما نصف إسطوانة بحجمين مختلفين، إحداهما بقطر طبق طعام (بعرض 21.5سم) والأخرى بحجم صحن بعرض 9 سم، وكما بدا من الطبعات الصغيرة جداً على السطح الداخلي، أنهما قولبتا وجففتا على شيء يشبه أكياس الخيش، وتقول لي «جيسيكا هارسون - هولJessica Harrison - Hall» خبيرة في الخزف الصيني تعمل في المتحف البريطاني، أنهما نموذج لقرميد الأسطح الصيني، وتعود من دون شك إلى عام 1300، وربما صنعت في هذه البقعة

التي وجدت فيه من الصلصال الذي جُلب لهناك من مكان آخر.

وعندما انطلقنا إلى الأعلى مرة أخرى - بشكل أكثر حدة هذه المرة من خلال أشجار التنوب التي أصبحت متقزمة جراء ارتفاعنا عنها - تخيلت أسواراً من الخشب ورواقاً مسقوفاً ببعض قطع القرميد الصغيرة، مؤدية إلى غرفة بسيطة بها مذبح ومحرقة للبخور وصورة للجد الأكبر «لكامالا» أعادت الروح للجبل الذي أطلق عليه لقب الجبل المقدس، لكن ذلك لم يكن سوى حُلم، فما كان في يدي كان دليلاً دامغاً لدعم الفكرة - كلا فالأمر لم يكن كذلك، والحقيقة أن هذا الجبل هو جبل بورخان كالدون، وأن القبر لا بدّ أن يكون هنا في مكان ما، فلم يكن «لكامالا» أن يختار المكان الخاطئ.

لكن إذا كان جنكيز قد دُفن في الجوار، فأين يقع ذلك المكان؟ هل هنا، على هذه الهضبة؟ بالتأكيد لا، فإذا أراد «كامالا» بحق أن يحترم رغبات جنكيز، فإنه سيبقي مكان القبر طي الكتمان، وفي تلك الحالة، هل كان سيلفت الأنظار فعلاً إلى القبر من خلال توجيه العمال ليحفروا المكان لتسويته ومن خلال قطع الأشجار واستيراد الصلصال وإقامة فرن كبير لحرق القرميد، الأمر الذي يضمن إقامة احتفالات بشكل منتظم؟ كلا: ستكون المنصة الثانية، حيث كانت الحُفر التي رُدمت بالحجارة التي أشار إليها «إيغور» أكثر جدوى.

ومرة أخرى ارتفع الطريق بشدة عبر أشجار التنوب، التي كانت تتمايل فوق الجذور، وبطبيعة الحال، لم يكن تسلقاً شاقاً، الأمر الذي - كان من الحماقة أنني لم أدركه من قبل - ينبغي أن يكون عليه بالنسبة لجبل مقدس، وكانت نظريات المؤامرة التي بداخلي بشأن التضليل الرسمي مثيرة للسخرية، فبيت القصيد من الجبل المقدس هو أنه ينبغي أن يكون الوصول إليه ممكناً، ليس سهلاً جداً بالطبع، لأن ذلك سيكون مدعاة للاستخدام المفرط، لكن ليس ممنوعاً في الوقت نفسه، ولا يعد الوصول لجبل بورخان كالدون بالنسبة لأي شخص مستعد لخوض طريق الوصول بالخيول وبخيمة أو اثنتين وباتباع اللافتات الموضوعة أكثر مشقة من الوصول لمنطقة جبال البرانس على طريق الحجاج إلى كاتدرائية «سانتياغو دي كومبوستيلا»، بالرغم من عدم وجود الابتهاج حين الوصول لنزل الحجاج.

وبينما كنا نتسلق الجبل قلت لتومين «يبدو هذا المكان موحشاً وصعباً للعيش فيه»، وتقدم

إردن أمامنا حتى غاب عن الأنظار، متسلقاً بخطى واسعة جانب التلة التي امتلأت بأشجار الصنوبر واللارَكس والتربة التي كثرت بها الجذور، فسألت «على ماذا كان يقتات جنكيز هنا؟».

فقال تومين وهو يحاول اللحاق بنا، ملتقطاً أنفاسه بسرعة «على حبات الصنوبر، فهي تعد طعاماً طيباً في فصل الخريف، وهناك التوت أيضاً والغزلان والموظ والظباء. كما توجد حيوانات المرموط والسناجب في الأسفل».

فسألت «وماذا عن الذئاب؟».

فرد تومين «أعتقد أنها لا تمثل مشكلة، فالذئاب تُفضل القطعان الداجنة، ولا يوجد الكثير منها في هذه الأماكن المهجورة».

إذن لا داعي للقلق من الذئاب، وبعد تسلق صامت لنصف ساعة أخرى، وصلنا إلى الهضبة الثانية، حيث هبت ريح باردة من بين الأشجار المتقزمة دائمة الخضرة، ولاح نتوء قمة الجبل الجرداء أمامنا وفوقنا، بمركزها الأبيض الملغز، التي استطعت أن أميزها في هذه اللحظة بأنها منطقة صغيرة من الجليد، وكانت المعالم التي ذكرها «إيغور» في كل مكان حولنا أعداد كبيرة، ربما المئات، من مجموعات مبعثرة من الحجارة، بعضها بحجم القبور تماماً، كما كان هناك بضعة أكوام مقدسة صغيرة وأكوام مقدسة بدائية، حيث جمع الحجاج على عجل الصخور المفككة أثناء عبورهم لصنعها، وحملتني كلمات «إيغور» على التفكير في القبور: «حفريات قديمة... حفر حُفرت ثم ردمت مرة أخرى... صنيع الإنسان ظاهر بوضوح... هنا... دُفن أباطرة المغول»، ومتى غُرست الفكرة في رأسك، يمكنك رؤية الطريقة التي تم بها صنع هذه القبور: موكب من حملة التابوت يتسلقون الممر الحاد أعلى الجبل الكاتدرائي، وعمليات حفر الحفر الضحلة، وطقوس الدفن، والتكويم الحذر لحجارة بحجم قبضة اليد في كومات منخفضة، وشعائر وداع الميت إلى السماء الأبدية، ورحيل المشيعين الحزين والموقر، وقرون من الأمطار والصقيع والثلوج التي سوت الكومات تدريجياً للأشكال التي أصبحت عليها الآن.

لكنني الآن لا أصدق ما تخيلته، وذلك لأنني الآن وبعد أن رأيت قطع الحجارة، لا يمكنني

أن أصدق أنها كانت قبوراً.

لقد زُرع الشك بداخلي بفعل منظر «القبر» الذي رأيته قبل يوم في الأسفل في المنخفضات المليئة بالمستنقعات الخالية من المسارات، وعندها بدا لي أن المعالم ربما تكون طبيعية، وبما أنني رأيت كلتا المجموعتين، فقد شعرت أن الشك لديّ يزداد، إذ كانت الكومات هي نفسها في كلا الموقعين: بعضها دائري تقريباً، لكن معظمها بحواف لولبية، على نحو غير منتظم مثل البرك، وليس لها أحجام معينة، بعرض يتراوح من متر إلى ثلاثة أو أربعة أمتار، وإذا لم تكن هذه المعالم التي في الأسفل قبوراً، فإن تلك التي على الجبل ليست قبوراً أيضاً.

كنت متأكداً تقريباً أن هناك تفسيراً مختلفاً تماماً لهذه «القبور» إذ أكدت - تقريباً - البحوث اللاحقة هذا الأمر، فهذه المنطقة دائمة الجليد، يذوب فيها الجليد فقط من على بضعة أقدام عليا في الصيف، وهذا النوع من الجليد الدائم له نمط حياة خاص به، وذلك لأن التربة المتجمدة تتمدد - كما يتمدد الجليد - في فصل الشتاء وتنكمش مرة أخرى في فصل الصيف محدثةً نتائج تعتمد على نوع الصخور والتربة ودرجة الانحدار ومقدار المياه السطحية، فتتحد القوى الطبيعية مع المواد الخام بطرق غريبة ومعقدة، منتجةً معالم غريبة وغير مألوفة لسكان المناطق المعتدلة لكنها تعد مألوفة لدى سكان «الإسكيموEskimos» و«اللاب Lapps» وهذا بالنسبة لعلماء جغرافية الجليد، نوع نادر من المتخصصين الذين يتعاملون مع جيولوجيا المناخ البارد، وتُنتج بيئات المناخات الباردة، من الحصى والحجارة والصخور، تشكيلة رائعة من المضلعات والدوائر والحلقات والهضاب الصغيرة التي تبدو وكأنها من صنع الإنسان، كما لو كانت الطبيعة قد انغمست في بستنة «زن Zen» بدرجة كبيرة (في الحقيقة، يعتقد بعض العلماء الأوائل المتخصصون بدراسة القطب الشمالي أنها كانت من صنع الإنسان بالفعل). إن عالم جغرافية الجليد هو عالم رنان مليء بالمصطلحات الغريبة المبهمة «جيشان الجليد» و«زَحْلُ التربة» و»تلال القطب الشمالي» و«هضاب البالز» و«الكارست الحراري» و«التلال الجليدية الهيدروساتية» لكن جميع هذه المعالم تؤثر في الدورة السنوية للتجمد والذوبان التي تعمل على تشكيل الأشكال الكثيرة من الحجارة.

أعتقد أن «القبور» الموجودة على جبل بورخان كالدون هي «دوائر حجرية» ولكي نفهم كيف تكونت هذه الدوائر، دعنا نتخيل حجراً غُطي بتربة رطبة في فصل الخريف، ثم تأتي

موجات الصقيع الأولى، وبما أن الصخور توصل الحرارة بدرجة أسرع من التربة المحيطة، فإن الأرض التي تحت الصخور تتجمد أسرع من التربة المجاورة، ثم تتمدد التربة المتجمدة حديثاً، دافعةً الصخور لأعلى. يلاحظ عمال الحدائق آثار هذه القوة في فصل الربيع، وذلك عندما تنتشر منابت الزهر حول الحجارة بطريقة غامضة، وتحدث العملية نفسها فوق أعمدة التلغراف في جميع أرجاء الأراضي العشبية في منغوليا، وإذا لم تتجذر بعمق داخل الأرض المتجمدة بشكل دائم فإنها ترتفع ثم تنحني وتسقط، كما تتحرك الصخور ذات الأحجام المختلفة بسرعات متفاوتة، وفي المناطق التي تكثر بها الصخور تدفع الاختلافات البسيطة في درجة الحرارة ودرجة التمدد بالصخور على الحواف للداخل وإلى الأعلى كذلك، وفي نهاية المطاف تصنف الصخور نفسها في مجموعات ذات أحجام متشابهة، وعندما تظهر على السطح، تجرف الرياح والأمطار الحطام والبذور، وتكون النتيجة نوعاً من النوافير الصخرية تندفع للأعلى وللخارج، ببطء شديد، وربما تتطور - وربما لأنه لم يلاحظ أحد حتى الآن هذه العمليات على مدى قرون من شكل إلى آخر.

ويحدث التصنيف على نطاق واسع أيضاً، فبجانب حقل الدوائر الحجرية كان هناك حقلٌ آخر منسقٌ بعرض مئتي متر من الصخور المائلة للاحمرار، تتراوح من حجارة بحجم قبضة اليد إلى صخور كبيرة التي كان السير عليها غير مريح، وذلك لأن جميع الحواف والزوايا هددت بالتواء قدميّ بمجرد أن سرت فوقها بعناية. حتى هذه الكتل الصلبة لم تكن مستقرة، فقد كانت تدفع بعضها بعضاً خارج الطريق هنا وهناك تاركةً بضع دوائر عشبية صغيرة، وهي عبارة عن «أنظمة بيئية دقيقةmicro - ecologies «تعكس الدوائر الحجرية حيث كان «تومين» و»إردن» يتسكعان، مبديان اهتماماً أكبر بالأحوال الجوية من القدسية، أو بالأحرى، بما يحيط بهما.

يوجد على الجانب البعيد من هذا الحقل كومة مقدسة من الصخور الحادة نفسها، بُنيت بحيث يمكن للمصلين أن يطلوا على منظر خلاب أسفل وادي نهر «البوغد» المتعرج، الذي أتينا من خلاله، النهر الصغير الذي يومض من خلال الأشجار، ويجري نحو السهل الفيضاني الواسع ونحو العتبة لمسافة عشرين كيلومتراً، وعلى يميني، لعدة أمتار في الأسفل، كان هناك بحيرة جُرف منها الحصى وأشجار الغابة، فلم يكن ذلك المكان ملائماً للحياة الأسرية، بيد

أن شخصاً بمفرده عرف هذه الأجنحة وحرس الوديان من الأعداء يمكنه الاختباء في ذلك المكان للأبد، ويمكنه العثور على الطعام والماء، بينما يكون على بعد ساعة من المرعى.

هل يُعدّ هذا مكاناً مناسباً لدفن خان في قبر سري؟ ينبغي أن يكون كذلك، ولكني لا أراه على هذا النحو، إذ تتحدث الروايات القليلة عن أرض عشبية سويت تحت وطء أقدام الخيول، وعن غابات كثيفة نمت لخلق منطقة آمنة وسرية، لكن هذه الهضبة كان يصعب على الخيول أن تصلها بشكل جماعي، وذلك بالرغم من ضآلة غطاء الأشجار، ووجود طريق رئيسي يوصل إلى القمة - مثل المكان العام الذي يمكنك الوصول إليه بعد عبور منطقة بحدود ألف كيلو متر مربع.

وفي الأعلى، اختفى المذبح الرئيس لهذه الكاتدرائية الطبيعية فجأة بين السحب الكثيفة، التي تنحدر حافتها على نحو مشؤوم لأسفل التلة.

فصرخ تومين قائلاً: «جون، ينبغي أن نرحل! فالضباب قادم!».

فترددت للحظة، ثم تبعته، فقد كان يتوجب عليَّ فهم قيمة المشهد المطل على جداول نهر الأنون وعلى حقل الأكوام المقدسة.

فهربنا من الهضبة التي لم تكن مقبرة على الإطلاق، فوق الدوائر الحجرية، هابطين نحو المنطقة التي سُويت حيث وجد معبد كامالا في يوم من الأيام، نحو سيارة الجيب، وغادرت وكلي يقين بأن روح جنكيز عادت للوجود إلى الأبد بفعل الاحتفالات المنتظمة والقرابين وصنع الركام المقدس، أما فيما يتعلق برفاته، فإن شعوري يقول إنه ينبغي على الباحثين عن القبور التنقيب في مكان آخر، على المنحدرات الحرجية الأكثر استواءً. ينبغي عليهم البحث، لكن لا ينبغي توقع العثور عليه.

ولكنني لا زلت لا أشعر باليقين القوي الذي ينبغي عليَّ الشعور به، وذلك بسبب الإشاعة المنتشرة إلى حد ما التي تفيد بأن بعض الناس يعرفون بالتحديد مكان وجود القبر على جبل بورخان كالدون، وجزئياً بسبب عدم موافقة «إيغور دي راتتشولتس» مع وجهة نظري بشكل مطلق.

اسمحوا لي أن أقتبس بعضاً من كلماته التصحيحية:

إنها [الدوائر الحجرية] ليست تكوينات جيولوجية، لكنها من صنع الإنسان، كما يوجد الكثير من الحطام أيضاً بجوار الحفريات، كما توقعت، ولو كان لديك المزيد من الوقت لتبحث في المنطقة لما كنت قد فقدت أدق التفاصيل. بالطبع يمكن أن تكون بعض القبور فارغة، لذلك فإن المجسات فقط مثل تلك التي استخدمها فريق الأنهار الثلاثة والسيد «كرافيتز» يمكنها أن تكشف عن المحتويات الحقيقية، وفي الوقت نفسه، علينا أن نخمن، فخلف قناعهم المرح، يبقى المغول شعباً شديد السرية، إضافةً إلى أنه تحت حكم [رؤساء الوزراء الشيوعيين] أمثال «تشويبالسان» و«تسيدينبال» كان جنكيز يُعد من المحرمات، لكن نجح قلة من العلماء في تجاوز النظام ونقل المعلومات، ويجب أن نقبلها جميعاً مع بعض التحفظات، لكن تظهر أنماط محددة عندما تضع هذه المعلومات معًا وتقابلها مع المعلومات القادمة من مصادر أخرى..، فالأماكن المحددة حيث دفن جنكيز والأباطرة اللاحقون ربما لا زالت تراوغنا، وأنا متأكد أنه حتى جهابذة المغول لا يستطيعون تحديدها، ولكني شخصياً على يقين بأن المنطقة غير المحددة من المقبرة الإمبراطورية هي النتوء المحصور بين ضريح كامالا في الأسفل والمنطقة المغطاة بالركام المقدس في الأعلى.

حسناً، إنه متأكد جداً، وأنا لا زلت أتساءل عما إذا كان هناك طريقة للتوفيق بين القبور والدوائر الحجرية. ربما يوجد طريقة ما، لكن ماذا سيحدث لو وجدت دائرة حجرية غير طبيعية من بين عدة مئات من الدوائر الحجرية الطبيعية؟ هل هناك طريقة أفضل لإخفاء قبر ملكي من وضعه في مكان مرئي بالكامل، مباشرة في الطريق إلى القمة المقدسة، لكن يستحيل تميزه من بين الكثير من القبور المزيفة المشابهة؟ ويمكنني تخيل مشهد يوضح المعنى، حفرة دفن وحيدة وبسيطة في أعماق الجليد الدائم، وغطاء رقيق من الحجارة شُكلت على نحو يشبه البقع الحجرية الأخرى تقريباً، وطافت الخيول الحاملة للتابوت وحشود غفيرة من المشيعين في الموقع حتى أصبح أولئك الذين حضروا مراسم الدفن بالكاد قادرين على تميز الدوائر الحجرية الطبيعية عن تلك التي صنعها الإنسان.

وبطبيعة الحال، فإن هذا لغزٌ سيُحل من خلال بحث أثري مناسب، لكنها ستكون مهمة ضخمة، بأن تستكشف كل دائرة من مئات الدوائر الحجرية، مستثنياً الواحدة تلو الأخرى، حتى في نهاية المطاف ربما تعثر على القبر الحقيقي، الذي يخفي مدخله المغطى بالحجارة

التي نالت منها العوامل الجوية تابوتاً على الأقل، ومن يدري ماذا يخفي بالإضافة إلى ذلك؟

وسيكون الأمر أكثر سهولة لو كان هناك أولئك الذين عرفوا من منها هو القبر الصحيح، ومع ذلك، واجهنا هنا لغزاً آخر أكثر عمقاً: طبيعة السرية التي تحيط بالقبر، لقد قال كثيرون إن شخصاً ما في مكان ما يعرف الموقع الحقيقي، كما يوضح «إيغور»: «لقد أجروا التحقيقات الدقيقة وعثروا على الموقع الصحيح للقبور على الجبل«كما أخبر «البرفسور رينتشين Professor Rintchen» الأكاديمي المغولي الأكثر بروزاً، «إيغور»: «بأن المنطقة تم تحديدها بشكل قاطع قبل عام 1970»، وتسمع الشيء نفسه من الكثير من العلماء، إذ أخبرني «باداماش» بأن «القبر موجود في سفوح جبل بورخان كالدون، وهو سر من أسرار الدولة«لكن ما طبيعة هذا السر الحكومي؟ من «هم»؟ لم يقدم أحدٌ أسماءً، لا يوجد تشريع قانوني، لا يوجد شيء مُعلن، كل ما هو موجود مجرد إشاعة، ومن المفترض أن يكون سرّاً من أسرار الدولة لأن القبر مقدس، ما يضفي نوعاً معيناً من الحماية ليس فقط على القبر نفسه، وليس فقط على المعلومات المتعلقة بالقبر، بل أيضاً على مسألة إذا ما كانت المعلومات المتعلقة بالقبر موجودة بالفعل، ويبدو الأمر كأننا في قاعة من المرايا، نناقش سراً متعلقاً بسرٍ آخر.

ذهبت لمقابلة أحد المؤرخين المغول الأكثر احتراماً «داليDalai»، وهو صديق قديم، «إردن باتور» آخر، خبير في تربية الحيوانات رافقني في رحلة إلى صحراء غوبي قبل ست سنوات، وتتبعته إلى أحد التجمعات السكنية المتجهمة التي ظهرت في «أولان باتور» بعد الحرب. لقد كان في السبعينات من عمره عندما تقابلنا، لكنه بدا أكبر سناً، كصورة للحكمة الأبدية، وكان التاريخ - العمل الأكثر أهمية في حياته - مكتوباً على تجاعيد وجهه، ويتردد من خلال صوته القوي الجهوري، كما كان ظاهراً في رفوف الكتب المغولية القديمة الكثيرة، السريالية المغولية والصينية والروسية واليابانية والكورية والإنجليزية وحتى - كان هناك كتاب «رحلات أوين لاتيمور المغولية» الكتاب الذي كان أحد مصادري الرئيسة فيما يتعلق بضريح جنكيز خان، فطلبت أن أُلقي نظرة عليه، فأذهلني الإهداء الموقع على الكتاب: «إلى «دالي» تذكار لعشر سنوات من الصداقة. «أوين»».

قال «دالي»: «هل تعرفه أيضاً؟» ثم أضاف بشكل عرضي، مشيراً إلى زاوية متربة: «لدي هنا آلة التصوير الخاصة بلاتيمور، لقد تركها هنا لأستخدامها في حال عودته، وكذلك الأمر

لجهاز العارض الضوئي الخاص به، وحُلّة من ملابسه». توفي لاتمور في عام 1989، عن عمر يناهز التاسعة والثمانين، ولم يزر منغوليا منذ السبعينيات من العام 1900. لقد بقيت آلة التصوير وجهاز العارض الضوئي والبذلة هناك لمدة ثلاثين عاماً، بانتظار جمعها الذي لن يحدث.

عندما سألت عن القبر، قال «دالي»: «الكثير من الناس يبحثون عن قبر جنكيز الآن، ولكنني لم أحاول العثور عليه، فقلبي لن يسمح لي بذلك، فأنا أتذكر أوامر جنكيز: لا تلمسوا قبري! ومنذ ذلك الحين، لم يلمس أحداً قبره. إنه مكان مقدس، وينبغي ألا يلمسه أحد».

قال «دالي» القبر في حد ذاته غير مهم إلى حد ما، والأمر المهم هو أن جنكيز نفسه كان بمنزلة أب حقيقي، وقال: «اسمح لي أن أصف جنكيز كإنسان، لقد كان إنساناً طيباً، وذكياً جداً، وليس بطلاً عسكرياً فقط، فنحن المغول لا نشعر بالسعادة عندما ننظر إليه كقائد عسكري فقط. لقد كان رجلاً على صلة بالسماء الزرقاء. إن خاننا يرقد في أرض مقدّسة، ولن يروق له أن تصفه فقط من المنظور العسكري».

هل القبر موجود فعلاً؟ هل المعلومات السرية المتعلقة بالقبر موجودة فعلاً؟ لا توجد إجابة عن هذين السؤالين، لأنه على الرغم من أن كثيرين يدّعون بأن كليهما موجودان فعلاً، إلا إنه لا يبدو أن أحداً يعلم من بالتحديد لديه هذه المعرفة، وربما أن أولئك فقط الذين يعرفون مكان وجود القبر يعرفون أنهم يعرفونه، فالمعرفة يجري تقاسمها من أعضاء جمعية سرية أقسمت بألا تُفشي السر، ودوماً يوجد أشخاص (أمثال دالي وبادماش) يحمون مؤسس أمّتهم بكفن مقدس غير قابل للمس.

سوف أخدم قضية السرية من خلال التشبث بالشك، وأعتقد أن السر المزدوج هو نتاج الأمنيات والرعب إنها تشبه جديلة من وبر الجمل التي قيل إنها التقطت نفس جنكيز الأخير. لقد تبدد الدليل الدامغ - الجسد والقبر والمعرفة - في الهواء الرقيق، حيث سينجرف إلى الأبد، إلا إذا اتحدت السياسة وعلم الآثار معاً في محاولة لإعطاء المزيد من الأهمية.

بعد أن غادرنا الجبل بساعة، ظهرت أمامنا العتبة كحاجز، وعرف «إردين» - بيقين مطلق - أنه لا يمكن الوصول إليها عبر الطريق الطويل الملتف فوق المستنقع، وبالتالي لا يوجد

أمامه خيار سوى محاولة عبور الطريق المباشر الحادّ الذي يصعب عبوره على حد سواء، وذلك بالتوجه مباشرة إلى أعلى من عند النهر باتجاه الكومة المقدسة في الأعلى. لقد مشى بحَذر، مخططاً لانقضاضه فوق فوضى الأخاديد وكتل الأعشاب النامية والأرض اللينة، وبدأت أتفهم الغرض من قراره المجنون بشكل جلي، فهنا وهناك، تركت عجلات عربات أسلافنا تربة لم تُمس، وعلى الحافة – خلف صف من شجيرات الصفصاف – يوجد مواطئ قدم راسخة، ربما تكون قد استخدمت ذات مرة كممر مشاة، دون مسار عجلات.

بينما كنت أنا وتومين نراقب من على المنحدر، عاد إردن بسيارة الجيب إلى الوراء إلى قناة جانبية، مسرعاً عبر أراض وعرة لكن مستوية، ودفع الجيب بسرعة شديدة هابطاً المنحدر، وعلق، فحفرت العجلات الأربع قبورها، ثم نزل من الجيب وتفحص الأرض، محدّداً طبيعة المشكلة، فأصبحت فائدة اختيار هذا المنحدر الحاد واضحةً، فهو لم يعلق بالرغم من كل ذلك، لأنه استطاع أن يستفيد من الجاذبية ليتراجع للخلف خارجاً من الشرك العميق الذي وقع فيه محور عجلات سيارته، ثم تراجع مثل رياضيّ الوثب الطويل الذي يقيس المسافة التي سيقفزها، ثم زاد من سرعة دوران المحرك ودفع بنفسه باتجاه المنحدر مرة أخرى، ثم علق مرة أخرى، لكن أعلى قليلاً هذه المرة، وتفحص الأرض مرة أخرى هنا وهناك، ثم تراجع للخلف مرة أخرى إلى الحافة نفسها بجانب القناة، وفي هذه اللحظة فهمت الاستراتيجيّة التي كان يستكشفها – الجمع بين السرعة والاتجاه لكي يستطيع التحرك من بقعة صلدة إلى أخرى، من كتل الأعشاب النامية التي تلفحها الشمس إلى هذا الصف من شجيرات الصفصاف لهذه البقعة من العشب التي لم تُمس، مستخدماً كل قاعدة جديدة للحفاظ على السرعة، لكن لكل بقعة خصوصياتها، وكل متر فاصل كان عبارة عن فوضى من الأخاديد المليئة بالمستنقعات، وكان ذلك مثل محاولة إصابة هدف برصاصة مرتدة، في الوقت الذي تنطلق فيه بأقصى سرعة. لقد حاول مرتين، لكنّه فشل، ولسبع مرات أخرى تراجع للخلف، واندفع للأمام، ووثب فوق هذه الطريق وذاك، وغيّر من اتجاهاته، وعلقت سيارة الجيب مع صرخات العجلات، وتراجع، وكان الشيء الوحيد الذي منحني الأمل هو أنه خلال كل ذلك حافظ على هدوئه، ونقلته بعض من محاولاته لمسافة متر أو مترين أعلى المنحدر.

كان للمحاولة العاشرة سحرٌ خالصٌ، إذ ضربت سيارة الجيب كتل العشب الصلبة

والأعشاب الراسخة وشجيرات الصفصاف والمسار، وانطلقت مجتازة إياي بأقصى سرعة، واثبةً مثل شيء بريّ، واختفت فوق أعلى القمة. قاطعةً المسافة من القاع إلى الأعلى في غضون نصف دقيقة. لقد كان عرضاً رائعاً من التخطيط والثقة والمهارة والشجاعة الحاذقة.

هرعنا للانضمام إليه على القمة. لقد كانت آخر مرة شعرت بها بالبهجة عندما كنت أراقب أول هبوط على سطح القمر، وربما كان رد فعلي شديداً قليلاً، لكن الأيام الثلاثة الأخيرة كانت متقلبة بين النشوات وخيبات الأمل، ولم يبدُ تحقيق الجيب لمثل هذه القفزة في تلك المهمة المتهورة أمراً مهماً، فتمتمت بإعجابي مثل العاشق، وسألت: «هل حدث وأن قمت بفعل مثل هذا الشيء قبل ذلك؟».

فأجاب: «مرات كثيرة، فأنا أقود منذ ثلاث وعشرين سنة».

لماذا يضع رفاقي أنفسهم في هذه الظروف الخطيرة؟ وهنا يوجد نظرية: فعندما يتفكر باحثو الجينات البشرية في نهاية المطاف في الجينات المغولية، سيكتشفون أمراً فريداً: جين الولاء، وهو نتيجة لطفرةٍ سمحت للرعاة باستعمار المراعي قبل أربعة آلاف عام، وكان هذا الإرث الجيني الذي استغله جنكيز في محياه ومماته، كفيلاً بأنه سيحمل بأمان إلى قبر سري، القبر الذي جئت أنا ورفقائي الصالحون للبحث عنه، وسيُبقي ورثته، إن كان لديهم علم بذلك، سر قبره آمناً للأبد.

الفصل الثامن عشر

نبي السماء الأبدية

إن القوة التي ما زال جنكيز يمارسها اليوم هي مفاجأة متواصلة، وبطبيعة الحال، فهي واضحة بشكل خاص في منغوليا، ففي احتفالات اليوم الوطني يُقاد الموكب الذي يدور حول أستاذ «أولان باتور» من جنكيز - في الواقع أن الذي يقود الموكب هو مغني الأوبرا «انخبايار Enkhbayar» الذي لعب دور القائد في فيلم ملحمي عن جنكيز، وفي ذلك الاستعراض يحمل الفرسان رايات ذيول الياك التي كانت في عصر جنكيز، إذ كانت الرايات السوداء تشير إلى الحرب، بينما تشير الرايات البيضاء إلى السلم، وكانت الخيمة الإمبراطورية الكبيرة ذات العجلات، عربة بعرض عشرة أمتار، تشق طريقها المُتعب حول المسار، وتُجر من مجموعة من الثيران، وتعرض القوات المصطفة في المدرج لافتات مكتوب عليها حروف توضح اسم «جنكيز» بشكل كبير، بينما تقوم الطائرات المروحية بإسقاط راية «جنكيز» المرفرفة، وتشاهد اسم وصور جنكيز في كل مكان، على الفنادق الكبرى، وعلى زجاجات البيرة (ألمانية الصنع) وعلى زجاجات الفودكا، وعلى واجهات الكليات والمعاهد - كما أطلق الاسم على مئات الأطفال الرضع: الأمر الذي يعني أنه ذات يوم، ستُقاد منغوليا من جنكيز آخر، وفي عام 1992 كان هناك نوعٌ من الإفراط في احتفالات الذكرى الثمانمئة. أما الآن فالاحتفالات التي تقام شديدة الازدحام، ففي عام 2002 تم الاحتفال بالذكرى الثمانمئة وأربعين بشكل رسمي، وستكون أعجوبة إذا ما استطاعت الأمة انتظار الذكرى الثمانمئة وخمسين، التي ربما يُحتفل بها بعيد ميلاده، وتصبح إجازة سنوية.

لكن الكثير من هذا لا يعدو كونه أكثر من «تراث» بدون صلة حقيقية مع أصولها مثل أكلة لحوم البقر في برج لندن. لكن جنكيز يرمز أيضاً إلى العديد من جوانب الحياة في أرضه وبين أفراد شعبه: الأمة ككيان سياسي مستقل والبداوة ونمط حياة الرعاة والروح الفردية الصارمة، والشعور بجمال المناظر الطبيعية، وهذا الأمر موجود فقط في منغوليا، أمّا في الصين، فيعدّ جنكيز أيضاً رمزاً، لكن بقيم مختلفة متعلقة بالوحدة الصينية وعظمة الإمبراطورية، ويبدو أن كلا الموقفين، وكلا الرمزين، وكلتا الثقافتين يقفان على طرفي نقيض، والأسوأ من ذلك، ربما، لم يأتِ بعد، فمنغوليا فقيرة، وفارغة، وتعج بالصراعات، بينما تنفجر الصين من الازدحام السكاني والطموح الرأسمالي. لكن هناك إمكانية للوصول إلى حل لتلك المعضلة،

التي يمكن إيجادها بعيداً عن السياسة، وبعيداً عن الاقتصاد، وبعيداً عن الاختلافات بين القوتين المتباينة في الحجم إلى حد كبير، التي تكمن في أغرب مظاهر جنكيز.

ففي منغوليا، لا يزال جنكيز كرمز حي ومرغوب به حتى الآن. لكن هل سيبقى كذلك؟ وهل يجب أن يبقى كذلك؟ تعد «أويونOyun «مؤهلة بشكل جيد للتحدث حول تلك المسألة، فشقيقها «زوريغZorig»، كان أحد ديمقراطيي منغوليا البارزين، إذ كان المحرك الأساسي للحركة المؤيدة للديمقراطية منذ عام 1989، وذلك عندما كان شاباً محاضراً في العلوم السياسية، وكنتيجة لعمله إلى حد ما، استقال المكتب السياسي بكامله في أبريل من العام 1990، فاسحاً المجال أمام انتخابات سلمية بعد ذلك بشهرين، وفي عام 1998، وعن عمر يناهز الخامسة والثلاثين، تعرض للطعن حتى الموت على يد قتلة لم يتم القبض عليهم، وهو العمل الذي صدم الأمة، ويترأس الآن تمثال من البرونز لهذا الإنسان المولع بالقراءة واللطيف وذي العزم والمثالي مفترق طرق في وسط العاصمة «أولان باتور»، ولو قُدر «لدان بارسبولتDan Barsbolt» أن يمنح عمله الإبداعي لقباً، ينبغي أن يكون لقب«الزعيم المفقود» وذلك لأن «زوريغ» يمتلك هالة في منغوليا مثل هالة «كينديKennedy»، لكنّه لم يُفقد بشكل كامل، وذلك لأن أفكاره لازالت حية في شقيقته - عضو البرلمان الآن - وفي المؤسسة التي أنشأتها تخليداً لذكراه من أجل تعزيز الديمقراطية والشفافية وحقوق الإنسان والمعايير الأخلاقية الرفيعة في مناخ من الفساد السياسي المتزايد.

تعدّ «أويون» امرأة رائعة بحكم اعتمادها على نفسها، فهي عالمة حاصلة على درجة الدكتوراه في الجيولوجيا من جامعة «كامبردج» وبارعة في أربع لغات (المنغولية، والروسية، والتشيكية، والإنجليزية) ولها حزبها السياسي الخاص. إن مكتبها الضخم، المطل على ميدان «أولان باتور» الرئيس، ومساعدي البحث الثلاثة، والتغريد الرصين للهواتف النقالة، والشعر القصير المقصوص ببساطة، وحُلّة العمل الأنيقة، والأسلوب الحاد، واستعدادها لتركيز جل اهتمامها حول أسئلتي - كل هذا ينم عن القوة، والمكانة الرفيعة، والإدارة الذكية والذكاء الهائل. لقد كانت سيدة على استعداد لنشر كل سلاح - البحث عن الجديد والتعليم والجذور الثقافية - في سبيل خدمة مثلها العليا، وأعتقد أننا سنسمع الكثير عن «أويون» ومن وجهة نظري كلما سمعنا أكثر سنتعرف عليها بشكل أفضل.

وعندما ذهبت لرؤيتها، مررت بمجموعة أشخاص يحتجّون على مشروع قانون - كُتب على الملصق الذي كانوا يرفعونه «فلنحم أرضنا المقدسة» - سيسمح بالملكية الفردية للأرض، إذ أصبح هذا الأمر ضرورة في العاَصمة وبعض المدن الأخرى، حيث احتاج الناس إلى قاعدة قانونية لبيع وشراء ما يمتلكون من أراضٍ بدلاً من ادعاء الملكية مثل واضعي اليد، وفي «أولان باتور» حيث لا يزال نصف سكانها يعيشون في الخيام على أطراف المدينة، لا توجد سجلات تبيِّن مَن وأين يعيش هناك؟ ولا توجد حقوق مضمونة، وبالتالي لا يوجد ضرائب ولا خدمات، لكن القانون سيطبق أيضاً في المناطق الريفية، حيث كانت الأرض دوماً مشاعاً. إن الآثار المترتبة على اكتساب حقوق الملكية الفردية في الأرض المشاع يعدّ شكلاً ثورياً فعلاً: وترى أحد السيناريوهات المثيرة أنّ ملاك الأراضي يشترون مساحات كبيرة من الأراضي ومن ثم يبيعونها للأجانب، وبالتحديد للصينيين الذين يخشونهم كثيراً، وكانت «أويون» من بين أولئك الذين يطالبون بمناقشة الأمر والحذر فيه - دون تأثير يُذكر - لأن القانون كان قد صدر في اليوم التالي: أعتقد أنه صدر بسرعة مثيرة للريبة، بتأثيرات في المدى البعيد التي يمكن تخمينها فقط.

هذا ما كان على «أويون» أن تقوله بشأن الموضوع الذي يعدّ رمز منغوليا الأول:

«لقد كانت هذه أوقات عصيبة، وكان الناس بحاجة إلي شيءٍ ما للتمسك به، ففي الماضي، كان الناس لديهم القليل، لكنّه كاف، لكن ماذا بخصوص اليوم؟ فلننظر حولنا: ماذا يرى المنغوليون العاديون؟ فالنسيج الاجتماعي ممزق، وأطفال الشوارع كُثر، والفساد يعم البلاد، ولم يرَ الناس الثمار الحقيقية للتغيير الديمقراطي بعد، فمن المفترض أن تمنح الديمقراطية السلطة للشعب، ولكننا نشهد تزايداً في حالة الفقر والبطالة، واتساعاً في الفجوة بين الأغنياء والفقراء، لذا أصبح الكثير من أفراد الشعب أقل قوة، وأكثر تهديداً من الناحية الاقتصادية عما كانوا عليه إبان الحكم الشيوعي، واقتضى الأمر لأن يكافح نصف سكان البلاد من أجل البقاء، وكانوا يرون أن الأمة مهددة بسبب الفقر والضعف، لذا ينظرون إلى جنكيز وإلى ذلك الجزء من تاريخهم كرمزٍ للقوة.

إن قوة جنكيز لا تكمن فقط في الغزو، إنما في فكرة الإدارة التي تجذرت في نظام قانوني مكتوب (نعم، يتعايش الغزو الوحشي مع فكرة العدالة في أذهان المغول، لأنهم

تمتعوا بفوائده). لم يكن هنا سيادة قوية للقانون في السنوات العشر الأخيرة، منذ دخول نظام التعددية الحزبية، بعد سبعين عاماً من نظام حكم الحزب الواحد، فالاختلاف مع التعددية يعد أمراً طبيعياً، لكن هنا لا يوجد مفهوم المعارضة الموالية، ولكنهم - وبخاصة كبار السن - لا يمكنهم تقبل هذا الاقتتال السياسي، لأنهم يعتقدون أن قتال المغول لبعضهم البعض، سيؤدي حتماً لتقسيم البلاد. لكن في رأيي الشخصي إذا سألت المغول عما يشعرون به، سيقول الكثير منهم: بما أننا كنا ذات مرة أقوياء، لماذا لا نستطيع أن نكون مرة أخرى؟ ألا ينبغي أن يكون لنا دورٌ رئاسيٌ قويٌ، يكون نوعاً من نسخة حديثة من جنكيز خان؟ وما دام لا يوجد هناك أي حلم بالإمبراطورية، فعلى الأقل يجب أن يكون سيادة للقانون.

«هل يوجد هناك حلٌّ؟ حسناً، يوجد بعض الضغط من أجل التوجه نحو التصنيع، وإحداث تطوير على الطراز الغربي. إنهم يقولون إن علينا أن نتمدّن، وأن نكون علاقات جيدة مع الآخرين» وهنا ضحكت «أويون» ضحكة ساخرة من مصطلح الحد من الإفراط في الاستهلاك». يوجد مشروع لإنشاء طريق سريع بطول ألفي كيلومتر شرقاً وغرباً، طريق الألفية، تماماً عبر منغوليا. لكن كل هذا لمنافسة الأمم الصناعية الأخرى، وفشل الأسرة الحاكمة. لكن ستكون مناطقنا الريفية عرضة للتهديد، ومدننا ستلوث، وستكون صناعاتنا ملكاً للغرباء.

«لكن يوجد حلٌ آخر. نحن بحاجة للاستفادة من قوتنا، التي تكمن خارج مدننا، وتحت أقدامنا، وأعتقد أن ميزتنا التنافسية تكمن في ثلاثة أشياء: ريفنا وأسلوب حياتنا البدوية ومصادرنا. لقد أدرك جنكيز قوة العنصرين الأولين: جمال مراعينا وجبالنا وصحارينا ونقاءها، وحريتنا في التجوال وتربية مواشينا، وما ينبغي أن نفعله هو النظر إلى الوراء إلى الاقتصاد الريفي الذي انحدرنا منه أصلاً، النظر إلى الوراء من أجل المستقبل، وفي هذا الأمر يعدّ جنكيز رمزاً بكل ما في الكلمة من معنى.

«وهذا لا يعني إحداث عدم التطوير، فنحن بلد ثري، إضافة إلى أن صحراء غوبي كانت بجوار المحيط، وكعالمة جيولوجيا أعرف أنه يمكن الحصول على أشياء مثيرة للاهتمام من على حافة المحيط، ففي الآونة الأخيرة فقط، اكتشفنا رواسب ضخمة من النحاس والذهب، ومشكلتنا أننا لا نمتلك بنية تحتية. لكن لدينا موارد عالية القيمة، ونادرة ومعادن نفيسة تتطلب

القليل من البنية التحتية، التي يمكن استغلالها دون الإضرار بالريف من خلال المصانع والطرق.

«فنحن بحاجة لقوة اقتصادية من خلال الثروة الحيوانية التي نمتلكها، ومن خلال السياحة البرية، ومن خلال مواردنا لضمان وجودنا السياسي. نعم، إنها مسألة خطيرة، إذ كنت موجودة في نادي المراسلين الأجانب في بكين قبل شهرين، وخاطبني أحد المراسلين الشباب في الواقع قائلاً: «لدينا شعور محير حول منغوليا، لأن منغوليا هي جزء من الصين!»».

آه، الصين، الشبح، العملاق الطيفي، حيث يمثل جنكيز رمزاً للقوة الماضية، وربما الحزم المستقبلي، وهنا تذكرت التلميحات التي شاهدتها وسمعتها التي توحي بموقف الصين من حدودها التاريخية، والتطورات التي تكمن وراء ذلك، فإمبراطورية التبت انطوت قسراً بين ثناياهم، ومنغوليا تم اختطافها من الروس قبل الثورة، وتلك السرقة تم تأكيدها بعد الثورة، ومن ثم أُعيد ذلك التأكيد بعد الاستفتاء العام الذي وافق عليه المهزومون والفاسدون الوطنيون، ولم يوافق عليه الشيوعيون مطلقاً، لذا من وجهة نظر أولئك الذين لديهم حس تاريخي وما ينبغي أن تكون عليه الصين، يوجد خطأ لا بدّ من تصحيحه، «فالتصحيح» الذي إذا ما قُدر له أن يتحقق، سيتحقق بطبيعة الحال، باسم جنكيز خان، لأن ورثته هم من أعادوا توحيد الصين القديمة، وبالتالي إنه هو، كمؤسس لسلالة الصين، من أعاد تأكيد جذور الصين الحديثة، الصين التي تم إعادة تشكيلها الآن من الشيوعيين بشكل شبه نهائي، وتبنى الحزب الشيوعي بعض أساليب الرأسمالية، لكنّه لا يزال السلطة المركزية، ولم يظهر أية إشارات للتنازل عن السلطة - أو عن آرائه بشأن المناطق التي تخص الصينيين «فعلاً».

كما يوجد تيارات معقدة في العمل هنا، تيار جارف بقوة، بالكاد يمكن ملاحظته على السطح، حيث يعيش الفرد وتموج السياسات قصيرة الأجل وتتلاشى.

ومنذ قرن من الزمان بدأ المؤرخ الجغرافي البريطاني السير «هالفورد ماكندرHalford Mackinder» بدعة ذكية لما أسماه «قلب الوطن» في إشارة إلى آسيا الداخلية، إذ كتب قائلاً: «من يحكم قلب الوطن، يحكم العالم». حسناً، لكن حديثه ليس صحيحاً تماماً. لكن دعونا نقلل من شأن هذا الاعتقاد المثير بشكل أكثر من اللازم، وذلك باستبدال كلمة «العالم» بكلمة

«أوراسيا»، وبالتالي سنلتقط شيئاً ذا مغزى - ليس الحقيقة الحرفية، لأنه لا يوجد شخص في الحقيقة حكم أوراسيا بكاملها، لكنّه اتجاه تاريخي قوي تم التعبير عنه بأفضل أشكال النقاء من جنكيز وورثته المباشرين، ومن ثم جعلت التكنولوجيا، وبشكل خاص البارود، من الجيش البدوي جيشاً عفا عليه الزمن، ومر المشعل إلى الثقافات المستقرة، التي كانت تنافس أيضاً «قلب الوطن»، فالصين وروسيا واليابان كانت جميعها تعدّ منغوليا، الجزء المركزي من قلب الوطن، وذات أهمية استراتيجيّة، لذلك فإن الصراع من أجل الهيمنة هنا استمر على مر القرون: سقطت منغوليا في يد الصين (1644 - 1911) ومن ثم ظهرت روسيا، فسقطت الصين ومنغوليا على حد سواء، وبقيت مستقلة اسمياً، وانطوت تحت ثنايا الحكم الروسي، لكن منذ عام 1990م انهارت روسيا ونهضت الصين مرة أخرى، أما اليوم، فإن مفهوم الهيمنة العسكرية من الناحية الجغرافية يقوض من القوة الجوية، فأميركيا تستطيع أن تهاجم أفغانستان من وسط آسيا، وتهاجم العراق من الخليج الفارسي، لكن هذا لا يقتصر على الحرب فقط، بل أيضاً حول التغيير البطيء، أو التعبير عن الهيمنة الثقافية، مع وضع الجيوش في الخلفية، وراء تحول الناس وتطفل المؤسسات.

أين ترك هذا منغوليا وتراث جنكيز؟ إما في موقع مهيمن عليه بشكل غريب، أو في موقع خَطر على نحوٍ مميز، ومهما حدث من نقطة تحول، وذلك في الوقت الذي ينبغي فيه على الأمة، خلقَ جنكيز، إعادة النظر في طبيعتها وفي دورها في العالم، وتعد نسخة اليوم من «نظرية قلب الوطن» نظرية أكثر اتساعاً من الناحية الجغرافية السياسية، التي ترى أن التاريخ الحديث والمستقبل المنظور قائم على تنافس الحضارات، وفي بيان شعبي وقوي لهذه النظرية، يقول «صموئيل هنتنغتونSamuel Huntington «إن هناك تسعة لاعبين أساسيين في تنافس الحضارات، وتمثل الولايات المتحدة مركزاً لإمبراطورية غربية موسعة، التي تعد أوروبا الغربية جزءاً منها (في الوقت الحالي) والإسلام هو اللاعب الآخر، والصين الثالث، والأرثوذكسية (على سبيل المثال، روسيا) هي الرابع، واللاعبون الآخرون هم أمريكيا اللاتينية وأفريقيا والهندوسية والبوذية واليابان، وقد تصادم اثنان من التسعة - الإسلام والغرب - بشكل فعلي. لكن فلنأخذ على محمل الجد الضغط القادم من طرف آخر يمثل ربع البشرية، وبالتحديد الصين، فإذا ما سعت الإمبراطوريات للتوسع، فإن الحضارات

كذلك ستتوسع، وسيكون الصراع حتمياً في نقاط تماسهم، ولننظر على سبيل المثال، إلى روسيا في آسيا الداخلية وإلى الصين في آسيا الداخلية، فعلى حد تعبير وزير الدفاع الروسي «بافيل غراتشيفPavel Grachev»، نقلاً عن «هنتنغتون»: «إن الصينيين في خضم القيام بعملية غزو سلمي لأقصى شرق روسيا»، وبالإضافة إلى ذلك، يواصل «هنتنغتون» قائلاً: «قد يؤدي تطوير الصين لعلاقاتها مع الجمهوريات السوفيتية السابقة في آسيا الوسطى إلى تفاقم العلاقات مع روسيا، وقد يتخذ التوسع الصيني منحىً عسكرياً إذا ما قررت الصين محاولة استعادة منغوليا».

وفي الوقت الحاضر، هذا كله ما هو إلا مجرد إطار نظري للاستراتيجيين غير العمليين المختصين في الجغرافيا السياسية في الغرب، ولكنها أكثر عمليةً داخل الصين، حيث يوجد هناك شعور بأن الصين لا زالت ليست هي الصين التي كانت عليه في السابق، وذلك لأن الصين «الحقيقية» هي الإمبراطورية التي كانت عليه إبان حكم ورثة جنكيز، وأن جنكيز ينبغي أن يُنظر إليه بإعجاب لأنه الحاكم الصيني الوحيد الذي غزا أوروبا وكسب الحرب. كما أنها نظرية ليست عملية على الإطلاق عندما تحس بالكراهية العميقة للمغوليين نحو الحكام الذين هربوا منهم قبل أقل من قرن من الزمان، والذين يبحث رجال أعمالهم بشكل متواصل عن فرص في مستعمراتهم السابقة.

وكل هذا ربما لا يؤدي إلى أية نتيجة، أو ربما يُدار التغيير بالمنفعة والاحترام المتبادل. لكن نصف سكان معقل جنكيز، النصف الذي يقطن جنوب صحراء غوبي، تم استيعابه بالفعل، وتحول أسلوب حياتهم التقليدي إلى مصممي أناقة وجامعي أجرة النقل السياحي، وهذا ليس خارج حدود الإمكانية بأن النصف الآخر سيتبعهم، وذلك لأنه لن يكون هناك حاجة للحرب. كما أن ضغط التجارة والاستعمار البطيء سيكون كافياً لإحداث هذا التغيير، وسيكون من المفارقات الغريبة إذا ما سيطر المزارعون وسكان الحضر على المعقل المتبقي للرعاة البدو، لأنهم إذا ما فعلوا ذلك، فإنهم سيفعلونه باسم جنكيز خان، الرجل الذي جعل منغوليا جزءاً من الصين، وإذا ما قاوم المغول هذا الضغط، فإنهم أيضاً سيفعلون ذلك باسم جنكيز، الرجل الذي جعل الصين جزءاً من منغوليا.

ويوجد مفارقة أكثر غرابةً من كل هذا، مفارقة مدهشة للغاية، وخصوصاً بالنسبة للغربيين

الذين اعتادوا النظر إلى جنكيز كمدمر، ومهما كانت طبيعة الصراع بين هاتين الحضارتين، فإن قرارها أيضاً يمكن أن يتحقق باسم جنكيز، لأنه ليس فقط رمزاً لسياسات وثقافات شعبين مختلفين، بل هو أيضاً رمزٌ للروحانية والسلام ووحدة الأضداد.

ففي منغوليا هناك حنين روحي لا يمكن الإجابة عنه من خلال الازدهار الحالي في الطوائف المسيحية أو حتى في إعادة انبعاث البوذية، وكما أوضحت «أويون»: «من المفترض أن يكون الدين أكثر حرية، لكن وبالرغم من أن هناك نهضة دينية ضخمة، إلا إنها تتلاشى، فلنأخذ الركام المقدس على سبيل المثال: في يوم من الأيام كانت أوشحة الاحتفالات الدينية [أقمشة الحرير الأزرق التي ترفرف فوق الركام المقدس] شحيحة جداً، وهي من الأشياء الواجب تبجيلها، ففي بيت أجدادي كنا نمتلك واحدة أو اثنتين منها، أما اليوم فإنك تراها في كل مكان، كما ترى الركام المقدس مغطى بالنفايات، وهذه الأمور تجعل الدين يبدو سطحياً، وينتاب الناس إحساس بأن الإحياء الديني ليس حقيقاً».

لكن هناك دين يمكن أن يقدم كلاً من التوجيه والأصالة على حد سواء، فضريح جنكيز خان هو قلب هذا الدين الذي هو في طور الانبعاث، مع مجموعة من المعتقدات المتنامية والمؤثرة (بالنسبة للبعض)، وهي موجودة على مستويات كثيرة، محاكيةً الأيام الأولى لظهور الديانة المسيحية، بجذورها التاريخية، وطقوسها المتطورة، وصراعاتها لأجل البصيرة، وربما ذات يوم سيكون لدى طائفة جنكيز خان زنادقتها الانفصاليين الذين يصرون على أن جنكيز، كابن للسماء، كان أكثر قدسية من كونه إنساناً، متجادلين بشكل حاد حول كيفية الموازنة بين طبيعته المزدوجة. أما فيما يتعلق بالطائفة نفسها فالأمر يتعدى مراسيمها وجاليتها من المعاونين، إذ كان لديها تطلعات روحية أصيلة، تم صياغتها من عالمها اللاهوتي، «شارالداي Sharaldai» الذي سمعت اسمه في الضريح، فهو مؤلف كتاب «سلطة السماء الخالدة» موضحاً من خلاله طبيعة جنكيز النصف إله.

التقيت «بشارالداي» في «أولان باتور» حيث كان قد جاء لحضور مؤتمر عن دراسات جنكيز خان، وأثناء تناولنا الشاي في الفندق، وبمساعدة «إردينيErdene» الخبير في تربية الحيوانات، تحدثت مع «شارالداي» حول موضوع قدسية جنكيز، وعلى الفور كنت في نوع مختلف من الكون، بعيداً عن الطقوس والخرافات المتضاربة، لنغوص في عالم اللاهوت

والفلسفة، لكنّه لم يكن صبوراً معي، فهو «دارخاتيDarkhat» وتسري هذه العبادة في دمه على مدى أجيال، وغير صبور مع أولئك الذين يدعون القليل من المعرفة، مثلي.

وعندما سألت عم إذا كانت حظيرة الرب قد ارتبطت بالمعجزات، شعر بغضب شديد، وذلك لأن سؤالي دل على التقليل من شأن المكان، فقال: «إن عبادة جنكيز خان هي وسيلة لربطنا بالسماء الخالدة».

فاستوضحت الأمر قائلاً: «هل تعني أنه كان مجرد وسيط؟» إذ كنت أحاول العثور على ما يعادلها من تجربتي الخاصة. هل عبادة جنكيز مماثلة للعبادة المسيحية،لنقُل، لتمثال قديس؟ فأنت توجه صلواتك إلى تمثال، لكن هل الهدف الحقيقي هي الروح غير المرئية للقديس، وهل هذا هو المدخل إلى الله؟

فأجبر نفسه على التحلي بالصبر قائلاً: «نعم، يوجد ثلاثة مستويات. انظر، العقيدة الأساسية لفلسفة السماء الخالدة هي أننا على الأرض جزء من السماء الخالدة، التي هي نظامنا المكون من تسعة كواكب، ويقول الناس أننا كبشر نوجد في أعلى التسلسل الهرمي للحياة، وقد يكون ذلك صحيحاً من منظور علم الأحياء. لكن من منظور الفلسفة، نحن جزء من السماء الخالدة، وإذا فكرنا في أنفسنا على أساس أننا في قمة التسلسل الهرمي فإننا نفصل أنفسنا عن السماء الخالدة، ومهمتنا هي إعادة دمج أنفسنا مع الخلق، وهذا ما لا يقدره الناس اليوم».

فقلت له: «إذن عندما يعبد شخص جنكيز خان، فهو يعبد السماء الخالدة من خلاله؟».

فأجاب بالقول: «نعم هي كذلك. كما يمكنك أيضاً عبادة السماء الخالدة مباشرةً، فكما ترى، يوجد ثلاثة عناصر: السماء الخالدة، وسلطة السماء الخالدة وأن تكون خاضعاً لسلطة السماء الخالدة».

فأجبته قائلاً: «لقد أصبح الأمر أكثر تعقيداً، إذ كنت دوماً أشعر بالحيرة من الثالوث، فالمسيحيون يقولون بأن الرب ثلاثة في واحد: الأب، والروح القدس، والابن».

فقال: «هناك أوجه تشابه. لكن السماء الخالدة لديها قوة حقيقية. يمكنك الشعور بها، ويمكنك رؤية آثارها. هذا هو الفرق، فقد عرف جنكيز بأن جميع الكائنات الحيّة تدين بقوتها

للسماء الخالدة، وأنه كان قادراً على استخدامها للقيادة، ويمكنك أن ترى كيف نحن المغول نفعل ذلك من خلال النظر إلى ألعابنا الرياضية الوطنية الثلاثة، المصارعة، وسباق الخيل، والرماية، فبوساطة هذه الوسائل: البنية القوية، والفروسية الجيدة، والرماية الدقيقة، قهرنا نصف العالم، لكن استخدام القوة بهذه الطريقة لم يكن الغرض الحقيقي للسماء الخالدة، ففي حالة الغزو، وجدنا أن هذه الطريقة ليست هي الطريقة المثلى للحياة، من خلال جلب المعاناة للآخرين، وما تعلمناه هو أن الوقت قد حان لوقف القتال والعيش من خلال التفاوض، ونحن الآن نستخدم الرياضة لشحذ عقليتنا، بألا نقاتل، بل نفاوض».

فسألته: «ماذا يعني هذا بالنسبة لليوم؟».

فأجاب: «نحن في خضم عملية استكشاف، وأعتقد أن هناك أشياء كثيرة ما زلنا نحن المغول لم نفهمها في كتاب التاريخ السرّي، فبعض الكلمات، وبعض الأشياء ما زالت غير واضحة، وإذا ما استطعنا أن نفهم أكثر، سنكتشف فلسفة ستساعد العالم».

لقد كان يهيئ لموضوعه، فنسيني، وانخرط في حديث مع رفيقه المغولي، «إرديني Erdene» قائلاً: «في عالم اليوم، لا يوجد فلسفة حياة! يوجد علم، لكن العلم ينظر فقط إلى قشور الأشياء، فالعلم يصنع الأسلحة النووية - سلاحاً غبياً، الذي لا يمكن استخدامه لأن المستخدم يدمر نفسه! فالقادة يستخدمون السلاح النووي لنشر الخوف، لكن قوة السلاح لا تمنع الناس أمثال «بن لادن» من أن يفعلوا ما يريدون، وذلك لأنهم جميعاً نسوا وجود قوة السماء الخالدة».

هذا هو الغرض الحقيقي من الضريح - ليس فقط لإيقاظ المغول بل كل فرد في مكانه في الكون. «لا يهم إذا ما كانت الكائنات أصلية أم لا، فالمغزى الحقيقي يكمن في الاتصال بالسماء الخالدة. حتى في هذا المعنى، كما أقول في كتابي - أشار إلى صفحة لتأكيد ما قاله - يعدّ جنكيز خان روحاً ملهمة لنا جميعاً، فقد خُلقنا من السماء الخالدة، وإذا ما اتبعنا الطريق، سنكون جميعنا خالدين».

لقد كانت رؤية استثنائية غير محتملة، بالكاد أستطيع تخيلها: فإذا كان تدفق الكهنة من خلال الضريح سينشر كلمة السماء الخالدة إلى العالم الخارجي، فإن تشكيل لجان

الدراسات، ومعاهد السلام، وجماعات الضغط، كلها سمات لإيمان جديد - وإذا انتشرت رسالة «شارالداي» سيكون هناك أولئك الذين يُعلمون الناس بأن حياة جنكيز كانت الخط المتعثر الأول على الرسم البياني، الذي قوي وارتفع على مدى ثمانية قرون ليصل إلى هذه الاستنتاجات المذهلة: بأن العنف، أياً كانت نجاحاته الأولى، سيفشل حتماً في النهاية، وبأن كل صراع يجب أن يُحل من خلال المفاوضات السلمية.

وهذا هو بالتأكيد الأمر الأكثر شذوذاً في جميع تحولات جنكيز: في الحياة، من «قملة» على سفح جبل إلى قاهر العالم، والتحول بعد الموت، إلى نصف إله، والآن روح الوئام العالمي.

ملاحظة: في أكتوبر من عام 2004م، أعلن فريق من علماء الآثار اليابانيين والمنغوليين بأنهم تأكدوا من الضريح الذي وجد في مدينة أفراجا «كان قد خُصص لجنكيز خان» وذلك وفقاً لمستندات قديمة (لكن لم يكشف عن مصدرها) وبأن قبره كان لا بدّ أن يكون في الجوار، وفي الواقع، أن ما عُثر عليه كان مجرد قاعدة لمبنى صغير - هام في حد ذاته، لكن دون أي دليل ثابت على أنه الضريح، أو أن له أية علاقة بجنكيز، ناهيك عن أنه قد خُصص له، وربما يظهر شيء في المستقبل، لكن حتى الآن الادعاء ما هو إلا مجرد دربٍ آخر من دروب الدعاية فُرض بغرض الدعاية والإعلان وجمع الأموال.

مراجع مختارة

من شأن المراجع الكاملة عن جنكيز والموضوعات ذات الصلة، بما في ذلك الكتب والمقالات في جميع اللغات المختلفة المعنية بالأمر، أن تصنع سلسلة ضخمة من الكتب، ولكنها غير موجودة، وتتوفر أفضل المراجع في كتاب «راتشنفيسكي Ratchnevsky» (في الطبعة الإنجليزية، التي حررها بشكل رائع «توماس هايننغThomas Haining «) وكتاب «مورغان Morgan « (الشخص الذي لا يُقدر بمال لخبرته في التاريخ الإسلامي). كما سُردت الأعمال الرئيسة في كتاب «نوردبيNordby»، وينبغي أن يلحظ قراء اللغة الإنجليزية القيود التي فُرضت على الكتابة، ويتوافر أغنى مصدرين عن الدراسات المغولية باللغتين الفارسية والصينية، وقد قرأ القليل جداً من المؤرخين - ناهيك عن المؤرخين الناطقين باللغة الإنجليزية - كلًّا المصدرين، ناهيك عن المطبوعات التي كُتبت بالكثير من اللغات الأخرى، فجميعنا يعتمد على التراجم، وبالرغم من ذلك، فإن بعض المصادر - وبالذات كتاب (تاريخ أسرة يوان) الذي كتب باللغة الصينية - يصعب فهمها لدرجة أنها تحتاج إلى تفسيرات الخبراء، التي هي نفسها تحتاج إلى ترجمة، ولا يزال كتاب (تاريخ أسرة يوان) ومصدر رئيسي آخر كتب باللغة الفارسية بواسطة (رشيد الدين) لا يمكن الوصول إليهما بشكل كامل بالنسبة لقراء اللغة الإنجليزية، وعلى مدار عشرين عاماً وُجِد المصدر المغولي الوحيد (كتاب التاريخ السرّي) بطبعتين، إحداهما بوساطة «كليفز Cleaves» (كتبت بأسلوب توراتي زائف غريب) والأخرى بواسطة «أونون»، وحل محلهما اليوم نسخة كتاب «دي راتشويلزde Rachewiltz».

وفي ما يلي الكتب والمقالات والفصول التي كانت مصادري الأدبية الرئيسة.

1. توماس تي. ألسين: انظر كتاب فرانك وتوتشيت.
2. إدوارد أرنولد: جغرافية الجليد. لندن، 1979.
3. جورج بارنولد: تركستان تحت الغزو المغولي. لندن،1977.
4. تشارلز باودن: تاريخ ألتان توبكي المغولى، ويسبادن، 1955.
5. تشارلز باودن: تاريخ منغوليا الحديث. لندن، 1989.
6. دامبن بازارجور: أطلس جنكيز خان. أولان باتور، 1996.
7. أورادين إي. بولاج: القومية والتهجين في منغوليا. اكسفورد، 1998.

8. أورادين إي. بولاج: المغول على حدود الصين. لانهام، ميريلاند،2002.

9. لي. لوكا كافالي – سفورزا: انتشار الزراعة والبداوة الرعوية: «بصائر من علوم الوراثة واللغة والآثار» في كتاب أصول انتشار الزراعة والرعي في أوراسيا. لندن، 1996.

10. جايمز تشامبرز: فرسان الشيطان: الغزو المغولي لأوروبا. لندن،1979.

11. فرانسيس ودمان كليفز: «تاريخية ميثاق بلجونا» مجلة هارفرد للدراسات الأسيوية، المجلد الثامن عشر، 1955.

12. فرانسيس ودمان كليفز (ترجمة): تاريخ المغول السرّي. هارفرد،1982.

13. واتس دامدنجران: تاريخ المغول السرّي. أولان باتور، 1990.

14. روث دونيل: «شي شيا» في كتاب فرانك وتوتشيت.

15. جوزيف إف، فلتشر: «المغول: مشاهد بيئية واجتماعية» في كتاب دراسات حول آسيا الداخلية الصينية والإسلامية. ألدرشوت، 1995.

16. فرانك وهربرت ودِنس توتشيت (محررون): تاريخ كامبردج للصين، المجلد السادس: النظم الغربية والدول الحدودية، خصوصاً فصل توماس تي.ألسن «ظهور الإمبراطورية المغولية». كامبردج، 1994.

17. جاك جرنيت: تاريخ الحضارة الصينية، ترجمة.

18. فوستر جي.أر وهارتمان تشارلز. كامبردج، 1982، الطبعة الثانية، 1996.

19. رينيه جروسيت: فاتح العالم. لندن، 1967.

20. رينيه جروسيت: إمبراطورية السهول. نيوبرونزويك، نيوجرسي، 1970.

21. إريك هاينيستش: «موت جنكيزخان فاتح العالم» آسيا الصغرى، المجلد التاسع، 1933.

22. تشارلز هالبرن: روسيا والقبيلة الذهبية. بلومينغتون، ولاية إنديانا، 1985.

23. والترهيسيج: الحضارة المفقودة. لندن، 1980.

24. والترهيسيج: ديانات منغوليا. لندن، 1980.

25. وليام هنج: «نقل الكتاب المعروف باسم تاريخ المغول السرّي» مجلة هارفرد للدراسات الأسيوية، المجلد الرابع عشر، 1951.

26. صموئيل بي.هينغتون: صراع الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي. نيويورك ولندن، 1996.

27. بيتر جاكسون (محرر): مهمة الراهب ويليام من روبروك. لندن، 1990.

28. سيشن جاجتشيد وهاير بول: ثقافة ومجتمع منغوليا. بولدر، كولورادو وفولكستون، 1979.

29. عطا مالك جوفاني: جنكيز خان: تاريخ فاتح العالم، ترجمة وتحرير جي.أي.بول. مانشستر، 1958، الطبعة الثانية 1997.

30. أناتولي خازانوف: البدو والعالم الخاجي. كامبردج، 1984.

31. بول إي.كلوبستج: الرماية التركية والقوس المركب. مانشستر، 1987.

32. لوك كوانتين: البدو الإمبراطوريون: تاريخ آسيا الوسطى، 500 - 1500، فيلادلفيا، 1979.

33. أوين لاتيمور: رحلات المغول. لندن، 1941.

34. اوين لاتيمور: دراسات في التاريخ الحدودي. أكسفورد، 1962.

35. لي تشي تشانغ: رحلات كيميائي، ترجمة آرثر ويلي. لندن، 1931.

36. بازيل لديل هارت: «جنكيزخان وسوبيداي» في كتاب كشف القادة العظام. إدنبرا ولندن، 1927.

37. إتش. ديزموند مارتن: ظهور جنكيزخان وغزوه لشمال الصين. بالتيمور، 1950.

38. هيلاري رو ميترنتش: الحكايات الشعبية المغولية. باولدور كولورادو، 1996.

39. الأكاديمية المغولية للعلوم وصحيفة يوميوري شيمبون، اليابان: تقرير حول التحقيق المشترك تحت إشراف المغولي الياباني جورفان غول لمشروع التحقق من الآثار التاريخية.

40. ديفيد مورغان: المغول. أكسفورد، 1986.

41. دابليو. إف. موت: الصين الإمبراطورية 900 - 1800. كامبردج، ماساشوستس، 1999.

42. جوديث نوردباي: منغوليا، سلسلة ببلوغرافية عالمية، رقم 156. أكسفورد، سانتا باربارا ودينفر، 1993.

43. أورجانج أونون (ترجمة): التاريخ السرّي للمغول. ليدين، 1990، طبعة جديدة ريتشموند، 2001.

44. كريس بيرز (رسوم توضيحية مايكل بيري): جيوش الصين الإمبراطورية (2): 590 - 1260. لندن، 1996.

45. كريس بيرز (رسوم توضيحية ديفيد سكو): الجيوش الصينية في العصور الوسطى، 1260 – 1520. لندن، 1992.

46. كارول بيج: الموسيقى والرقص والحكايات الشفوية المغولية، واشنطن العاصمة، 2001.

47. بول بيليوت: ملاحظات حول ماركوبولو. باريس، 1959.

48. إيغور دي راتشيويلز: «البحث عن جنكيز خان» مجلة الدراسات الشرقية، العدد رقم 71 (1997) روما.

49. إيغور دي راتشيويلز: «أين دُفن جنكيزخان؟ الأساطير والخداع والحقيقة» بحث غير منشور، 2002.

50. إيغور دي راتشيويلز (ترجمة وتحرير): التاريخ السرّي للمغول: سجل ملحمي مغولي من القرن الثالث عشر، مع تعليق تاريخي ولغوي، مجلدان. ليدين وبوسطن وكولونيا: بريل، 2004.

51. إيغور دي راتشيويلز، وآخرون (محررون): في خدمة الخان: شخصية بارزة من الفترة المبكرة لأسرة يوان المغولية (1200 – 1300)، ويسبادين، 1993.

52. رشيد الدين: خلفاء جنكيزخان، ترجمة. جون بويل. نيويورك ولندن، 1971.

53. بول راتشنيفسكي: جنكيزخان: حياته وتراثه، المحرر توماس هاينيغ. أكسفورد، 1991.

54. سو ريهو: «ضريح جنكيزخان وقبيلته الحامية» أطروحة، جامعة بنسلفانيا، 2000.

55. غبرائيل روناي: خان التتار الانجليزي. لندن، 1978.

56. موريس روسابي: قوبلاي خان: حياته وأحوال عصره، بيركلي ولوس أنجلوس ولندن، 1988.

57. جي. جي. ساوندر: تاريخ الإسلام في القرون الوسطى. لندن، 1965.

58. جي. جي. ساوندر: تاريخ الفتوحات المغولية. لندن، 1971.

59. جي. جي. ساوندر: المسلمون والمغول. كانتربري، 1977.

60. يوهانس شوبيرت: الصعود إلى جبل بورخان كالدون. لايبزغ، 1963.

61. تيم سيفيرن: البحث عن جنكيزخان. لندن ونيويورك، 1991.

62. شالرالداي وو شانهاي وليو يشينغ: («تجميع البحوث حول جنكيزخان، 1949 – 1990). هوهيهوت، 1991.

63. روبرت سيلفربيرغ: عالَم القس جون. نيويورك ولندن، 1972.

64. برتولد سبلر: تاريخ المغول: استناداً إلى الروايات الشرقية والغربية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. لندن، 1972.

65. سيتسين سانانج: تاريخ المغول الشرقيين والإمارة الخاصة بهم، ترجمة إسحاق شميث. سانت بطرسبورغ، 1829.

66. غوستاف ستراكوش - غراسمان: غزو المغول لأوروبا الوسطى في 1241 - 1242. إنسبروك، 1893.

67. ستيفن ترنبول (رسوم توضيحية وين رينولدز): أسلحة الحصار في الشرق الأقصى، (1) 612 - 1300 و (2) 960 - 1644. لندن، 2001.

68. آرثر والدرون: سور الصين العظيم. كامبردج، 1988.

69. بيتر ويليام ومايكل سميث: الأرض المتجمدة: أساسيات علم جغرافية الجليد. كامبردج، 1989.

70. شو تشينغ ويو يان: «قصر جنكيزخان في ليوبان شان والمقر الرسمي لآن - شي وانغ» (صيني) مجلة جامعة ننغشيا، المجلد الثالث، 1993، ينتشوان.

71. تاتيانا زرجال، وآخرون: «التراث الوراثي للمغول» المجلة الأمريكية لعلم الوراثة البشرية، العدد رقم 72، مارس 2003.

مسرد مصطلحات بأسماء الأشخاص

الاسم

العباس (Abbas): عم النبي محمد صلي الله عليه وسلم.

عبد الرحمن (Abd al-Rahman): تولى مسئولية تحصيل الضريبة في جميع مناطق الجين.

ألبرت لورد (Albert Lord): أستاذ السلافية والأدب المقارن في جامعة هارفارد، ومؤلف كتاب «مغني الحكايات» الذي نُشر لأول مرة في عام 1960.

الاسكندر الأكبر (Alexander the Great).

ألتان توبشي (Altan Tobchi) (الملخص الذهبي): كتاب عن التاريخ المغولي ظهر في القرن السابع عشر للكاتب Luvsandazan Guush، ويُعد أهم ثاني كتاب بعد كتاب التاريخ السرّي لأنه يحتوي على وقائع تاريخية هامة. كما أنه يتميز بنكهة خاصة لأنه يحتوي على 233 فصلا من فصول التاريخ السرّي ليس فقط بشكل حرفي لكن مع تفاصيل إضافية في مناطق معينة. كما يشكل مصدراً رئيسياً للمعرفة حول حكمة جنكيز.

الثعلبي (Al-Tha'alabi): متخصص في جمع الأعمال الأدبية في القرن الحادي عشر.

أمبكاى (Ambakai): حاكم مغولي.

امبكاي (Ambaki): الشقيق الأكبر لكابول كغاخان.

بادامداش (Badamdash): عالم لغوي ومؤرخ وأستاذ في الجامعة الوطنية المنغولية.

باتو (Batu): حفيد جنكيز، أحد أبناء جوتشي.

بيغتر (Begter): ابن يوسجي والأخ غير الشقيق لجنكيز خان.

بيلغوتي (Belgutei): ابن يوسجي الأخ غير الشقيق لجنكيز خان.

بن غن (Ben Gunn): شخصية وهمية وردت في رواية جزيرة الكنز للروائي الإسكتلاندي روبرت لويس، تتحدث عن شخص عاش وحيداً في جزيرة لمدة ثلاث سنوات.

بورتشو (Boorchu): صديق تموجين «جنكيز خان» وأحد أهم قادته العسكريين.

بورتي (Borte): زوجة جنكيز خان وتنتمي لعشيرة الأونغراد.

جغتاي (Chagadai): الابن الثاني لجنكيز خان.

تشانغ - تشون (Ch'ang - chun): زعيم طاوي.

تشاليديو (Chiledu): الشقيق الأصغر لزعيم قبيلة الميركيتيين الذي اختطف والد جنكيز عروسه بورتي.

القديس كرسبيان (Crispian).

دي (Dei): والد بورتي زوجة جنكيز من عشيرة الأونغراد.

دو جيان لو (Du Jian Lu): مدير متحف جامعة نينغشيا بيتنشوان.

فرايار وليام (Friar William): (1220 - 1293) راهب ومستكشف. رافق الملك وليام لويس في الحملة الصليبية السابعة. أُرسلته القسطنطينية في رحلة تبشيرية إلى منغوليا، وتُعد روايته حول منغوليا واحدة من روائع الأدب الجغرافي في العصور الوسطى.

جيوك (Guhuk): ابن اوقطاي.

هارولد لامب (Harold Lamb): ولد في جبال الألب في ولاية نيوجيرسي. توفي عام 1962. كان مهتماً بدراسة تاريخ آسيا، في عام 1927 أصدر كتاباً بعنوان «السيرة الذاتية لجنكيز خان».

هولين (Hoelun): زوجة يوسجي، والدة جنكيز خان.

هو - لو - ما (Ho - lo - ma): إمبراطور مملكة الجين.

إينالشوك (Inalchuk): توفي عام 1219 وكان حاكماً لمدينة أوترار في إمبراطورية خوارزم في أوائل القرن الثالث عشر، وأطلق عليه العديد من الألقاب مثل اللورد الصغير وقدير خان والخان القوي.

جاخا أو جاغا (Jakha): شقيق توغرال.

جاموغا (Jamukha): قائد عسكري مغولي وزعيم سياسي منافس لتيموجن بالرغم من كونه صديق طفولته وشقيقه في الدم.

جوتشي (Jochi): أحد أبناء جنكيز خان الأربعة وأحد أهم القادة العسكريين الذين عملوا على توسيع الإمبراطورية المغولية، ويقال إنه ابن غير شرعي لجنكيز خان.

جوزيف جوغاشفلي (Josef Djugashvili): المعروف باسم جوزيف ستالين (1879 - 1953) الزعيم السوفيتي الذي شغل منصب الأمين العام للحزب الشيوعي بعد وفاة لينين.

جوفايني (Juvaini): مؤرخ فارسي من القرن الثالث عشر.

كابول كغاخان (Kabul): أول زعيم عظيم للمغول.

كاسار (Kasar): أحد أشقاء جنكيز الثلاثة واسمه الأصلي «جوتشي» لكن أطلق عليه لقب كاسار لشجاعته ومهارته في رمي السهام.

خوخو - جوز (Khokho - chos): رجل دين شاماني.

كيريلتوك (Kiriltuk): زعيم قبيلة التايشوتيين.

كوشلغ (Kuchlug): زعيم ينتمي إلى قبيلة «ناعما أو النايمان» فر إلى مملكة خيطان بعد أن هُزمت قبيلته على يد جنكيز خان لكنّه انقلب على خان تلك المملكة وسيطر على الحكم. قتل في عام 1218 على يد المغول عندما غزوا المنطقة.

كوتولا (Kutula): عم جنكيز خان الأكبر.

لي فانوين (Li Fanwen): عالم لغوي صيني.

لي يوان هو (Li Yuan - hao): المؤسس الحقيقي لشي شيا.

الإمبراطور المانشو شوان (Manchu emperor Shunzhi): (1644 - 1661) ثالث إمبراطور من المانشو من سلالة كينغ.

ميلمان باري (Milman Parry): (1902 - 1935) أستاذ مشارك في جامعة هارفارد، متخصص في الملاحم الشعرية.

موخالي (Mukhali): ولد عام 1170. كان يعمل لدى أعداء جنكيز، وبعد أن أسره جنكيز تحول إلى أحد أهم القادة المخلصين وشارك في العديد من الغزوات.

ناكو (Naku) والد بورتشو.

نسطور (Nestorius): بطريرك القرن الخامس الذي لُعن لتأكيده مساواة طبيعتي السيد المسيح كإله وإنسان.

نيلكا (Nilka): ابن كيريلتوك زعيم قبيلة التايشوتيين.

أوقطاي (Ogedei): الابن الثالث لجنكيز خان والخان الأعظم الثاني للإمبراطورية المغولية وجاء خلفاً لوالده. تابع توسيع الإمبراطورية وشارك على نطاق واسع في الفتوحات، وتوفي فجر يوم 11 ديسمبر 1241 نتيجة إدمانه على الكحول.

أوردا (Orda): حفيد جنكيز، أحد أبناء جوتشي.

بيتر كوزلوف (Petr Kozlove): مستكشف روسي.

رينشياو (Renxiao): الإمبراطور الخامس لسلالة شيا الغربية تولى الحكم من 1139 وحتى 1193.

شيلي (Shelley): هو الشاعر الرومانسي الإنكليزي الشهير، (1792 - 1822) وعنوان قصيدته (أوزيمانديس) هو تسمية غير صحيحة لملك مصر رمسيس الثاني، وكان الأوروبيون في القديم يسمون معبد رمسيس الجنزي معبد أوزيمانديس.

شيجاي (Shigi): شقيق جنكيز بالتبني.

السيد أوريل شتاين (Sir Aurel Stein): عالم آثار بريطاني.

سورغغتاني (Sorghaghtani): (1198 - 1152) أو الأميرة بيكي، وهي زوجة تولاي الابن الأصغر لجنكيز وتعد واحدة من أشهر النساء في الإمبراطورية المغولية.

سوركان شيرا (Sorkan Shira): أحد أفراد القبائل التابعة لقبائل التايشوت، ساعد هو وأسرته جنكيز خان على الهروب من أيدي التايشوت.

سيما تشيان (Ssu - Ma Ch'ien): واحد من أعظم المؤرخين في تاريخ الصين. نشأ في عائلة مكونة من المنجمين. اتبع أسلوباً جديداً في كتابة التاريخ وذلك عن طريق كتابة سلسلة من السير الذاتية.

سوبيداي أو سوبيتاي (Subedie): (1176 - 1248) أحد القادة الرئيسين لجنكيز وأوقطاي. قاد أكثر من عشرين حملة وكسب أكثر من اثنين وثلاثين معركة.

سخباتار (Sukhbaatar): بروفيسور عمل في جامعة جنكيز خان في منغوليا.

صنسلتيار (Sunseltayar): مدير مدرسة

تيموجن (Temujiin): الاسم الأول لجنكيز خان.

تيركين (Terken): والدة الشاة محمد، شاة خوارزم.

والدة الإله (Theotokos أو God - bearer): مريم العذراء

Thucydides: (395 ق.م - 470 ق.م) مؤرخ ومؤلف يوناني. ألف كتاب تاريخ الحرب البيلويو نيسية الذي يسرد فيه خمسة قرون قبل الحرب بين اسبارتا وأثينا في العام 411 ق.م، ويسمى أيضاً بأبي التاريخ، لأن له معايير صارمة في جمع الأدلة وتحليلها من حيث السبب والنتيجة دون الإشارة إلى تدخل الآلهة.

توغرال (Toghrul): هو اللقب الذي أطلق على وانخ خان حاكم الجورشن من أسرة الجين.

تولاى (Tolui): الابن الأصغر لجنكيز خان.

تسيدنبال (Tsedenbal): أحد زعماء منغوليا، شغل منصب رئيس الوزراء ورئيس حزب الشعب الثوري المنغولى من عام (1852 - 1984) وعمل على إقامة علاقات وطيدة مع الاتحاد السوفيتي.

مريم العذراء (Virgin).

يان شيشونغ (Yan Shijong): نائب مدير متحف قويوان.

يه لو تا شيه (Yeh - lu Ta - shih): (1124 - 1143) مؤسس سلالة لياو الغربية أو مملكة خيطان - خانات كارا.

يوسجي (Yesugei): ابن كابول خان. كان شيخ قبيلة له أربعة أبناء من ضمنهم جنكيز خان. مات عندما كان جنكيز في التاسعة من عمره، ويقال إنه مات مسموماً من التتار.

يسينج (Yesunge): الابن الثاني لكاسار شقيق جنكيز.

مسرد مصطلحات بأسماء الأسر التي حكمت منغوليا والصين

(Borjigins): عشيرة جنكيز خان.

البوريات (Buryat): أكبر أقلية عرقية في سيبيريا ويبلغ عددهم حوالي 436،000.

الهوني (Hun): مجموعة من البدو هاجروا إلى أوروبا عام 370م وأسسوا إمبراطورية ضخمة هناك.

الجين (Jin): سلالة حكمت الصين من عام 265 وحتى 420.

جورشن (Jurchen): قبيلة سكنت منطقة منشوريا (شمال شرق الصين) حتى القرن السابع عشر، ثم تغير اسمها إلى المانشو، واستمرت هذه المملكة التي أسستها سلالة جين من العام 1115 وحتى 1234.

الكيريتيين (Keraits): مجموعة من القبائل في آسيا الوسطى كانت مهيمنة على المنطقة، وحسب حلفاء جنكيز خان أنها كانت مؤثرة في ظهور الإمبراطورية المغولية، وقد تزوج أحد أبناء جنكيز خان من امرأة من تلك القبيلة وبعد ذلك تزوج أربعة من أبنائهم بنساء من نفس القبيلة وأصبح لهم شأن كبير في الإمبراطورية أمثال قوبلاى خان ومونكو خان.

مملكة خيطان أو خيتان (Khitan): نشأت في شرق آسيا وسيطرت على مناطق منشوريا ومنغوليا وأجزاء من شمال الصين، وعرفت باسم إمبراطورية خيطان ولكنها اعتمدت رسمياً باسم «لياو العظمى».

الميركيتيين (Merkits): قبيلة اتسمت بالشراسة سكنت جنوب شرق سيبيريا في العصور الوسطى، وكلمة «Merikts» تعني بالمنغولية «الصيادين».

أسرة مينغ (Ming): سلالة حكمت الصين خلال الفترة (1368 - 1644).

النايمان (Naimans): أو قبائل ناعما: اسم منغولي أطلق على سكان سهول وسط آسيا، وهي شعوب تركية كانت تدين بالديانة المسيحية وتحولت فيما بعد إلى الإسلام.

الأونغراد (Ongirads): أحد القبائل الرئيسة التي سكنت آسيا الوسطى التي تنتمي إليها والدة جنكيز خان.

لسكيثيين (Scythians): الشعوب التي عاشت في آسيا الوسطى وروسيا وأوكرانيا التي كانت

معروفة حتى العصور الوسطى باسم (سيثا).

السونغ (Song): سلالة إمبراطورية صينية، حكمت البلاد في حقبة متميزة من الحقب الثقافية في الصين، ويقسم عهد سلالة السونغ إلى قسمين: سلالة سونغ في الشمال (960 - 1126م) وسلالة سونغ في الجنوب (1127 - 1279م). نشأت السلالة على يد تشاو كوانغ - ين الذي عرف لاحقاً باسم الإمبراطور سونغ تاي - تسو.

التايشوتيين (Taychiuts): قبيلة مغولية أقامت في وسط وجنوب شرق منغوليا وتنتمي إليها زوجة يوسجي «والد جنكيز» الأولى.

الأويغور (Uighurs): جماعة عرقية تركية عاشت في أوروبا الشرقية ووسط آسيا، ويعيشون اليوم في منطقة شينجيانغ في جمهورية الصين الشعبية.

يوان (Yuan): سلالة تأسست على يد القائد المغولي قوبلاى خان وحكمت الصين خلال الفترة (1271 - 1368).

مسرد مصطلحات لبعض المفردات

إراج أو كومس (Airag أو kumiss): منتجات الألبان المخمرة المصنوعة من حليب الفرس، وتعدّ أحد المشروبات الهامة في آسيا الوسطى وتركيا وكازاخستان.

الخيمياء (alchemy): فرع من فروع الكيمياء تم دراسته في العصور الوسطى ويتضمن محاولة اكتشاف طريقة تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب.

ذراع: وحدة قياس.

أندا (Anda): أخوة الدم.

اللغة الآرامية (Aramaic).

فم الغُرير (Badger's Mouth).

الكثاي السود (Black Cathay): لقب أطلق على مملكة خيطان.

الحداد (Blacksmith).

الجَنْطِانيا الزرقاء (Blue gentians): نبات مزهر يستخدم في صناعة البيرة والمشروبات الغازية، يطلق عليه اسم «نبات كف الذئب».

بوديساتفا (bodhisattva Vajrapani): مصطلح يتكون من شقين «بوذي» و«تنوير» ويشير إلى كل شخص يسعى إلى مساعدة الآخرين بدافع الرحمة.

البوذية (Buddhist): فلسفة هندية تنسب إلى بوذا تم تأسيسها عن طريق التعاليم التي تركها. نشأت في شمال الهند وانتشرت تدريجياً في شرق آسيا ثم في الصين ومنغوليا وكوريا.

الجوذان البصلي (buttercups): عشب ذو زهر أصفر.

الكنغ (cangue): طوق خشبي ثقيل كانت تطوق به أعناق المجرمين في الصين.

المزردة (Chain - mail): درع ذي صفائح معدنية متشابكة.

تشانغ - بو (chang - bo): نوع من النباتات الطبية يشبه جذور البصل.

الكونفوشيوسية (Confucianism): فلسفة صينية قديمة تنسب إلى فيلسوف الصين العظيم كونفوشيوس الذي ظهر في القرن السادس ق.م، تقوم على عبادة إله السماء أو الإله الأعظم، وتقديس الملائكة وعبادة أرواح الآباء والأجداد.

كوسا نوسترا (cosa nostra): المافيا أو الأخوة الجنائية التي ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر في صقلية.

الدراخاتيون (Darkhats): الأشخاص المسئولون عن حراسة ضريح حنكيز خان.

Dyed - in - the - wool: مخلص أو ثابت على المبدأ

حظيرة الرب (Edsen khoroo).

جيشان الجليد (frost - heave): ظاهرة تصدع سطح الأرض خلال تجمد وتمدد الماء تحت الجليد.

جنرال أو مستشار كبير (gambu).

الخيام المغولية (Gers).

الزُنار (Girdle): حزام الكتف والصدر.

هاي وين (Haywain): لوحة زيتية رسمها الفنان جون كونستابل في عام 1821.

كمانات رأس الحصان (Horse - head fiddles): آلة موسيقية مرتبطة بالتقاليد والثقافة المغولية تصنع أوتارها من شعر ذيل الحصان ويُضع على طرفها العلوي شكل رأس الحصان، ويطلق عليها بالمغولية Morin khuur.

التلال الجليدية الهيدروساتية (hydrolaccoliths): تلال جليدية تتكون على المنحدرات نتيجة لتخلل الماء تحت الجليد الدائم بفعل الضغط الهيدروستاتي

ألوهو بورخان (Iluhu Burkhan): القدوس الأعلى.

قيثارة الفك (Jaw's harps): أو قيثارة الفم: واحدة من أقدم الآلات الموسيقية في العالم. استخدمها معظم شعوب آسيا ويشار لها بالاسم komuz أو gubuz التي تعني الفم.

خاتاج (khatag): قطعة حرير من القماش الأزرق.

إيخ تنغر (Khokh Tenger): إله السماء عند المغول. حيث إن كلمة «إيخ Khokh» تعني السماء الزرقاء وكلمة «تنغر Tenger» تعني الله.

الوهق (lasso): حبل في طرفه أنشوطة يستعمل لاقتناص الخيل والأبقار.

المجال الحيوي (Lebensraum): أحد الأفكار السياسية الرئيسة لهتلر، وعنصراً هاماً من عناصر الإيديولوجية النازية، تهدف إلى توفير مساحات إضافية للألمان وذلك من خلال السيطرة على أراضي وثروات الشعوب الأخرى.

فارس مادارا (Madara Horseman): تمثال نُقش على صخرة كبيرة شرق هضبة مادارا في شمال شرق بلغاريا في بداية القرن الثامن، تصور فارس يغرس رمحه في قلب أسد ملقى تحت أقدام فرسه وكلب يجري وراء الفارس. كما نُقش على الصخرة ثلاثة نصوص تحمل معلومات مهمة عن تاريخ بلغاريا في تلك الفترة.

كاميلوت مغولي (Mongolian Camelot): مكان أسطوري بدون وجود أي دليل مادي.

المِهاد (Mulch): طبقة من النشارة أو التبن تُفرش على الأرض لوقاية جذور النباتات الغضة من الحرارة أو البرد.

نادام (Naadam): تعني باللغة المنغولية مهرجان - العيد الوطني للمصارعة والرماية وسباق الخيل الذي يقام كل عام في (11 - 13 يوليو).

النسطورية (Nestouriusm): مذهب مسيحي ينسب إلى الكاهن نسطور (386 - 451م) بطريرك القسطنطينية، ويرى بأن يسوع المسيح مكون من جوهرين يعبر عنهما بالطبيعيتين وهما: جوهر إلهي وهو الكلمة، وجوهر إنساني وهو يسوع، وبالتالي لا يوجد اتحاد بين الطبيعيتين البشرية والإلهية ولا يجوز إطلاق اسم والدة الإله على مريم العذراء كما تفعل الكنائس المسيحية الكاثوليكية والأرثوذكسية لأن مريم من البشر.

الأوديسة (Odyssey): أحد القصائد الملحمية اليونانية التي تعزى إلى هوميروس.

قصور (ordos).

أوفووس (Ovoos): نُصب شاماني موجود في منغوليا، وعادة يُصنع من الصخور أو الخشب ويوضع في أعلى الجبال أو الأماكن المرتفعة ويستخدم في عبادة الجبال والسماء.

باغودة (Pagoda): هياكل دينية على شكل برج ظهرت في الصين واليابان وكوريا وفيتنام.

هضاب البالز (Palsas): هضاب صغيرة من الجليد يبلغ ارتفاعها عدة أمتار ويزيد قطرها عن مئة متر، تتكون نواتها من الطمي.

حجر الفيلسوف (philosopher's stone): مادة كيميائية وردت في الأساطير قيل أنها قادرة على تحويل المعادن الرخيصة مثل الرصاص إلى ذهب.

المُشَهرة (pillory): آلة خشبية للتعذيب تُدخل بها يدا المجرم ورأسه ابتغاء التشهير به.

تلال القطب الشمالي (Pingos): تلال مخروطية الشكل لها نواة جليدية صلبة.

نظام الدمية (Puppet regime): الأنظمة التي تفتقر إلى الاستقلال لأن قراراتها في يد قوة

أجنبية.

قداس الألواح الذهبية (Service of the Golden Tablets).

الشامانية (shamanistic): دين بدائي من أديان شمالي آسيا وأوروبا ويتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، وأن هذا العالم لا يستجيب إلا للشامان.

الشامانية (shamanistic): دين بدائي من أديان شمال آسيا وأوروبا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب وهو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف وبأن هذا العالم لا يستجيب إلا للشامان.

شو - يو (sho - you): نوع من الجذور الطبية.

رَّواغ (slurry): طين رقيق القوام.

اللغة الإيرانية (Sogdian).

زَحْلُ التربة (solifluction): حركة التربة البطيئة للتلال في المناطق المتجمدة.

المزواة (theodolite): أداة لقياس الزوايا يستخدمها المساحون.

الكارست الحراري (thermokarsts): تشكيل من سطح الأرض ينتج عن ذوبان الجليد في المناطق التي يكثر بها الجليد والحفر الصغيرة والروابي الجليدية.

تومور (tomor): كلمة بمعنى الحديد

تومور دازام (tomor dzam): طريق الحديد

التريبيتاكا (Tripitaka): المجموعة الكاملة لكتابة القانون الكنسيّ البوذي

التوغريك أو التوغرغ (tugrik): العملة المغولية.

حوائط شعرية (Wall - lattices): حوائط مصنوعة من وبر الجمال وصوف الخراف.

رايات ذيول الياك (yak): رايات الحرب في عهد جنكيز خان.

هل يوجد أحد هناك؟ (You ren ma?).

Yurts: خيمة جلدية مستديرة وكبيرة.

آلاشان (Alashan): ولاية غرب منغوليا الداخلية ذاتية الحكم.

صحراء ألاشان (Alashan desert): تمتد من هضبة التبت شمالاً وحتى صحراء غوبي.

ألتاي (Altai): سلسة جبلية في وسط آسيا تمر عبر روسيا والصين وكازاخستان.

نهر الآمور (Amur): يمثل نهر الآمور الحدود الفاصلة بين روسيا وجمهورية الصين الشعبية.

أوراج (Aurag): عاصمة المغول القديمة.

بحيرة بايكال (Baikal): تقع جنوب روسيا وتعد أقدم وأعمق بحيرات العالم، كما تعد ثاني أضخم بحيرة بعد بحر قزوين ويبلغ عمقها 744،4 م.

بالاساكون أو بلاساغون (Balasagun): إحدى مدن قيرغيزستان القديمة تقع على ضفاف نهر تشوي بالقرب من بحيرة ايسيك كول. كانت عاصمة لمملكة خيطان في القرن العاشر وبقيت كذلك حتى استولى عليها المغول في عام 1218.

بكين (Beijing): أو بيجين، عاصمة الصين الحديثة.

بيندر (Binder): مدينة تأسست عام 1923 وتقع على ضفاف نهر الاونون.

نهر الدون (Don): أحد الأنهار الرئيسة في روسيا.

دونهوانغ (Dunhuang): أحد المدن الرئيسة في مقاطعة قانسو الواقعة علي طريق الحرير.

أوراسيا (Eurasia): رقعة واسعة تغطي حوالي 52.990.000 كم مربع أي نحو 10.6 من مساحة الأرض، وتشمل أوروبا ومعظم آسيا.

فيودوسيا (Feodosia): ميناء ومنتجع في شبه جزيرة القرم يقع على ساحل البحر الأسود وعرفت على مدار التاريخ باسم كافا.

قانسو (Gansu):مقاطعة شمال غرب الصين

جنوة (Genoese): مدينة تقع شمال ايطاليا وبها ميناء بحري هام.

غوبي (Gobi): خامس أكبر صحراء في العالم تغطي أجزاء من شمال وشمال غرب الصين وجنوب منغوليا

قويوان (Guyuan): تقع في إقليم نينغشيا في الصين وطلق عليها في الوقت الحالي اسم يوان تشو.

هيبي (Hebe): مدينة في إقليم شانجيانغ.

متحف الأرميتاج (Hermitage): متحف للفن والثقافة في سانت بطرسبرغ، روسيا، ويعد واحداً من أكبر وأقدم المتاحف في العالم. تأسس عام 1764 ويضم ما يقرب من 3 مليون قطعة فنية.

هوهيهوت (Hohhot): عاصمة منغوليا الوسطى.

المجر (Hungary): أو هنغاريا، جمهورية في أوروبا الوسطى وعاصمتها بودابست.

ايسيك كول (Issyk Kul): بحيرة تقع شمال جبال تيان شان، شرق قيزغيزستان، وتعد ثاني أكبر بحيرة مالحة بعد بحر قزوين.

كايسونغ (Kaesongk): مدينة في أقصى جنوب كوريا الشمالية اشتهرت بالتجارة مع الصين.

كايفنغ (Kaifeng): أحد العواصم القديمة السبعة في الصين، تقع على طوال الضفة الجنوبية للنهر الأصفر.

كاراكوروم (Karakorum): الإمبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر. تقع أطلالها في الركن الشمالي الغربي من مقاطعة «أوفورخانغاي» من منغوليا.

كاشغر أو كاشي (Kashgar): مدينة تقع أقصى غرب الصين.

جمهورية قيرغيزستان (Kergyzstan): تقع في آسيا الوسطى ويحدها من جهة الشمال كازاخستان ومن الغرب أوزباكستان ومن الجنوب الغربي طاجيكستان ومن الشرق جمهورية الصين الشعبية.

خنتي (Khenti): سلسلة جبلية مليئة بالأشجار الحرجية وأشجار الصنوبر تقع شمال شرق العاصمة.

نهر خيرلين (Kherlen River): يقع بالقرب من جبال بورخان خلدون على بعد 180 كم شمال شرق العاصمة أولان باتور.

خودو آرال (Khodoo Aral): جزيرة ريفية.

خوجاند (Khojend): ثاني أكبر مدينة في طاجيكستان وتقع على ضفاف نهر سير دريا، وتسمى اليوم باسم سوغد.

نهر خورخ (Khorkh): يقع جنوب جبال بورخان خلدون.

خوارزم (Khwarezm): جزء من الإمبراطورية الفارسية.

بحيرة كونمينغ (Kunming): تقع في وسط قصر الصيف قي بكين، مساحتها 2،2كم2.

كيزيل كوم (Kyzylkum): صحراء تعني الرمال الحمراء تقع في أوزباكستان وكازاخستان.

ينغ وو (Ling - wu): مدينة صناعية هامة في منطقة ننغيشيا.

منشوريا (Manchuria): اسم تاريخي يعود إلى منطقة جغرافية واسعة في شمال شرق

الصين. قام جنكيز خان بغزوها في عام 1211 ونجح في تدمير حصونها فأعلنوا ولاءهم لجنكيز خان.

مرو (Merv): مدينة قديمة من أهم واحات آسيا الوسطى تقع على طريق الحرير، وهي المدينة التي تسمى اليوم مدينة ماري في تركمانستان.

Mogao: كهوف الموقاو قرب مدينة دونهوانغ.

موكدين (Mukden): عاصمة منشوريا القديمة وتسمى اليوم شنيانغ.

نركينسك (Nerchinsk): مدينة روسية تقع على بعد 400 ميل إلى الشرق من بحيرة بايكال، وعلى بعد حوالي 225 كم إلى الغرب من الحدود الصينية.

نينغيشيا (Ningxia): إقليم ذاتي الحكم من جمهورية الصين الشعبية، موطن قبائل الهوى وعاصمته ينتشوان.

نيسابور (Nishapur): مدينة في مقاطعة خراسان شمال شرق إيران.

نوفغورود (Novgorod): واحدة من أعظم المدن التاريخية الروسية التي تربط موسكو بسانت بطرسبرغ.

نوراتا أو نور (Nurata): تأسست عام 327 ق.م على يد الاسكندر الأكبر في أوزباكستان.

نهر الأوب (Ob): نهر رئيس غرب سيبيريا له أطول مصب في العالم.

نهر اونون (Onon): ينبع من المنحدرات الشرقية لجبال خنتي وإلى الجنوب مباشرة من روسيا.

أورودس (Ordos): منطقة وسط غرب منغوليا، إلى الجنوب من النهر الأصفر، وهي كلمة منغولية تعني «القصور».

أوترار (Otrar): تقع في أسيا الوسطي على طريق الحرير فيما يعرف اليوم باسم كازاخستان، ويطلق عليها أيضاً مدينة الأشباح.

باو - تو (Pao - t'ou): مدينة منغولية تقع على الضفة الشرقية للنهر الأصفر وتبعد مسافة 100 ميل غرب هوهيهوت عاصمة منغوليا الوسطى

ريجستان (Registan): قلب مدينة سمرقند القديمة في أوزباكستان، وكانت تتم فيها عمليات الإعدام بشكل علني.

بحيرة سيرام (Sairam Lake): أكبر بحيرة في جبال الألب وتقع في ولاية بورتالا.

سيفاستوبول (Sevastopol): مدينة ساحلية تقع على ساحل البحر الأسود في شبه جزيرة القرم.

شاهرستان (Shahristan): مدينة تقع في أفغانستان.

شاندونغ (Shandong): مدينة تقع على الساحل الشرقي لجمهورية الصين الشعبية وتمثل مركزاً ثقافياً ودينياً هاماً للطاوية والبوذية والكونفوشيوسية.

شانشي (Shanxi): مقاطعة في الجزء الشمالي من جمهورية الصين الشعبية.

رابية الطحال (Spleen Hillock): حسب قاموس المصطلحات الجغرافية الوطنية فإن هناك أكثر من 200 موقع في منغوليا تسمى باسم أعضاء جسم الإنسان أو الحيوان، وأن معظم هذه الأسماء تطلق على الجبال، وأن الأسماء تُطلق على الجبال على نحو مماثل لوقوع هذه الأعضاء في الجسم. على سبيل المثال أعضاء مثل الوجه والجبهة والصدر تُطلق على الجهة الجنوبية للجبال، وأعضاء مثل الكلى تُطلق على الجهة الغربية أو الشرقية للجبال.

سوداك (Sudak): بلدة صغيرة تقع إلي الشمال من مدينة سيمفيربول عاصمة شبه جزيرة القرم.

تاكالا مكان (Takla Makan): واحدة من أكبر الصحارى الرملية في العالم، تبلغ مساحتها 270000كم^2، تقع في منطقة شينجيانغ ذاتية الحكم.

تبليسي (Tbilisi): عاصمة جورجيا وتقع على ضفاف نهر كورا.

جبال تيان شان (Tien Shan): سلسلة جبلية تقع إلى الشمال والغرب من صحراء تاكلاماكان في المنطقة الحدودية من كازاخستان ومنطقة شينجيانغ غرب الصين.

ترانسكسانيا (Transoxania): أو بلاد ما وراء النهر، وهو اسم قديم أطلق على أجزاء من آسيا الوسطى وتضم ما يعرف اليوم بأوزباكستان وطيجيكستان وجنوب غرب كازاخستان.

نهر سبرنغر (Tsenhker).

تركستان (Turkestan): منطقة في آسيا الوسطى، يحدها من الشمال سيبيريا، ومن الجنوب باكستان وأفغانستان وإيران، ومن الشرق صحراء غوبي، ومن الغرب بحر قزوين.

اولان باتور (Ulaanbaatar): عاصمة منغوليا الحديثة، تأسست عام 1639 وتقع في الجزء الأوسط من شمال منغوليا على ارتفاع 1310 م وتطل على نهر تولا.

أورغينش (Urgench): عاصمة خوارزم.

اورومتشي (Urumqi): عاصمة منطقة شينجيانغ ذاتية الحكم اليوغورية من جمهورية الصين الشعبية.

أوزباكستان (Uzbekistan): كانت جزءاً من الإتحاد السوفيتي السابق. يحدها من الشمال الغربي كازاخستان، ومن الشرق طاجاكستان، ومن الجنوب أفغانستان.

فينيتو (Venetian): مدينة كانت جزءاً من جمهورية البندقية وأصبحت جزءاً من ايطاليا.

وو وي (Wu - wei): مدينة في مقاطعة قانسو

شانغ دو (اكساندو) (Xanadu): العصمة الصيفية لقوبلاي خان، تقع على بعد 275 كم شمال بكين، وتبلغ مساحتها 2200م.

شي شيا (Xi Xia): إحدى ممالك الصين القديمة (1038 - 1227) كانت تحتل المنطقة الواقعة على طول طريق التجارة بين آسيا الوسطى وأوروبا.

شينجيانغ (Xinjiang): منطقة حكم ذاتي في جمهورية الصين الشعبية وتعد أكبر التقسيمات الإدارية الصينية وتمتد على مساحة 1.6 مليون كم، وتعني حرفياً الحدود الجديدة، وهي موطن لعدد من المجموعات العرقية المختلفة. غزاها جنكيز خان عام 1218.

شومي شان (Xumi Shan): بلدة صغيرة تبعد 50 كم عن مدينة قيويوان ويوجد بها العديد من تماثيل بوذا.

النهر الأصفر (Yellow River): ثاني أطول نهر في الصين وسادس أطول نهر في العالم، ويقدر طوله بحوالي 5.464 كم ويقع بين جبال «بايان هار» في تشينغهاي، ويسمى مهد الحضارة الصينية.

ينتشوان (Yinchuan): عاصمة إقليم نينغشيا وتتمتع بالحكم الذاتي في جمهورية الصين الشعبية، ويعني الاسم حرفياً «نهر الفضة».

المحتويات

جنكيز خان

الحياة والموت والانبعاث

يعد كتاب (جنكيز خان_ الحياة والموت والانبعاث) لمؤلفه جون مان واحداً من أهم الكتب التي أرخت للقائد العظيم جنكيز خان، وقد نجح المؤلف في رسم صورة مفصلة لحياة هذا القائد العسكري والسياسي، فقد غاص في أعماق شخصيته وحاول تسليط الضوء عليها؛ لإبراز ما يميز هذا الرجل بوصفه قائداً، وقد ارتبط اسمه دوماً بالموت والدمار وقد استطاع النهوض بأمته من القبيلة إلى الإمبراطورية، فأصبح مؤسساً لإمبراطورية هي الأكثر اتساعاً من حيث المساحة في العالم، فقد صاغت غزواته روابط جديدة بين الشرق والغرب؛ إذ بنى هو وورثته أو أعادوا بناء أسس الصين وروسيا... ففي عام 1227م كان قد سيطر فعلاً على معظم آسيا الوسطى.

كما عرج الكاتب على العبقرية العسكرية والذكاء السياسي والولاء والشجاعة في حياة هذا القائد (فاتح العالم)، ويتجلى ذلك من خلال الأثر والإرث الكبير الذي تركه لأبناء أمته بعد وفاته، لدرجة أنه لم يزل حياً في الذاكرة الشعبية فقد بقي اسمه في قلب وطنه يتردد عالياً؛ حيث تناست تلك الذاكرة وحشيته أو تم تجاهلها في ذروة التملق فأصبح المغول يقدسونه بأعداد متزايدة كونه رمزاً لهم.

السعر: 80 درهماً





